دار الثقافة

رجال الكتاب المقدس

الجزء الرابع

القس الياس مقار

رجال الكتاب المقدس

الجزء الرابع

القس الياس مقار

دار الثقافة

طبعة ثانية

صدر عن دار الثقافة - ص. ب. ١٢٩٨ - القاهرة

.١/ ٤٣٧ ك٤ ط٢ / ٣ - ٨/ ٨٦ - ٩١
رقم الايداع بدار الكتب : ٨٣٧٦ / ١٩٩١
دولي: ٧ - ٦٣. - ٢١٣ - ٩٧٧
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة ت: ٩.٤٣٤٣

في هذا الكتاب

هذا الكتاب

هو الجزء الرابع والأخير من الدراسة الشاملة لرجال الكتاب المقدس .

قدم لنا المؤلف رجال العهد القديم فى الجزئين الأول والثانى وبعض رجال العهد الجديد فى الجزء الثالث . وفى هذا الجزء يقدم دراسة لأربعين شخصية أخرى من العهد الجديد .

وستجد فى هذا الكتاب دراسة تحليلية لشخصيات غير مشهورة كتب عنها القليل فى العهد الجديد، لكن المؤلف يقدمها لك فى صورة زاهية، فكل عامل فى ملكوت السموات له بهاؤه ومجده .

نرجو أن يكون هذا الكتاب دافعاً لكثيرين على دراسة الكتاب المقدس والتمثل بسيرة رجال الله القديسين .

دار الثقافة

١٢١
يوسف الرامى

« ثم ان يوسف الذى من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع » (و ١٩ : ٣٨) .

كانت إحدى الراهبات الممرضات تعمل فى شارع مشهور من شوارع برلين ، عندما تقدم منها فجأة أحد الجنود الروس ماداً يده للمصافحة وقد علت وجهه سيماء الفرح وقال لها الكلمتين التاليتين فقط : « يسوع المسيح ».. فنظرت إليه لحظة ، ثم رددت الكلمات عينها وأضافت : « إنى أحبه من كل قلبى » . . فنظر إليها الجندى نظرة ملؤها الفرح وقال بصوت حنون عميق : « عندى أبى وأمى وامرأتى وأولادى والجميع يحبون يسوع المسيح » . . . ورأت الممرضة فى الجندى المجهول الماثل أمامها أخاً محبوباً فقالت : « ليتبارك الله إلى الأبد ، ليباركك الرب ، وليبارك ويحفظ عائلتك العزيزة » . . . دم أميناً له ! ! . . إن قصة يوسف الرامى تفتح باباً واسعاً عظيماً للابن

الناس الموجودين على الأرض ، وهم تلاميذ المسيح المختفون ، إلى أن يظهروا بهذه الصورة أو تلك ، كما ظهر الرجل ، على غير المتوقع فى وقت الصلب ، ومن الغريب أن الرجل لم يكن عاطلا من المواهب والامتيازات ، بل لعله كان يملك مواهب أكثر وأعظم ، وامتيازات أروع وأجمل ، . . ومع ذلك ، فهذه الامتيازات نفسها ، كانت المعوق والمعطل للتلمذة الكاملة الصحيحة ، حتى حرره الصليب من كل الحواجز التى وقفت أمامه ، . . . ولست أعلم شيئاً يمكن أن يهز الوجدان البشرى كهزة الصليب نفسه ، . . . وها نحن اليوم نتابع قصة الرجل فيما يلى :

يوسف الرامى الرجل المهذب (الجنتلمان) :

من الغريب أن الكتاب المقدس يعطينا صورة ليوسف الرامى ربما لم تعط للكثيرين فى العهد الجديد ، فيصفه متى بالقول : « رجل غنى ». . أو هو من طراز « اليهودى الممتاز » وقال عنه مرقس : « مشير شريف » أو هو مثال « الرومانى العظيم » . . ونعته لوقا بالوصف : « مشيراً ورجلا صالحاً بارا » وترجمت فى بعض التراجم : « رجلا طيباً عادلا » . . أو هو مثال « اليونانى المهذب الخلق » . . أى أنه الرجل الذى جمع فى نفسه أفضل خصائص الشعوب : ثروة اليهودى ، وعظمة الرومانى ، ونبل اليونانى . . . فإذا أردنا أن نصفه فى كلمة عصرية واحدة فهو « الجنتلمان » بكل ما فى الكلمة من معنى . . كان الرجل الذى لا تعوزه الثروة إذ كان غنياً ، ونستطيع أن نتعرف على غناه ، من ذات القبر الذى نحته فى الصخر فى بستان ، فإذا كانت مقبرته بستاناً عظيماً ، تحف به الأشجار والزهور ، فكم يكون قصره أو بيته ، . . ومن المعتقد أنه كان يملك فى أورشليم قصراً ، كالكثيرين الذين يملكون فى العاصمة بيتاً ، إلى جانب بيوتهم فى الأقاليم ، ولهذا أيضاً نحت قبره فى المدينة المقدسة ، . . . ومن الواضح أنه كان يمتلك

الثروة ، أكثر مما كانت الثروة تمتلكه ، فهو ليس بالرجل البخيل المقتّر على نفسه ، بل هو الرجل الذى يستطيع أن يستمتع بثروته على نحو سخى كريم ! ! . . . وهو أكثر من مجرد غنى . فهو الرجل الشريف ، والكلمة تكشف عن الشخص الأرستقراطى المنبت والحياة ، فهو من سادة القوم ، وليس من رعاعهم أو عامتهم . ويبدو من تصرفه وحكمه على الأشياء أنه من أصحاب المبادئ التى لا تتغير بالمجاراة والمحاكاة والتقليد ، لم يلوثه الإسفاف الذى سقط فيه قادة الأمة فى أيامه وعصره بل هو « الشريف » مظهراً وسلوكاً ! ! . . . كان عضواً فى السنهدريم وهو مركز لم يكن يبلغه إلا كبار الشخصيات اليهودية فى ذلك الوقت ، . . أو بعبارة أخرى إنه لم يكن الشريف الذى يعيش فى برجه العاجى ، بل القائد الذى يحس معنى وجوده ورسالته فى الحياة ، صاحب الذهن المتسع والتفكير السليم ، ومن ثم فهو المشير الذى تبدو الحاجة إليه فى أدق المشكلات والأزمات ، . . . ومع ذلك فهو الرجل النبيل المهذب الأخلاق ، . . ويبدو من الرواية الكتابية أن يوسف الرامى كان رجلا دمث الأخلاق ، رقيق المشاعر ، طيب القلب ، . وأكثر من هذا كله كان الرجل المثالى الذى يعيش لما هو أعظم وأسمى من الواقع الحاضر الذى يعيش فيه الناس ، إذ كان واحداً من الحالمين باليوتوبيا أو عالم الكمال ، إذ وصفه لوقا بالقول : « كان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله » . . . (لو ٢٣ : ٥١) وهنا نراه فى أسمى أوضاعه وأرفعها ، إذ أنه ليس شخصاً من أفضل الشخصيات بالمعايير الأدبية أو الاجتماعية التى قد توجد فى الكثيرين ممن يطلق الناس عليهم ألقاب : الشرفاء أو النبلاء أو العظماء فى الأرض ، بل كان أكثر من ذلك كان الرجل الذى له الحاسة الروحية المتطلعة إلى الله ، والتى تمتد إلى ماوراء المنظور ، إذ لا يشبع حياتها هذا المنظور ، حتى ولو أخذت منه بأعظم الحظوظ بين الناس ، . . . على أية

حال كان يوسف الرامى واحداً من أعظم من يطلق عليهم « السادة » فى أيامهم ! ! .

يوسف الرامى التلميذ المختفى :

على أن يوسف الرامى يمثل ظاهرة يلزم أن نتوقف ازاءها ملياً قبل أن نعبر عنها ، وهى ما جاء عنه : « وهو تلميذ يسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود » ... (يو ١٩ : ٣٨) ولعل موطن العجب فى التعبير الكتابى هو الاعتراف بهذه التلمذة المختفية ، التى لم ينكرها عليه الرسول يوحنا ، رغم أنها إلى يوم الصلب كانت مغلفة بالظلام ، . . فهل يعنى هذا اعتراف السماء بالتلمذة الخفية حتى ولو لم تظهر بوضوح للناس ! ! . . قد لا نستطيع الوصول إلى الجواب ، قبل أن نحلل هذه الظاهرة ونحاول سبر أغوارها ، وليس فقط بسبب الخوف كما فى حالة يوسف الرامى ، بل أكثر من ذلك من الأسباب الكثيرة التى تجعل الكثيرين لا يعلنون إيمانهم أو شهادتهم للمسيح بيسر وسهولة ! ! . . . فقد يكون السبب أولا وقبل كل شىء ، فى عدم التسليم للسيد ، إذ أن المؤمن وهو يخرج من دائرة العالم ، وسلطان الظلمة ، لا يمكن أن يفعل ذلك إلا بعد الصراع الذى قد يطول أو يقصر ، . . ولكنه على أية حال يظل يعانى من الذبذبة القاسية التى لا تجعله يستقر على حال ، . . وهو فى هذه الفترة من الصراع يقرر مرات متعددة أنه لابد أن يعلن إيمانه ويتحدث به أمام الناس ، ولكنه يعود ويخشى المبادرة ، ويفزع من إعلان إيمانه للناس ، وهو يهدئ نفسه وضميره ، بأنه مادام مع المسيح ، إذ قد قبله ، فإن الإعلان يمكن تأجيله ، ولا ضير حسب تصوره ، فى ذلك ، . . ومرات كثيرة مايأخذ الصراع صورة الشك فى الاستمرار فى النجاح كمسيحى أمام الناس ، وهذا الشك يدفعه إلى الخوف من المجاهرة بإيمانه وعقيدته ، وهو يفزع إذا سقط فى واحدة من التجارب ، وعرف الناس هذه السقطة ،

فإنهم لا شك سيسخرون من إيمانه المتردى أو الضعيف ، وهو لهذا يفضل أن يبقى إيمانه فى الخفاءدون المواجهة التى تخرجه إلى النور الكامل ، والذى لا يقدر عليه إلا الأبطال والأقوياء ، وهو لم يصبح بعد واحداً منهم ، ولا يستطيع أن يكون كذلك ! ! . . على أن الاختفاء قد يكون بسبب آخر يرجع الأمر فيه إلى طبيعة الحياء المتمكنة من صاحبها ، فإذا كان كثيرون قد خلقوا بطبيعة تمتاز بالشجاعة والتحفز والاندفاع والصراحة والصوت المرتفع ، . . فإن هناك على العكس من ذلك — الكثيرين الذى جبلوا على السكينة والهدوء وإخفاء المشاعر ، والحرص على عدم الإعلان عما فى نفوسهم ! ! . . . ومثل هؤلاء يعتزون بعقيدتهم وحياتهم الدينية ، ولكنهم يفضلونها عميقة غائرة فى مشاعرهم ، خاصة بهم ، دون أن يعلنوا عنها أمام الناس . وربما يوجد بينهم أعداد تعيش كتلاميذ للمسيح ولكن فى الخفاء دون أن يعرف الكثيرون حقيقة عواطفهم وإيمانهم وسلوكهم المسيحى الداخلى ! ! . . . ومع أننا لا نستطيع أن نرد — عن يقين — اختفاء تلمذة يوسف الرامى إلى واحد من هذه الأسباب ، وهل كان فى استعداده الطبيعى مايدفعه إلى هذا السلوك ، إلا أنه من الواضح أن عامل الخوف كان السبب الرئيسى فى احجامه عن الجهر بإيمانه بالسيد ! ! . . .

كان يوسف الرامى تلميذاً مختفياً بسبب الخوف من اليهود ، وما يزال الكثيرون فى كل زمان ومكان يظهرون فى صورة يوسف الرامى التلميذ المختفى ، الذى يود من أعماق قلبه أن يعترف بالسيد ، ولكن الخوف يمنع هذا الاعتراف العلنى ، ويرده إلى الوراء ، وليس بالضرورة أن يكون الخوف على الحياة نفسها . بالقتل والموت ، بل قد يكون مما لا ينتهى من أساليب التعذيب والتشريد والمضايقة والحرمان ، . . . كان يوسف الرامى يخاف من الطرد من السنهدريم — الأمر الذى حدث معه فيما بعد — وكان

يخاف من الإهانة والتحقير والمضايقات المتعددة ، التى يجدها تلميذ المسيح إلى اليوم فى الشرق والغرب على حد سواء ، وتحتاج إلى الشجاعة غير العادية والصبر والاحتمال والجلد والبسالة التى لا يصل إليها الكثيرون ! ! . . . وكم وقف الاسم المسيحى عائقاً فى حياة الملايين من الشباب ، دون الوصول إلى مركز معين أو وظيفة أو ترقية أو سلامة أو حرية ، بل من المثير أن التاريخ يعيد نفسه فما حدث فى القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ، يتكرر اليوم بالتمام فى البلدان الشيوعية التى تحرم دخول الإنجيل إليها ، وتقضى بوحشية على على من ينادى باسم المسيح ، أو يبشر به ، . . وكما بدأت الكنيسة المسيحية فى روما فى مقابر الشهداء ، فى الكهوف والمغاير حيث تعود المسيحيون الأوائل أن يقيموا العبادة فيها ، عادت الكنيسة اليوم إلى ما اصطلح عليه فى البلاد الشيوعية من تسميتها « بكنيسة تحت الأرض » حيث يقيم الملايين شعائر العبادة فى الأماكن السرية ، فى مواجهة الطغيان والظلم والاستبداد والبطش ، وإذا كان لنا أن نعجب إلى أبعد الحدود بالشهداء الأوائل ، وبالأبطال الذين إلى اليوم على استعداد أن يموتوا من أجل المسيح ، فإننا فى الوقت نفسه نعلم بأن يوسف الرامى يظهر بهذه الصورة أو تلك فى الكثيرين الذين هم تلاميذ المسيح ، ولكنهم لا يجرؤون على الظهور أمام المجتمع لهذا السبب أو ذاك من أسباب الخوف التى يتعرضون لها فى الحياة ، . . . حدث فى روما القديمة كما جاء فى واحدة من روائع القصص التى نقلتها إلينا الأجيال ، أنه حكم على أربعين من المسيحيين بالنفى إلى بقعة من أقسى البقاع وأشرها ، وأمهلوا أربعاً وعشرين ساعة ، تعطى فيها الحرية لمن يرجع عن الإيمان المسيحى ، وأوكلت حراستهم لأحد الضباط الرومان ، ولشد ما هز الرجل وأثار دهشته ، أنه سمع فى منتصف الليل جميعهم يصلون ويرنمون ويسبحون ، كأنما هم ذاهبون إلى حفل بهيج فى الصباح ، . . . وعندما عرض عليهم الحرية لمن

يتراجع رفضوا جميعاً إلا شخصاً واحداً أخذه الخوف من التشريد والعذاب ، ووقف الضابط ينظر إلى الرجل ملياً ثم قال : إن هذا العدد أربعون وينبغى أن يبقوا هكذا . وخلع ثيابه العسكرية وانضم إلى القافلة ، ليصبح واحداً من أبطال الشهادة فى الأرض ليسوع المسيح ، ولكن الآخر المتراجع مايزال إلى الآن للأسف ، باقياً فى صورة يوسف الرامى الذى ظل طوال خدمة المسيح الجهارية التلميذ المختفى ! ! . . . ومهما يكن من أمر فإن الآلام التى يتعرض لها المسيحيون فى البلدان الشيوعية لا تكاد تختلف كثيراً عما حدث فى القرون الأولى .

يوسف الرامى وحياة الاختفاء :

تحتاج التلمذة الخفية إلى نوع من الدراسة الهادئة المتعمقة المتعاطفة ، قبل أن نرفع أحجارنا لنرميها بها ، ... إن التلاميذ المختفين ، كثيراً ما يشبهون نوعاً من الزهور التى تنبت فى جنوب أفريقيا ، ويطلقون عليها : « زهور الليل » وزهرة الليل جميلة رائعة يبلغ طول الواحدة منها حوالى سبع بوصات ، ولكنها لا تتفتح إلا فى الليل ، ولا يظهر جمالها إلا فى الظلام ، وإذا أراد المصور أن يصورها فهو لا يستطيع ذلك إلا على ضوء المغنسيوم . . . دخل الأمير بستانه على ماتذكر الأسطورة القديمة ، وابتدأ ينتقل من شجرة إلى شجرة ، فوقف عند شجرة البرتقال وسألها : ماذا تقدمين لسيدك ! ! . . . فأجابت : أجمل زهر عطر ، وعند النضوج أقدم الثمرة الحلوة على مائدة الأمير ! ! . . . فقال : نعما أيتها الشجرة الجميلة ، . . وتحول إلى شجرة الكستناء الهائلة (أبو فروة) . . وقال وأنت ماذا تقدمين ياشجرتى ؟ ! ! . . فأجابت : إنى فى أيام الصيف وشدة الحرارة أبسط أغصانى وأوراقى التى تشبه المراوح وأظلل المكان الذى تأوى إليه الماشية والأغنام . . فقال لها : نعم ما تفعلين ! ! . . . وتحول إلى المروج الخضراء وقال : وأنت ماذا

تقدمين ! ! . . وأجابته المروج : إنى أقدم السندس الأخضر قبل أن تأتى المناجل لتحصدنى طعاماً للخيول . . فقال لها : حسنا تفعلين ! ! . . ثم تحول إلى اقحوانة بيضاء وديعة صغيرة فسألها : وأنت ماذا تقدمين ! ! . . فأجابت : لا شئ لا شئ فأنا لا أستطيع أن أقدم طعاماً على مائدة الأمير أو ظلا للماشية والأغنام أو طعاماً للخيول ! ! . . . إننى زهرة مرج صغيرة لا يحتاجون إلىَّ كثيراً ، وكل ما أستطيع عمله هو أن أبذل جهدى لأكون أفضل اقحوانة . . . والقصة تقول إن الأمير قبل الأقحوانة الوديعة الصغيرة ، ورآها أجمل ما فى بستانه ! ! . . .

فى الحقيقة ، إن التلمذة الخفية مليئة بالمتاعب والصعاب والمشاكل ، وقد تكون أبعد الكل عن النمو الروحى الصحيح ، ومن الطبيعى أن يوسف الرامى — وهو تلميذ مختف — حرم نفسه من اللقاءات المتكررة مع المسيح وتلاميذه وكان عاجزاً عن الحياة فى الشركة المقدسة التى تتيح الانطلاق فى الحياة المسيحية السامية ، . . كما إن حياة السرية والخوف والذبذبة تحجب الصور المختلفة للانتصار تعوق عن بلوغ القمة فى جبل الشركة المسيحية ! ! .. ومن أشد الأخطار والتجارب التى تتعرض لها أنها إذا لم تخرج إلى النور ، فيخشى أنها تموت فى الظلام الذى عاشت فيه ، وتفقد روح الشهادة التى هى قوام الحياة المسيحية الصالحة أمام الله والناس ! ! . . .

إن البعض يطلق على التلمذة الخفية ، التلمذة من الدرجة الثانية ، وهى على أية حال نوع من التلمذة ، ولكن صاحبها لا يستطيع أن يقول للمسيح : « ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك » ! ! . . (مت ١٩ : ٢٧) أو « إلى من نذهب . كلام الحياة الأبدية عندك » ، (يو ٦ : ٦٨) أو يقول : « لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه » ! ! . (يو ١١ : ١٦) أو يهتف « خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية » ! ! .. (فيلبى ٣ : ٨) أو « لى الحياة هى المسيح

والموت هو ربح » ! ! . . . (فيلبي ١ : ٢١) أو ما أشبه عبارات هي لسان حال من وضع يده على المحراث ولم يعد يلتفت إلى الوراء ! ! ...

كان يوسف الرامي غنياً ، وكان المسيح طوال ثلاث سنوات في حاجة إلى مال الرامي ، وإلى جهاده ، وإلى خدمته ، ولو انضم يوسف الرامي إلى القافلة المسيحية من الابتداء ، لربما كان في ذلك تشجيعاً وبركة كبيرة لغيره من التلاميذ . ولكن يوسف الرامي حرم نفسه والآخرين من بركات الحياة العلنية طوال الخدمة الجهارية التي قام بها سيدنا لأكثر من ثلاث سنوات في أرض فلسطين ! ! . .

يوسف الرامي والتلمذة الظاهرة امام الصليب :

قال السيد المسيح : « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع »، . (يو ١٢ : ٣٢) وقد كان الصليب هو المغناطيس العجيب الذي اجتذب يوسف من دائرة الظل والظلام إلى النور الواضح الكامل يوم الصليب ، فإذا جاز لنا أن نقف قبلا حول ظاهرة التلميذ المختفي ، محاولين تحليلها ومعرفة الدوافع الكامنة العميقة خلفها ، . . . فإنه من الأوجب والأعظم أن نقف عند الصليب لنرى القوة الهائلة الكامنة العجيبة فيه والتي تنقل الإنسان من النقيض إلى النقيض ، بصورة سريعة ومباغتة وفجائية ! ! . . .

ولابد من أن نلاحظ أن الصليب هو الأداة المسيحية العليا التي تهز وجدان الإنسان ، أكثر من أي شيء آخر في المسيحية ، فإذا كان يوسف الرامي قد أصبح تلميذاً للمسيح خفية ، بسبب ما رأى أو سمع من تعاليم السيد ومعجزاته ، وإذا كان نيقوديموس قد جاءه ليلا : « وقال له يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلما لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه » . . . (يو ٣ : ٢) إلا أن الصليب هو الذي

نقل كليهما من الظل إلى النور ، ومن الليل إلى وضح النهار ، . . . ومع أن هذا يبدو على عكس ما يتخيل الإنسان أو يتصور ، إذ أن الصليب هو النقطة المرهبة المفزعة التي لا يصل إليها سوى الشجعان والأبطال ! ! ... إلا أن الصليب فى العادة ، يعرى الإنسان تعرية كاملة ، ويوقفه أمام أعظم الحقائق فى الأرض ، . . إذ يوقفه أمام بر المسيح الكامل ! ! . . . دخل أحدهم إلى بيت حاخام يهودى فى مدينة نيويورك وأبصر هناك صورة للمسيح المصلوب ، فتعجب وقال للحاخام : إنى أعجب كيف تضع — وأنت يهودى — مثل هذه الصورة فى بيتك ! ! . . فأجاب الحاخام إجابة عجيبة ، إذ قال : إنه — أى السيد المسيح — هو اليهودى الأعظم ، ولم تقترف أمتنا فى كل تاريخها خطية أعظم من خطية صلبه ! ! . . . ولعلنا لو لاحظنا إشارة لوقا إلى تأثير موت المسيح على الصليب على جميع الحاضرين فى يوم صلبه لأدركنا الأثر الذى يمكن أن يفعله الصليب : « وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم » . . . (لو ٢٣ : ٤٨) ومن المتصور أن يوسف الرامى كان واحداً من الواقفين ، وهو يسمع شهادة قائد المئة الوثنى : « بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً » . . . (لو ٢٣ : ٤٧) وأكثر من ذلك رأى عظمة السيد الفائقة وهو يموت ، وسمع كلماته على الصليب ، وقد وضحت الصورة أمامه ، وهو يرى شر الذين كانوا معه من السنهدريم ، وقادة الأمة ، الذين بلغوا منتهى الانحطاط والكذب والاثم ، وهم يتآمرون على صلب المسيح والقضاء عليه ! ! . .

فى الحقيقة ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن مواقع الحياة العظمى يحسمها فى العادة صليب ربنا ومخلصنا يسوع المسيح ! ! . . . فى أمسية يوم أحد فى عام ١٢٦٦ م كان ريموندلل غارقاً فى تفكيره الآثم ، وهو يحمل عوداً يغنى عليه أغنية فاسدة وهو ينظر إلى فتاة من النافذة فى البيت المجاور

وإذا بصورة المسيح المصلوب تبدو أمامه ، وتروع تفكيره ، فلم يملك معها إلا أن يلقى بالعود ويكف عن الغناء ، . . على أنه بعد أسبوع عاود الشيء نفسه ، وإذا بذات الصورة تتراءى أمام مخيلته ، فأطاح بالعود ، وتحول إلى الحياة المسيحية المتعمقة . وتحول عن أغانى العالم الآثمة ليغنى :

وكيف أنسى حمــــلا قد مات عن ذنبى
واحتمــل التعيير والآ لام بالصــلــب
أذكر حبـــــك الذى أظهـــرت يا ودود
أذكره ما دمـــت فى الـ حيـــاة والـوجـــود

ثم باع أملاكه ، وذهب إلى أفريقيا ، وعاش حياته هناك ينادى برسالة الصليب لغير المسيحيين ! ! . . .

لم يخرج يوسف الرامى من التلمذة الخفية فى الظلام . أو يصل إلى قوة التكريس الكامل فحسب ، بل أكثر من ذلك كان سر قوة وتشجيع لنيقوديموس ، الذى جاء إلى المسيح ليلا ، وكان يحتاج إلى الدفعة التى تخرجه هو أيضاً إلى النور ، . . سار الاثنان وطلبا جسد يسوع وكفناه بأعز وأغلى الحنوط ، . . ودفنه يوسف فى قبره الجديد فى البستان إتماماً للنبوة : « ومع غنى عند موته » (إش ٥٣ : ٩) .

ومع أننا لم نسمع عن يوسف أو نيقوديموس بعد ذلك التاريخ إلا أنه من الممكن أن نختم الحديث عنه بالصورة التى تخيلها أحد الكتاب له فى ضجعة الموت وهو يقول : « ادفنونى فى القبر ، وحيث وضع سيدى أوضع ، لقد مات من أجلى ، وأموت من أجله ، عند ذلك القبر تعلمت درساً خالداً ، كنت قبلا أعيش للعالم ، فلما ظهر المسيح عشت للعالم وللمسيح ، وهكذا ظللت ثلاث سنوات أفعل المستحيل فى الجمع بين النور والظلام ، هكذا

ظللت ثلاث سنوات ، كنت فى الداخل للمسيح ، وفى الظاهر لليهود ، كان الداخل فىّ يقول أفسح لى يا يوسف لأظهر ، لكن السنهدريم والثروة وشهادات العالم والخوف من اليهود جعلتنى جميعها لا أستمع لهذا الصوت ، .. وأخيراً جاء صوته القائل : « إنهم يقتلوننى يا يوسف » ، وهنا تمزق كل شىء ومات يوسف الجبان وإذا كان قد حرمونى من السنهدريم ، فإن ذلك لم يفزعنى ، بل إنى سعيد ، وفى الاضطهاد أنا سعيد ، . . إذ لم أعرف الحياة فى الواقع ، ولم تبدأ لى فى جلالها قبل أن أسكب مع نيقوديموس الطيب على جسده ! ! . . » شكراً لله على الصليب الذى حول الرجل من التلميذ المختفى إلى الآخر . الذى ظهر فى ملء الوضوح والعلانية أمام الله والناس ! ! . . . .

١٢٢
متياس

« ثم القوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الأحد عشر رسولا » (أع ١ : ٢٦) .

لا يستطيع المرؤ أن يقرأ قصة متياس دون أن تنهض أمامه الأفكار والمشاعر التى تحتاج إلى الكثير من التأمل والتعمق ، . . . بل أغلب الظن أنه مهما غاصت أفكارنا ومشاعرنا ، فلن نصل إلى سر الأغوار البعيدة فى الذهن البشرى ، والتى لا يمكن بلوغها مهما بذلنا الجهد فى التخيل أو التصور ! ! . ؟ . . لقد جاء متياس مثلا ليحل محل يهوذا الاسخريوطى ، واللغز العجيب ، ليس فى اختيار متياس ليحل محل يهوذا ، بل فى اختيار يهوذا نفسه ليكون التلميذ الثانى عشر بين التلاميذ ، وهو الرجل الذى ارتكب الجريمة العظمى فى التاريخ بخيانة سيده وتسليمه ! ! . . . فهل كان لابد من أن يكون الخائن واحداً من التلاميذ الإثنى عشر ! ! ؟ . . فإذا مضى الخائن

وترك مكانه شاغراً ، . . فهل كان من الضرورى أن يملأ مكانه آخر ، ليكون عدد التلاميذ اثنى عشر ! ! ؟ . . فإذا كان لابد من أن يكون عددهم هكذا ، ليخدموا أو يدينوا أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، . . فهل كانت القرعة هى أفضل طريقة للاختيار أم أنها كانت الصورة الأخيرة للاختيار فى العهد القديم قبل بدء العهد الجديد ، وانسكاب الروح القدس ، ! ! . . فإذا كان الأمر هكذا فهل متياس هو الرسول الثانى عشر أم أن الأيام كانت تسرع برسول آخر وبأسلوب آخر ليكون الرجل الذى يملأ المكان الشاغر ، وكان هذا هو الرسول بولس على ما يتجه إليه فكر البعض ! ! . . أم أن الاثنى عشر كانوا لليهود أصلا ، وبولس يقف شامخاً منفرداً فى مكان آخر ، للأمم ، كما شاء له الله فى رسالته العظيمة ! ! . . هذه وغيرها من الأسئلة يلزمنا أن نتناولها ونحن نتعرض لشخصية متياس الذى حسب مع الأحد عشر رسولا. ولعلنا نستطيع أن نراه فيما يلى :

متياس والمكان الشاغر :

إن السؤال الذى يمكن طرحه هو : هل كان من الضرورى أن يشغل متياس مكان يهوذا الاسخريوطى ؟ على أننا عند الحديث عن يهوذا لابد أن نتعرض إلى السؤال الأعمق وهو : هل كان من الضرورى أن يوجد يهوذا بين الاثنى عشر ، خاصة والمسيح يعلم من البداءة قصة الخائن التى لم تكن خافية على الإطلاق عن عينيه ؟ عندما طرح هذا السؤال على جوزيف باركر كان جوابه : « إن ما يحيرنى أكثر ليس اختيار يهوذا بل اختيارى أنا »! . أو فى عبارة أخرى : إن الإنسان أمام الاختيار الإلهى يبدو كصبى صغير أمام المحيط العميق الواسع من الأسرار الإلهية ، ولكن مهما تختلف الآراء حول موضوع الاختيار ، فما لاشك فيه أن عمل الله المنظم يخلق فى كل زمان وعصر ، المكان الشاغر ولابد لإنسان ما أن يعمل هذا العمل ، . .

وعمل الله ليس هو العمل الذى يترك للاعتباط والفوضى والصدف العارضة ، بل هو العمل الدقيق فى المجال والزمان والمكان ، . . ولا بد أن ندرك ذلك فإذا نظرنا إلى الطبيعة حولنا ، والنواميس المنظمة الدقيقة التى تسيرها ، وإذا رأينا الأرض كلها وهى أشبه بالبستان الذى يزرعه بستانى عظيم مفكر ، وإذا تتبعنا التاريخ ، وكيف تخلق الظروف والأزمات الرجال الذين يواجهونها ، وكيف لا يحدث فراغ ، إلا ويوجد بكيفية ما : ما يملؤه أو من يملؤه ، ... لقد كان هناك اثنا عشر سبطا ، فى إسرائيل ، وفى العهد الجديد كان هناك اثنا عشر تلميذا بعدد هؤلاء الأسباط ، وليس الأمر مجرد أمر شكلى يواجه فيه كل تلميذ سبطاً معيناً ، فإن أغلب هذه الأسباط كان قد انتهى بعد السبى ولم يعد ظاهراً إلا سبط يهوذا ، وتحول الآخرون إلى الشتات ، ولكن مع ذلك اختار المسيح الاثنى عشر تلميذاً لتأكيد النظام الإلهى فى الاختيار ، وأنه يخضع لقواعد إلهية محسوبة عند الله ومنظمة ، فإذا اختل هذا النظام أو تعثر بالنسبة لوجود الخطية فى الأرض ، . . فإن الأصل عند الله هو النظام ، . . بل إن ما يبدو عكس ذلك على خط مستقيم ، ليس إلا قصوراً فى التصور البشرى أو بعداً عن الرؤية الصحيحة الكلية للنظام الإلهى ، . . كان فرعون فى التصور البشرى نشازاً فى موسيقى الله ، وتحطيماً للقصد الإلهى ، . . ولكن الله يقول له : « ولكن لأجل هذا أقمتك لكى أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى كل الأرض » (خر ٩ : ١٦) . . . وكان يهوذا فى مكانه بين التلاميذ ولا يمكن أن يخطر بالبال أن يكون أداة الشيطان فى تسليم سيده ، ولكن انتصار الله واضح فى قول بطرس للاسرائيليين : « هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه » (أع ٢ : ٢٣) . . . إن الله على أية حال يحكم ويتحكم فى السلب والإيجاب ، فى الشر والخير ، فهو يأمر بالخير ، ويسمح بالشر ، والكون

كله خاضع لأمره وسماحه لارادته واجازته ، فإذا قصد أخوة يوسف بأخيهم شراً ، فإن الله يطوق هذا الشر ويمسك به ، ويصنع منه الخير العظيم : « أنتم قصدتم لى شراً . أما الله فقصد به خيراً لكى يفعل كما اليوم . ليحيى شعباً كثيراً » (تك ٥٠ : ٢٠) . . . وفى الحقيقة هذا هو اللغز أو الأحجية التى يطرحها على كل العصور ، أو كما قال شمشون فى أحجيته المعروفة : « من الآكل خرج أكل ومن الجافى خرجت حلاوة » (قض ١٤ : ١٤) والله لا يمكن على أية حال أن يفشل أو يعجز عن الوصول إلى قصده مهما اختلفت النوايا أو الأداة ، وهو لابد بالغ قصده بالعظمة والجلال ، يستوى فى ذلك أن تكون الأداة الخادمة تحت سيطرة الخير أو تحت سيطرة الشر ، .. فإذا كان المسيح قد اختار اثنى عشر تلميذاً ، فقد اختارهم لاتمام مشورة الله المحتومة وترتيبه وعلمه السابق ، بصرف النظر عن أن أحد عشر منهم جندوا للخير ، والثانى عشر كان أداة طيعة فى يد الشيطان ، يصنع القصد الإلهى ، وهو لايدرى .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الله يتمم مشيئته إلى النهاية ، ومن هذه المشيئة أن تقع العقوبة العادلة على صانع الشر ، حتى ولو كان يتمم ، وهو لا يعلم ، قصد الله ، جزاء وفاقاً للدوافع الخسيسة الشريرة التى كمنت فى أعماقه عندما قام بعمله ، . . ومن ثم كان لابد أن يدرك يهوذا — أو أى شرير على الأرض أن الجريمة لا تفيد ، ولن يربح منها صاحبها شيئاً على الإطلاق ، ولا يستطيع أحد الأخذ بما ذهب إليه توما الكمبيسى أو بعض المفسرين الذين حاولوا أن يصوروا دوافع خيرة عند يهوذا ، بالزعم بأنه لجأ إلى ما فعل بدافع الغيرة الخاطئة ، لكى يجبر المسيح على إظهار قوته ، . . . إن الحقيقة هى أن يهوذا الاسخريوطى لم تكن عنده دوافع خيرة ، بعد أن ملأ الشيطان قلبه ، وكان لابد أن يترك مكانه شاغراً وأن يتحمل أقسى صور العقاب ، فيده التى

استلمت الفضة القليلة ، بدا كما لو أنها اكتوت بالنار وهى تحملها ، فقذفت بها فى الهيكل . ويبدو أن اليهود أيضاً أصيبوا بالذعر فرفضوا أن يردوها إلى إلى الخزانة ، واشتروا بها مقبرة الغرباء ، ولم يشتر أحد الحبل ليهوذا بل اشتراه هو لنفسه أو صنعه ليختنق به نفسه ، ولا حاجة إلى وصف الرعب الذى استولى عليه ، فهو لا ينتحر فحسب ، بل يبدو أن انتحاره كان مصحوباً بالهلع الذى جعله يسقط بثقله على وجهه ، فتنسكب أحشاؤه وتتمزق بطنه ، على نحو عرف عند جميع اليهود فى أورشليم ! ! . . . على أية حال إن الشر قد يبقى فى مكان الخير فترة من الزمن ، لكنه لابد أن يخلى المكان ليعود الخير إليه بعد أن تصحح الأوضاع ، . . ومع أننا لا نعلم إن كان السيد المسيح قد أوصى خلال الأربعين يوماً بضرورة أن يحل أحدهم محل يهوذا ، إلا أن بطرس ، وهو بصدد تفسير الكتاب ، رأى أن المكان الشاغر لابد أن يملأ ! ! . . . ومن المعتقد أن بطرس كانت عيناه على المزمورين التاسع والستين ، والمائة والتاسع ، ولا شبهة فى أن داود فى المزمورين كان يطبقهما على الكثيرين ممن عاملوه معاملة شريرة آثمة ظالمة ، . . لكن النبوة كما يقولون أشبه بالحجر الذى يلقى فى الماء ، فيصنع دوائر متعددة حوله ، فهى تتكرر جزئياً فى فترات متباعدة فى التاريخ ، لتتم على صورة كاملة فى النهاية ، كما تمت هنا فى يهوذا الاسخريوطى ، بعد أن تمت بصور جزئية فيمن آذوا داود واضطهدوه ، ونالوا العقاب الإلهى العادل من الله ! ! . . . .

كان لابد أن يملأ المكان الشاغر بحكم الأمر الإلهى فى النبوة القديمة ، وحيث أن المسيح اختار اثنى عشر تلميذاً وأدخلهم مدرسة التدريب ثلاث سنوات تتلمذوا فيها على يديه ، وعاشروه ، ولمسوا روحه وأسلوبه وحياته ، وهاهم يوشكون أن يبدأوا رسالتهم ، فليس من المعقول ، أن واحداً منهم كان تزيداً على العمل ، أو كان خيبة أمل لا يمكن أن تصلح ، ومن ثم كان

من الطبيعى — إذا شغر المكان — أن يملأ بتلميذ له ذات المواصفات ، التى لسائر التلاميذ الآخرين ممن دعاهم المسيح ، ومن ثم كان من المعقول أن يدخل واحد من الدائرة التالية ليملأ الفراغ الشاغر ، . . وقد جاء عن يوسابيوس وأبيفانيوس أن متياس كان واحداً من السبعين الذين مثلوا المجموعة الثانية من التلاميذ ، والتى كان من السائغ أن يملأ واحد منها المكان الشاغر .

كان على من يملأ المكان الشاغر أن يكون له ظاهره المعروف لدى الناس، وباطنه الخفى المعروف لله وحده ، أما الظاهر فكان يجب أن يحقق هذا المبدأ : أن يكون تلميذاً قد عاش مع الرب يسوع من معمودية يوحنا حتى قيامته وصعوده ، أما الجانب الخفى فيترك لله العارف القلوب والمطلع على الأعماق . وقد وجد فى المجموعة اثنان يمكن أن يطرح أمرهما أمام الله لاختيار أحدهما وهوما تم بالفعل،... وليس المجال الآن مجال الموازنة بين قلبى متياس ويوسف المدعو بارسابا الملقب يوستس ، بقدر ما هو للموازنة بين متياس ويهوذا الاسخريوطى، .. ومع أن قلب يهوذا لم يكن كاملا أمام الله ، إلا أن متياس لم يستعجل مكانه حتى يأتى الوقت المعين من السيد . تماماً كما فعل داود المختار من الله ، فانتظر إلى الوقت المعين ليحل محل شاول الملك ، . . وهنا نقف خاشعين أمام أحكام الله العالية والعظيمة والبعيدة المدى . وإن كنا فى الوقت عينه نقف موقف الإعجاب من قلب داود المتوكل على الله ، والذى لم يحسد أو يتذمر أو يشتك ، تماماً كما يقول ألكسندرهوايت عن متياس فهو ينتظر دعوة الله فى صبر وهدوء وتسليم ودعة ! ! . . .

والنتيجة التى لابد من الأخذ بها فى مختلف الأحوال هى أن المكان الشاغر لابد أن يملأ امتداداً للخير أو حجزاً أو تغطية للشر الذى احتل المكان بعض الوقت ، أو لملء الفراغ الذى قد يحدث الضرر إذا ما ترك دون ملء ! ! ...

متياس والرسالة العظيمة :

لعل أعجب صورة أو وصف يمكن أن نصف به الرسالة التى وضعت على الاثنى عشر ، والتى كان يلزم أن يتسلمها متياس هى ما قاله الرسول بطرس : « شاهدا معنا بقيامته » ... (أع ١ : ٢٣) وهذا هو مضمون الرسالة المسيحية وخلاصتها ، . . . وهى ذات كلمات السيد : « وتكونون لى شهوداً » ... (أع ١ :٨) والشاهد هو الذى يبصر الأمر بعينيه ، وفى القضاء هو الذى يروى ما رآه ، وتقوم القضية اثباتاً أو نفياً ، على ما وقع تحت أبصاره ، وجرى أمام عينيه ، .. وهذا هو لب المسيحية وحقيقتها بالنسبة لتلاميذها على الإطلاق ، .. إذ المطلوب من كل واحد أن يتحدث عما رأى أو شاهد أو عاين أو اختبر فى يسوع المسيح ، وهذه الحقيقة تضع كل تلميذ فى علاقة مباشرة بالسيد ، . . ومع أن هناك صوراً أخرى يمكن أن نرى فيها قوة المسيحية ومجدها ، فهناك مسيحية التاريخ ، والتى يقف فيها التاريخ شاهداً طوال العصور والأجيال عما فعل أو يفعل يسوع المسيح ، وتاريخ الكنيسة ثرى جداً بما يمكن أن يعطى من عظات وتعاليم وحقائق عن يسوع المسيح ، لكن المسيحية مع ذلك لا يمكن أن تكون مجرد تاريخ يمكن أن يتحدث عن روائع الماضى ، ثم ينتهى إلى ثنايا المجهول ، كما نعرف عن الكثير من الشخصيات العظيمة التى لعبت أخطر الأدوار ، ثم طواها الزمن فهى قصة تروى أو حدث يذكرونه هنا أو هناك ، للتسلية أو التذكير أو التنبيه .. إن المسيحية أضخم تاريخ ، ومع ذلك فالمسيح يسوع بالنسبة لأى تلميذ من تلاميذه ليس حقيقة ماضية ، بل هو تاريخ مستمر حاضر ، يلزم أن يرتبط به مباشرة كل واحد من أتباعه ومريديه ، . . . وهناك أيضاً مسيحية العقيدة ، والتى تمخضت عنها قوانين الإيمان المشهورة فى التاريخ ، وقام على أثرها جبابرة الفكر اللاهوتى وأبطاله ، لكن المسيحية مع ذلك أكثر

من عقيدة وأعظم . إذ هى شهادة حية للمسيح الحى المقام ، . . . لم يطلب من التلاميذ أن يكونوا لاهوتيين حتى يستطيعوا أن يقنعوا العالم بحقيقة المسيح وشخصيته وطبيعته . بل كل ما طلب منهم أن يكونوا شهوداً بما رأوه أو عاينوه فيه : « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة » (١ يو ١ : ١) . . . لقد خرجوا إلى العالم ليتحدثوا بقوة الشهادة دون نقص أو زيادة أو شبهة أو تردد ! ! . . . لقد هزوا العالم وأسقطوا قلاع الشر ، وغيروا الدول بالحقيقة المجردة التى رووها بكل بساطة وعمق وصدق عن ذاك الذى يغير كل شىء ، دون أن يتغير ! ! وهذه فى الحقيقة هى قوة الشهادة الفعالة والمؤثرة فى حياة الناس ، . . قد يستطيع أحد العلماء أن يكتب كتاباً أو يلقى محاضرة عن الخصائص العلمية العظيمة لشهد العسل ، وقد يذهل الناس للحقائق العلمية العجيبة التى يمكن أن تروبها هذه الخصائص ، . . لكن ملعقة من العسل يتذوقها الإنسان أحلى عنده وأكثر قيمة وأصدق قولا من كل ما استمع إليه من الأحاديث والنظريات العلمية ، . . . ويتأيد هذا من أن لب الشهادة أو مجدها بتعبير أدق كان عن « قيامته » . . . ومع أن قصة المسيح مفعمة بالتعاليم والمعجزات والعجائب التى أجراها ، والتى مايزال العالم إلى اليوم ينهل من أفكارها وآثارها ، . . . لكن غير المسيح من الأنبياء والرسل ، علموا وصنعوا معجزات ، إلا أن المسيح ينفرد عنهم بقيامته وحياته فى كل أجيال التاريخ فى وسط أتباعه والمرتبطين به ، . . إن العلاقة بين المسيحى والمسيح هى العلاقة بالمسيح الحى المقام ، ولأجل ذلك يقول بولس لتلميذه تيموثاوس : « أذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلى » (٢ تى ٢ : ٨) . . . إن الرسالة المسيحية هى دائماً التبشير بعلاقة بين المؤمن والمسيح الحى ، . . وما على حامل الرسالة إلا أن يربط بين من يؤمن بها وبين سيده

المسيح ، وينسل هو من المكان ، ليترك الأمر بجملته للعلاقة المباشرة والاختبار الصحيح بين المسيحى وسيده المسيح ! ! . . وكل مسيحى حقيقى سيحمل نفس الجواب الذى أجاب به أهل سوخار على السامرية عندما قالوا للمرأة : « إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن ، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم » (يو ٤ : ٤٢) . . . سمع بولس عن المسيح فحاربه ، . . ورأى بولس المسيح بعد ذلك ، فعاش طوال حياته يحارب من أجله ! ! . . . إن أولئك الذين رأوا المسيح وعاشوا معه واختبروه ، عاشوا وماتوا شهوداً له ولقوته العجيبة ولا يمكن أن يتراجعوا مهما بذلوا أو قدموا أو أعطوا فى سبيلها ! ! . . . أيها الخادم الذى تريد أن تخدم سيدك وتبذل من أجله ، لا تخط خطوة واحدة للأمام قبل أن تجلس إليه ، وتعيش معه ، وتخرج إلى الآخرين مزوداً بالشركة التى تربطك به ! ! . . . لعل الكثيرين سمعوا عن بيوت برناردو لرعاية الأولاد والبنات الضالين فى لندن! عندما كان برناردو شاباً يعمل فى أحد نوادى مرسليات لندن ، كان عليه أن يغلق باب النادى ذات ليلة ، ولكنه أبصر ولداً صغيراً فى أسمال بالية بجانب المدفأة ، كان عارى الرأس حافى القدمين ، وإذ طلب منه أن ينصرف لم يتحرك الولد من مكانه ولم يجب بكلمة ، وإذ كرر برناردو الكلام لينصرف الغلام إلى بيته ، قال له : ليس لى بيت ، ومع أن برناردو شك فى كلام الغلام ، إلا أنه دعاه إلى بيته ، وبعد أن قدم له الطعام سأله عن قصته ، ورواها الغلام ، وقال إنه ليس له أب أو أم أو شخص يهتم به أو مكان ينام فيه ، وسأله برناردو هل هناك كثيرون نظيرك ، وأجاب الولد : كثيرون جداً وأنا مستعد أن أريك بعضاً منهم إذا أتيت معى الآن ، . . وهكذا قام برناردو والغلام فى منتصف الليل ، وبعد أن ساروا فى حوارى ضيقة مظلمة أشار الولد إلى ما يشبه مخزن فحم وقال يوجد كثيرون منهم هنا .

وأشعل برناردو عوداً من الثقاب ، ولكنه لم يجد أحداً وظن أن الولد يضحك منه ، ولكن الولد قال إنك تجدهم على سقف المخزن ، وسار أمامه إلى سقف مصنوع من الصاج . وعلى هذا السقف ، فى تلك الليلة الباردة والنجوم ترسل ضوءها الخافت . أبصر برناردو ثلاثة عشر ولداً نائمين وهم يحتضنون بعضهم بعضا لينالوا شيئاً من الدفء . لم يكن شىء من الفراش تحتهم إلا الصاج البارد ولم يكن شىء من الغطاء فوقهم إلا الجو القارص البرد . . وقال الولد : هل أوقظهم . . وكاد أن يقول له نعم لولا أنه تذكر أن عنده ولداً واحداً لا يعرف أن يضمه ! ! . . على أن برناردو وقف على سطح المخزن وتعهد أمام الله أن يكرس كل حياته لخدمة الأولاد والبنات المشردين الضائعين ! ! . . وضمت بيوت دكتور برناردو فيما بعد آلاف الضائعين ! ! . أيها الصديق هل اختبرت المسيح وخرجت من حضرته لتنادى بالمسيح الحى المقام من بين الأموات ! ! . . .

متياس واختيار القرعة :

إن اختيار متياس اختيار فريد فى نوعه ، وأعتقد أنه لا يجوز أن نجنح إلى هذا الاتجاه أو ذاك ونحن نناقش هذا الاختيار ، . . . فمن الناس من لم يؤمنوا على الإطلاق باعتباره التلميذ الثانى عشر ، ورأوا أن التلاميذ استعجلوا هذا الاختيار الذى لم يكن له من ضرورة أو على الأقل بهذه السرعة التى قاموا بها ، . . ويقول كامبل مورجان إن مكان التلميذ الثانى عشر كان محفوظاً لشخص آخر اختارته نعمة الله ، وبأسلوب آخر خلاف هذا الأسلوب ويقصد به الرسول بولس ، . . . ولعل الذى شجعهم على هذا هو الأثر الهائل العظيم الذى تركه بولس ، فى الوقت الذى لم نسمع فيه بعد ذلك شيئاً عن متياس أو خدمته أو رسالته ! ! . . على أن كثيرين لا يقبلون هذا التفسير أو الشرح ويقولون إن اختيار بولس يقع منفرداً ولا يمكن ربطه

بالاثنى عشر ، . . لقد اختير بولس للأمم ، بينما كان الاثنا عشر للختان واعتبار بولس امتداداً لرسالة الاثنى عشر لا يمكن أن يكون صحيحاً أو سليما بأية حال من الأحوال ، . . . وربما تشجع آخرون فاعتبروا متياس رسولا وسط الاثنى عشر من الطريقة التى أخذ بها ، ونعنى بها اختياره بالقرعة ، والقرعة كانت تستخدم فى العهد القديم سنوياً فى اختيار تيس ذبيحة الخطية وتيس عزازيل : « ويلقى هرون على التيسين قرعتين قرعة للرب وقرعة لعزازيل » (لا ١٦ : ٨) . . . كما أنها كانت لقسمة أرض الموعد : « فأمر موسى بنى اسرائيل قائلا هذه هى الأرض التى تقتسمونها بالقرعة » (عد ٣٤ : ١٣) . . فهل كان هذا فى ذهن الرسل وهم يضمون إليهم الثانى عشر الذى حل محل يهوذا باعتبار أن كل تلميذ يمثل سبطاً من الأسباط . . . قد يكون ! ! ولكن من الواضح أن الرسل لم يلجأوا إلى هذه الطريقة بعد ذلك ، فى اختيار خدام الله من أساقفة أو شيوخ فيما بعد . ولم يلجأوا إليها عندما أفرز برنابا وشاول للعمل الذى دعيا إليه ، وواضح أنه بعد يوم الخمسين لم تعد القرعة تفصل فى موضوع اختيار الخدام لخدمة الله ، . . . بل لم يعد يظهر لها قط الدور الذى كانت تلعبه فى العهد القديم أو كما قال كاتب الرسالة إلى العبرانيين : « الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه » (عب ١ : ١) . . إن النص الكتابى فى قصة متياس يشجعنا على اليقين بأنه عد واحداً من الرسل الاثنى عشر ، وإن كان من اللازم أن نتبع الرسل — بعد يوم الخمسين — فى عدم الالتجاء إلى القرعة للفصل فى أمر الخدمة والخدام ، . . . فإذا قيل إن متياس لا يعرف أحد عن خدمته شيئاً بعد ذلك ، فليس هذا دليلا على أنه لم يكن واحداً من الرسل الناجحين ، وذلك لأن نصف الرسل على على الأقل لم نسمع عن خدمتهم شيئاً ، وإن كان من الثابت أنهم نجحوا فى

هذه الخدمة نجاحاً عظيما . . . بل إن هناك أعداداً كبيرة جداً من الذين تتلمذوا على أيدى الرسل ، ومع أنهم قدموا أعظم الخدمات لله ، وأسسوا الكنيسة المسيحية بكفاحهم وعرقهم وجهدهم ودمائهم ، إلا أن أسماءهم مجهولة لنا ، ولكنها معروفة تماماً أمام الله ، . . .

فإذا كان هذا هو الثابت فإن لكل مؤمن أن يعلم أنه فى مسيرة الحياة ، سيأتى إليه نداء الله يوماً من الأيام ، وليس بالضرورة بصورة مادية كما حدث مع متياس ، بل بما هو أهم ، بدعوة سماوية لا يأتيها الشك أو الغموض أو الضباب من أى جانب من الجوانب ، والواجب أن لا يتردد صاحبها ، وهو ينضم إلى أعظم قافلة فى الأرض ، قافلة « رسل المسيح » الذين يخدمونه ، ليحسب فى الكتاب الأبدى واحداً ممن ملأوا المكان الشاغر ، الذى خلا بهذه الصورة أو تلك ، كما يشاء الله أو يسمح فى مجال الخدمة المسيحية ! ! ..

١٢٣
حنانيا المختلس

« ورجل اسمه حنانيا وامرأته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن » (اع ٥ : ١ ، ٢) .

قيل إن أولفر كرومويل عندما أراد أن يطرد أعضاء البرلمان من دار الندوة ، قال لجنوده مشيراً إلى الأعضاء : « أخرجوا هذه اللعب والمساخر من هنا » . . . ومن الغريب أن الزهرة التي يطلق عليها الإنجليز « زهرة مايو » البيضاء الناصعة البياض في الريف الإنجليزي ، يقل بياضها كلما اقترب المرء من مدينة لندن ، إلى درجة أنها هناك تكاد تصبح سوداء لكثرة ما يعلق بها من الدخان والأتربة القذرة .

كان أول تراب يسقط على الكنيسة الناصعة الجمال ، هو دخول رجل وامرأة إلى عضويتها يحملان قذارة العالم وفساد الشيطان ، . . وكان على الكنيسة وهي تواجه الاضطهاد والعنف والعدو الخارجي ، أن تدرك الضربة المميتة التي يريد الشيطان أن يسددها إليها من الداخل ، . . . ومن الغريب أن الكنيسة نجحت لمدة ثلاثة قرون وهي

تواجه أعتى وأعنف اضطهاد خارجي ممثلا فى الامبراطورية الرومانية التى جندت كل قواها للقضاء عليها ، دون أن تنال منها شيئاً . ولكن الكنيسة ترنحت وسقطت عندما عمل السوس فيها من الداخل ، ينخر فى عظامها بالمفسدين الذين دخلوا فى عضويتها أو أخذوا مركز القيادة فيها ! ! . . . وكان لابد لبطرس الرسول والذين معه أن يتصدوا لهذا الخطر الداخلى ، كما تصدوا للخارجي سواء بسواء ! ! . . . ومن هنا تبرز أهمية قصة حنانيا وزوجته سفيرة فى الخطوات الأولى لكنيسة الرب يسوع المسيح على الأرض ! وها نحن نرى القصة لذلك فيما يلى :

حنانيا عضو الكنيسة :

إن الصورة التى يظهر فيها حنانيا أمامنا يبدو واحداً من ذلك المجموع الهائل الذى انضم إلى الكنيسة بعد يوم الخمسين ، ويبدو أنه كان من أولئك الذين استهوتهم الكنيسة بعظمتها وجلالها وسموها ومعجزاتها ، . . وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وقد تحقق فيها قول النشيد : « من هى المشرقة مثل الصباح جميلة كالقمر طاهرة كالشمس مرهبة كجيش بألوية » (نش ٦ : ١٠) . . وفى كل عصور التاريخ عندما ينظر الإنسان نظرة صافية إلى الكنيسة لابد أن يجدها شيئاً عظيماً فريداً ، لا نظير له أو شبيه فى كل مؤسسات الأرض . . . عندما زار ألكس دى توكفيل الفرنسى أمريكا منذ أكثر من قرن من الزمان ، عاد يقول : « لقد بحثت عن عظمة أمريكا وعبقريتها فى موانيها وأنهارها ولكنى لم أجد أمريكا هناك ، وفى حقولها الخصبة ومنتجاتها العظيمة ، ولكنها لم تكن هناك ، وفى مناجمها الغنية وصناعاتها الجبارة ، ولكنها لم تكن هناك ، إلى أن ذهبت إلى كنائس أمريكا واستمعت إلى منابرها ، وهى تنادى بالبر والحق ، وهناك أدركت سر

عبقريتها وقوتها ، وستبقى أمريكا عظيمة طالما هي طيبة وخيرة ، وإذا لم تكن كذلك فستنفذ عظمتها » . . . أجل ! ! وهذا حق ، لا شك فى أن العالم قد اكتشفه من اللحظات الأولى فى تاريخ الكنيسة ، ويكفى أن أرستيدس عندما كتب للامبراطور هادريان يصف حياة المسيحيين الأوائل سجل هذه الروائع عنهم : « إنهم يعزون من يحزنونهم ، ويصنعون الخير لأعدائهم ، وعندما يصبح العبيد فيهم مسيحيين يدعونهم دون تفريق اخوة ، وحياتهم تتميز بالتواضع والرقة ، والبطل لا يمكن أن يعرف سبيله إليهم ، وهم يحبون بعضهم بعضا ، . . إنهم ينقذون اليتيم من يد من يقسو عليه ، ويعطى من عنده من ليس عنده دون ضجر أو تذمر ، وإذا وجد بينهم فقير أو محتاج ، وليس لديهم ما يعطون فإنهم يصومون يومين أو ثلاثة أيام ليمنحوه الطعام اللازم لحياته . . . إنهم يعيشون بأمانة وعفة ، كما أمرهم بذلك الرب إلههم ، وفى كل صباح بل وفى كل ساعة يحمدون الله ، ويرنمون له من أجل حسناته لهم ، وعند الطعام أو الشراب يشكرون . . وإذا ما انتقل عزيز لديهم من هذا العالم ، فإنهم يفرحون ويشكرون الله ، ويسيرون وراء جثمانه كما لو كان منتقلا من مكان إلى مكان ، وإذا ولد طفل لأحدهم يحمدون الله من أجله ، ولو تصادف ومات فى صغره فإنهم يشكرون الله أيضاً كثيراً ، لأن الطفل قد اجتاز العالم دون أن يرتكب إثماً أو خطية . . وكأناس يعرفون إلههم لا يسألون إلا الأشياء التى يليق به أن يعطيها ، والتى يليق بهم أن يتسلموها ، وهكذا يسلكون سبيلهم فى الحياة . وكل ما فيهم من فضل ينسبونه إلى الله ، ولذا فالجمال الذى فيهم يشع وينبثق من حياتهم دون تكلف ، وهم حقاً من الذين اكتشفوا الحق فى الأرض ، وسعوا إليه ، والأفعال الصالحة التى يفعلونها لا يعلنون عنها أو يبوقون أمامها فى آذان الناس ، بل يفعلونها فى صمت ، ويؤدونها فى خفاء ، تماماً كما لو وجد أحدهم كنزاً

وسعى ليخفيه . . . وهم يجاهدون فى سبيل البر كمن يتوقعون أن يروا مسيحهم لينالوا ما وعدهم به مع مجد عظيم » . . .

وقد بدأت الكنيسة فى أورشليم بهذا كله ، وكانت الاشتراكية العظيمة التى ظهرت بها شيئاً يبهر الأنفاس ، ولذا سارع الكثيرون ، ومن بينهم حنانيا وسفيرة ليأخذوا مكانهم فى مدينة الكمال التى أخذت تثبت أساساتها ودعاماتها فى الأرض ! ! . . .

حنانيا وعمق خطيته :

تعتبر خطية حنانيا من النماذج الجديرة بالتحليل والبحث ، وذلك لما تبدو عليه من نواح متعددة ! ! . . . فهى الخطية البشعة التى جاءت وليدة العمل الشيطانى الكامل : « لماذا ملأ الشيطان قلبك » (أ ع ٥ : ٣) . . وقد يتساءل الكثيرون مندهشين : وأين البشاعة فى رجل باع ما يملك ، واحتفظ لنفسه بجزء من ثمن البيع ، وقدم الباقى مشاركاً فى العمل الخيرى كما فعل آخرون أيضاً ! ! ؟ . . ولعل حنانيا وزن الأمر بهذه الصورة ولم ير فى عمله عيباً أو ضرراً ، . . . قد يتصور الإنسان أن البشاعة هى أن يرتكب ما يطلق عليه الكبائر فى لغة الناس من سرقة أو فسق أو فجور أو قتل أو ما أشبه . ولكن الحقيقة أن البشاعة تقاس فى العادة ، فى قوانين السماء أو الأرض ، على قدر ما يرتكب ضد النور أو المعرفة التى وصل الإنسان إليها ، . . . وفى سائر القوانين الوضعية هناك تفرقة فى الجريمة ، وهناك حد أعلى وآخر أدنى لمرتكبيها ، فالقتل وهو ازهاق الروح لا يؤخذ كل من يقترفه بعقوبة واحدة ، إذ هناك قتل السهو ، وقتل الإهمال ، وقتل الخطأ ، وقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ، والقاتل لا يعامل فى جميعها معاملة واحدة ، . . والصبى الذى يقتل ، لا يمكن أن يعامل معاملة الكبير السن ، . . وهذا الأخير لا يعامل إذا كان مجهولا ، معاملة المحامى أو القاضى الذى يرتكب

الجريمة، وهو على علم تام بأثارها ونتائجها والعقوبة التى لابد ستواجهه رداً عليها وجزاء لها ! ! . . . وهذه كلها من البديهيات المسلم بها ، والتى نشأت أصلا عن المفهوم الدينى منذ القدم ، فقبل الناموس ، كان هناك ناموس الضمير ، الذى قد يشتكى أو يحتج على فعل الخطية ، ولكنه مهما كان النور الذى وصل إليه ، فهو لا يمكن أن يبلغ نور الناموس الإلهى الذى أعلنه الله فى الشريعة التى أعطيت لموسى ، . . ومن ثم فالوثنى لا يمكن أن يعاقبه الله ، بذات العقوبة التى يعاقب بها اليهودى ، . . . ولأجل هذا قال المسيح لبيلاطس البنطى : « لذلك الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم » (يو ١٩ : ١١) ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول إن بشاعة خطية حنانيا هى أنه ارتكبها وهو عضو فى الكنيسة ، وقد اشترك ولا شك مع المشتركين فى الترنيم لله والصلوات والابتهالات ، واستمع نهاراً وليلا إلى تعاليم الرسل ، وما تركه المسيح لهم من مبادئ وقيماً ونوراً وأخلاقاً ، وإذا كان دانتى قد وضع يهوذا الاسخريوطى فى الدرك الأعمق الذى يجاور الشيطان نفسه ، فإن السر يرجع إلى أنه ارتكب جريمته ضد النور الكامل الذى وصل إليه ، طوال علاقته بالسيد المسيح لمدة أكثر من ثلاث سنوات ، . . . ومما لا شبهة فيه أن بشاعة الخطية قد تزايدت لما فيها من عنصر الإصرار والعمد ، فهى ليست هجوماً شيطانياً مباغتاً ، سقط فيه الرجل أو امرأته تحت عنصر المباغتة ، كما حدث مع بطرس فى خطيته الكبيرة ، . . لكن الخطية عند الرجل حدثت بعد التأمل والتبصر والروية والتفكير ، . . لقد اختمرت المؤامرة فى الظلام ، وفكر الرجل مع امرأته ، وانتهيا إلى قرار موحد مظلم آثم ! ! . . . وأى كارثة أشد من أن يتفق الزوجان على خطية واحدة ، وأن تتحول الخطية من أن تكون مجرد خطية تلم بفرد واحد فى بيت إلى خطية بيت بأكمله ، يقبل الخطية ويعيشها وينتهجها وترتع فى جنباته ، . . . فإذا عدنا إلى الخطية

نفسها ، نجد أنها أفرخت ، وأصبحت سلسلة من الخطايا . وميكروب الخطية يتكاثر ببشاعة وشناعة . . لقد ظهرت خطيته أول ما تكون فى الرياء والنفاق ، فاكتست بأجمل مظهر مع ما تحمله فى الحقيقة من دافع خفى شرير ، . . . ولست أظن أن هناك شيئاً يكرهه الله قدر الخطية تتمسح بثوب الدين . ألم يقل قديماً على لسان إشعياء : « لست أطيق الإثم والاعتكاف » (إش ١ : ١٣) . . . وشتان بين عطاء برنابا وعطاء حنانيا ، لقد قدم برنابا كل شىء ، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل ، ولم يكن يقصد إعلاناً أو تفاخراً على الإطلاق ، . . . لكن حنانيا كان على العكس ، فهو يود أن كل شخص فى مدينة أورشليم يعرف السخى الكريم الذى قدم ماله لأجل الآخرين ، وبذل عن سخاء مابعده سخاء ، شأنه شأن الكثيرين الذين يبوقون بالبوق اعلاناً لسخائهم ، أو يطلبون من الآخرين أن يبوقوا لهم فى المجتمع والصحف والمجلات وكافة وسائل الإعلام ، لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، . . . أرسل أحدهم خمسة وثلاثين دولاراً إلى الكنيسة فى مشروع وطلب أن يعلن عن تبرعه ليكون قدوة للجميع ، . . وفى الوقت عينه اشترى آخر الأرغن للكنيسة بمبلغ ثلاثة آلاف دولار ، وإلى جواره بطاقة صغيرة عليها : « من أسير احسانات الله وفضله الكريم » دون أن يكشف عن اسمه ، المعروف لله وحده ، . : . ولا شبهة فى أن عاطفة التفاخر كانت مصحوبة ، كما يذكر الكسندر هوايت بعاطفة الحسد التى جعلت حنانيا لا يعرف النوم وهو يرى برنابا يقدم عطيته السخية لمجد الله ! ! . . . وهو لا يطيق بتاتاً أن ينال برنابا مركزاً أو إكراماً أكثر منه ، . . . والحسد كما نعلم هو فخ من أقدم الفخاخ التى يستخدمها الشيطان فى شتى المجالات ، وعلى وجه الخصوص المجال الدينى ، وقد أمسك بقايين ، عندما سقط وجهه ، لأن الله رفض تقدمته ، وقبل ذبيحة أخيه ، وكأن الأرض لا يمكن أن تتسع

لها معاً ، بوجهه الساقط ، ووجه أخيه المرتفع ؛ . . وكان العامل الوحيد هو الحسد : « ليس كما كان قاين من الشرير وذبح أخاه . ولماذا ذبحه ؟ لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة (١ يو ٣ : ١٢) . . . والحسد كالسوس الذى ينخر فى العظام أو على حد قول الحكيم سليمان : « ونخر العظام الحسد » (أم ١٤ : ٣٠) ، « ومن يقف قدام الحسد » (أم ٢٧ : ٤) وقد أدرك بيلاطس عمق شر اليهود فى صلب المسيح : « لأنه علم أنهم أسلموه حسداً » (مت ٢٧ : ١٨) . . . وعلى هذا الأساس فإن حنانيا لا يمكن أن يكون أقل من برنابا فى نظر الكنيسة وأضأل وأصغر ، وإذا كان الثمن حقلا يباع أو مالا يبذل ، فلا مانع من سلوك هذا المظهر مهما يكلف من ثمن ، والخفاء يستطيع أن يغطى ما يراد تغطيته ، فإذا أضفنا إلى ذلك خطية الطمع ، والطمع فى العادة هو محاولة الحصول على أغلى الأشياء بأقل ثمن ، . فلا مانع عند حنانيا وسفيرة من الاشتراكية التى تعيش على حساب الكنيسة كلها ، مع الاحتفاظ بالرأسمالية أو الشطر الأوفر منها فى الخفاء وليكن الرجل اشتراكياً فى الظاهر ورأسمالياً فى الخفاء ، ولماذا يتعب ويكد ويجتهد وهو ضامن أن الكنيسة ستطعمه وتكسوه على وجه اشتراكى مثالى ، وفى الوقت عينه له ميزة الرأسمالى المختفى ، . . . وهو لا يمكن أن يتمم هذا إلا بلون من من ألوان الغش ، ولكنه لا يرى فى ذلك غشاً ، بل هو لون من ألوان الذكاء الذى يقتضيه الموقف ؛ . . فليمسك بأوراقه كما يلعب المقامر ، والذى لا يبالى بالغش إذا استطاع بالمهارة وخفة اليد أن يخدع اللاعب الذى يجلس فى مواجهته ، وسيهنىء نفسه بالبراعة الفائقة ، إذا لم يستطع هذا الآخر أن يكتشف غشه ، . . . ومن ذا الذى يستطيع أن يكشف حنانيا وقد باع ملكه لشخص لا صلة له بالكنيسة البتة ، ولا يمكن أن يتحدث عن حقيقة الثمن الذى دفعه فى سبيل هذا الملك ، والأمر كله لا يمكن أن يكون معلوماً

لإنسان قط ، ماخلا الزوجة التى عرفت وأقرت ببراعة زوجها وقدرته ومهارته الفائقة فى الترتيب والتنظيم و « التكتيك » . . . والمرأة سعيدة بزوجها الذى يملك هذه القدرة على التخطيط العظيم الهائل ، والأمر سر بينهما لا يصل إليه ثالث . . . . فإذا أضفنا إلى هذا كله أن من يستسيغ الغش لا مانع عنده من الكذب ، وما هو الكذب عند حنانيا ؛ إذا كان لتغطية المهارة والبراعة فى التخطيط . وهل من حق بطرس أن يسأله ، عما يعتقد أنه ملكه ، وأنه حر فى أن يعطى الكل أو يعطى الجزء . . . وهو لن يسبب ضرراً لأحد ، إذا لم يقل الواقع . وقد تفتق ذهن الناس لذلك عن نوع من الكذب أطلقوا عليه اسم « الكذب الأبيض أو كذب الضرورة » أو ما أشبه من ألفاظ أو أوصاف زعموا أن الحقيقة لن تضار بها ، وقد نسوا أن الكذب هو الخطية الموجهة ضد الله الذى هو الحق نفسه ؛ وقد كانت خطية حنانيا أولا وقبل كل شىء خطية ضد روح الله : « لتكذب على الروح القدس » (أع ٥ : ٣) وهنا نبلغ لب الحقيقة التى جعلت بطرس يصف الواقعة بشىء واحد لا غير ؛ ألا وهو « الاختلاس » ؛ . . لقد نسى حنانيا من أول الأمر أنه وما ملكت يداه ملك لله جملة وتفصيلا ، وأنه وهو يهودى كان يعلم ما قاله داود النبى وهو يقدم لبيت الله : « ولكن من أنا ومن هو شعبى حتى نستطيع أن ننتدب هكذا لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك » (١ أخ ٢٩ : ١٤) . . . وعندما باع الرجل ملكه تحول مركزه إلى مركز النذير ، فهو إذا أخذ مما نذر ، فهو مختلس لا أكثر أو أقل ، .. والله يتعامل معه على هذا الأساس ، ويحاسبه على هذا الوضع ، وهو لا يستطيع أن يخدع أحداً إلا نفسه ، فالله لا يمكن أن يخدع ، وبطرس أيضاً ، وقد كشف له الله الحقيقة ، لم يخدع ؛ . . . إنما حنانيا وحده الذى انجذب وانخدع من شهوته وإثمه ، وهو أدنى إلى ذلك الفلاح الذى مرض ابنه مرضاً

خطيراً فنذر إذا عوفى الولد أن يبيع حصانه ويضع ثمنه فى كنيسة الله ، وشاء الله أن يشفى الصغير ، وأراد الفلاح أن يوفى بنذره ، والحصان عزيز فى عينيه ، فماذا عساه يفعل ! ! . . ذهب بالحصان إلى السوق وعرضه للبيع ، وكان الثمن فى ذلك الوقت عشرين جنيهاً ، ولكنه أخذ مع الحصان ديكاً ، . . وذهب ليعرض الحصان والديك معاً ، وعندما سأله المشترى عن ثمن الحصان أجاب : ثمنه ريال فقط ، وأسرع المشترى ليشترى الحصان فقال له الفلاح : إنى أبيع الحصان مع الديك ! ! . . وما ثمن الديك ! ! ؟ أجاب عشرون جنيهاً ! ! . . . وقبل المشترى الصفقة وأخذ الحصان بعشرين قرشاً والديك بعشرين جنيهاً ، وذهب الفلاح ليقدم عشرين قرشاً ثمن الحصان للكنيسة ! ! . . قد نقول هذه أضحوكة ولا شك ، . . ولكنها كانت الأضحوكة المرعبة التى وصل إليها حنانيا وهو يخادع الحقيقة فى مطلع التاريخ الكنسى وفى بدء الكنيسة الأولى فى أورشليم ! ! . .

حنانيا وعقاب الله القاسى :

على أن السؤال الذى يمكن أن يثار بعد هذا كله : هل كان لابد من هذا العقاب السريع القاسى المباغت الذى أخذ حنانيا وزوجته معاً فى ظرف ثلاث ساعات ، . . . ولماذا سمح الله بهذه الشدة فى مطلع الكنيسة الأولى ؟ . . . لقد أراد الله أن يبين بعض الحقائق ، ولعل أهمها ، : مركز المؤمن فى العهد الجديد ورسالته ، وقد وصفها دكتور ثيودور آدمز وهو يتكلم عن علاقة المسيحى بسيده : « إنه يدعونى لأعمل معه فى ملكوته ولا يجعلنى أستريح لأى شىء حولى فى الحياة ، مما لا يتفق مع مبادئه وروحه ، وهو يقودنى إلى شركة مع الآخرين تتخطى حواجز الجنس والعقيدة أو الزمان والمكان فيعطينى فى كنيسته مكاناً للعبادة والتدريب ، والشركة والخدمة ، ومع كل قصورى يؤكد لى أنه يمكننى أن أكون نافعاً

لخدمته وتأدية الرسالة التى دعا أتباعه ليقوموا بها فى العالم ، وهو يساعدنى يوماً بعد يوم لأحيا فى المحبة والثقة والسلام الداخلى ، وهو يؤكد أن لى حياة أبدية وراء القبر ويدعونى لأعيش للأبدية من الآن » . . . وقد كان من واجب حنانيا وقد أصبح عضواً فى الكنيسة أن يذكر هذا المركز العظيم المجيد ويتجاوب معه ! . . . لكنه وقد هبط كثيراً عن ذلك كان لابد له أن ينال القصاص الذى وقع عليه ! ! . . كما أنه نسى أن البذل فى الكنيسة ومن أجلها ينبغى أن يكون بغير حدود ، وبكل سخاء وكرم ، ودون إحجام أو تردد ، . . . وصف أحدهم الكنيسة كما يتخيلها فقال : هذه هى كنيسة أحلامى ! ! . . الكنيسة المقتدرة على تأدية الواجب ! ! الكنيسة الحارة القلب ! ! . . المفتوحة الذهن ! ! . . ذات الروح الجسور ! ! . . الكنيسة التى تهتم ! ! . . والتى تشفى الحياة المريضة ، والتى تعزى الشعب فى الشيبة ، والتى تتحدى الأحداث والشباب ، والتى لا تعرف تفرقة لثقافة أو جنس . . ليس فيها فواصل اجتماعية أو جغرافية . . الكنيسة التى تطلب وتدفع ، تنظر إلى الأمام كما تنظر للخلف ، كنيسة السيد ، وكنيسة الشعب أيضاً — الكنيسة المرتفعة والكنيسة العريضة والكنيسة المنخفضة ! مرتفعة كمبادئ المسيح ، منخفضة كاتضاع البشر ، كنيسة عاملة ، كنيسة جذابة ، كنيسة تفسر الحق بعبارات الحق ، وتوحى الشجاعة لهذه الحياة والأمل للحياة الآتية ، كنيسة شجاعة ، كنيسة الناس الأبرار ، كنيسة الله الحى ، . . . ومثل هذه الكنيسة لا يجوز أن يتوانى المرء عن بذل كل تضحية وخدمة لأداء رسالتها . . .

كما أن الصورة التى ارتكب بها الخطية كانت على الأغلب عاملا مشدداً للعقوبة والجزاء ، لقد تساءل دكتور جويت فى واحدة من عظاته : ترى ماذا يكون الحال لو أن بطرس اختار طريقاً أخرى فى معاقبة حنانيا ،

فأتى به على حدة ، وحدثه عن التجربة التى سقط فيها ، وأن الجميع معرضون للتجربة ، وأنه من الأحرى والأفضل أن يعترف بخطيته ويتوب عنها ، . . وتساءل دكتور جويت عما تؤول إليه النتيجة وهل كان هناك من أمل فى توبة حنانيا وسلوكه بعد ذلك السلوك السليم ! ؟ . . على أنه وجد من أجاب على جويت ، وقال : إن بطرس فى تجربته وخطيته عندما انكر السيد ، كان يختلف عن حنانيا فى عنصر المفاجأة والمباغتة التى واجهته بها التجربة ، . . . لقد أخطأ حنانيا بعد الروئية والتأمل والاصرار ، وكما أقدم آدم وزوجته على الخطية داخل الجنة ، ارتكب حنانيا وسفيرة خطيتهما داخل الكنيسة فى مهدها الأول فى أورشليم ! ! . . .

ويجمل بنا أن لا ننسى — قبل وبعد كل شئ — أن الجزاء هنا كان يقصد به الردع ؛ فكما فعل يشوع ، فى خطية عخان بن كرمى ، وكما فعل أليشع فى خطية جيحزى غلامه . هكذا فعل بطرس فى خطية حنانيا وسفيرة ، إذ أن الثقب فى السفينة سيدمرها مهما كان صغيراً ، والميكروب فى الجسم سيستشرى مهما كان بالغ الدقة ، فإذا لم تقمع الخطية من اللحظة الأولى فإن خميرة صغيرة تخمر العجين كله ، وابتداء القضاء ينبغى أن يكون من بيت‌الله ، فإذا ظهرت الجريمة ، وجاء الجزاء سريعاً ، فإن الخوف سيقع على الجميع ، وستفعل الرهبة فعلها مع النعمة ؛ وإذا بالمخطئ يخاف ، والمجرب يفزع ، والتوبة فى السر والعلن تكون رائد الجميع ! ! . . .

على أن السؤال الذى قد يعن للكثيرين بعد ذلك : ما هو مصير حنانيا وزوجته ! ! ؟ وهل هلكا ! ! ؟ وقد اختلفت الإجابة على ذلك ، فإن هناك من يصر على هلاكهما الأبدى ، باعتبار أن الصورة الأخيره لكليهما هى أنهما خاطئان ماتا فى خطيتهما دون توبة عنها ؛ وأى خاطئ لا يتوب ، الا شبهة فى مصيره على الاطلاق سواء أكان من داخل الكنيسة أو من خارجها.

على أن هناك الرأى الآخر : إن الحكم بالتوبة ليس فى قدرة أحد أن يحكم فيه على الإطلاق . ويذهب أوغسطينوس فى هذه القضية ، ويشاطره كثيرون كجرمى تايلور وغيره من الدارسين للحكمة الإلهية ، إلى أنه كثيراً ما يكون الموت الفجائى للتائب بمثابة : « أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع » (١كو ٥ : ٥) ، « لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب . من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حكم علينا ، ولكن إذ قد حكم علينا نؤدب من الرب لكى لا ندان مع العالم » (١ كو ١١ : ٢٩ — ٣٢) ... وعلى أية حال فإن أمرهما بين يدى الله وحكمه الأبدى ، . . ولكن قصة الرجل وامرأته ستبقى على الدوام القصة التى تعلم الخطاة والمؤمنين هذه الحقيقة الخالدة : « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى . . . لأن إلهنا نار آكلة » ! ! . . . (عب ١٠ : ٣١ ، ١٢ : ٢٩) .

١٢٤
غمالائيل

« فقام فى الجمع رجل فريسى اسمه غمالائيل
معلم للناموس مكرم عند جميع الشعب »
(أع ٥ : ٣٤) .

فى قصة الكوميديا الإلهية ، والتى يصف فيها دانتى الشاعر الإيطالى العظيم زيارته للجحيم والسماء ، نراه يخرج من رحلته الأرضية إلى الجحيم ، وهو يعبر غابة رهيبة موحشة ، وفجأة يرى نفسه مطارداً من وحوش زائرة تريد أن تنقض عليه ، ولا يعرف أين الملاذ ، وإذا به يرى شبحاً يبرز فى الظلام ، فيصرخ إليه : أن أنقذنى أيا من كنت ، واذ يقترب منه الشبح يتبين فيه فرجيل الشاعر الرومانى العظيم ، والذى مات وثنياً ، وكان دانتى من أشد المغرمين بعبقريته وشعره ، وقد حفظ الكثير من أشعاره عن ظهر قلب ، . . . وقد تصور أن فرجيل أرسل إليه يقوده فى الدركات التسع التى تخيلها ، وهو يصور الجحيم برهبته المفزعة ... وهى صورة من أروع ما سطر القلم البشرى فى كل التاريخ ! . . . ومع أن دانتى كان سعيداً برؤية

أستاذه الروماني العظيم ، وحياه بأروع التحيات في الجحيم ، إلا أنه عندما انتهت زيارة دانتي للجحيم ، وهم في طريقه إلى زيارة السماء ، هنا توقف الروماني الوثني ، ولم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة ، وعبر لدانتي عن حزنه العميق لأنه لا يستطيع دخول السماء ، وقد فاته الإيمان المسيحي ، وكفارة الصليب ، . . . يخيل إليّ أن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يقوله غمالائيل لبولس . ولا شبهة في أن بولس كان تلميذاً لغمالائيل ومعجباً به ، كاعجاب دانتي بفرجيل الشاعر ، . . وبولس الذي بكى على أمته لأنها لم تقبل المسيح ، لعله بكى على معلمه غمالائيل ، الذي كان واحداً من أعظم اليهود في عصره ، وكان قريباً من ملكوت الله ، لكنه مع ذلك لم يتحرك الخطوة الأخيرة والأهم للدخول فيه ، وضاع القائد الديني والزعيم العظيم ولم يشفع فيه أنه رد السنهدريم ذات مرة عن العنف تجاه القضية المسيحية ! ! . . . إن شخصيته جديرة بأن تكون واحدة من الشخصيات التي نقف أمامها بالتحليل واستخلاص الدروس العظيمة التي يمكن أن ترويها ، ولعلنا بعد ذلك يمكن أن نراه فيما يلي :

غمالائيل وامتيازاته :

لم يكن غمالائيل شخصاً عادياً في جيله وعصره ، بل كان واحداً من أعظم الشخصيات التي تركت طابعها العميق في حياة الأمة والآخرين ! ! . . . ولعل امتيازاته المتعددة كان من أظهرها :

البيت العظيم :

ولد غمالائيل في بيت من أعظم البيوت اليهودية ، إذ كان جده هليل من أعظم المعلمين وأصحاب المدارس الدينية الفكرية في إسرائيل ، والبيت لايمكن إلا أن يترك طابعه العميق في حياة الإنسان ، وعلماء الاجتماع يدرسون بعمق

أثر البيت فى حياة الصغير ، وقد أراد أحد أساتذة الاجتماع فى جامعة من جامعات الغرب أن يتعرف على مدى هذا التأثير فتنكر ، وعاش بين أبناء الشوارع الذين هجروا بيوتهم ، عندما ضاقوا بها ، وضاقت بهم ، وقد راعه أن هؤلاء الأولاد لا يحبون قط الحديث عن بيوتهم ، وعلى العكس من ذلك قال كامبل مورجان الواعظ العظيم ، « أذكر وهى ذكرى لا تزال ماثلة فى ذهنى ، أنى عندما تزوجت زارنى أبى وقد كان « بيوريتانيا » صميما وكنت أرى فيه نشوفة ، وكنت أظنه قاسياً ، ولكنى اليوم أشكر الله لأنه كان كذلك . جاءنى إلى البيت حالا بعد زواجى ، وأريناه كل غرفة ، وعندئذاك قال بطريقته الجافة : نعم هذا بيت جميل ولكن الذى يراه لا يعلم إذا كان يخص الله أم يخص الشيطان. فعدت وألقيت نظرة أخرى على غرف البيت واكتشفت أنه أصاب ، فرتبنا ألا تخلو غرفة من رسالة تتحدث أننا لله » ...

الثقافة الواسعة :

كان غمالائيل من أعظم المعلمين الذين عرفهم التاريخ اليهودى ، هو أحد سبعة يطلق عليهم « الربيين » (أى المعلمين) ، كان فى وقت ما رئيساً للسنهدريم ، درس الكتاب المقدس ، والتقليد اليهودى ، ووقف عند كل نقطة منهما ، ولم يترك شاردة أو واردة إلا وتأمل فيها ، كان حجة البحث الدينى والمعرفة اللاهوتية ، . . . إن لليهود تواريخ عجيبة تشهد بمدى اهتمامهم بالكتب ، . . قيل إن أحد الربيين فى مدينة الفيوم قديماً مر باسكافى يخيط نعلا ، وأراد أن يتضاحك مع هذا الاسكافى ، فقال له : إن كنت حقاً قد أتقنت مهنتك ، فهل تعرف كم غرزة غرزتها فى النعل ، . . . فأجابه الاسكافى : وأنت إن كنت حقاً قد عرفت مهنتك وأتقنتها ، فهل لك أن تعرفنى كم كلمة توجد فى الكتاب المقدس ! ! . . . وتوقف الحاخام قليلا ، وأحس أنه لا يعرف الكتاب كما ينبغى ، وعاد إلى بيته ليقضى هناك ثلاث

سنوات ، يعد الكتاب وحروفه ونقطه ، ثم خرج ليقول للاسكافى بعد ذلك أنه عرف كتابه ! ! . . .

الحرية الفكرية :

كان غمالائيل يتبع مدرسة هليل التى تؤمن بالحرية الفكرية ، وكان فى أيامه مذهبان فكريان ، مذهب شمعى الأضيق والذى يتمسك بالحرفية ، ومذهب هليل الذى كان يعتنق الحرية الفكرية ، ويتسم بالمرونة ، ويناقش الفكر ، ويتعلق باللباب ، . . وكان غمالائيل من أبطال هذا المذهب ، ومن القلائل الذين شجعوا تلامذتهم على دراسة الأداب اليونانية ، وقد أعفى الجنود فى الحرب ، أو الأشخاص المشغولين من مراعاة الطقوس اليهودية الثقيلة ، كان مذهب شمعى يحرم على اليهود أن يحيوا الوثنيين فى الأعياد بالقول سلام لكم ، ولكن مذهب هليل رفض أن يتمسك بهذه الشكليات ... كان البيورتان من أبطال المسيحية ، ومن أكثر الناس اخلاصا لها ، لكن تزمتهم كان شديداً ، إلى درجة أن يوحنا بنيان طرد من الكنيسة امرأة كانت تلبس ثوباً من الحرير ، . . لكن ملتون مع ذلك كان بطلا من أبطال الحرية فى عصر البيورتان ، كما كان غمالائيل عند اليهود ! ! . . .

المهابة الشخصية :

كان غمالائيل « مكرماً عند جميع الشعب » أو فى عبارة أخرى كان الرجل من القادة المعدودين فى عصرهم ، وهو المهيب المكرم المحترم عند الجميع ، يلتمسونه للمشورة ، ويأخذون رأيه فى الأزمات والصعاب والمآزق ، وهو المحنك ذو الدراية كلما تشعبت الطرق ، واختلطت السبل ، وعجز القوم عن معرفة ماذا يفعلون أو ماذا يقررون ، هو الناصح والمفتى والمرشد والمعلم برجاحة الفكر ، وعمق التدبر ! ! . . .

معلم بولس :

على أن أعظم امتياز للرجل أنه كان معلماً للرسول بولس ، وقد تتلمذ بولس على يديه ما يقرب من ثماني سنوات ، ولا حاجة إلى القول إن الرجل ترك أثره العظيم فى رسول الأمم إلى الدرجة التى قال معها الرسول فى شيخوخته وهو يقترب من النهاية : « ولكن ربيت فى هذه المدينة مؤدباً عند رجلى غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى ، وكنت غيوراً لله كما أنتم جميعكم اليوم » (أع ٢٢ : ٣) . . .

غمالائيل الضائع فى الطريق :

من الغريب أن الرجل رغم كل هذه الامتيازات التى أشرنا إليها آنفاً ، ضل طريقه ، . . . ولا نستطيع أن نصدق ما ذهبت إليه بعض التقاليد بأنه كان يتبع المسيحية سراً ، وأنه يوم دافع عن التلاميذ ، كان يدافع عنهم من هذا الموقع . . . إن الفكر المسيحى يكشف عن العكس ، وعلى قدر ما أعطى لبولس تلميذ غمالائيل من تقدير واعجاب ، فإنه ودع الآخر بعميق الألم والتحفظ . فيبدو أنه عاش ومات دون أن ينعم بفداء المسيح مخلص العالم ! ! . . .

الذهن الفلسفى :

واجه غمالائيل المسيحية بذهن فلسفى ، ومع أن المسيحية أعطت للعالم أسمى فلسفة وأعظمها ، إلا أن الفلاسفة أنفسهم ، قد وقفوا تجاه العوائص والأسرار التى تملأ الحياة أعجز من أن يصلوا فيها إلى الحقيقة ، وهكذا وقف غمالائيل تجاه المسيحية موقف اللا أدريين : « لأنه إن كان هذا الرأى أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض . وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه . لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً » ... (أع ٥ : ٣٨و٣٩) والفلسفة فى العادة

ـ قديماً وحديثاً ـ تدخل بالإنسان فى آلاف المتاهات والنظريات التى لا تنتهى بصاحبها إلى مرفأ يقوده إلى الاطمئنان والأمان ، . . . وفى أيام المسيح كان هناك الرواقيون والأبيقوريون ، وفلسفة هؤلاء عكس فلسفة أولئك ، . .

ونحن نضع مثلا أبيكتيتوس الفيلسوف الرواقى والذى كان معاصراً لغمالائيل ، وقد قامت فلسفته على أساس أخذ الحياة بالصرامة وقوة الإرادة ، بحيث لا يقهره أحد على غير ما يريد . والحرية عنده هى حرية النفس التى تعرف كيف تحكم نفسها وفقاً لقانون تسنه لنفسها : الإنسان عبد لأشياء كثيرة ، فهو عبد لجسمه ، عبد للمال ، عبد للجاه والسلطان ، فإذا التمس الحرية الصحيحة فليبحث عنها ، لا فى الأشياء الخارجية ، لا فى جسمه ، ولا فى ماله ، ولا فى جاهه ، لأن فى ذلك كله على ما يقول الفيلسوف رقاً أخلاقياً ، وبلاء عظيماً ، بل ليبحث عنها فى نفسه ، فى نطقه ، وفى قدرته على أن يحكم على الأشياء ، وأن يقولها ، وأن يريدها ، . . ولقد سأل ذات مرة واحداً من تلاميذه : أهنالك شىء هو ملك لك ! ! ؟ . . قال التلميذ : لا أدرى . . قال الفيلسوف : أيستطيع أحد أن يكرهك على تصديق ماليس بصدق ! ! ؟ قال : لا . . قال : أيستطيع أن يكرهك على أن تريد مالا تريد ! ! ؟ ... قال : يستطيع ذلك إذا هددنى بالموت أو بالحبس ! ! ؟ . . قال : فإذا لم تبال أنت بالموت أو الحبس ، أيستطيع إكراهك بمثل ذلك الوعيد ! ! ؟ . . قال : لا . . قال : أفلا تستطيع أن تحتقر الموت ! ! ؟ قال : نعم ! ! قال الفيلسوف : فأنت إذاً حر ! ! . . وفى مواجهة هذه الفلسفة ، عاشت فلسفة أخرى مناقضة هى فلسفة الأبيقوريين التى تقوم على الإشباع الحسى : لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت ، . . ومن الغريب أن هذه الفلسفة القديمة ـ التى تريد أن تعطى الإنسان ما يطلق عليه الاستمتاع بوجوده ، دون نظر إلى الله أو إلى فضيلة ـ أخذت سمتها فى العصر الحاضر فى فلسفة سارتر الإلحادية وقد كتب كتابه : « الوجودية فلسفة إنسانية » . . .

وقد جاء فيه : « إننا حين نقول إن الإنسان يختار لنفسه ، لا نعنى بذلك أن كل واحد منا يجب أن يختار لنفسه ، ولكننا نعنى بهذا أنه يختار لنفسه وهو إذ يختار لنفسه يختار للناس جميعاً . . أن يختار المرء أن يكون هذا أو ذاك معناه أن يؤكد فى الوقت نفسه قيمة ما يختاره وكأننا نقول لكل الناس : اختاروا مثلما اخترنا لأننا لا نستطيع أبداً أن نختار الشر لأنفسنا . إن ما نختاره هو دائماً الخير . ولا شيء يمكن أن يكون حسناً عندنا دون أن يكون كذلك للجميع »

ومع أن السهام وجهت إلى هذه الفلسفة من أكثر من جانب ، لكنها إحدى المتاهات المتعددة التى طالما التقطت الكثيرين الذين بدأوا بالحرية العقلانية ، والسماجة الفكرية ، فانتهوا إلى التضارب الرهيب بين المذاهب الفكرية المختلفة . ويكفى أن يلقى الإنسان نظرة على أفكار ديكارت أو كانت أو فخته أو شوبنهور أو برجسون أو وليم جيمس ، ليرى المتاهات الرهيبة التى انتهى إليها هؤلاء جميعاً على غير اتفاق أو تلاق أو ارتباط ؟ ! . . .

البرود العاطفى :

على أن العيب الآخر القاتل فى الرجل كان البرود العاطفى ، فانت تجده أشبه بمن يجلس فى برج عاجى يرقب الأمور بعاطفة ثلجية ، لا تستطيع أن تصفها بالسلبية أو بالإيجابية ، ويبدو أنه كان من أولئك الباردين الذين لا تهتز عواطفهم كثيراً لما يجرى حولهم من أحداث . كان الفرق بينه وبين بولس ، أنه هو بارد الطبع ، وبولس نارى المشاعر والأحاسيس ،... والبارد الطباع هو ذلك الإنسان الذى لا يتحرك بالسرعة المطلوبة ، وقد يكون واسع الفكر ، بارع الحجة ، لكنه لا يمكن أن يصل إلى النتائج الكبرى ، لجمود عواطفه ، وخمود مشاعره ، . . ومن الملحوظ دائماً أن القادة الذين غيروا مجرى التاريخ كانوا أبعد الكل عن أن يكونوا باردين فى احساسهم أو ضعافاً فى مشاعرهم ، أو غير ملتهبين فى غيرتهم ! ! . . ويكفى أن نلاحظ على سبيل المثال الفرق

بين مارتن لوثر ومعاصريه من جبابرة الفكر وعظماء الفلاسفة أمثال توماس مور وإرازمس . . كتب توماس مور اليوتوبيا أو عالم الكمال ، وعاش يحلم بالحق والصلاح للجنس البشرى ، . . وكتب إرازمس الكتب الكثيرة التى ندّدت بأخلاق الكهنة وجهل العقيدة والفساد المستشرى فى الكنيسة . . . ولكنه لم يتحرك أكثر من ذلك، ولم ينفعل انفعال لوثر الذى خلقه الله ذا طبع نارى ملتهب ، . . ذلك الطبع الذى ظهر بوضوح عندما كان يترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية . وهو جالس فى قلعته وخيل إليه أن الشيطان وقف مقابله على الحائط ، فما كان منه إلا أن أمسك بالمحبرة وضرب بها الشيطان الذى تخيله . وتحطمت على الحائط وسال منها الحبر ، وأضحت بعد ذلك مزاراً يزوره الناس ليروا الثائر ، ولو فى جموح الثورة ، وإرتباك الخيال ، .. ولكن واحداً قال : أود دائماً أن نرى هذه الصورة فذلك أفضل من أن نرى الجالسين فى مقاعدهم لا يتحركون أو يلتهبون مهما جرت الأحداث حولهم أو تغيرت الأوضاع والظروف ! ! . . .

ضعف الارادة :

سأل أحدهم فلاحاً أمريكياً قائلا : هل ترجو ماهو أحسن فقال : كلا ! ! . . وإذ دهش السائل للجواب . أجاب الفلاح : إنى لا أرجو الأحسن بل أسعى على الدوام وراءه . ولقد صدق الرجل فإن العالم لم يتقدم بأفكار الناس أو أحلامهم ، بل بكفاحهم لتصبح هذه الأحلام والرؤى حقائق واقعة ! ! . . . كان الشاب الصغير يشكو من العالم ومن فساده وشروره وآلامه ومآسيه وتساءل : لماذا صنع الله عالماً كهذا ؟ ! . وأية فائدة ترجى من هذا العالم ؟! ثم أردف قائلا : أنا أستطيع أن أصنع عالماً أفضل من هذا العالم . فأجابه صديق له كان يسمع شكواه ، وقال : ولهذا السبب وضعك الله فى العالم فهيا قم بنصيبك فيه ليصبح عالماً أفضل ! ! . .

وهنا نصل إلى قمة المأساة فى حياة غمالائيل ، فالحياة على الدوام ليست فكراً أو حلماً . بل قراراً ، . . والأفكار والأحلام إذا قصرت عن الوصول إلى القرار ، فهى والعدم سواء . . . . ولسنا نعلم ماذا كان ينتظر غمالائيل أكثر من المسيحية أن تفعله حتى يصبح برهانها مقنعاً ليتخذ الرجل قراره : إن كانت من الله أو من الناس ، . . . وهنا يتضح الفارق الأبدى بينه وبين بولس ، . . . كان غمالائيل أقرب إلى المسيحية فكراً وعاطفة من بولس ، . . لقد تحول بولس عدواً رهيباً صارماً للمسيحية ، . . لكن معجزة المسيح ظهرت لبولس ، فانتقل من النقيض إلى النقيض ، . . وقد صنع الله المعجزات التى سمع عنها غمالائيل أو رآها رؤيا العين ، ومنها معجزة المقعد عند باب الجميل ، ومعجزة حياة التلاميذ وأعمالهم ودخولهم السجن ، وخروجهم منه والأبواب مغلقة ، . . وكثير غيرها مما عرفه العديدون فى أورشليم وغيرها من المدن . وكان يمكن أن يفعل المعلم مافعله التلميذ ، وعلى وجه الخصوص أنه كان معروفاً له ، ومتصلا به فى مطلع التاريخ المسيحى ، عندما كان ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب ! ! . . . لكن غمالائيل بقى فى ضعف إرادته متخلفاً عن موكب المسيحية وقافلتها المباركة العظيمة ! ! . . .

ومن اللازم أن نشير هنا إلى الفرق بين الحقيقة التى يقررها الإنسان وبين تطبيقه لها ، . . . فقد قرر غمالائيل حقيقة من أروع الحقائق وأعظمها ، وهى حقيقة نجاح الأعمال التى يكون الله مصدرها أو خلفها ، . . وقد كانت المسيحية هكذا ولأجل ذلك نجحت وعاشت . . لكنه للأسف العميق لم يستطع أن يطبق هذه الحقيقة التى نادى بها على نفسه . ولعل السر فى ذلك ، أن الإنسان الذى يتقاعس عن التمسك بالقرار الصحيح فى وقته ، يخشى أن يفلت منه هذا القرار بالتأجيل والتخاذل والإهمال والضعف ، . . ومن المتصور أنه جاءت أوقات متعددة على غمالائيل ، والمسيحية تتقدم من نجاح

إلى نجاح ، دون أن ينهض لاقتناص الفرصة التى ضاعت منه ، وأمسك بها تلميذه العظيم على النحو الرائع الذى عرفته جميع الأجيال على ظهر هذه الأرض ! ! . . .

أجل غمالائيل الحكم على المسيحية ، لقد نجحت ، ولكنه لم ينجح هو فى التمسك بالمبدأ الذى نادى به ، وقد أعوزه أن يحطم كل الحواجز التى ربما قامت فى طريقه ، كما قامت فى طريق بولس ، ولكنه قضى عليها جميعها ، وخسر كل الأشياء ليربح المسيح ويوجد فيه ، . . والمسيحية تحتاج منا دائماً إلى ماهو أكثر من الفكر المعجب بها ، أو العاطفة التى تبهر بحلاوتها وجلالها ، إذ تحتاج إلى القرار الذى يكتسح كل معوق مهما كانت حقيقته ومهما كان مصدره ، . . . يذكر رجل النهضات العظيم ، تشارلس فنى من القصص الواقعية التى عرفها عن قرب ، قصة فتاة متزوجة كانت تعيش مع زوجها الملحد ، وجاءت إلى المسيح فى مدينة فلادلفيا عندما كان يقوم الواعظ العظيم بخدماته هناك ، وعندما علم زوجها بترددها على الاجتماعات ، أمرها بشدة ألا تذهب إلى هناك ! ! . . فسألت مستر فنى إذا كانت تستمع لزوجها أم لا ! ! . . وكانت نصيحة الرجل أنه مادام زوجها ملحداً ، فينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس ، فواظبت على الاجتماعات دون أن تبالى ، فتوعدها زوجها بالذبح إن هى ذهبت مرة أخرى ، . . وفى تلك الليلة انتظرها حتى عادت من المنزل فوجدته فى حالة هياج مخيف ، وغضب عاصف ، . . نظر إليها نظرة يتطاير منها الشرر ، ودون أن يتكلم كلمة واحدة ، أغلق الباب بالمفتاح ، ووضع المفتاح فى جيبه ، ثم أخرج خنجراً كبيراً حاداً وأقسم أن ينهى حياتها ، ويقتلها مهما كلفه الأمر ، نظرت إليه المسكينة فى رعب وفزع وصعدت السلم إلى الدور الثانى تلتمس طريقاً للهروب ، فأخذ شمعة متقدة وتبعها ليقضى عليها ، . .

وبينما هو يصعد السلم مر بجوار الخادمة الصغيرة فنفخت فى الشمعة فانطفأت وغمر المكان الظلام الحالك ، حاول الوصول إليها ؛ ولكنها استطاعت التسلل من النافذة وقضت ليلتها عند صديقة لها ! ! . . وفى الصباح عادت إلى البيت . وهى تظن أن ضميره قد أنبه ؛ وإذا بها تجد أثاث المنزل كله مقلوباً رأساً على عقب . . . . وأغلق الباب وجرت المحاولة الثانية ، وإذ أوشك أن يغمد خنجره فى قلبها ركعت المسكينة على ركبتيها ورفعت يديها نحو السماء وطلبت من الله أن يرحمها ويرحمه . . . وهنا حدثت المعجزة إذ استجاب الله صلاتها وأمسك يده عن أن يمسها بضرر . . نظر إليها برهة ثم سقط على الأرض طالباً الرحمة من الله . اعترف بكل خطاياه وآثامه وكانت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيه وذهب إلى زوجته وضمها إلى صدره فى عطف وحنان وطلب منها المغفرة والصفح ! ! . .

لم تكن لهذه المرأة فلسفة غمالائيل ، ولكنها كانت تمتلك صلابة وإرادة لم يصل إليها معلم بولس العظيم ! ! . . . . وذهب الرجل ، وهكذا يذهب أولئك الذين لا يعرفون كيف يقررون قرارهم الأعظم والأمجد والأكرم والأخلد قبل فوات الأوان ! ! . .

١٢٥
استفانوس

« فكانوا يرجمون اســتفانوس وهو يدعو ويقول أيهــا الرب يســوع اقبل روحى » (اع ٧ : ٥٩) .

بعد خمسة عشر قرناً من موت إستفانوس ، مات شهيد مسيحى أيضاً وعلى شفتيه صلاة الشهيد الأول . كان باترك هملتون شاباً أرستقراطياً ينتمى إلى عائلة الملك جيمس الخامس ، وقد تعلم فى جامعتى باريس وليون ورحل إلى ألمانيا ، وهناك اتصل بلوثر وتأثر به ، وعاد مكرساً حياته لخدمة الإصلاح ، فحوكم على عظاته ، وأسند إليه من التهم ما كان منه بريئاً ، وقد أجاب بشجاعة وأمانة وصدق عن عقائده وإيمانه فاتخذوا من ذلك حجة للحكم عليه ، وعندما أحرق فى آخر فبراير عام ١٥٢٨ م ، صاح وهو يودع العالم : « حتى متى أيها السيد الرب يغمر الظلام هذا العالم وحتى متى نتحمل طغيان البشر ! ! . . . أيها الرب يسوع اقبل روحى ! ! . . » . . وما أكثر القديسين الذين رقدوا وصلاة إستفانوس على شفاههم فبوليكاربوس

وأغسطينوس وهس وجيروم وبرنارد ولوثر وملانكثون وزافير . . .جميعهم كانت هذه الكلمات آخر ما ودعوا به الأرض ! ! . . . ولا يمكن لنا ونحن نتعرض لقصة أول شهيد مسيحى إلا أن نقف متعجبين أمام حكمة الله التى تعلو فوق كل إدراك وفهم ! ! . . . كان إستفانوس من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى الكنيسة الأولى ، وكان فى عمله ومعرفته وفصاحته وحياته ، أقرب إلى بولس من الرسل الاثنى عشر . وحسب المنطق البشرى كانت حياته لازمة للكنيسة ، كما كانت حياة بولس سواء بسواء ، لكن الله فى حكمته العليا ، كان يقصد أن يكون موته ، لا حياته ، هو سر النجاح والحياة والقوة لهذه الكنيسة ، ومع أننا لا نعلم الفترة بين استشهاده ومجئ بولس إلى المسيحية ، لكن بعضهم يرجح أن هذا حدث فى نفس السنة أى عام ٣٦ أو ٣٧ م ، وقد حاول بولس أن يتخلص من منظر إستفانوس وهو يموت دون جدوى ، والمعتقد عند أوغسطينوس أن هذا المنظر هو الذى هزه من الأعماق ، وحاول مغالبته بالإمعان فى رفس المناخس واضطهاد المسيحيين حتى التقى به السيد فى طريق دمشق ، . . . كان موت إستفانوس بدء شرارة الحياة فى قلب بولس ! ! . . بل كان موته فى الحقيقة بدء نهر الدم العظيم الذى روى بذار الكنيسة فى الأرض ! ! . . وقصته العظيمة جديرة بأن تحكى وتروى فيما يلى :

استفانوس ومن هو !! ؟

إن الاسم « إستفانوس » يعنى « تاج » أو « إكليل » وليس من السهل أن نعلم الكثير عنه خارج ما كتب فى سفر أعمال الرسل . هو أول جندى من جنود المسيح فاز بالتاج أو الإكليل ، فما أسرع ما نراه كومضة من النور الباهر فى أحشاء الظلام ، أو كالبرق الذى يلمع فى الليل الحالك ، ويترك نوره أثراً عميقاً فى الكيان والذاكرة ، . . رآه بولس وهو يموت ، فعاشت

الرؤية فى كيانه وأعماقه ، ولم يستطع نسيانها أو التخلص منها . وأغلب الظن أنه عاش يراها إلى اللحظة الأخيرة ! ! . . ومع أنه مر بالتاريخ والكنيسة مثل هذه الومضة ، إلا أن وهج حياته القصيرة عاش ويعيش خالداً على مدى الحياة ! ! . . . لم يكن يهودياً – كما هو ظاهر من اسمه – من يهود فلسطين ، بل أغلب الظن أنه كان من يهود الشتات أو المهجر إذا جاز التعبير ، أما اسم أبيه أو أمه فلا نعلمها ، . . . ويذهب البعض فى أنه كان صائغاً من أتباع الإمبراطورة ليفيا وعبداً لها ، وأنه قد منح الحرية ، ولهذا فهو واحد من اليهود الغرباء الذين زاروا أورشليم وقبلوا المسيحية ، ويقول آخرون ، على ما يذهب أبيفانيوس ، إنه كان واحداً من السبعين الذين اختارهم المسيح للتبشير والخدمة . . . ويعتقد غيرهم أنه جاء إلى المسيح بواسطة عظة بطرس يوم الخمسين ، وعلى أية حال هو واحد من خدام الله الذين لم تطل خدمتهم بالمعيار الزمنى أكثر من ثلاث سنوات ، ولكن الله يريد أن يعطينا هذا اليقين . إن خدمة المعمدان خالدة مع أنها لم تستمر أكثر من شهور معدودات، وإن أخوين أحدهما يعقوب بن زبدى مات أول الرسل ، وخدم الكنيسة بموته ، وثانيهما يوحنا أخوه ، وقد عاش آخر الكل ، وبقى إلى ما يقرب من نهاية القرن الأول وخدم الكنيسة بحياته ، ولله فى حكمته مايعلو على هذا الذهن البشرى ، . . وقد كان حسب التصور أن الكنيسة ليس فى أبنائها وشبابها فى خطاها الأولى ، من هو أفضل أو ألمع من إستفانوس ،.. لكن النجم اللامع كان عليه أن يخطف الأبصار ثم يمضى متوجاً إلى مجده السريع العظيم ! ! . . . ترى كيف نصفه ، وما مفتاح حياته ! ! ؟ يبدو أن خير كلمة تصف حياتهبأ كملها هى كلمة « ملاك » . . عندما وقف أمام المجمع للمحاكمة قيل عنه : « فشخص إليه جميع الجالسين فى المجمع ورأوا وجهه كأنه وجه ملاك » (أع ٦ : ١٥) . . لقد بدا على مهابة

رائعة ، تجاوزت مظهر الناس ، وارتقت إلى مصاف الملائكة ، . . . والرجل الذى يبدو وجهه كوجه ملاك ، . . لابد أن يكون هو بذاته ملاكاً بين الناس ، . . وهو ملاك فى كل شيء . . إنه الملاك الذى يقف دائماً على النبع ، ويشرب إلى درجة الارتواء ، . . وصفه الكتاب بالقول : « مملوءاً من . . . الروح القدس » (أ ع ٦ : ٥) ، إن شجرة حياته تمد أصولها إلى الغدير ، عند مجارى المياه ، فإذا رأيت فيه الجمال كل الجمال ، وإذا رأيت فيه الاخضرار كل الاخضرار ، وإذا رأيت فيه البهاء كل البهاء . . . فالسر أنه لم يأخذ قليلا من الروح القدس ، أو جدولاً ضحلا من الملء الإلهى ، بل أخذ الملء كله ، . . إن كل مؤمن يأخذ من الله شيئاً . . لكن الفرق بين مؤمن ومؤمن ، هو الفرق بين من يسكن فيه روح الله ومن يمتلئ بروح الله . . . إن الملاك هو الذى يأتينا من عالم خفى غير منظور ، . . واستفانوس كان ملاكاً بهذا المعنى أنه أقرب إلى العالم غير المنظور ، وهو يعيش بالبصيرة أكثر مما يعيش بالبصر ، ولأجل ذلك فالترجمة الصحيحة لحياته فى علاقته بالروح القدس هى الملء أيضاً بالإيمان : « مملوءاً من الإيمان » (أ ع ٦ : ٥) وما الإيمان إلا أن يطل المرء ببصيرته ويتشدد لأنه يرى من لا يرى ، . . هو انطلاق الرؤيا إلى العالم الأسمى والأعظم والأجل ، العالم الأبدى ، . . وكان إستفانوس يعيش مع هذا العالم وبعمق فى حياة الإيمان ، . . . لقد رأيناه فى اللحظة الأخيرة يرى السموات مفتوحة ، ولنا أن نتأكد تماماً أنه عاش وعينه على الدوام مفتوحة على العالم الأبدى ! ! . . . قال المرنم القديم : « أرفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى ». . . .

وكان دانيال يتزود كل يوم ، صباحاً وظهراً ومساء من وراء الكوى المفتوحة فى السبى من عالم الأعظم الذى لم يغب عن عينيه وهو يتطلع تجاه

أورشليم ، وعاش بالرؤيا البعيدة فى العالم غير المنظور ، وعاش إستفانوس ، وعيناه على السماء المفتوحة التى منها يأتى الملاك وإليها يذهب ! ! . . . وكان إستفانوس ملاكاً متوجاً فى سيرته أمام الناس . لقد كان أول السبعة المشهود لهم « مشهوداً لهم » (أع ٦ : ٣) . . لو سألت الذين تعاملوا معه ، وعاش بينهم ؛ ما رأيكم فى إستفانوس ؟ لكان الجواب القوى الصحيح : هذا الرجل « ملاك » بكل ما فى الكلمة من معنى ، إنه لا يبصر يتيما دون أن ينحنى عليه فى رقة بالغة ، ولا يرى أرملة تبكى ، دون أن تذرف عينيه دموعاً لتعاستها وآلامها ، . . ولا يمكن أن يبصر جائعاً يتلوى من الجوع دون أن يطعمه ويشبعه ، ولا يستريح حتى تعود الابتسامة إلى شفتيه ، ألم أقل لكم إنه ملاك يتمشى بين الناس ، . . . على أنه أكثر من ذلك كان له لسان الملائكة فى الحجة والبلاغة ، . . . إذ كانت فصاحته لا تبارى ، حاج الكثيرين من اليهود فى مجامعهم ، فعجزت حجتهم عن البلوغ إلى مستوى حجته ، وقصر بيانهم عن الوصول إلى بيانه ، أفحمهم ولم يستطيعوا أن يقاوموا الحكمة والروح الذى كان يتكلم به ، كان واحداً من أئمة البيان إذا جاز القول أو التعبير ، وكان الخطيب المصقع الذى ظهر فى الميدان واتجه إليه الإعجاب من المريدين ، والخصومة من الحاقدين ، ولعل بيانه هذا هو الذى جعله فى الطليعة يكاد الرسل يتوارون وراءه أمام الجميع فى أورشليم ،.. وكان استفانوس فى قوة التدبر والتدبير ، . . كانت حكمته واسعة فى مواجهة المتطلبات المتعددة ، وكان صاحب المشورة النافذة والحكمة السماوية النازلة من فوق ، . . . وكانت له قدرة الملائكة فى صنع العجائب والمعجزات ، وما أكثر ما جرت على يديه آيات وعجائب رآها الجميع ومست حياة الكثيرين ! ! . . كان رجلا خارقاً غير عادى ، إذا جاز التعبير ، وهو كنجمة الصبح التى تلمع فى الظلام ، وما أسرع ما تختفى ، ولكن جمالها أن تنفرد بين النجوم باللمعان ! ! . . .

استفانوس الشماس :

إن ظهور نظام الشموسية فى الكنيسة يثير أمامنا عدة قضايا بالغة الأهمية ، ولعل أول قضية يثيرها هى التمييز بين إنجيل الخلاص والإنجيل الاجتماعى ، .. وكان إنجيل الخلاص له السبق ولا شك قبل الإنجيل الاجتماعى ، وفى الحقيقة كان الرسل على صواب عند الموازنة بين الإنجيلين حيث فضلوا « الصلاة وخدمة الكلمة » (أع ٦ : ٤) . . على الخدمة الاجتماعية ، فاختصوا هم بالأهم ، وتركوا الخدمات الأخرى لغيرهم من المساعدين ، . . عندما جاء المسيح إلى الأرض ، كان واضحاً أنه جاء ليكون مخلصاً للعالم ، وأنه اهتم بشفاء الجسد وإطعام الناس ، وهو يفكر دائماً فى النفس ، « لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ! ! . (مت ١٦ : ٢٦) إذا رأينا شخصاً تشتعل فيه النار ، لا شبهة فى أن أول ما تفعله معه ، هو أن ننقذه من هذه النار قبل أن نفكر فى إطعامه أو كسائه ، والكنيسة الناجحة التى تفهم رسالتها ، هى التى تفعل ذلك ، فإذا اهتمت بكافة الاحتياجات الأخرى للانسان من اجتماعية وصحية ومادية ، فهى لا يجوز لها أن تفعل ذلك ، إلا وعينها على احتياجاته الروحية ، . . وخير مثال على ذلك ما فعله المسيح مع المفلوج الذى حمله الأربعة إليه ، إذ عنى أول كل شىء ، بالجانب الذى لم يفكر فيه أحد ، . . كان غفران الخطية للمفلوج أهم عند السيد من شفاء جسده ، . . ولم يترك مع ذلك المريض بدائه العضال ، لكنه أعطاه الشفاء ، تالياً لحاجته الروحية (مر ٢ : ٣ — ١٢) ومريض بيت حسدا الذى عانى مرضاً مدة ثمان وثلاثين سنة ، وشفاه المسيح كانت نصيحته الهامة اللاحقة للشفاء : « ها أنت قد برئت . فلا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشر » (يو ٥ : ١٤) . . . هذه الحقيقة الثابتة ينبغى أن نضعها

نصب عيوننا ونحن نتأمل قصة استفانوس الشماس . . . عندما ذهب نعمان السريانى إلى أليشع لم يكن يفكر فى أكثر من شفاء البرص ، ولكن فكر الله كان أجل وأعمق وأصدق ، إذ عاد نعمان وقد شفى من برص أقسى وأشد ، وهو برص النفس الذى يلصق بالنفس الخاطئة . حسن أن تنشئ الكنيسة المستشفى والملجأ والمدرسة والنادى ، ولكنها قبل هذه جميعها ينبغى أن تنشئ اجتماعات الشباب ، ومدارس الأحد ، وحلقات الصلاة ، وخدمات العمل الفردى لربح النفوس ، والنشرات ، والنبذ والكتب التى تنادى بكلمة الله ، بل إن الإنجيل الاجتماعى بكافة وسائله وأساليبه ينبغى أن ينتهى فيه الطريق إلى إنجيل الخلاص ، فالخلاص أولا والخلاص أخيراً هو هدف الكنيسة ورسالتها بين الناس الذين جاء المسيح يموت من أجلهم على هضبة الجلجثة ! ! . . .

على أن القضية تكشف لنا أيضاً عن دور الشعب فى الكنيسة ، فالرسل لم يستأثروا بكل شىء ، بل فتحوا الباب واسعاً أمام الشعب . فالكنيسة لا يمكن أن تقتصر فى خدمتها على الوعاظ والقادة دون الشعب ، . . ومن القديم والشعب يشق الطريق إلى الخدمة الناجحة ومنهم من كان كاستفانوس الذى وهو العلمانى الذى يخدم احتياجات الكنيسة المادية كان واحداً من أعظم أبطالها فى الخدمة الروحية ! ! . . هل يعرف المؤمنون هذا الدور العظيم المطروح أمامهم وهل يعلمون أن فرانسس الأسيسى كان جندياً ، ويوحنا بنيان كان سمكرياً ، وجون وولمان كان ترزياً ، وتشارلس فنى كان محامياً ، ودوايت مودى كان بائعاً فى أحد المحال التجارية ! ! . . . إن ميدان الخدمة واسع أمام الجميع ، وعلى قدر ما تعطى الكنيسة العلمانيين فرصة الخدمة فيها على قدر ما يمكن أن تكون نامية وناجحة ! ! . . .

ومن الملاحظ أيضاً قوة الابتكار عند الكنيسة ، فهى الهيئة التى يلزم أن تتصرف ، وتبتكر ما يمكن أن يكون للخير ولمجد الله ، . . لم يكن نظام الشموسية معروفاً قبل ذلك عند اليهود ، . . ولكن الأزمة النفسية التى حدثت فى الكنيسة ، كان لابد أن تعالج بصورة ما . . لما نمت الكنيسة فى أورشليم ، لم يتيسر تنظيم إطعام الجماهير المحتاجة أو خدمتهم بأسلوب منظم دقيق ، فحدث غبن للبعض وعلى وجه الخصوص أرامل اليونانيين ، ويعتقد البعض أن روح الحزبية تدخلت بهذه الصورة أو تلك فى الاهتمام بالعبرانيات أكثر من اليونانيات ، وعلق هؤلاء على أن هذه الروح بدأت فى الكنيسة ، وما تزال إلى اليوم تأخذ هذه الصورة أو تلك فى التفرقة بسبب اللون أو الجنس أو الثقافة أو الحالة الاجتماعية ، أو ما أشبه ، مما دخل عن وعى أو من غير وعى ، إلى يومنا الحاضر إلى الحياة الروحية والكنسية ، . . على أن آخرين ينفون هذا بالنسبة للكنيسة الأولى فى أورشليم ويعللون التفرقة بأن أرامل العبرانيات ربما كن معروفات عند التلاميذ أكثر من اليونانيات ، . . ومع ذلك فقد حدث تذمر من اليونانيين ازاء هذه الحالة ، غير أن هذا التذمر كان رقيقاً هادئاً مؤدباً . وهذا ما تعنيه الكلمة فى الأصل اليونانى ، غير أنه ما أن بلغ هذا التذمر أذان التلاميذ حتى سارعوا إلى علاجه بأسلوب ديمقراطى جميل ، فلم يأمر الرسل بفرض أشخاص معينين ، بل طلبوا من الجمهور أن ينتخبوا سبعة رجال ممن يصلحون لهذا العمل ، وقد لوحظ أن السبعة يتسمون بأسماء يونانية مما يفيد أن الكنيسة تريد فى رفق وود ولين ومحبة أن تهتم بفريق الغرباء فيها وأن تتلافى شكاوى اليونانيات ! ! . .

وقد آشرنا فى تحليل شخصية استفانوس إلى الشروط التى يلزم أن يتصف بها الشماس من « حسن السمعة » إذ ينبغى أن يكون مشهوداً له بالحنان والحب والرقة والاستعداد لخدمة الآخرين ، لا على أسس أدبية إنسانية ، بل على

أساس « الامتلاء من روح الله » والحكمة التى تعطيه القدرة على التصرف السليم تجاه كافة الظروف والملابسات ، . . . وهو الإنسان الذى ينبغى أن يمتلئ بالإيمان لمواجهة كافة الأزمات والمفاجآت فى المستقبل ! ! . . .

قضى استفانوس على الأغلب ثلاث سنوات فى عمله كشماس ، وما من شك فى أن خدمته امتلأت بروح العطف والحنان من نحو الجميع ، ولا سيما الأيتام والأرامل والمحتاجين والبؤساء ! ! . . . كان دونالد ماكلود الواعظ الاسكتلندى المشهور يسير ذات يوم فى شوارع أدنبره ، عندما اقترب منه صبى وطلب أن يمسح له حذاءه ، وكان اليوم شديد البرد ، والولد يرتعش . . . وابتسم ماكلود فى وجه الغلام وسمح له . . . وقال ماكلود للغلام وهو يقوم بعمله : يا بنى هل أنت بردان مقرور . . فتردد الصبى قليلا وهو يقول : لقد كنت كذلك يا سيدى إلى أن ابتسمت فى وجهى ! ! . . . من المؤكد أن استفانوس ابتسم فى وجوه الكثيرين ، ولم يتركهم فى بؤسهم أو آلامهم بل تحولوا من البؤس والألم والحزن إلى الفرح والبهجة والرضا والسكينة ! . . .

استفانوس المدافع عن الحق :

لم يقف استفانوس عند حدود كونه شماساً بالكنيسة ، والرجال العظام لا تحدهم الأعمال التى يكلفون بها . لقد برز استفانوس ووقف فى الطليعة بين أبطال المسيحية الذين خلد التاريخ كفاحهم وبطولتهم فى الدفاع عن الحق ، لقد برز كواحد من أبرع المدافعين عن المسيح والكنيسة ، وأغلب الظن أنه كان ينتقل بين المجامع اليهودية يعظ ويتحدث ويشهد لسيده شهادة قوية أمينة ، وكان فى أورشليم فى ذلك الوقت ما يزيد على أربعمائة وثمانين مجمعاً ، ونحن لا ندرى هل كان مجمع الليبرتينيين والقيروانيين والاسكندريين

والذين من كيليكيا وأسيا الذين حاوروا استفانوس هو مجمع واحد أو أكثر من مجمع ، إنما نعلم أن جميعهم من اليهود الغرباء فالليبرتينيون هم أبناء اليهود الذين سباهم بومبى عام ٦٣ ق . م وأسكنهم فى روما ثم منحوا الحرية بعد ذلك فجاء فريق منهم إلى أورشليم مرة أخرى ، والقيروانيون والاسكندريون من يهود القيروان والإسكندرية ، ويهود كيليكيا وأسيا ، من الذين قطنوا أسيا الصغرى ، وكان منهم شاول الذى أصبح فيما بعد الرسول بولس ، . . هؤلاء تجمعوا على استفانوس وحاوروه محاورات انتهت بتفوقه عليهم ، وبحقدهم عليه ، وتدبير المؤامرة التى انتهت باستشهاده ! ! . . . على أية حال إن استفانوس يقف على رأس ذلك الصف الطويل الذى أطلق عليه اسم الآباء الرسوليين أو المدافعين المتاضلين ، أمثال أكليمندس وأغناطيوس وبوليكاربوس أو المدافعين اليونانيين من أمثال أرستيدس ويوستنيان وتاتيان وأثيناغورس وثاوفيلس وغيرهم من قافلة الفكر المسيحى حتى عصر أوغسطينوس من أمثال ايريناوس وترتليانوس وأوريجانوس ويوسابيوس وأثناسيوس وغريغورى النايزنزى وباسيليوس وغريغورى النسى وأمبروز وفم الذهب وجيروم ، . . فإذا ذكرنا لهؤلاء جميعاً ، عظمة الدفاع عن الحق المسيحى ، فلا يجوز أن ننسى أن استفانوس كان أول المحاورين والمدافعين عن الحق فى فجر المسيحية وهى تبزغ بضوئها العظيم منذ ذلك التاريخ ! ! . . .

استفانوس الشـــهيد :

قدم استفانوس للمحاكمة أمام السنهدريم وأتهم بالتجديف على الله وموسى والناموس والموضع المقدس كما زعم مضطهدوه ، ربما أخذوا من كلامه ما أضافوا إليه أو أنقصوا منه ما جعله يبدو فى شكل تجديف ، وقد

قال أحدهم إن أنصاف الحق كثيراً ما تكون أبشع تصوير للحق الصحيح ، . .
ويعد دفاع استفانوس من أروع ما سجل التاريخ البشرى ، إذ حمل ميزتين عظيمتين ، ونعنى بهما جمال الاستهلال ، وعمق الحق ، ... ومع أنه استعرض التاريخ اليهودى المحبوب على أسماع قضاته ، لكنه قادهم وهم لايدرون إلى الحقيقة القاسية المرتبطة بتاريخهم ، وهى أنهم امتداد مستمر لأبائهم العصاة المتمردين على الله . . . ونحن نلاحظ هنا أنه لم يستعطف قضاته أو يتملقهم على حساب الحق ! ! . . . ولا أستطيع أن أقف من استفانوس متعجباً ، وهو لايفزع أو يخاف ، دون أن أذكر — على التو — ما حدث فى مجمع ورمس حيث وقف لوثر وقفته التاريخية المشهورة فى ذلك اليوم ! ! . .
لقد تعرض لوثر للضعف وطلب مهلة للاجابة على الأسئلة الموجهة إليه ، فأعطيت له مهلة يوم واحد ، وقد قضى الرجل الليلة التى سيقف بعدها فى الغد للاجابة العتيدة ، فى صراع مع الله . . . وهنا استقرت نفسه وهدأت ، وقرر أن يعطى الجواب الأمين ، مهما كانت النتائج التى ستتمخض عنه ! ! ...
كان قربه من الله هو الذى ألهمه الشجاعة التى لا يملكها إنسان مهما كان خارق الجسارة أو البطولة دون مساعدة الله ! ! . . . وقد شاء الله أن يقترب من استفانوس فى أحرج ساعة له على الأرض ، فانفرجت السماء عن العرش العظيم والمسيح القائم عن اليمين ، وهنا ارتفع الرجل فوق البشر والظروف ، وتملكته القوة الخارقة التى تسيطر عادة على الأبطال والشهداء فى أعظم المواقف التى يتعرض لها الإنسان بين الناس ، وهنا نرى بطولة الشاهد ، وبسالة الشهيد ، . . هنا نرى الوجه وقد أضاء بلمعان سماوى ، فلم يعد وجه إنسان ، بل أضحى وجه ملاك ، . . . وفى الحقيقة إن استفانوس كان قريباً جداً من السيد ، ويكفى أنه ، والحجارة تنهال عليه ، فعل مثل سيده تماماً وهو على الصليب ، فلم يطلب الغفران للمسيئين إليه ، كما غفر المسيح فحسب ،

بل صلى أيضاً مثل سيده وهو يستودع روحه : « أيها الرب يسوع أقبل روحى! ! . . (أع ٧ : ٥٩) وحيث أنه مات رجماً بالحجارة فمن المعتقد أن هذا حدث على الأغلب . فى آخر عام ٣٦ أو أوائل عام ٣٧ م ، فى الوقت الذى دعت فيه روما واليها المعروف بيلاطس البنطى لتحاسبه على جرائمه المتعددة ، ولم تكن قد أرسلت خلفاً له . فأتاح هذا لليهود فرصة الحكم عليه بالإعدام وتنفيذه بعيداً عن تدخل الرومان ! ! . . ومن المعتقد أن الرجم حدث شرقى الهيكل على حافة وادى قدرون بالقرب من باب دمشق الذى كان يدعى فيما مضى باب استفانوس ! ! . . .

ومن الواضح إن موت استفانوس لم يكن عميق الأثر فى حياة ذلك الشاب القديم الذى كان حارساً لثياب قاتليه فحسب ، بل تحول فى مجرى التاريخ ليكون عظة بالغة . من غير حدود . فى حياة الملايين من البشر فى الشرق أو الغرب على حد سواء . . . ولعلنا نختم هنا بما قاله سر توماس مور للقضاة الذين حكموا عليه بالموت على أثر نطقهم بالحكم : أيها السادة ولو أنكم حكمتم على ظلماً . لكنى أود أن أقول إن بولس كان حارساً لثياب الذين قتلوا استفانوس . والآن هما صديقان معاً فى السماء . وأنا أصلى أن يكون الأمر أيضاً معنا كذلك . لنلتقى فيما بعد فى السماء ! ! . . . وهكذا كان استفانوس رائعاً فى حياته القصيرة على الأرض . وأروع فى الشهادة الأمينة التى ختمها بدمه . واستحق إكليل المجد الذى لا يبلى فى السماء ! ! . . .

١٢٦
فيلبس المبشر

« ففتح فيلبس فاه وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع » (أع ٨ : ٣٥) .

كان هناك شاب فرنسي مسيحي اسمه استفن جريلت ، وقد أحس في أعماق نفسه ، وهو في كندا ، أنه يلزم أن يذهب إلى غابة هناك ليعظ ، وضغط عليه الصوت فأطاع ، وذهب إلى الغابة ، لكنه لم يجد هناك من يعظهم ، وهمّ أن ينصرف ، ولكن الصوت ألح عليه أن يعظ ، فما كان منه إلا أن استجاب للصوت ، وأخذ يلقي كلمته على الأشجار ، ثم عاد إلى مكانه ، وبعد عدة سنوات التقى جريلت بمن يصافحه بحرارة ، ويقول له إنك لا تعرفني ، ولكنك لاشك تذكر أنك وعظت يوماً ما في الغابة دون أن ترى أحداً ، . . لقد كنت هناك مختبئا ، أعد نفسي للسرقة وسمعت وأنا في الخفاء عظتك ؛ وجاءت بي هذه العظة إلى الله ، وإلى خدمة السيد ، بعيداً عن الشر والسرقة وخدمة الشيطان ! ! . . . لم يكن يعلم فيلبس وهو يترك خدمته العظيمة في

السامرة . انصاتاً لصوت الله الواضح له ، بالذهاب إلى البرية ، أنه سيلتقى هناك بصيد كبير للمسيح ممثلا فى وزير كنداكة ملكة الحبشة ، الرجل الذى ذهب فى رحلة إلى أورشليم وعاد منها ، ليقطع ألف ميل . والذى يقول التقليد أن اسمه « انديك » وأنه عاد إلى بلاده مسيحياً . وأنه — على ما يذكر يواسبيوس وايرنياوس مؤسس المسيحية فى الحبشة ! ! . . كان فيلبس قريناً ورفيقاً لاستفانوس ، وذهب استفانوس شهيد الرساله المسيحية ، وانطلق فيلبس فى وجه الاضطهاد القاسى شاهدا بهذه الرسالة عينها ، . . وقصته من أجمل القصص التى يلزم أن تروى وتذكر ، ونحن نتأملها لأجل ذلك فيما يلى :

فيلبس ومن هو !! ؟

كان فيلبس كما نعلم واحداً من السبعة الذين اختيروا لخدمة الشموسية ، وكل ما ذكرناه عن خلال استفانوس وصفاته ، يصلح أيضاً أن يكون عن فيلبس ، وعلى وجه الخصوص أنه كان الثانى بين الشمامسة السبعة ، الذى لم تقتصر خدمته على مجرد المساندة والمساعدة فى كافة الأمور المالية التى تقع على عاتق الشماس أساساً ، ... ونحن لانود أن نعود إلى تكرار ما ذكرناه عن استفانوس ، ولكننا نحيل القارئ إلى ماسبق ذكره عن الصفات التى ينبغى أن تتوفر فى الشماس وخدمته . ونود أن نركز هنا على ما نراه ، من خلال الدراسة الكتابية . فى شخصية فيلبس ومميزات حياته . ويبدو أن الله وضعه واحداً من أعظم النماذج للفرد الممتاز فى الكنيسة ! ! . .

لم يكن فيلبس رسولا من الرسل الاثنى عشر ، ولم يكن أسقفاً أو شيخاً مرتسماً للخدمة الرعوية ، لقد كان فى الصف الخلفى أو فى مقعد الشعب لايزيد امتيازه عن أى عضو عادى فى الكنيسة ، . . . ولكن فيلبس كان يفهم بعمق معنى العضوية الكنسية ، وإن العضو يستطيع أن يقوم بكافة

الأعمال الكنسية ، ولذلك لم يتردد الرجل قط فى أن يتولى معمودية الوزير فى البرية ، فهو شماس ، وهو مبشر ، وهو معمد ، وهو كل شىء فى خدمة سيده حيث ينبغى أن تكون الخدمة ومداها وتأثيرها وعمقها ! ! . . ولعلنا نستطيع أن نتابع امتيازاته من هذا القبيل فى :

المؤمن ذو الأذن الصـاغية :

لو أننا قرأنا قصته بامعان وهو يتحول من نهضة السامرة إلى الذهاب إلى البرية ، لأدركنا أن هذا الرجل كان ذا أذن صاغية : « ثم إن ملاك الرب كلم فيلبس » ، « فقال الروح لفيلبس » ... (أع ٨ : ٢٦و٢٩) ومع أن النبوة التى ذكرها إشعياء كانت تتكلم أساساً عن أذن الرب الصاغية : « أعطانى السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيي بكلمة ، يوقظ كل صباح ، يوقظ لى أذناً لأسمع كالمتعلمين . السيد الرب فتح لى أذناً وأنا لم أعاند » (إش ٥٠ : ٤ ، ٥) ... إلا أنه لا شبهة فى أن التلميذ يمكن أن يكون كمعلمه ، وأنه ينبغى أن يتدرب على سماع صوت السيد إلى أعماق النفس تحقيقاً لقوله : « والخراف تسمع صوته . . . خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها فتتبعنى » (يو ١٠ : ٣ ، ٢٧) . . . ومع أننا لا نعلم كيف تكلم الملاك إلى فيلبس ، وهل ظهر له ظهوراً مادياً أم خاطبه فى رؤيا أم أقنعه فى السريرة ، إلا أننا على أية حال نرى رجلا مدرباً على الإنصات لروح الله الذى يتكلم إليه ، . . ومن الواضح أن الروح كان يتكلم إليه بجلاء كما يكلم الرجل صاحبه بتحديد لا يقبل التردد أو الشك ، مما جعله يترك نهضته العظيمة ليذهب إلى البرية ، وهو يتوقع أن شيئاً ما لابد سيلاقيه فى الطريق المنحدرة من أورشليم إلى غزة . . لست أعلم هل وعى المؤمنون هذا الدرس ، وهل استطاع الكثيرون أن يستوعبوه فى حياتهم ويعيشوه فى مختلف الظروف التى تمر بهم ، إن سر المأساة التى يعانيها الملايين من أبناء الله هو أن صوت الله ما يزال لهم

بعيداً عن الوضوح . وقد يختلط فى حياتهم بالأصوات التى تأتى من العالم أو الضجيج البشرى ، وأنهم لم يدربوا أذانهم بالانصات ، وحياتهم بالطاعة ، لكى يتقدموا يوماً وراء يوم فى الإنصات إلى الصوت الإلهى الذى قد ينقلهم من المدينة إلى البرية أو العكس بشرط أن يحسنوا التأمل والإصغاء . . كان فيلبس المبشر واحداً من العلمانيين المبرزين الذى يعرفون بالتأكيد أين ومتى وكيف يتكلم الله إليهم ! ! . . .

المؤمن ذو البيت المتعبد :

إذا كان الاصغاء إلى صوت الله يعتبر إحساساً فردياً يتميز به الضمير المتيقظ للمرء على حدة . فإن فيلبس كان يحمل أيضاً ميزة أخرى أسمى وأروع ، يبدو أن فيلبس كان أصلا من أهل قيصرية ، وأن بولس فى رحلته الأخيرة إلى أورشليم مع رفقائه كان مقامهم فى بيت فيلبس فى قيصرية : « ثم خرجنا فى الغد نحن رفقاء بولس وجئنا إلى قيصرية فدخلنا بيت فيلبس المبشر إذ كان واحداً من السبعة أقمنا عنده ، وكان لهذا أربع بنات عذارى كن يتنبأن » . (أع ٢١ : ٨ ، ٩) . . ولم يكن فيلبس إذاً وحده الذى يملك حاسة الاصغاء ، بل كانت لبناته أيضاً هذه الحاسة المدربة من الله . . . وهذا يكشف لنا عن بيت تميز بسمع الصوت الإلهى بوضوح نادر ، قل أن يكون له نظير فى غيره من البيوت . . . ومن المتصور أن هذا البيت الذى يسمع حديث الله وإرشاده وأمره . لابد أنه البيت الذى لا نسمع فيه أصوات العالم أو أغانيه أو ألفاظه أو أسبابه أو ما أشبه من أصوات قبيحة منكرة تغطيها الجدران أو تعجز عن أن تغطيها على حد سواء ! ! . . .

المؤمن ذو الكتاب المفتوح :

على أن أوضح هذه الأصوات ولا شك كان صوت كتاب الله المفتوح فى بيت الرجل . . . ومن المؤكد أن الرجل الذى قاد وزير كنداكة إلى

المسيح إذ سمعه يقرأ إشعياء ؛ كان دون أدنى تردد الرجل الذى يشرب ويرتوى من الكلمة الإلهية والتى علمها أيضاً لبيته ، والتى يستطيع أن يفسرها للقاصى والدانى ، . . كان صديقاً محباً للكتاب المقدس ، وكان الرجل الذى يعرف كتابه ليقول : «وجد كلامك فأكلته فكان كلامك لى للفرح ولبهجة قلبى ! ! . . . (إر ١٥ : ١٦) والحقيقة التى لا شبهة فيها هى أن أعظم ما يؤثر فى حياة العلمانى كفرد أو كبيت هو ارتباطه بكلمة الله على النحو الثابت والعظيم ، وهذا هو السر وراء الترجمات المختلفة لكتاب الله ، . . فإذا كان العهد القديم قد ظهر باللغة العبرانية ، إلا أن اليهود الذين عاشوا فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون اليونانية ، كانوا فى حاجة إليه ، ومن ثم اشترك سبعون عالماً فى ترجمته إلى اليونانية وهى الترجمة المعروفة بالسبعينية . وكان وزير كنداكه ، كما هو واضح يقرأ فى الترجمة السبعينية عندما التقى به فيلبس ، إذ أن الاقتباس المأخوذ من إشعياء كان قد جاء مترجماً فى السبعينية . . . واجتهد جيروم فى ترجمة الكتاب للرومان إلى اللغة اللاتينية وهى الترجمة المعروفة بالفولجاتا ، وقضى فى سبيل ذلك خمسة وثلاثين عاماً فى مغارة فى بيت لحم ، وبعد قرون أخذ الراهب الإنجليزى بيد يترجم بعض الأجزاء إلى اللغة الإنجليزية ، ثم ظهرت ترجمة جون ويكلف عام ١٣٨٣ وهى أول ترجمة كاملة بالإنجليزية ، وكان الكتاب ينسخ بسعر عال بخط اليد . وفى عام ١٥٣٤ ترجم مارتن لوثر الكتاب إلى اللغة الألمانية ، وظهرت ترجمة الملك جيمس الإنجليزية فى عام ١٦١١ ، وهكذا توالت الترجمات للكتاب الذى ترك . وما يزال إلى اليوم . أعظم الآثار فى حياة الأفراد والبيوت ، بل الجنس البشرى بأكمله .

المؤمن الذى يكرز بسيده :

على أن امتياز الرجل الأعظم أنه كان يعرف سيده الذى يبشربه ،

وينادى باسمه ، لقد أطلقوا عليه « المبشر » ، لأنه تمتع بالسيد وكرز به للآخرين . كان المسيح قبلة نظر فيلبس ومركز الدائرة فى حياته ! ! . . .

لما كان نابليون شاباً كان ينام فى غرفة فى كورسيكا معلق على جدرانها رسوم وقصص أبطال اليونان ، كان مفتوناً بقوة أخيل وعظمة أجاممنون وبالكثيرين من الأبطال القدماء الذين وضعهم نصب عينيه ، . . والمسيحى الحقيقى مهما يظهر أمامه من أبطال ، . . فإن سيده ، الأعظم من الكل ، هو الذى ينبغى أن يتجه إليه بكل قلبه ومشاعره وحياته ، مهما تلونت الظروف والأحوال ، فى النجاح أو الفشل على حد سواء ! ! . . .

خسر تاجر مسيحى ثروته فحزن حزناً شديداً وكان الرجل مؤمناً وعائلته مؤمنة أيضاً ، فاجتمع أفراد العائلة حوله يواسونه ويشددونه . قالت الزوجة : كيف تقول إنك خسرت كل شىء ، أنسيتنا ! ! ؟ والدتك وأنا . . وقاطعتها طفلتهما الصغيرة الجميلة وهى تقول : وأنا يا أبى ! ! . . وقالت زوجته : وصحتك أنها ثروة كبيرة . . وهنا قالت والدته : ويسوع يا ابنى ! ! . . . وهنا رفع الرجل رأسه وكأنما يستفيق من الدوامة القاسية ، وصاح : أجل ! !. لقد بقى لى يسوع ، وإذ يبقى يسوع ، فإن لنا فيه ومعه كل شىء . . . لا أعلم ماذا كان لفيلبس وماذا أصابه من نجاح أو فشل مادى ! ! . . ولكنى أعلم أنه كان غنياً بالسيد الذى عاش يبشر به ! ! . . .

فيلبس المبشر الناجح :

إذا كان فيلبس (رغم أنه لم يكن كاهناً أو أسقفاً) يعتبر من أنجح المبشرين فإن نجاحه يرجع كما هو واضح لأسباب كثيرة لعل أشهرها :

المبشر غير المرتسم

لم يعتذر فيلبس قط بأن رسالته داخل الكنيسة التى خصصت له الاهتمام

بالأمور المادية التى يمكن أن تستحوذ على كل وقته ، ولم يحمل الإنجيل الاجتماعى كرسالته الوحيدة بين الناس ، ولم يقل على الإطلاق ، لقد وزعت الخدمة فى الكنيسة فترك للرسل الخدمة المختصة بانجيل الخلاص ، والمناداة بالكلمة الإلهية ، . . إن فيلبس يوبخ إلى اليوم آلاف الخدام الذين هربوا ، عن قصد وعن غير قصد ، بعيداً عن مشقة الخدمة وعارها وتعبها ، إلى الغرف الوثيرة المكيفة ، والعمل الإدارى الواسع بحجة أنه من صميم الخدمة التى عليهم أن يقوموا بها ، لقد أدرك أن الخدمة أولا وأخيراً ينبغى أن تكون خدمة التبشير ، . . وأن الكنيسة يقاس نجاحها لا بعبقرية وعاظها ورعاتها الذين قد يهزون المنابر هزاً، ويرفعون أصواتهم بالبلاغة والفصاحة، بل أنها تقاس فى الواقع بكل عضو فيها يعلم أنه مدعو لخدمة الإنجيل ، وأينما ينتقل ويذهب . فهو الإنجيل المتحرك لمجد يسوع المسيح ! ! . . ولاحاجة إلى القول إنه كلما تقلص دور العضو فى رسالة الخلاص، كلما ضعفت الكنيسة ، وكلما وهن أثرها ، وكلما تساقطت النفوس الهالكة من حولها يوماً وراء يوم ، لأن الراعى أو القسيس ، مهما كانت قوته ، لا يستطيع أن يصل إلى كل نفس فى دائرة رعويته بدون مساندة الرعية ومعاونتهم وخدمتهم ! ! .

المبشر الذى لم يسكته الاضطهاد القاسى :

بعد موت استفانوس حدث أعنف اضطهاد وقع على الكنيسة ، وكان بطله الظاهر شاول الطرسوسى الذى كان كالوحش الزائر ينفث تهدداً وقتلا على جميع تلاميذ الرب ، وكانت الفرصة مؤاتية للمضطهدين بعد دعوة بيلاطس البنطى إلى روما ، وقبل أن يحل محله وال آخر ، وإذا كان من السهل فى العادة أن نفهم غضب الشيطان الذى يريد أن يبيد الكنيسة بالاضطهاد ، فمن الصعب أن نفهم حكمة الله فى السماح بالاضطهاد ، ولكن المعجزة العجيبة هى أن الاضطهاد يغير المواقع ، ويأتى بعكس ما يتصور الشيطان والناس ، ..

والدليل هنا واضح . . ظل التلاميذ فى مدينة أورشليم ما يقرب من ستهأعوام ما بين يوم الخمسين وموت استفانوس دون أن يتحركوا للتبشير والخدمة والشهادة خارجها . وأغلب الظن أنهم كانوا سيظلون هكذا حتى تأتى قوة دافعة تخرجهم عن نطاقهم الضيق . وجاءت هذه القوة بالاضطهاد الذى شتتهم فى كور اليهودية والسامرة . . . قصد الشيطان بالاضطهاد قتل الكنيسة فى مهدها . وقصد الله بالاضطهاد دفعها إلى الأمام بقوة عارمة . « فالذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة » (أع ٨ : ٤) ... وكان يمكن لفيلبس أن يقول لقد فتح استفانوس فمه فدفع حياته ثمناً لما تكلم به ، والحكمة فى وقت الاضطهاد تقتضى عدم الكلام . . . لكن فيلبس على العكس . وهو هارب من مدينة أورشليم ينتهى إلى مدينة من السامرة يرجح البعض أنها « سبست » التى أعطاها أغسطس قيصر لهيرودس الكبير ، وربما كان فى طريقه إلى مدينة قيصرية حيث موطنه ومسكنه . (أع ٢١ : ٨) وهناك فى السامرة ينادى برسالة الخلاص ! ! . . . وقبلت السامرة الكلمة الإلهية . وجاء الاضطهاد بعكس ما كان يحلم الشيطان ! ! . . . قال مارتن لوثر على قبر اثنين من الشهداء ماتا من أجل المسيح : « ادفعهما للرياح العاتية . واطرحهما فى أعماق البحار . فإن رمادهما سيتجمع مرة أخرى . وفى تربة هذا الرماد سيقوم زرع يثمر بالشهادة لمجد الله . استلم المسيح روحيهما . ولا يستطيع الشيطان أن يفتخر بالانتصار على الموتى . فمازالا ومازالا . وإن ماتا . يتكلمان ، والألسنة المبوقة ستعلن لبلاد كثيرة عن مجد المسيح المظفر ». . . إن الاضطهاد لا ينبغى أن يوقف المبشر الناجح عن خدمة الإنجيل ! ! . . .

المبشر الناجح فى العمل الفردى

بعض الناس يظنون أن النجاح يتم فقط فى النهضات العارمة ، وكلما أبصروا الجماهير تقدم على اجتماعات النهضة ، كلما أيقنوا أن نجاحهم عظيم ،

وربحهم مغر على البقاء فى المكان ، . . على أن فيلبس كان يعلم تماماً أن صيد النفوس يمكن أن يكون بالشبكة التى تجمع الكثير داخلها ، ويمكن أن يكون بالصنارة التى تمسك سمكة واحدة ، وإذا كان فيلبس فى السامرة قد استخدم الشبكة ، فإنه فى البرية قد استخدم الصنارة ، . . . جاءه صوت الله أن يترك النهضة الشاملة التى يقوم بها ، ويترك السامرة ، ويذهب إلى الصحراء ، . . وشخص آخر غير هذا الرجل كان يتردد فى القبول ، هل يترك الجماهير المقبلة عليه ، والتى تسمعه يوماً وراء آخر بنفس واحدة وإصغاء عظيم ، ويذهب إلى البرية حيث لايوجد أحد ، وحيث لا يرى الآلاف المؤلفة التى تستمع إلى خدمته كل صباح وكل مساء ، .. إنها تجربة عظيمة للواعظ ، . . ولكن فيلبس لم يتردد فى تغيير الموقع لأنه كان شديد اليقين بأن عمل الله ينتظره فى المكان المهجور ، كما فى المكان العظيم سواء بسواء ! ! . . إن هذا الدرس لا يعرفه كما قلنا سوى الممتلئين من روح الله ، والخاضعين فى طاعة كاملة لصوته الإلهى ، وهم على استعداد لأن يتعاملوا مع عشرات الألوف من الناس ، كما يتعاملون مع الفرد الواحد بالتمام ، ما داموا يتأكدون أنهم لا يتخطون فى الخدمة خبط عشواء ، بل يخضعون لتخطيط إلهى يسيرون عليه ويتقدمون بموجبه ! ! . . .

المبشر الذى يبذل ذاته بالتمام فى الخدمة :

كان فيلبس يحمل سمة المبشر العظيم الذى لا يخدم بجزء من كيانه ، أو بعض قلبه ، بل الذى يحيا الخدمة بكل قدراته ومشاعره ، فهو الذى يصب ثقله الكامل فيها ، إذا جاز التعبير ، إن الخدمة عند بعض الخدام نوع من الواجب ، يقومون به ، كمهنة لابد منها ، أو كعمل يحتمه ما ألف الناس من تقاليد أو منفعة ، دون أن تكون عصير قلوبهم ، وسكيب حبهم لسيدهم وربهم ، لكنها لم تكن كذلك عند فيلبس ، إنك إذ تلاحظ خدمته

فى السامرة : « وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التى صنعها . لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم . وكثيرون من المفلوجين والعرج شفوا » . . وفى البرية : « فبادر إليه فيلبس » وتعنى فى الأصل ركض ليقترب من مركبة الوزير . . . . إنه الرجل الراكض الملتهب فى الخدمة المقدسة ! !... كانت الخدمة من جانب فيلبس تحمل ذات الاحساس الذى ملأ يوحنانوكس وهو يصرخ إلى الله قائلا : هبنى اسكتلندا وإلا فأنا أموت ! ! . . وعندما يشعر الخادم بأن الخدمة التى يقدمها تعنى تماماً الحياة أو الموت بالنسبة له ، .. فنحن بصدد الخادم الذى لابد أن يجد ثمراً متكاثراً فى الخدمة ! ! . . .

المبشر الذى كان سلاحه الكلمة الالهية :

كانت قوة فيلبس فى اعتماده على كلمة الله ، والتى هى سيف الروح الذى يخترق القلوب ، ويدخل إلى النخاع فى أعماق الإنسان . والمشهد العظيم لسلطان هذه الكلمة ، نجده فى ذلك الحوار الرائع الذى دار بينه وبين وزير كنداكة ،ومن واجبنا أن نحيى الوزير هنا الذى لم يكن يقرأ الكلمة فحسب . بل يقرؤها بصوت عال مسموع ، وهنا نسأل السؤال الذى وجهه ألكسندر هوايت للكثيرين فى رحلاتهم : هل يحملون الكتاب المقدس معهم فى الرحلة ، وهل يهتمون بقراءتها وهم على سفر فى مركباتهم أو فى قطارات السكك الحديدية أو ما أشبه من وسائل المواصلات ، . . أم يصحبون غيره من الكتب والمجلات والصحف وغيرها مما « يقتلون » به وقتهم ! ! . . . لكن وزير كنداكة كان يحمل كتاب الكتب ، كان يحمل العهد القديم معه ، فى سفرته وعودته إلى بلاده ، وكان يقرأ بصوت مسموع كتاباً مغلقاً بالنسبة له ، .. ولكنه مفتوح بالنسبة لفيلبس الواعظ المبشر . هل يدرك المبشرون والوعاظ كم فى الكلمة الإلهية من قوة وفاعلية وحياة : « لأن كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل

سيف ذى حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته » (عب ٤ : ١٢) . . . وإذا كان هناك من أمل فى أى عصر من العصور ، فإن هذا الأمل مرتبط بالكتاب المقدس ، ويسرنا أن الاتجاه فى الكنائس التقليدية الآن سواء كان فى الكنيسة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية هو نحو دراسة الكتاب المقدس ، . . ونحن نذكر خادماً كاثوليكياً آمن برسالة الكتاب قبل أن تفتح الكنيسة فى ذلك العهد الباب أمام الشعب لدراسته ، وكان اسمه بدراجون ونفته الكنيسة الكاثوليكية إلى جزيرة بنايا احدى جزر الفلبين ولكنه كان يعتمد هناك على كلمة الله فى تبشير أهل الجزيرة ، . . وعندما اقترب من نهاية حياته ، قال لأهل الجزيرة : سيأتى إليكم يوماً من الأيام مرسلون يعلمونكم هذه الكلمة المباركة ، فانصتوا إليهم واستمعوا إلى رسالتهم ، . . وجاء المرسلون ليجدوا بعد تسعة أشهر من ابتداء خدمتهم أن ثلاثة عشر ألفاً من أبناء الجزيرة يطلبون الانضمام إلى عضوية الكنيسة ، وإذ ذهلوا لهذه النتيجة العجيبة ، عرفوا أن خادماً من خدام الله السابقين ألقى البذار التى شقت طريقها فى الأرض الجيدة وأتت بمثل هذا المحصول العظيم الهائل ! ! . . .

المبشر الذى كان المسيح هدفه الوحيد :

« فانحدر فيلبس إلى مدينة من السامرة وكان يكرز لهم بالمسيح » ، « ففتح فيلبس فاه وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع (أع ٨ : ٥ و٣٥) » . كانت السامرة فى حاجة إلى المسيح ، وكان وزير كنداكة فى حاجة إلى المسيح ، . . . وكانت رسالة فيلبس دائماً « المسيح » ، لا تسلنى عن فصاحة الرجل أو قوة بلاغته أو جمال أدائه كواعظ عظيم ممتاز ! ! . . . مهما يحمل من فم ذهبى أو لسان فضى ، فإن عظمة رسالته كامنة فى شخص المسيح ، فإذا جاء سيمون الساحر بسحره ، فإن فى شخصية المسيح ماهو أروع

وأسمى وأكثر جاذبية من كل سحر فى الحياة ، . . . وإذا كان الوزير يسير فى رحلته مع الحياة ، وهو يبحث عن شىء أكثر من مال الحبشة الذى هو وزير خزائنها ، وعن عظمة الوزارة التى يجلس على كرسيها ، شىء أسمى وأجل وأعظم وأبهج يأخذه لنفسه ولبلاده التى هو عائد إليها ، . . فلا يمكن أن يشبعه سوى يسوع المسيح — وعلى وجه الخصوص — فى حبه وحنوه وإحسانه وصليبه ، . . . لست أعتقد كثيراً فى التقليد الذى يقول إن وزير كنداكة ، وقد تحول من الوثنية إلى اليهودية ، قد قبلته ، اليهودية بتحفظ وعدم ترحيب كامل ، لأنه كان خصياً ، ومع ذلك فقد كان إنساناً مجداً يبحث فى الظل عن الحق ، وهو شبه ضائع إلى أن أشرق عليه نور المسيح ،.. وهو صورة لملايين الناس التى قد تملك الكثير ولكنها تعيش بؤسها حتى تعرف فرحها الكامل فى الواحد يسوع المسيح ! ! .. فى أيام نابليون الثالث ذهب شاب من نبلاء فرنسا إلى لندن ليستشير طبيباً شهيراً تخصص فى الأمراض النفسية لأنه كان يعانى حالة خاصة سببت له آلاماً نفسية مريرة ، وبعد أن فحصه الطبيب رأى أن هناك شيئاً يسيطر على فكره ، فسأله ما الذى يزعجك . . هل لديك آمال كبار أخفقت فى تحقيقها ! ! ؟ فقال : لا ! إنى فى مركز يلائم رغباتى . . فسأله هل لديك متاعب عائلية تقلقك ! ! ؟ فأجاب : كلا علاقتى العائلية على ما يرام ! . . فسأله : هل لك أعداء تخافهم ! ! ؟ أجاب : كلا ! ! فسأله هل فقدت بعض الشهرة فى بلدك فأجاب بالنفى . . تمهل الطبيب قليلا وسأله السؤال الباقى : أى موضوع يتسلط على فكرك أكثر من غيره ! ! . . وهنا فزع الشاب وقال : إنك تقترب من الموضوع الذى لا أود أن أتحدث عنه . . وهو موضوع الدين . لقد كان والدى ملحداً وكذلك جدى ، وسرت وراءهما ، . ولكنى منذ ثلاث سنوات والسؤال الذى يطاردنى هو : أين ستقضى الأبدية ! ! ؟

وظهر أمامى الله وكأنما هو جالس على عرشه ليحاسبنى ، ولا أستطيع التخلص من هذه الفكرة ! ! . . وعندئذ قال الطبيب : هل هذا هو الذى سبب لك الفزع ؟ أتخشى أنك أخطأت الطبيب ! ! . فصرخ الشاب : ألا تستطيع أن تساعدنى . فقال له : « اجلس وكن هادئاً لقد كنت منذ سنوات ملحداً ولم أكن أؤمن بالله ، وكنت فى نفس الحالة التى أنت عليها الآن ، . ولكن عندى كتاباً قديماً فيه دواؤك » وفتح الطبيب ليقرأ : « وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا » . . . وكوزير كنداكة سأل الشاب : ما معنى هذا يا دكتور ؟ فأجاب : إن الرب يسوع المسيح قد أخذ مكان الناس الخطاة وحمل عقابهم ! . . فسأله : هل هذا ممكن يا دكتور ؟ ياله من جمال إلهى عجيب. البار يموت من أجل الخطاة ! ! .. هذا مدهش . هل تؤمن بهذا يا دكتور ! ! ؟ فأجابه : نعم ، وهذا ما أخرجنى من الظلام إلى النور . فسأله الشاب : وماذا أفعل إذاً ! ؟ فأجابه : أن تقبل هذا العمل العظيم لنفسك وتستريح فيما عمله لك الله الكريم ، وأنا سأصلى من أجلك على أن تعدنى أن تخبرنى بقبولك هذا الخلاص المجانى العظيم ! ! . . وبعد أسبوعين من رحيل الشاب إلى فرنسا أرسل يخبره بأنه قبل المسيح مخلصاً ، وأنه شفى تماماً من كل مرضه ! ! . . . أيها القارىء الكريم لعل فرح فيلبس ووزير كنداكة وفرح هذا الشاب الفرنسى ، وفرحى فى المسيح يكون قد وصلك أنت أيضاً لتشترك مع جميع المخلصين على وجه الأرض بفرح الخلاص الذى لا ينطق به ومجيد ! ! . . .

١٢٧
سيمون الساحر

« وسيمون ايضا نفسه آمن ، ولما اعتمد كان يلازم فيلبس » (أع ٨ : ١٣) .

لعل من أعجب القصص التى تروى أن قسيساً لأحد السجون فى الغرب شاهد شخصاً حكم عليه بالإعدام قلقاً جداً ومضطرباً ، وفى حالة نفسية منزعجة ، فحدثه عن الفادى وقوته على خلاص الخطاة مهما كانوا ، ومهما كانت خطاياهم ، وبدا كما لو أن كلماته قد وجدت قلباً مستعداً ، ورأى القسيس أن هناك باباً يطرقه لإلغاء حكم الإعدام فطرقه ، ونجح وأراد أن يختبر حقيقة تدين السجين فى حالة معرفته بنجاته ، فتحدث معه بحذر ، وساقه إلى التفكير ، ماذا يحدث وكيف يسلك إذا علم أن حكم الموت سيرفع عنه ، ولم يجب السجين مباشرة ، ولكنه بدأ يسأل أسئلة تمكن منها أن يدرك قصد خادم الله ، وإذ أدرك أن العفو قد شمله طرح الكتاب المقدس ، وشكر القسيس بأدب ، وأخبره أنه لم يعد بعد فى حاجة إليه أو فى حاجة إلى كتابه ! ! . قد يصعب على المرء تصديق مثل هذه القصة ، لما يبدو فيها من غرابة وشذوذ .

ولكن أليست الحياة البشرية نفسها ممتلئة بكل ماهو غريب وشاذ ! . . وألم يتحدث السيد المسيح عن ذلك النوع من الناس : « المزروع على الأماكن المحجرة هو الذى يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح . ولكن ليس له أصل فى ذاته بل هو إلى حين. فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر » . . وتحدث أيضاً عن « المزروع بين الشوك . . . الذى يسمع الكلمة وهم العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر » . . وإذا كان الأمر كذلك . فإن من حقنا أن ندرس قصة سيمون الذى لم يؤمن فحسب ، بل اعتمد ، ولازم فيلبس ، دون أن يكون قلبه مستقيماً أمام الله ، . . وكان فى مرارة المر ورباط الظلم إلى الدرجة التى أراد فيها أن يستخدم أقدس موهبة لخدمة أنجس الأغراض ! ! . . وكان الرائد البشع أمام أولئك الذين عرفهم التاريخ فيما بعد « بالسيمونيين » الذين يقتنون الموهبه الدينية بالمال ! ! . . وها نحن نتعرض لقصته فيما يلى :

سيمون وموجة النهضة العارمة فى السامرة :

لايمكن أن نتعرف على قصة سيمون الساحر فى السامرة ، قبل أن نتذكر أن السامريين ، هم ذلك الخليط الذى جاء إلى الأرض المقدسة وكانوا مزاجاً من الدين والخرافة معاً . .. اختلط الكثيرون منهم باليهود بالمعايشة والتزاوج والمصاهرة والمعاملة ، حتى أن السامرية وهى فى أعماق فسادها تقول للسيد المسيح : « ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه » . . . (يو ٤ : ١٢) . فهى فى أعماق فسادها ووحلها لا تستنكف من أن تدعو نفسها بنت يعقوب وذريته ! ! ... ولهذا فالسامرى يصلح للتجاوب بعمق وعنف ورغبة مع النقيضين على حد سواء . فإذا وقع تحت تأثير الخرافة . فهو غارق فيها إلى الذقن . ولا يستطيع أن يفرق بينها وبين عمل الله . بل كل شئ عنده هو عمل الله ، حتى ولو كان سحراً .

وقد اندفعت المدينة كلها بغيرة وحماس وراء سيمون : « وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير ، قائلين هذا هو قوة الله العظيمة » ... (أع ٨ : ١٠) وظل الرجل متسلطاً على المدينة حتى ظهر فى الأفق فيلبس ، وإذا بالمد الكاسح يجرف فى طريقه كل شيء ، وإذا بالموجة القوية تدفع المدينة . وتدفع أيضاً سيمون الساحر . أمامها ! ! . . .

وربما لانفهم ما حدث فى السامرة فى ذلك الوقت . قبل أن نفهم الظواهر الكاسحة التى تحدث فى العادة عندما يهب روح الله بسلطانه القوى على النفوس فى نهضة من النهضات . وقد كتب أوزوالد سميث فى كتابه « النهضة التى نحتاج إليها » أمثلة متعددة . نذكر منها النهضة التى حدثت فى ويلز عام ١٩٠٤ وكانت تلك البقعة الصخرية من الجزائر البريطانية قد ارتدت بعيداً عن الله ، وسارت فيها الخطية سافرة بلا حياء أو خجل فى الشوارع والمدارس ودور العمل وأماكن اللهو . وكان الحضور فى الكنائس ضعيفاً جداً أو أوشك أن ينعدم . وصدق القول المكتوب : « رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى صارت علىّ ثقلا . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم وإن كثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . . . شعب متمرد سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره . شعب يغيظنى بوجهى » (إش ١ : ١٤ و١٥ ، ٦٥ : ٢ و٣) وفجأة وبدون سابق انذار وكالاعصار العاتى الجبار اكتسح روح الله الأراضى الصخرية ، فامتلأت الكنائس بالجماهير الغفيرة حتى كان يتعذر على المئات أن يجدوا مكاناً للدخول ! ! . . واستمرت الاجتماعات من الساعة العاشرة صباحاً ، حتى منتصف الليل . وكانت تعقد ثلاث خدمات فى اليوم الواحد ، . . كان روبرت ايفان هو الآلة البشرية فى يد القدير . . . لم تر ويلز شيئاً مثل هذا من قبل . تجدد الكفرة والملحدون والسكيرون والمقامرون ، وكانت الاعترافات بأفظع الخطايا تسمع فى كل مكان . وسددت الديون التى

لم تكن قد سددت من قبل . وأقفلت المسارح ودور السينما والمقاهى أبوابها لأنها لم تجد من يرتادها ، . . وفى مدة خمسة أسابيع انضم إلى الكنيسة عشرون ألف شخص ! ! . . . ومن الغريب أن روبرت إيفان لم يكن خادماً مرتسما ولكنه كان أحد أفراد الشعب ، يعمل عاملا فى منجم للفحم ، ولكنه ظل يصلى لمدة ثلاثة عشر عاماً دون كلل أو ملل لتحدث النهضة . . . وجاءت النهضة على يدى العامل الفقير البسيط ، كما حدثت فى السامرة على يدى فيلبس المبشر بيسوع المسيح ! ! . . .

كانت النهضة فى السامرة أول صورة لعمل الله العجيب خارج أورشليم بعد يوم الخمسين ، ومن السهل فى مثل هذه الظروف ، أن تأخذ روح الجماعات الناهضة فى موجتها وحماسها الجماهيرى الكثيرين الذين يقبلون الكلمة بفرح ولكن ليس لهم أصل فى ذواتهم ، وما أسرع ما يتعثرون عند الضيق أو الاضطهاد أو أولئك الذين يعيشون بين هم العالم وغرور الغنى وما أيسر أن تخنق كلمة الله فى حياتهم فتصير بلا ثمر ! ! . . وإذا كان السيد نفسه قد كشف هذه الحقيقة فيمن ساروا وراءه ، وتتلمذوا على يديه ، دون أن يرتفعوا إلى مستوى التلمذة الصحيحة ، وعندما واجههم بالحقيقة : « فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا : « إن هذا الكلام صعب . من يقدر أن يسمعه .. من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه » (يو ٦ : ٦٠ ، ٦٦) . . . وإذا كان كثيرون ، فى كل النهضات التى ظهرت فى التاريخ ، لم يستمروا إلى النهاية بل عادوا إلى الوراء ! ! .. لم يعد مستبعداً أن سيمون الساحر بعدما آمن واعتمد ، يعود إلى حياته القديمة وسحره الخداع ! ! . . .

سيمون والفرق بين السحر والدين :

على أن سيمون وشعب السامرة يبسطان أمامنا قضية أخرى ألا

وهى ارتباط الدين بالسحر والعلاقة الطردية أو العكسية التى يمكن أن تفرق بينهما ، أو تجمعهما فى إطار واحد . ومن الملاحظ أن المدينة كانت تتبع سيمون وتعتبره قوة الله العظيمة . فلما جاء فيلبس . جاء ليفصل الأصل عن التقليد، والصحيح عن الزائف . . . والسر يرجع . بادىء ذى بدء ، إلى أن الدين أو السحر يواجهان فى الحقيقة علاقة الإنسان بغير المنظور ، وكلاهما يحاول تجاوز المنظور إلى ما وراء المنظور . ومن العجيب أن الصراع بين بطرس وسيمون انتهى إلى الفرقة الكاملة بينهما . وتقول بعض التقاليد إن سيمون تحول بعد ذلك ليكون مؤسساً وزعيماً للمدرسة الغنوسية التى كانت من أعدى أعداء المسيحية . وقد ظهرت فى محيط الكنيسة ، فى القرن الثانى والثالث ، تحاول تحطيمها من الداخل والكلمة «غنوسية» من أصل يونانى ومعناها «معرفة» ، وتطلق على مجموعة من الشيع أو مدارس الفكر التى أشار إليها الكثيرون من اللاهوتيين أمثال إيرانيوس وترتليانوس وهيبوليتس ، وكانوا ينظرون إليها كهرطقة جاءت من محاولة مزج الفكر المسيحى بالفلسفة الوثنية ، أو علم التنجيم بالبدع السرية التى ارتبطت بالديانات اليونانية ، وقد قبل بعض الباحثين والعلماء الجزء الأكبر من هذه الأفكار المنحدرة من العصور المسيحية الأولى ، وأطلقوا على الغنوسية « الإغريقية المتطرفة للتصور المسيحى » . . ومن المؤكد أن الغنوسية كان لها جذور فكرية يونانية من قبل مولد المسيحية ، ونجد فى رسالة يوحنا الأولى والرسائل الرعوية تحذيراً واضحاً منها ، . . وأغلب الظن أنها محاولة للتوفيق بين مختلف الآراء اليهودية والوثنية والشرقية ، فى الوحى ، وقضية الخير والشر ، ومصير الإنسان ، . . ولعل أظهر مدرسة غنوسية كانت مدرسة فالانتينوس الذى علم فى الإسكندرية وروما فى منتصف القرن الثانى الميلادى ، ويقوم تصورها على أنه فوق الوجود ووراءه يقوم الآب الأعلى ، الجوهر غير المولود ، والأيون أو السرمد الكامل ،

وإلى جانبه يوجد الصمت الذى هو فكره ، ومنه ينبثق على التتابع ثلاثة أزواج من الأيونات ، الحق « النوس والأليثيا » والحياة الذى هو « اللوجوس والزيو » والإنسان والكنيسة « الانثروبوس والأكليسية » ومن التفاعل بين هذه الأيونات تأتى الأيونات الأخرى كالحكمة والصليب والروح القدس ! ! .. وتسير هذه المدرسة فى تصورات أشبه بالأدغال المتشابكة ، محاولة أن تفسر كل شىء بتفسير غيبى غريب حتى يصح أن نقول إن الغنوسية ليست ديناً أو فلسفة بقدر ما هى نظرية تصوفية عن الوجود ، . . وهناك مدرسة غنوسية أخرى لرجل اسمه باسيليوس وهو سورى المولد حاضر فى الإسكندرية من عام ١٢٠ — ١٤٠ م ، وكان نظامه يشير إلى التدرج حتى أنه عد السموات بثلثمائة وخمس وستين ، وكانت آراؤه ممتلئة بالخيالات والتصورات الغيبية ، . . وقد تعرض الغنوسيون لفكرة الخلاص ، والخلاص عندهم يأتى من المعرفة . وإن رسالة الوسطاء الإلهيين هى أن يفتحوا عينى الإنسان للحق ، والإنسان الروحى فى نظرهم هو الذى يخلص بالمعرفة ، أو فى عبارة أخرى إنه عندما يتعمق فى الغيبيات الغنوسية بكل أعماقها ، يعرف من هو وكيف جاء إلى وضعه الراهن ، . . . وكيف يسير . وفى مثل هذه التربة التى تتجاوز المنظور يمكن أن ينشأ السحر والتنجيم والعرافة والأضاليل جنباً إلى جنب أو على اختلاط ومزج بالتعاليم الدينية . . . فإذا أراد الإنسان أن يعرف كيف يفرق بين الصحيح والباطل . وبين الحق والكذب ، وبين الصدق والضلال ، أو فى لغة أخرى بين فيلبس وسيمون ، أو بين الدين والشعوذة ، ! . . . تعين عليه أن يعود ليرى الفرق بين موسى وهرون من جانب وبين السحرة المصريين من جانب آخر وبين عصا هرون التى تحولت إلى حية وبين العصى الأخرى التى ابتلعتها عصا هرون . وبين معجزات موسى واقرار العرافين بأن تلك تحمل اصبع الله ، . . وتعين عليه أن يرى بولس فى مواجهة

بار يشوع الساحر الذى كان يريد افساد الإيمان عند سرجيوس بولس ، . . .
فإذا وقفت القوة المعجزية أمامه عند حدود الإثارة أو دون أن تكون هناك فائدة تتجاوز الجسد إلى الروح . أو إذا كانت للاستغلال البعيد عن الإحسان والرحمة ، فهى قوة شيطانية أو بشرية مرتبطة بخفة اليد أو ما أشبه من وسائل مخادعة . لا يمكن أن تكون من الله أو بفعله وقوته ! ! . . . وهكذا بدا سيمون الساحر . على النقيض تماماً من فيلبس . أو هكذا بدت الشعوذة فى مواجهة الحق الإلهى الواضح وضوح النهار ! ! . . . وهكذا تحولت المدينة بأكملها والمشعوذ نفسه فى الاتجاه الصحيح الكريم من صغيرهم إلى كبيرهم على حد سواء ! ! . . .

سيمون المرتد عن الايمان :

هناك خلاف فى الرأى حول إيمان سيمون . فهناك من الشراح من يعتقد أن سيمون لم يعرف الإيمان يوماً واحداً . وأنه تظاهر به للمنفعة . وسيراً فى التيار الذى جر المدينة بأكملها وراء فيلبس ، وأنه كان نوعاً من المداورة السحرية التى قصد منها أن يتمم أهدافه . ولكن بصورة أخرى . ... غير أن هناك من يرى أن سيمون آمن إذ أخذ بالموجة العارمة التى حملت الجماهير الغفيرة . وأنه وقع تحت تأثير هذه الانفعالات . وأنه اعتمد . كما رأى غيره يفعل ذلك. وأنه كان نوعاً من الزوان فى وسط الحنطة ليس من السهل أن يفرق بينه وبين الآخرين . وأنه مثل الكثيرين الذين يستجيبون فى نشوتهم إلى حماس الدعوة الدينية وغيرتها ، وعلى وجه الخصوص عندما يرون الآخرين يتمتعون بفرح عجيب لا يمكن أن يكون مصدره بشرياً أو إنسانياً على الاطلاق ، . . . وأنه فى الحقيقة كان مخدوعاً لم يصل الإيمان به إلى حد التجديد والتغيير الكلى والخليقة الجديدة فى المسيح يسوع ، وأغلب الظن

أن هناك سببين أساسيين وقفا فى طريقه ، وهما على الدوام من أخطر المعطلات فى الحياة الروحية وهما :

الشـــهرة الضـــائعة :

هل سمعت عن ذلك الجندى الذى ضاق بالحياة . وضاقت الحياة به . فقرر الانتحار على ما تذهب القصة ، . ولكنه سأل نفسه قائلا : إذا انتحرت فسأذهب مجهولا دون أن يدرى بى أحد ! ! . . فلماذا لا أنتحر واسجل اسمى فى التاريخ فى الوقت نفسه . ولن يكون ذلك إلا بقتل الملك . قبل أن أنتحر أو أقتل ! ! . . وذات يوم صوب سلاحه إلى الملك ، فأخطأه وقبض عليه ، وفى التحقيق عرف الملك قصده ، . . وقال : إن حكمت عليه الآن فأنا أحقق له مقصده . وانتوى الملك أمراً آخر . فقرر إخلاء سبيله . بل ورفع رتبته ، إذ جعله ضابطاً . وأخذ يشجعه على الحياة ويبعده عن التشاؤم ، ويدفعه فى سلم الترقية حتى جعله وزيراً . . . وتغير كل شىء فى نظر الرجل ، . . وقال له الملك : لقد قررت أن أزوجك ابنتى . . وكانت هذه قمة أحلامه ! ! ! . ولم تكن الزوجة سوى المقصلة التى أعدها له فى ميدان عام ! ! . . . وشتان بين الموت للجندى والموت للوزير صاحب المركز المرموق ، ... فإذا كان سيمون قد بلغ أقصى الشهرة . وأضحى قبلة أنظار المدينة ، فإنه لايستطيع أن يرى الجميع يتحولون عنه إلى المبشر الجديد فيلبس ، . . والموت أهون عنده من فقدان الشهرة العظيمة التى وصل إليها . . . . كان ثموستيكليس لا يعرف النوم كلما سمع الناس فى أثينا يمتدحون أرستيدس ، . . . ولست أعلم كم من الأيام والليالى قضاها الرجل دون أن يذوق طعم النوم والمدينة كلها متجهة إلى فيلبس ! ! . . . ومن الناس من يريد أن يكون الأول فى جهنم وليس الآخر فى الجنة ! ! . . .

المـال المفقود :

على أن إيمان سيمون تعرض لتجربة أقسى وأشد ، . . لقد كان الرجل يكسب ذهباً من سحره وشعوذته ، فكان المال يتدفق عليه من كل مكان ، والرجل مدعى أو ينصب أو يغش أو يخدع ، فكل شيء مباح فى سبيل المال ، . . . وها قد وفد إلى المدينة رجل لا يطلب مالا ، ولا يعطى شيئاً بمقابل ، ويده مبسوطة للمساعدة والإحسان والخير والرفق والرحمة ، . . . وجف النهر الذى كان يتجه إلى الساحر . ونضب المورد . وصرخ القلب غير المستقيم : وما الفائدة من الإيمان وما المنفعة من الدين إذا كان لايغدق المادة بغير حدود ! ! . . . حقاً إن « محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة » (اتى ٦ : ١٠) !! . . .

فإذا كان حب الظهور يقصم الظهور كما يقولون . فإن السير وراء المال يميل بصاحبه على الدوام إلى الخراب أو الضياع ، فإذا اجتمع الاثنان معاً . فانهما يقودان إلى الهلاك المحقق الذى ذهب إليه سيمون الساحر ! ! ...

سيمون المرير النفس :

كان سيمون أشبه بالوعل الذى يتخبط فى شبكة أو الأسد الذى أسر فى قفص من حديد ، أو النمر المزمجر الذى أمسك بالحبال القوية ، وذلك ما وصفه به الرسول بطرس فى القول : « لأنى أراك فى مرارة المر ورباط الظلم » ... (أع ٨ : ٢٣) وهل يحصد القلب غير المستقيم سوى ذلك . . . لقد امتلأ قلبه بالحسد من فيلبس ، والقلب الحسود لا يمكن أن يعرف الهدوء والراحة والأمن والسلام طالما بقى المحسود قائماً أمامه ، والموضوع الذى يسبب الحسد بارزاً وواضحاً ! ! . . . وقديماً قال الشاعر العربى :

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتلـه

كالنـــار تأكل بعضها ... إن لم تجـــد ما تأكله

لقد تحولت تجارة الرجل الضائعة لهيباً يحرق حياته بأكملها ، وهناك تقليد يقول أنه خرج من المدينة إلى روما لعله يعوض فى العاصمة ما فاته من الخسارة فى المدينة التى اكتسحها الإيمان المسيحى ! ! . . .

ومن الثابت على الدوام إن الانقسام الحسى أو الإزدواج النفسى ، أو التأرجح بين الحق والباطل . لا يمكن أن يعطى الإنسان راحة أو هدوءاً أو استقراراً أبداً . . . . وهل يستطيع أن يجمع بين مبادئ المسيحية وحبه المال وبين إنكار الذات وشهوة الشهرة ، . . وهل يمكن أن يكون غنياً وفقيراً فى الوقت عينه ، أو طماعاً ومتعففاً فى ذات الوقت . . . مسكين هذا الرجل . ومسكين كل إنسان يعيش نظيره يحاول أن يجمع بين المسيح وبليعال وبين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين روح الله والشيطان المستقر فى قلبه ! ! . . . إن عذاب مثل هذا الإنسان ليس شيئاً خارجاً عنه ، بل هو فى الداخل كامن فى أعماق نفسه فى « قلبه غير المستقيم أمام الله » . . .

سيمون والتجارة القبيحة المحرمة :

بلغ الرجل بشاعته الكاملة ، عندما « خشخش » بجيبه للرسول بطرس ، .. وهو يؤكد له أن الدنيا تجارة ، مهما اختلفت بضاعتها ، والشاطر هو الذى يحسن التجارة ويستثمرها وينميها ، . . . كان يتاجر قبلا بالسحر ، فلماذا لا يتاجر بالدين أيضاً ، وهو ساحر فى جلب المال ينتزعه من جيوب الناس بخفة يد لا نظير لها ، والدين يمكن أن يكون سلعة كباقى السلع تباع وتشترى ، . . وبطرس كما هو باد من مظهره رجل فقير ، قال ذات مرة لمن يطلب إحساناً : « ليس لى فضة ولا ذهب » .. (أع ٣ : ٦) وسيمون عنده الكثير من الفضة والذهب ، فجيبه ممتلىء ، وبيته ممتلىء ، فإذا لم يكف ما فى جيبه ، فإنه يستطيع أن يركض إلى البيت ، ويأتى بالكثير ، وبطرس يستحق

أن يعطى ، فهو رجل طيب ، ومحتاج . ولا يمانع بتة ، وسيكون مجنوناً لو رفض العرض السخى المقدم له ! ! . . .

ومع أن بطرس رفض العرض بالقسوة البالغة فى القول : « لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تمتنى موهبة الله بدراهم » . . (أع ٨ : ٢٠) إلا أنه منذ ذلك التاريخ شاع عرض الرجل فى الكنائس عندما انحطت وبلغت الحضيض . وأصبحت الوظائف الكنسية تشترى بالآلاف وعشرات الآلاف من الجنيهات . وأطلق على ذلك « السيمونية » نسبة إلى سيمون الساحر القديم الذى جعل الوظيفة الكنسية سلعة تباع وتشترى ، ويقدر عليها المقامرون الذين حولوا بيت الله إلى مغارة لصوص ! ! . . .

ومن المؤسف أن هذه التجارة راجت بشدة فى أطوار تاريخية متعددة بين كثيرين من رجال الدين الذين جاءوا بعد بطرس الذى ألقى بدراهم سيمون معه إلى الضياع والهلاك ! ! . . .

امتلأ بطرس بالغضب المقدس ، وهو يتحدث إلى الرجل ، ولعل هذا الغضب كان نوعاً من الرحمة ، لو أن سيمون وعاها وادركها ، لقد بين له الرسول بشاعة عمله . وفى الوقت عينه فتح أمامه طريق التوبة أمام الله ، بالندم والصلاة . . . وحسم بطرس الأمر فى كل التاريخ إذ لا نصيب أو قرعة لمن يستخدم المال وسيلة للقفز إلى الخدمة الكنسية ، وهى لمن يفعل ذلك طريق إلى الهلاك والضياع الأبدى ! ! . . .

إن الرواية الكتابية تشجع على التصور الذى جاء فى التقليد من أن الرجل

تحول عدوا سافراً للمسيحية فى كل مكان ، ودخل فى الصراع معها كالمرتد الذى يريد أن يتجاهل ارتداده أو يغطيه بالحرب على ما كان يعتنقه أو يؤمن به ، وذهب سيمون إلى جحيمه الأبدى ، وما تزال السيمونية تلعب دورها التعس ، وأغلب الظن أنها ستظل تفعل ذلك ؛ إلى أن يأتى المسيح ويقف كل واحد أمام عرشه ليعطى حساباً عما فعل بالجسد خيراً كان أم شراً ! ! ...

١٢٨
كرنيليوس

« وكان فى قيصرية رجل اسمه كرنيليوس قائد مئة من الكتيبة التى تدعى الايطالية » (أع ١٠ : ١) .

كانت البنت الصغيرة التى تبلغ الثالثة من عمرها تركب سيارة أجرة مع أمها ، . . وكان سائق السيارة رجلا زنجياً ، ونظرت البنت البيضاء إلى الرجل ، وقالت لأمها : لماذا يا أمى هذا الرجل أسود ! ! ؟ وارتبكت الأم وأرادت أن تتفادى ما سببه كلام ابنتها من الحرج فقالت لصغيرتها : إن الله يا ابنتى يصنع الناس ، كما يصنع الزهور فى الحدائق بألوان مختلفة ، بعضها أسود ، وبعضها أبيض . وبعضها أصفر ، وجمال الحديقة يظهر فى تنوع الزهور واختلاف ألوانها . . وكلما اختلفت الألوان وتعددت كلما كان المنظر أبهى وأجمل ! ! . . وعندما نزلت الأم وابنتها من السيارة ، قال السائق للسيدة : يا سيدتى عندما تكبر ابنتى ، وتستطيع أن تسألنى ذات السؤال : لماذا يخلق الله أناساً مختلفى الألوان ، فلن يكون هناك جواب أفضل من الجواب

الذى استمعت إليه الآن منك ! ! . . . عندما نقرأ قصة كرنيليوس ، يمكن أن نتطلع إلى حديقة الله ، ونحن نرى أجمل الزهور من الأمم التى نبتت فى أرضها ، وكان كرنيليوس من الأوائل الذين نبتوا فى جنة الله العظيمة . . . وكان بطرس فى حاجة إلى أن يتعلم الدرس الذى تعلمته الصغيرة البيضاء من أمها . فلا يرى الجنة قاصرة على اليهود ، بل فيها للأمم أيضاً مكان ! ! .. ولذلك فقصة كرنيليوس من أجمل القصص التى تروى وتذكر وهانحن نتأملها فيما يلى :

كرنيليوس والطريق :

عندما نذكر كلمة الطريق ، ربما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أننا نعنى طريق كرنيليوس إلى بطرس أو العكس . وكانت المسافة بين قيصرية ، التى كان يسكن فيها كرنيليوس . ويافا التى كان بطرس موجوداً فيها فى بيت سمعان الدباغ عند البحر . حوالى ثلاثين ميلا . . . ، أو قد نرى الطريق فى رحلة كرنيليوس من بلاده إيطاليا إلى اليهودية حيث تعرف هناك على اله إسرائيل . وجد فى البحث عن الله ، متأثراً بالديانة اليهودية ، ومحاولا أن يشق الطريق إلى الله مما تعلمه من هذه الديانة ! ! ... إذا قرأنا قصة كرنيليوس بهذا المعنى ، فكأنما نقلب الوضع ، ونسير الطريق فى اتجاه عكسى . . . . إن مفتاح الطريق يكمن فى عبارة صغيرة فى قول الله لبطرس ثلاث مرات : « ماطهره الله » (أع ١٠ : ١٥) وهذه فى رأيى هى التى تعطينا الرؤية الصحيحة للطريق من أوله إلى آخره ، . . إن القصة من أولها إلى آخرها ليست بحث كرنيليوس عن الله ، بل بحث الله عن كرنيليوس ، . . كان كرنيليوس من الكتيبة التى تدعى الإيطالية ، وهى واحدة من أشهر كتائب الرومان ، وفى توزيع هذه الكتائب ، كان يمكن أن تذهب هنا أو هناك بعيداً عن أرض إسرائيل ، وبعيداً عن أية معرفة ممكنة عن الديانة اليهودية ، أو المسيحية التى

ربما سمع عنها كرنيليوس فى ظهور حركتها الوليدة . وشمسها التى بزغت على أرض فلسطين . . . غير أن ريح الله دفعت الرجل إلى هناك ليتنسم رائحة الحق الإلهى للمرة الأولى ويرى شعاعات النور تبزغ فى وقت اشتد به القلق الفكرى بحثاً عن الله فى كل مكان . جاء بكرنيليوس وحدد مكانه فى قيصرية فى آخر الحدود الشمالية لأرض فلسطين ! ! . . ونحن لا نعلم الدرجة الاجتماعية التى وصل إليها الرجل ، وهل كان من الطبقة العالية فى روما أو من طبقة العبيد المحررين الذين حررهم أحد أباطرة الرومان . وكان واحداً ممن يدعوهم دين فرار الباحثين عن الله كسقراط . وسينكا . وأبيكتيتوس . ومرقس أوريليوس قديما . وغاندى . وطاغور فى العصور الحديثة . عندما كان الأسقف أوكسام فى الهند سأل الشاعر طاغور عما يعنى الله بالنسبة له . فأجاب الشاعر : عندما كنت صغيراً أخذنى أبى ذات يوم فى الصباح قبل أن تشرق الشمس إلى إحدى الغابات . وقد هبت علينا نسمات الزهور والرياحين . وإذ استنشقنا هذه النسمات قال لى : إن الله فى النسمات إذ هو خالق الأرض ومبدعها . وعندما بزغ النور من خلال الأشجار قال لى : إن الله فى النور لأنه أراد أن يكشف عما فى العالم من جمال . وعندما أخذت الطيور تغنى قال يا ابنى إنك تعيش فى عالم الله المنسق والجميل . وأنا أرجو أن تعدنى من الآن ألا تفسد هذا العالم أو أن تجعل فى موسيقاه نشازاً . وأجاب طاغور : وهذا ما يعنيه الله بالنسبة لى ! ! . . . والذى لا شبهة فيه إن كرنيليوس كان كطاغور الشاعر عندما وطئت قدماه أرض فلسطين . . . لقد خرج من ظلام الوثنية ليواجه نور اليهودية ، ويواجه ما سمعه عن يسوع المسيح فى المسيحية ، واستنشق هواء جديداً بعد الاختناق الذى عاشه من قبل فى ظلال الحماقات البعيدة عن الحق . وسمع موسيقى لم يسمع فى أرضه وبلاده مثيلا لها . . . كان الجو الجديد بما فيه من أزهار وأطيار وأنوار

ينادى أعماقه الداخلية بأصوات ، لم يكن يعرف مصدرها حتى تبين آخر الأمر أنه روح الله الذى يتحرك ويناضل فى داخله بهذه الأصوات والأشواق المحببة إلى النفس ! ! . . . روى روبرت كتوزالد سبير فى أحد مؤلفاته القصة التالية ، قال : ذهبت إلى اجتماع دينى بعد ظهر الأحد فى مدينة نيويورك ووجدت هناك رجلا يعرض على الجمهور مجموعة صور هوفمان التى وضعها عن حياة يسوع ، وكان الرجل يملك مجموعة قيمة منها يعرضها للجمهور ولكنه أرجأ عرض صورة الصبي يسوع إلى آخر الصور. وعند عرضها قص الرواية التالية : قال ذهبت يوماً لأزور المصور المشهور هوفمان فأهدانى هذه النسخة الأولى من مجموعته عقب الفراغ منها فأخذتها ووضعتها فى مكتبي بنيويورك وحدث أن جاء فى يوم من الأيام أحد القضاة من المحكمة العليا لعمل من الأعمال ، فلمح هذه الصورة وانجذب إليها وتفرس فيها طوال الوقت وبعد انتهاء عمله نظر إليها قليلا ثم مضى ، ورجع فى الصباح التالى وقال أريد أن أرى صورة ذلك الصبي ، فسمحت له بذلك وعاد فى يوم تال مكررا الطلب نفسه ، فقلت له أدخل إلى مكتبي واعمل به ما تريد ، فما كان من القاضى إلا أن رجع إلىَّ بعد تأمل طويل والدموع فى عينيه قائلا : إن هذا الصبي غلبنى ، وتغيرت حياته بأكملها وأضحى خادماً للمسيح إذ كان يعلم فى مدرسة الأحد فى الكنيسة ! ! . . والسؤال هل الرجل هو الذى بحث عن الصورة ، أم أن الصورة هى التى جذبت الرجل ! ! ؟ ... إن الفضل الحقيقى لله أولا وأخيراً إذ يدعونا إلى ملكوت ابن محبته بمختلف الوسائل والمشوقات والمنبهات التى تحرك مشاعرنا ! ! . . ومن المحقق عند الكثيرين من المفسرين أنه لوترك لهذا الرجل الرغبة فى اختيار المكان الذى يمكن أن يعمل فيه لما اختار فلسطين أو قيصرية ، فقد كان المعروف دائماً ، إن هذه الأرض هى أقسى الأراضى التى يرغب الناس أن يكونوا فيها

لما فيها من تمرد تميز به اليهود على سائر الخلق فى الامبراطورية الرومانية القديمة، وإن قواد المئة كانوا يفضلون أية أماكن أخرى أكثر هدوءاً وأمناً وسلاماً، .. ولكن قصد الله مع الرجل كان أعظم وأكمل وأعمق ، . . وجاء الرجل إلى الأرض التى أسرت مشاعره وهزت أعماقه من الأساس ! ! . .

على أن السؤال مع ذلك هو إلى أى حد ارتبط الرجل باليهودية ! ! والاتجاه الغالب هو أنه لم يكن يهودياً دخيلا كامل التهود يمارس كل الفرائض اليهودية ، إنه كان كالكثيرين من الأمم الدخلاء الذين وقفوا على أعتاب اليهودية ، وأخذوا بمبادئها ومعتقداتها دون أن يتوغلوا فى فرائضها . . . لقد نبذ الرجل الآلهة الوثنية ، وآمن بالله الواحد الأحد الذى ينادى به اليهود ، ولم يكن إلهه مجرد الإله المجهـــول الذى تحدث عنه بولس إلى الأثينويين ، لقد عرف إله إسرائيل ، وآمن به . وبدا له أن الله ، كما ينادى به الفكر اليهودى ، أمراً معقولا ومقبولا ، . . بل إن الأمر أضحى أكثر من ذلك إذ أن مشاعر هذا الإنسان اتجهت بكليتها إلى الله ، وهو يراه إلها عظيماً مهوباً محترماً يخافه تماماً بكل احترام واجلال : « خائف الله » . . على أن هذا الخوف ليس نوعاً من الفزع والتطير والرهبة التى كانت تحمل الوثنى على الخشية من الآلهة . بل هو نوع من التقوى : « وهو تقى » يتورع عن ارتكاب الإثم والشر ! ! . . وقد كانت هذه التقوى عميقة فى قلبه . طبعت أثارها على بيته وأصحابه وجميع العاملين معه ، . . كان الرجل الذى زرع البذار فى بيته وجنده وأصدقائه فهو « خائف الله مع جميع بيته » ، (أ ع ١٠ : ٢) وهو يكلف اثنين من خدامه وعسكرياً تقياً بالذهاب إلى بطرس ، وعندما ينتظره يجمع «أنسباءه وأصدقاءه الأقربين »، (أ ع ١٠ : ٢٤) مما يبين مدى تعمق إحساسه بالله والشركة معه ، . . . ولم يكن تدينه نظرياً فحسب بل كان « يصنع حسنات كثيرة للشعب » . . . وكانت حياته إلى

جانب هذا كله حياة الصلاة . على أنه من الواضح أنه لا توجد هنا إشارات إلى ممارسة الفرائض والطقوس والذبائح اليهودية ، . . مما يؤكد أن الرجل كان قريباً من ملكوت الله ، ولكن من المؤكد أنه إلى تلك اللحظة لم يكن قد دخله ، . . على أية حال كان الرجل أمميا ، وكان هذا هو الشائع والمفهوم العام عنه ، مما جعل دخول بطرس إلى بيته ليس أمراً غير مألوف فحسب ، بل نقطة الشكاية والخصومة بين بطرس والذين من أهل الختان ! ! . . . إذ قالوا : « إنك دخلت إلى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم » (أع ١١ : ٣) .

كرنيليوس والحـق :

لعله من العجب أن نلاحظ أن كرنيليوس رغم كافة الأوصاف العظيمة التى وصف بها ، لم يكن قد تمتع بعد بالخلاص والدليل على ذلك نجده فى كلمة الله نفسها : « فدخلنا بيت الرجل فأخبرنا كيف رأى الملاك فى بيته قائماً وقائلا له أرسل إلى يافا واستدع سمعان الملقب بطرس وهو يكلمك كلاماً به تخلص أنت وكل بيتك » (أع ١١ : ١٢ – ١٤) . . . وهنا نقف أمام مسألة لاهوتية من أهم وأبرز المسائل اللاهوتية فى الكتاب المقدس كله وهى أنه لاخلاص إلا بالصليب والصليب وحده ، . . وإن كافة الصفات التى كان يملكها كرنيليوس من تقوى وأخلاق ومبادئ وأعمال تصلح أن تكون مقدمة لاقتراب الإنسان إلى الصليب ، لكنها لا تصلح لحظة واحدة أن تكون بديلا عنه أو مكملة له ، . . لقد سار هذا الرجل فى ضوء نور الضمير ، وما أمكنه أن يتعرف عليه من الديانة اليهودية ، وقاده الله فى الطريق . ليقول له إنك إلى الآن مع كل ماوصلت إليه ، لم تصل بعد إلى الخلاص الذى لايمكن أن يتحقق إلا فى الصليب ! ! . .

ومن الثابت أن الكرازة بالصليب ليست عمل الملائكة ، بل هى عمل الخطاة الذين تمتعوا بالخلاص ، يسعون كسفراء عن الله ينادون بكلمة

الخلاص بدم المسيح وكفارته الكاملة الكافية للخلاص ، . . . لقد ترك الملاك لبطرس الكرازة بالخلاص ، . . وذلك شرف ما بعده شرف لجميع المؤمنين الذين وقد تمتعوا به ، صار من واجبهم أن ينادوا به للآخرين ، ليذوقوا أيضاً معهم حلاوته الفائقة ! ! . . فإذا ظن البعض أن كرنيليوس قد أخذ البر فى استقلال عن الصليب فى القول : « بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده » (أ ع ١٠ : ٣٥) فإنهم يخطئون تماماً فهم الكلمة ، وينسون العبارة اللاحقة التى تؤكد أن البر متحقق فقط فى شخص المسيح : « الكلمة التى أرسلها إلى بنى إسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التى كرز بها يوحنا ، يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة ، الذى جال يصنع خيراً ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس لأن الله كان معه . ونحن شهود بكل ما نعل فى كورة اليهودية وفى أورشليم . الذى أيضاً قتلوه معلقين إياه على خشبة . هذا أقامه الله فى اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله دياناً للأحياء والأموات . له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » . . (أع ١٠ : ٣٦-٤٣) ... كان كرنيليوس — حتى لحظة الإيمان بغفران الخطايا باسم المسيح — ممتلئاً ، هو والذين معه ممن يستمعون إلى بطرس ، من هامة الرأس إلى أخمص القدم بالشر والإثم والخطية ، فلا نجاة لمخلوق إلا « كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » . . على أن الدرس الآخر الذى بوغت به بطرس والآتون معه هو أن الخلاص ليس لليهود وحدهم بل للأمم أيضاً ، ولم يكن من السهل على بطرس أن يستوعب هذا الدرس ، وظلت الكنيسة لمدة عشرة

أعوام من يوم الخمسين حتى تجديد كرنيليوس بعيدة عن إدراك هذه الحقيقه حتى رآها بطرس فى رؤيا الملاءة العظيمة المربوطة والمدلاة إلى الأرض والتى تمتلىء بكل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، النجسة حسب المفهوم والشريعة اليهودية ، والتى نزلت من السماء أمامه على الأرض لتعلن أن هناك عنصراً إلهياً سماوياً فى القصة كلها ، وأن التطهير ووحدة الجنس البشرى هما عمل يسوع المسيح الذى جاء ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ! ! .

لم يكن من السهل على بطرس أن يتصور تحطيم هذا الحاجز ، أو أن يقدر بمفرده على هذا التحطيم ، ومع أن الله أمره أن يذهب إلى قيصرية إلى كرنيليوس ، إلا أنه اصطحب معه ستة من الإخوة المؤمنين ليكونوا شهوداً وحجة فى مواجهة ما كان يعتقد أنه لابد سيتعرض له من هجوم — الأمر الذى حدث — لدخوله عند الأمم ! ! . . ولكن هذا الحاجز كان لابد أن يزول تماماً ، وإلا لأصبحت المسيحية مجرد شيعة يهودية كان على من يطلبها أن يصل إليها على درجتين : الدرجة الأولى التهود أو قبول الطقوس اليهودية كاملة ، والدرجة الثانية التحول إلى الإيمان المسيحى ، ولو تم هذا لما اتسعت لتكون دين الإنسانيـــة كلها على مر العصور والأجيال ! ! . . .

أليس من المؤسف أنه إلى اليوم ما يزال الكثيرون ممن ينتسبـــون إلى الكنيسة عاجزين عن إدراك هذة الحقيقة وهم يقيمون حواجز الجنس أو اللون أو الثقافة أو الاجتماع أو ما أشبه من حماقات لا يمكن أن تلتقى بتة مع روح المسيح وصليبه ومبادئه . .

تقدم زنجى إلى إحدى الكنائس فى نيويورك يطلب الانضمام للعضوية . وإذا بأحد أعضاء الكنيسة يقول : إذا قبلتم هذا الزنجى فى الكنيسة فسأخرج

أنا منها ، وإذ سمعه آخر قال : إن لم تقبلوا هذا الأخ فى الكنيسة فإن بعضاً منا سيخرج منها لأن الكنيسة التى تؤسس على جنس معين أو طبقة معينة لاتستحق البقاء . وإذا كان هذا العضو لا يرغب فى البقاء . فإن الكنيسة لن تخسر شيئاً لأنه فى واقع الحال هو خارج الكنيسة بروحه هذه ! ! . . . هل سمعت عن الأسطورة التى تتحدث عن رؤيا السير لونفل الذى خرج ليبحث عن الكأس التى شرب فيها التلاميذ العشاء الربانى ،وقيل إن يوسف الرامى أحضرها إلى بريطانيا . وفقدت . وخرج السير لونفل للتفتيش عنها وإعادتها . وفى أول طريقه قابله أبرص فاشمأز منه وأعطاه باحتقار قطعة من الذهب وسار بسرعة فى طريقه . مرت سنوات وصار شيخاً ولم يجد الكأس فرجع إلى قلعته . وفى ذات يوم سمع صوت سائل عند بابه فتطلع ورأى الأبرص الذى تقابل معه أولا فى الطريق . لم يشمئز منه هذه المرة بل قال له : « أرى فيك صورة ذاك الذى مات على الصليب فأنت أيضاً عليك إكليل الشوك وهزء العالم وعار احتقاره . جروح فى يديك ورجليك وجنبك .. ياابن الله أذكرنى . . ها أنذا أعطيك كل ما عندى . . وفى تلك الساعة ذكر كيف أعطى فى المرة الأولى ، وأطرق بوجهه خجلا . وإذا بنور أضاء المكان ، ولم يعد يرى الأبرص ، بل رأى من هو أبرع جمالا من بنى البشر ،وسمعه يقول : لقد تعبت باطلا وصرفت السنين الطوال تفتش بدون جدوى عن الكأس المقدسة . . ها هى هنا فى عطيتك للجائع والفقير والعريان والظامى ، الذى يفعل هكذا يطعم ثلاثة : نفسه . وقريبه الجائع ، ويطعمنى » . . .

ترى هل تستطيع المذاهب المسيحية المتناحرة أن تتأمل بعمق أكثر قصة بطرس وكرنيليوس . وهل يعلم هؤلاء أن هناك قبيلة هندية تعدادها يناهز الثمانمائة ألف نسمة . عرف قادتها قليلا عن المسيحية وفكروا فى الانضمام إليها ، لأنها توحد بين الناس ، وعندما فكروا فى الكنيسة التى يمكن أن ينضموا إليها . أخذوا يبحثون فاكتشفوا الانقسامات الكنسية المتعددة .

وخشوا أن ينضموا إلى مذاهب تقسمهم وتفرقهم بعضهم عن بعض ، وكانت النتيجة أن أخذت الشيوعية الكثيرين منهم ، لأنهم لم يجدوا كنيسة واحدة تحميهم من التشتت والفرقة والانقسام ! ! . . . . عندما يريد أن يسخر أمريكى من آخر يقول عنه : « إنه يهودى » وذلك لما اشتهر عن اليهود من الطمع والبخل والسيطرة على المجتمع الأمريكى ! ! . . . وضاق أحدهم بآخر ، وهو فى كل مناسبة يردد هذا المثل وقال له : أى يهودى تقصد : هل شيلوك — (وهو المشهور فى قصة شكسبير) — أم يسوع المسيح ! ! . . .

كرنيليوس والحيـــاة :

قال الصادق الأمين : « أنا هو الطريق والحق والحياة » ، هكذا كان لكرنيليوس ، وقد رأيناه يعطيه الصورة الواضحة للطريق إلى الله ، ورأيناه يجلو الحق تماماً أمام عينيه فى الصليب بكرازة بطرس ، ثم رأيناه آخر الأمر يباغت الجميع بالحياة التى أعطاها لكرنيليوس ومن معه أثر هذه الكرازة بحلول الروح القدس . . . عندما قامت الثورة الفرنسية جعلت شعارها الحرية والمساواة والإخاء ! ! . . . وفى الحقيقة إن المسيح وهو يعطى الحياة للمؤمنين فى الأرض ، يحقق لهم هذه الثلاث فى أجمل صورها ، . . وإنجيله دائماً هو إنجيل الحرية ، والمساواة ، والإخاء ، . . كان كرنيليوس وثنياً يعيش فى ظلمات الوثنية وأغلالها ، حتى حرره يسوع المسيح ، الذى قال : « وتعرفون الحق والحق يحرركم » (يو ٨ : ٣٢) . . ولم يعطه الحرية فحسب ، بل أعطاه المساواة أيضاً أو على حد قول بطرس نفسه : « فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح فمن أنا ؟ أقادر أن أمنع الله ؟ » (أع ١١ : ١٧) . . . وأعطاهم أيضاً الإخاء فى ذاك الذى « نقض حائط السياج المتوسط أى العداوة مبطلا بجسده ناموس الوصايا فى فرائض لكى يخلق الاثنين فى نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً » (أف ٢ : ١٤ و ١٥) ! ! . . .

١٢٩
برنابا

« ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى
يترجم ابن الوعظ وهو لاوى قبرسى الجنس»
(أع ٤ : ٣٦) .

كتب جيمس ويلبورن فى مجلة الكريستيان هيرالد فى فبراير عام ١٩٥٢ الحادث الذى ترك أثره العميق فيه طوال حياته ، . . فقد كان وهو شاب صغير فى دراسته الثانوية ، — وكان من أسرة فقيرة تسكن فى قرية صغيرة — مجتهداً فى الدراسة ، غير أن النتيجة فى النصف الأول من العام الدراسى كانت مخيبة لأمله إلى حد بعيد ، حتى أنه كان خجلا من أن يواجه أحداً فى القرية بها ، وكان خجلاً منها أيضاً أمام أبويه ، وتصادف أن التقى فى ذلك الوقت ، أمام دكان صغير فى القرية ، براعى الكنيسة ، الذى لما علم بالنتيجة قال لويلبورن وهو يضع يده برفق على كتفه : يا ابنى إنك تستطيع أن تفعل حسناً وستفعل ! ! ... كان الشاب الصغير فى تلك اللحظة يقف على الخط الفاصل بين النجاح والفشل ، ولم يدر الراعى أن مجرد هذه الكلمات أنقذته

من الضياع والهزيمة ، وأنها عاشت معه طوال حياته ، يواجه بها الحياة كلما دخل فى معركة قاسية مع الظروف ، . إذ كان يطل عليه الوجه السمح الكريم الذى غمره بالعطف فى لحظة فشل ! ! . . . نحن لا نعلم من هو هذا الراعى الطيب ، ولكنه يذكرنا على أية حال ببرنابا الرجل الصالح السمح القلب الكريم الخصال الذى مد يده بالمعونة المادية والمعنوية لكل محتاج وعاثر وبائس ، وكان واحداً من الأعمدة التى ارتكز عليها بنيان الكنيسة الأولى المؤسسة على يسوع المسيح . ويكفى أنه الرجل الذى أبرز لنا بولس الرسول، ودفعه إلى الأمام عندما لم يستطع بولس أن يشق طريقه سوى بالصعوبة البالغة وسط مخاوف الكثيرين الذين ساورتهم الشكوك حول صحة إيمانه وحقيقة موقفه بعد أن اضطهد الكنيسة اضطهاداً قاسياً مخيفاً . إن قصة برنابا جديرة بأن تذكر من وجوه متعددة فيما يلى :

برنابا ومن هــو !! ؟

يضع فرانسس بوردلون فى كتابه الشخصيات الصغرى فى الكتاب المقدس برنابا بين « الأضواء الأقل » ولا يرجع هذا فيما اعتقد إلى صغر شخصيته أو ضآلتها ، بل إن مشكلته الأساسية أنه ظهر إلى جانب بولس وإلى جواره ، وكل الذين وقفوا إلى جانب هذا الرسول العملاق ، خفتت أضواؤهم بجانب نوره الباهر ، ... مع أنه فى المنظر كان على الأغلب أعظم من بولس وأبهى وأجمل : « فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم فى الكلام . فأتى كاهن زفس الذى كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح » (أع ١٤ : ١٢ ، ١٣) . . . وكان زفس أو جوبيتر أو زيوس هو كبير الآلهة عند الإغريق ، وهرمس هو إله التجارة والأسواق ، وكانت مهمته الأساسية الإخبار أو الإعلان عن الآلهة ، ولذا كانوا يعدونه إله الفصاحة والبيان ، ...

أو فى لغة أخرى كان بولس فى نظر أهل لسترة رسول برنابا ،أما برنابافكان يبدو فى نظرهم أنه الأعظم ! ! ... وقد يكون بالمقارنة مع بولس أقل منه قدرة فى الكلام ، لكن ذلك لا يعنى أنه لم يكن فصيحاً أو مقتدراً فى البلاغة والتعبير . لقد كان اسمه الأول « يوسف » لكنه عرف فيما بعد باسم « برنابا » ومعناها « ابن الوعظ أو ابن التعزية أو ابن التشجيع » ، وأياً كانت الترجمة فإنه من الواضح أن الرجل كان يملك لساناً فضياً ساحراً يتكلم به إلى الناس ، واعظاً ، ومعزياً ، ومشجعاً ، وكانت كلماته تبلغ الأعماق ، فترسل السكينة إلى النفوس المتألمة الشقية ، وفى ذلك يقول ج . جرينهوج : « لقد أعطاه التلاميذ هذا الاسم لأن قلبه وحياته كانا مترعين بالأفكار الحنون والعواطف الدافئة والمحبة الصادقة ، وهو الرجل الذى كانت روحه النبيلة المنكرة للذات تخلو من كل ألوان الحسد أو الغيرة » ولعل علاقته الكاملة ببولس خير برهان على ذلك ، وقد كان مركزه مهيباً ومرتفعاً وعد واحداً من الرسل ، فقد قال عنه لوقا فى إيقونية : « فانشق جمهور المدينة فكان بعضهم مع اليهود وبعضهم مع الرسولين » (أع ١٤ : ٤) . . . أى بولس وبرنابا .. وفى أنطاكية كان هو الاسم الأول بين القادة فيها : « وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون : برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ولوكيوس القيروانى ومناين الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع وشاول . وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس أفرزوا إلى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه » (أع ١٣ : ١و٢) . . . وخرج الرجل وبولس مفرزين من الله لخدمة الأمم الواسعة التى انطلقا إليها ! ! . . يقول البعض إن برنابا كان واحداً من السبعين تلميذاً الذين أرسلهم المسيح للخدمة ، ويؤكد أكليمندس السكندرى هذا الرأى ، وعلى هذا الأساس

يكون قد عاش مع المسيح ، وكان واحداً من الخمسمائة أخ الذين أبصروا قيامته وصعوده ، ويقول آخرون أنه عرف المسيح فى نهضة يوم الخمسين العارمة وأنه كان واحداً من الذين جاءت بهم هذه النهضة إلى مركزه القيادى فى الكنيسة . . . كان أصلا من سبط لاوى ، وكان عميق المعرفة بالذبائح ورموزها ومعانيها . ولا نعلم إن كان هذا مما شجع القائلين بأنه كاتب الرسالة إلى العبرانيين ، أم أن هناك أسباباً أخرى ترجح عندهم أنه كاتبها ! ! . . كان كريم اليد سخى النفس والحياة ، ومع ذلك فلم يكن قصبة تهزها الريح ، إذ كان يملك عزماً وتصميما متى استقر على رأى ، ومن ثم باع ملكه ، ووضع المال عند أقدام الرسل ، ووقف إلى جوار بولس دون أن يتراجع أو يتزحزح عن مساندته عندما تخوف الجميع منه وشكوا فيه ! ! . . ووقف إلى جوار يوحنا مرقس ، وبسببه افترق عن بولس ، وهو الذى ذهب إلى أنطاكية ليشجع المشتتين : « فسمع الخبر عنهم فى آذان الكنيسة التى فى أورشليم فأرسلوا برنابا لكى يجتاز إلى أنطاكية ، الذى لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب ، لأنه كان رجلا صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان فانضم إلى الرب جمع غفير » (أع ١١ : ٢٢ — ٢٤) . . . كان برنابا فى الواقع من أسمى الشخصيات التى ظهرت فى الكنيسة الأولى وأنبلها وأرفعها وأعظمها خلقاً ! ! . . .

برنابا السـخى :

كان السخاء عند برنابا من أظهر الصفات وأبرزها إذ كان أول من قاد حملة اشتراكية لخدمة الكنيسة ، لقد لاحظ بعد يوم الخمسين أن الكنيسة قد تكاثر أعضاؤها وامتلأت بالغرباء والمحتاجين ، لأن عدداً كبيراً من الذين آمنوا بالمسيحية لم يرجعوا إلى بلادهم سريعاً ، بل بقوا ليتعلموا حقيقة الإيمان الجديد ، والبعض الآخر أصبح منبوذاً من أهله بعد أن قبل المسيحية ،

وهكذا احتاجت الكنيسة إلى مال لتعول هؤلاء ، . . . والسؤال هو هل كان برنابا اشتراكياً قبل غيره من الاشتراكيين فى كل التاريخ ، . . وهل اشتراكية الكنيسة الأولى ، هى المفهوم الآن فى الذهن الشيوعى ، . . من الواضح أن هناك خلافاً عميقاً وبعيداً ، بين اشتراكية برنابا ، وشيوعية كارل ماركس . . إذ كانت اشتراكية برنابا دينية المبدأ ، لم تندفع فى البذل والتضحية لمجرد العاطفة الإنسانية أو الاجتماعية البحتة بل بالدافع الإلهى العميق الذى سرى فيها ، أما الشيوعية الحاضرة فأساسها الأول والرئيسى اللادينية . إن اشتراكية الكنيسة قبل أن تكون أفقية الاتجاه بين الإنسان وأخيه الإنسان كانت أيضاً رأسية كصليب المسيح الذى جمع بين محبة الله ومحبة الناس ، واشتراكية الكنيسة الأولى تطوعية لاقسر فيها ولا ارغام ، على عكس الشيوعية التى تلجأ إلى العنف والقوة والتعسف لتحقيق أغراضها ، واشتراكية الكنيسة تسير فى خط عكسى لخط الشيوعية فهى تعطى لكى يصبح الكل آخذين ، لا تأخذ ليصبح الكل معطين ، وأنه لفرق كبير هائل ، وإن بدا غير ملحوظ لأول وهلة ، بين القول : خذ مامعى ليضحى كل شئ مشتركاً ، والآخر القائل : هات ما معك ليكون كل شئ مشتركاً . . . قال فرانسس الأسيسى وكان مثل برنابا فى فهمه الاشتراكى : ما أجمل هذه الدنيا إن استطعتم أن تتخلصوا مما فيها من قيود وما قيودكم إلا المال والمسكن والملبس تعالوا انظروا الأشياء الحقيقية فى الحياة ، تعالوا واحيوا حياة الروح وأنيروا كالشعلة وأينعوا كالزهرة وفيضوا كما يفيض المجرى المتدفق من الجبل ! ! . . . إن مأساة الإنسان فى الأرض ، أنه لم يجعل المال خادماً بل سيداً له ، وهو يشبه فى ذلك القصة الروسية المعروفة التى تتحدث عن ذلك الفلاح العملاق الذى كان يكتنز المال ، ويزيد منه ، ويعبده عبادة ، ولكنه سمع أن فى سيبيريا أراضى أوسع وأكبر ، فصفى كل شئ ، وذهب ،

إلى سيبيريا ، والتقى برئيس القبيلة وقدم له المال ليأخذ أرضاً ، وقال له الرجل : إنك تستطيع أن تأخذ من الأرض ما تشاء على قدر الدائرة التى تدورها فى يوم بأكمله حتى غروب الشمس ، وفرح الرجل فرحاً فائقاً بذلك ، وكان عملاقاً ، بدأ مع الشروق بأوسع الخطى يركض لكى يستزيد من الدائرة التى يصل إليها ، وظل يركض ويركض حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب ، وكان عليه أن يرجع ، فرجع بعد أن أوسع الخطى ، وقبل أن يبلغ المكان بمتر واحد سقط من الاعياء والدم يتدفق من فمه ، وما هى إلا لحظات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة . وقال زعيم القبيلة : مسكين هذا الرائد فقد حصل على مساحة تكفى لمواراة جثمانه ، فاحفروا يا أبناء القبيلة حفرة نوارى فيها جثة هذا الغريب الذى هبط أرضنا والطمع يستحوذ عليه ، فهذه نهاية كل إنسان يسعى وراء المادة ويستميت فى السعى وراء الأشياء الفانية ، سيأخذ من الأرض مترين فقط وستشاركه الديدان فيها ، وستنمو الأعشاب عليها ، وستفنى عظامه وستبقى حياته عبرة لمن يريد أن يعتبر !! . . سمع أحد الفلاحين جون ويسلى يعظ عن المال ويقول : اقتن منه كل ما تقدر أن تقتنيه ، فقال الفلاح : هذا جميل . . وقال ويسلى : اقتصد منه ما يمكن أن تقتصده ، فقال الفلاح : وهذا عظيم . . وأخيراً قال الواعظ : أعط منه كل مايمكن أن تعطيه ! ! . . وعندئذ قال الفلاح : يا لها من عظة جميلة أفسدتها نهايتها ! ! . . . لم يحتج برنابا إلى ضغط خارجى وهو يبيع حقله من أجل المساعدة للكنيسة ، إذ كان الضغط الصحيح يأتيه من الداخل ، من قلبه ! ! . . سئل فلاح عما تعطيه بقرته من لبن ، . . فأجاب : إنها تعطى بشرط أن تحصر فى ركن وأن يتحصن من يحلبها ضد نطحها ورفسها ! ! . . . لكن برنابا كان المعطى المسرور الذى يحبه الرب ! ! . . .

برنابا السموح القلب :

لم يكن برنابا سخي اليد فحسب ، بل كان أكثر من ذلك كريم الروح سموح القلب نبيل العاطفة . وقد ظهر هذا فى وقوفه إلى جانب بولس عندما خاف الجميع منه ، وتحذروا من قبوله فيما بينهم ، هرب شاول من دمشق بعد أن جاهر باسم المسيح هناك ، وأراد اليهود قتله ، وقضى فى العربية ثلاث سنوات كما يبدو من غلاطية (١ : ١٧) ، ثم جاء إلى أورشليم وحاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ! ! . . وهنا يظهر برنابا بكرم النفس واتساع القلب ، إلى الدرجة التى يمكن أن نقول معها ، انها نوع من الجسارة وروح المغامرة ، . . ويبدو أن برنابا كان يعلم بأن الحياة لايمكن أن تخلو من روح المغامرة ، بل إن النهضات والثورات لايمكن أن تنجح بالمنطق والعقل ، ولابد فى كثير من الأحايين لعنصر المغامرة كان الرسل يستعملون عقلهم فى معاملة شاول الذى حاول أن يلتصق بهم ، ولجأ برنابا إلى المغامرة ، ونحن لا نعلم ما الذى دفعه إلى ذلك . . يعتقد البعض أنه كان يعرف شاول من الصغر إذ أن طرسوس قريبة من قبرص ، وربما كانا صديقين فى التلمذة فى طرسوس ! ! . . وقد يبدو أنه رأى فى شاول أشياء لم يرها غيره من الرسل ، على أية حال توجد لحظات فى الحياة نحتاج فيها ألا نستعمل مجرد المنطق والعقل بقدر ما نستعمل روح الحزم والاقدام . . . على أن المغامرة وحدها لاتكفى ، لقد كان هناك شئ فى برنابا تفوق به على الجميع ، السماحة ، ورحابة القلب ، والاستعداد للنسيان وإعطاء الفرصة من جديد ، وهذه السماحة كان شاول فى مسيس الحاجة إليها ! ! . . كان هانز كريستيان أندرسون من أغرب كتاب القصة الخيالية فى الغرب ، وقد ولد فى بيت فقير . ومات جده مجنوناً ، وخطر بباله أن يمتهن التمثيل ، وإذ ذهب ليعلن — رغبته لممثل كبير ، ضحك

منه هذا وسخر منه سخرية لاذعة . . فتحول إلى الكتابة وأفصح عن رغبته هذه لمعلمه فى المدرسة ، وسمع تقريعاً كاد يحطم كيانه ، غير أنه حاول وأرسل كتاباته إلى جوناز كوليناز الناشر الدنماركى ، وجاءه الرد من الرجل الكريم : لابأس تقدم وسأساعدك . . ونجح الشاب وأصبح واحداً من أبرع كتاب القصة الخيالية فى العالم ! ! . . . دخل بوب ايفانز وكان من رجال البحرية المعروفين . إلى الكنيسة فى يوم أحد وجلس فى مقعد ليرى سيدة عجوزا تكتب له ورقة : إنى أدفع فى هذا المقعد ٢٥٠ دولاراً سنوياً ،وكتب ايفانز على ظهر الورقة : إنك تدفعين كثيراً يا سيدتى ، وخرج من المكان . وقيل إنه لم يدخل كنيسة بعد ذلك طوال حياته ! ! . . . إن هذا يختلف عما حدث مع شاب اسمه جاريت ايكوك الذى كان قد آمن بالرب ، وبعد تجديده باسبوعين جابهته تجربة قاسية كادت تهز إيمانه وإذا بصديق يتصل به تليفونياً ومن خلال الحديث أدرك صراع الشاب وإذا به يقول له : يا جاريت إحن رأسك دقيقة . . وعندئذ صلى وهو على التليفون قائلا : أيها الرب بارك جاريت ، إنه يصارع ونحن نثق به ، ونؤمن أنه سيصنع حسناً . . يارب . لقد خلصته والآن احفظه لأجل اسم المسيح آمين ! ! . . وقال الصديق لجاريت : يابنى إننى أصلى من أجلك ! مع أطيب التمنيات ! ! . . . وأغلق جاريت التليفون وهو يقول : إذا كان هذا الصديق يهتم بى ويطلبنى بالتليفون مصلياً فإننى سأموت قبل أن أتراجع ، وعاش جاريت خادماً أميناً لله ، وهو لا ينسى مودة ومعونة وصلاة صديقه فى اللحظة القاسية . كان هذا الرجل أشبه ببرنابا فى علاقته ببولس ! ! ! . . .

برنابا المختفى والمنكر لذاته :

على أن الأمر الأروع فى قصة الرجل ، ليس مجرد مساندة بولس فى أورشليم ، حتى يأخذ مكانه ويقف على قدميه ، بل الإتيان ببولس من

طرسوس إلى أنطاكية . ولنسمع ما يقوله ج . د . جونز فى هذا الصدد : « من العلامات الحقيقية لكرم النفس الخلو من الغيرة ، ويمكن أن يقال عن المرء إنه ممتلىء نعمة إذا أمكن ألا يغار من غيره أبداً ، وقد كان برنابا كريماً إلى درجة أنه لم يعط للغيرة مكاناً ما فى قلبه ، . . فعندما ذهب إلى طرسوس ليحضر بولس كان يفهم جيداً معنى ما يعمل : إنه يعلم أن بولس أقدر منه وأقوى ، وعندما يأتى بولس إلى أنطاكية ، لابد أن ينتزع مركز الصدارة ، ويأخذ على الفور المكان الأول . ولكن الرجل لم يكن يعنى بذلك بل كان كل ما يعنيه ويهمه هو نجاح العمل وتقدم الخدمة ، ولعل هذا أقوى برهان على مافى الرجل من صلاح ، فما أكثر ما يأخذ الحسد سبيله حتى إلى أفاضل الناس وأكمل القديسين » . . . كان وليم جاى واعظاً إنجليزياً مشهوراً ، وعندما ضعف ، طلبوا له من يساعده ، فأجاب : أيها الأصدقاء ، إننى ومساعدى سنركب حصاناً واحداً وسيركب أحدنا فى الأمام والآخر فى الخلف ، وأنا لا أسمح لواحد أن يركب أمامى ! ! . . . كان جبسى سمث يتعجب من أن صديقه كولبير يسمح لغيره من الخدام والمساعدين أن يتناوبوا العمل معه دون أن يغار البتة أو يرى فى ذلك ضيراً على مركزه وجاءه الجواب : يا جبسى أنا للملكوت الله ، والملكوت هو الذى يهم ، وفى اللحظة التى أرى فيها رجلا أكبر منى ولو ربع بوصة ويستطيع أن يؤدى العمل أفضل مما أوديه ، فأنا على استعداد أن أحمل سترته ، وأن أظل خلفه حتى يتم هذا العمل ! ! . . . وإذا كان دانتون قد قال فى أيام الثورة الفرنسية : « لأهلك إذا كان فى هذا خلاص فرنسا » . . . فماذا يمكن أن نقول تجاه النفوس الهالكة التى أعطانا الله أن نكون مسئولين عن رسالة الخلاص بالنسبة لها ! ! . . . يقول ألكسندر هوايت فى هذا الصدد : « فى كل معارف برنابا من الرجال لم يكن هناك سوى رجل واحد يستطيع أن يواجه الحالة المستعجلة فى أنطاكية ، وبرنابا يعرف ذلك تماماً ، وشاول شاب أصغر منه

نسبياً ، وليس من السهل أن يثق فيه الكثيرون لأنه غير معروف ، ولكن برنابا سيأخذ علىنفسه المسئولية البالغة بل المخاطرة باحضار بولس من طرسوس إلى أنطاكية ، وهو سيفعل ذلك دون أن يستشير الإخوة فى أورشليم ، ومع أنها مخاطرة كبيرة لكنه سيتحملها على مسئوليته وقلبه وضميره ، . . وتوجد لحظات حاسمة فى حقل الخدمة عندما يتحمل إنسان كافة النتائج وهو يقرر بحزم ما ينبغى أن يكون ، دون مبالاه بنقد أو مديح ، . . ولم يأخذ برنابا مشورة أحد وهو يدعو بولس من طرسوس ، وكان أشبه بوليم فارل عندما دعا كلفن إلى الخدمة فى ، جنيف . يقول كلفن : . لقد تركت فرنسا متجها إلى ألمانيا لغرض التمتع بالراحة التى كنت فى أشد الحاجة إليها ، والانزواء فى ركن خفى حسبما كنت أحلم ، ولكنى لم أستطع الاختباء لأن وليم فارل دعانى إلى جنيف ، وهو لم يفعل ذلك بالنصيحة والاقناع ، بل باللعنة القاسية التى أحسست كما لو أن الله ذاته يصبها علىَّ من السماء. ويده القوية تمسكنى . . . وقد فعل ذلك بعد أن علم مافى قلبى من رغبة الركون إلى دراستى الخاصة،والتى أردت معها أن أنصرف عن كل ما يشغلنى ،ولمالم تجد أية محاولات معى للاقناع . تحول إلى لعنة أنانيتى فى هذه الدراسة إذا كنت أرفض الذهاب إلى جنيف التى تحتاج منى إلى خدمة كبيرة . . . وأنه لشىء عجيب أن تبحث من القلب عن إنسان يتفوق عليك فى المواهب وتسعى إلى طرسوس من أجله ، وتأتى به إلى أنطاكية ! ! .. وأنا شخصياً أود أن تكون لى نعمة برنابا أكثر من عبقرية بولس ، الرجل الذى سيضعنى فى الظل ، ومع ذلك أسعى إليه وأدعوه من أجل الخدمة العزيزة المباركة المقدسة ! ! .».

برنابا المتشـاجر مع بولس :

وهنا وقعت الواقعة الغريبة بين رجلين من أعظم الرجال قاطبة فى كل العصور . . . ولم يكن الشجار هيناً أو سهلا ، بل هو الشجار الذى انتهى

بمفارقة الرجلين بعضهما لبعض فى الخدمة ، وقد اختلفت الأراء فى الحديث عن هذا الشجار ، فبعض الناس يسلكون مسلك الكسندر هوايت الذى حمل على المتشاجرين ، وواقعة الشجار نفسها ، دون أن يقف ليسأل من هو الملوم أو غير الملوم، وأسف لضعف الطبيعة البشرية التى لم تستطع أن تسيطر على الشجار بين رجلين من أعظم الرجال وأسماهم فى الأرض!!... على أن هناك من أخذ النظرية العكسية ولم يلم أحد الرجلين اللذين كان كل منهما يمثل وجهة نظر صحيحة وسليمة ، فبولس كان محقاً ، فى تصور الآخذين بهذه النظرية ، لأنه يهتم بالموضوع دون اعتبار للاشخاص ، فهو لا يقبل أن يمالىء يوحنا مرقس الذى خذلهما فى برجة بمفيلية ، حتى ولو كان ابن أخت برنابا ، . . وأما برنابا فكان ينظر إلى الأمر من الزاوية الأخرى لشاب اعترف بضعفه وتاب عنه ، وهو يرجو الرجوع إلى الخدمة ؛ ومن طبع برنابا ، السمح دائماً ، إعطاء الفرصة الثانية للفاشل والعاثر ، وقد وقف إلى جانب بولس فى بدء أمره ومن واجب بولس أن يفعل الشيء نفسه ازاء ضعفات الآخرين ! ! . . . وهناك النظرية الثالثة التى لا تلتفت إلى مجرد الشجار بين الصديقين أو صواب وجهة نظر كل واحد منهما من زاوية ، . . بل إنها تشكر الله الذى أخرج من الآكل أكلا ومن الجافى حلاوة ؛ والذى حول الرحلة التبشيرية الواحدة إلى رحلتين ، فبولس يأخذ معه سيلا ، وبرنابا يأخذ مرقس ، وعمل الله لا يقف بل يمتد ويتسع ويزيد ! ! . . .

لقد أثبت الزمن أن برنابا كان أصح فى تقديره للموقف من بولس ، إذ أن بولس نفسه اعترف بنجاح مرقس وفائدته للخدمة ، ودعاه آخر الأمر لأن يقف إلى جواره فى المعركة العظيمة القاسية ! ! . . وإذا كان هناك من درس يعطيه برنابا لنا ، فهو أن قضية المسيح ستكسب دائماً كلما امتلأ المرء بالروح القدس ، بروح السماحة والمرونة ونكران الذات ، وتقديم الآخرين من أجل ملكوته ومجده العظيم العتيد ؟ ! ! . . .

١٣٠
بولس

« فقال وهو مرتعد ومتحير يارب ماذا تريد
أن افعل » (أع ٩ : ٦) .

لعل أجمل ما نقدم به الرسول بولس أن نجترئ بعض عبارات كتبها عنه ثلاثة من أعلام رجال اللاهوت فى العصر الحديث فدكتور فيليب تشاف فى كتابه عن تاريخ الكنيسة المسيحية يقول عن بولس : « لا يعد تجديد بولس نقطة تحول فى تاريخه الشخصى فحسب بل مرحلة هامة فى تاريخ الكنيسة الرسولية ، وبالتالى فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، فهو أعظم ما تم بعد معجزة يوم الخمسين ، فقد أتى بالنصر المسكونى للمسيحية كلها ، فتغيير أقسى أعدائها ومضطهديها إلى أقوى خدامها الناجحين لا يمكن أن يكون إلا معجزة النعمة الإلهية ! ! . . » ودكتور ادولف ديسمان الذى كان أستاذاً وعالماً من أبرع علماء العهد الجديد كتب فى الصفحة الأولى من مجلده العظيم عن بولس : « يقف المسيح فى التاريخ منفرداً ! ! . . ولكن بمقارنة بولس بالآخرين ، يظهر حينئذ — روحياً — القوة العظمى للعصر الرسولى ، فهو لم

يتعب فقط أكثر من الجميع ، بل ترك أثراً أكثر منهم كلهم ، . . وفى عصر نيرون ، ليست هناك شخصية تركت أثراً رئيسياً بارزاً فى نفوس الناس كشخصية بولس الإنسان الجديد ، . . . وبروفسور رامسى الذى يعد من أعظم من تناولوا حياة الرسول ، كتب يقول : « يعد بولس من نواح كثيرة أقدر وأعظم وأنبغ العقول ، وأحزم المبدعين ، وأنشط المؤسسين والمدبرين . وأبرز وأقوى الشخصيات وبالنسبة للقرن الأول ، يعد هذا الرسول – باستثناء السيد المسيح – أعظم قوة كيفت مستقبل الامبراطورية ، وإذا لم يكن بين أبطال الامبراطورية من البناة والحكام من ضارع سينكا ذاته ، فإن سينكا لا يستطيع أن يدانى هذا الرسول فى قوته وتأثيره وألمعيته ونفوذه الأبدى » ! ! . . .

ولا يمكن أن ننسى إلى جانب هؤلاء الأعــلام اللاهوتيين ما قاله ف . ب . ماير : إن الامبراطورية الرومانية احتاجت إلى سبعة قرون كى تبنى مجدها العتيد ، ومع ذلك فإن بولس جددها وجعلها تنحنى عند أقدام المسيح فى ربع قرن من الزمان ! ! . . . وقد أطلق عليه دكتور هربرت لوكاير فى كتابه : « كل الرسل فى الكتاب » : الرسول غير العادى ! ! . . . ويعتقد البعض أنه ولد فى عام ٤ م ، وأنه تجدد فى أواخر عام ٣٦ أو أوائل عام ٣٧ م ، وبدأ نشاطه الرسولى عام ٤٧ م وقام برحلته التبشيرية الأولى فيما بين عامى ٤٧ – ٤٩ م والثانية فيما بين ٥٠ – ٥٢ م والثالثة فيما بين ٥٣ – ٥٧ م وأنه سجن فى قيصرية عامى ٦١ ، ٦٢ م وأطلق سراحه ثم سجن ثانية عام ٦٦ م واستشهد عام ٦٧ م ، ويهمنا فى المقام الأول ، لا أن نناقش رحلاته وأعماله ، بل أن نتأمل ونغوص فى أعماقه وحياته لعلنا نتعرف على شخصيته الجبارة العظيمة ! ! . . .

بولس الاناء المختـــار :

كان بولس كرجل لاهوتى يؤمن بالاختيار المطلق الإلهى ، وقد كان من أشد الواثقين المتعصبين له . وإذا قيل بأن أوغسطينوس تابعه فى ذلك ، وكان من أهم الأسباب عند هذا الأخير ، هو أن الله جاء به وهو موغل فى الخطية ، وحسب المنطق البشرى ، كان لا يرغب بتاتاً فى المجىء إلى الله ، وكان يفزع كلما رأى أمه القديسة تصلى من أجله سنوات عديدة ، لئلا يستمع الله إلى صلواتها ، فيستجيب لها ، ويخرج هو من الحياة العالمية البهيمية التى كان يتلذذ بها ويرتع فيها ، . . كان بولس قد أوغل هو أيضاً فى الاضطهاد والتجديف والافتراء ، وهو ما عاش يذكره طوال حياته ، ومع ذلك جاء به ، إذ سمع أول ما سمع شهادة الله لحنانيا : « لأن هذا لى إناء مختار » (أع ٩ : ١٥) . . . وقول حنانيا له : « إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه » (أع ٢٢ : ١٤) . . . ولا شبهة فى أن الصورة التى تحدث فيها عن الفارق بين عيسو ويعقوب : « لأنهما وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو . . . فماذا نقول ألعل عند الله ظلماً . حاشا . لأنه يقول لموسى إنى أرحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف . فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذى يرحم ، لأنه يقول الكتاب لفرعون إنى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتى ولكى ينادى باسمى فى كل الأرض . فإذاً هو يرحم من يشاء ويقسى من يشاء . فستقول لى لماذا يلوم بعد . لأن من يقاوم مشيئته . بل من أنت أيها الإنسان الذى تجاوب الله . ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا . أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان » (رو ٩ : ١١ — ٢١) . . . هذه الصورة كانت ماثلة أمام عينيه ، سواء تحدثت عن

الفارق بين عيسو ويعقوب ، أو موسى وفرعون ، . . أو كانت تتحدث عنه هو عندما اختاره الله إناء للكرامة ، . . ومن ثم نجده يقول فى رسالته إلى غلاطية : « و لكن لما سر الله الذى أفرزنى من بطن أمى و دعانى بنعمته » (غل ١ : ١٥) . . . وهذا واضح تماماً فى سائر كتاباته ورسائله ، ويكفى أن نشير هنا إلى ما كتبه للأفسسيين : « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة » (أف ١ : ٤ ، ٥) .. « لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها » (أف ٢ : ١٠) . . . والكلمة عمله « تترجم » « مجده » أو « شعره » وتعنى الصورة الرائعة أو القصيدة الشعرية التى يبدعها الله فى حياتنا ، التى تتحول منظومة رائعة بين يديه ، . . وهو لا يترك هنا مجالا للصدفة أو العارض أو ما أشبه من الأمور أن تحكم حياتنا ، فإذا كان الله قد اختار بولس منذ الأزل ، وأفرزه وهو فى بطن أمه ، . . فلنا أن نتبين كيف أعده وهو لا يدرى للعمل العظيم الذى كان عليه أن يقوم به ، كما قال الله لكورش : « نطقتك وأنت لم تعرفنى » (إش ٤٥ : ٥) . . . وهى الآية التى اتخذ منها هوراس بوشنل موضوعاً لعظته العظيمة بعنوان : « حياة كل إنسان مشروع إلهى » . . . وبقليل من التقصى نرى العناصر الثلاثة العظيمة التى دخلت فى حياة هذا الرسول من بطن أمه ، وهى الأصالة اليهودية ، والرعوية الرومانية ، والبلاغة اليونانية ، . . . لقد ولد فى طرسوس عاصمة مقاطعة كيليكية ، وتقع إلى الشمال الشرقى من طرف البحر الأبيض المتوسط ، وإلى الجنوب من آسيا الصغرى وكانت بها جامعة من أشهر الجامعات فى ذلك الحين ، إذ كانت تقف على قدم المساواة مع جامعتى أثينا والإسكندرية ، وكانت تعتبر ممراً للغادين والرائحين من

التجار والسياح بين الشرق والغرب ، وكانت بجمالها وعظمتها وحضارتها شيئاً يختلف تماماً عن الجليل ، واليهودية ، ويعطى الرسول بولس ميزة ربما لم تتوافر فى واحد من جميع الرسل الذين عاشوا مع المسيح ! ! . . ومن الثابت أن بولس نشأ نشأة دينية متعمقة ، إذ كان أبوه من أشد الفريسيين المتمسكين بتقاليد الآباء . . . وكانت عادة اليهود المدققين أن يبدأوا تعليم أولادهم فى الرابعة من العمر ، فى بيوتهم ، ثم يرسلونهم إلى المجمع حتى الثالثة عشر ، وهناك يتعلمون تاريخ آبائهم والتقاليد اليهودية ، ونحن لا نعلم شيئاً عن أبيه وأمه ، وربما ماتت أمه وهو صغير ، وكان له أخت متزوجة فى أورشليم ، وأغلب الظن أنه سكن عندها ، عندما ذهب إلى أورشليم ليتعلم وليكون واحداً من الربيين بعد أن جلس عند قدمى غمالائيل ، الذى كان واحداً من المعلمين الذين عرفهم التاريخ اليهودى ، وقد تحدثنا عنه فى مناسبته الخاصة ، وكان فى وقت من الأوقات رئيساً للسنهدريم وكان حجة فى تفسير الكتاب ، وكان مذهبه متسعاً بعيداً عن الحرفية القاتلة ، وراء جده هليل ، على العكس من شمعى الذى كان يحرم على أتباعه مجرد تحية الوثنيين فى الأعياد ، . . وقد تقدم على الكثيرين من أترابه لا فى المعرفة الدينية فقط بل فى التمسك بغيرة بتقليد آبائه ، . . . وقد وصفه روفس جونس فى كتابه « بولس البطل » وهو يكشف عن البطولة فى هذه السن المبكرة ، فإذا هو العبقرى المبرز فى وسط جميع تلاميذ غمالائيل ، وقال البعض ، إن هذا الولد سيكون مثل معلمه ، وقال آخرون بل سيتفوق عليه ، إذ لم يعرف له ضريب ، فى الصبر الدءوب على الدرس ، ولا يمكن أن يقف أمام صعوبة فكرية أو معضلة تستعصى على جميع أقرانه ، إلا ووجد لها حلا . . . كتب جيمس مالفيل يصف دافيد أليستون ، وهو يدرس مع مجموعة تبلغ ستة وثلاثين عالماً المنطق لأرسطو ، وغيره من كتب

الفلسفة والعلم : « إن هذا الشاب كان يتفوق عليهم جميعاً ، ويحلق فى سماء العلم كالنسر وكنا جميعاً كفراخ العصافير بالنسبة له . وكان بولس فى مدرسة غمالائيل دافيد أليستون بالنسبة لجميع الذين يتعلمون معه . . . . إن الله لم يختر نى ويختر ك فى ترتيبه الأزلى لنكتب رسالة رومية أو أفسس ، لكننا يمكن أن نفعل الشيء العظيم التالى إذا استطعنا أن نتفقه ونتعلم ونصل إلى الأعماق فى رسائل بولس ، ونتادى ونبشر بها للناس ، . . ابذل كل جهد وادرس وإن أمكن بع ثوبك — إن لم يكن فى يدك مال — واشتر تفسير كلفن عن رومية ، ولوثر عن غلاطية ، وجدوين عن أفسس ، ودافيننت عن كولوسى ، وهوكر عن التبرير ، ومارشل عن « سر التقديس فى الإنجيل » فإنك ستعطى إكليلا عظيماً فى اليوم الأخير عن الأوقات الثمينة التى صرفتها فى مثل هذه الدراسات » ، . . . قال بولس لتلميذه العزيز : لاحظ نفسك والتعليم » (١ تى ٤ : ١٦) . . ولم يفقد بولس حبه للكتب حتى الموت كما يقول كلفن ، ولعلنا نلاحظ ماقاله توماس بوسطن عن اختباره : « كلما ثابرت على دراسة كتبى كلما أحسست أن قلبى ينبض بصورة أفضل . ولكن من العجيب أن بولس رغم هذه الدراسة الجبارة عند رجلى غمالائيل ، . . كان أعمى ،وقد قاده عماه إلى أن يأخذ طريقه العنيف ضد المسيحية التى أحبها وهام بها فيما بعد ، لقد كان مدققاً وبلا لوم فى حفظ الناموس ، ومع ذلك لم يتبين أنه كان مجدفاً ومضطهداً ومفترياً ، . . كان بولس يحتاج إلى ثلاث سنوات فى العربية ليعيد التأمل فى كل شىء ، بعد أن سقطت القشور عن عينيه ، كانت الرسالة المكلف بها : « لتفتح عيونهم كى يرجعوا من ظلمات إلى نور » (أ ع ٢٦ : ١٨) . . وكان هو أول الجميع يحتاج إلى العين المفتوحة ليقرأ القراءة الصحيحة لحياته وحياة الآخرين،

ولعل هذا هو ما جعله يكتب : « لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء . أين الحكيم . أين الكاتب . أين مباحث هذا الدهر . ألم يجهل الله حكمة هذا العالم . لأنه إذ كان العالم فى حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة » (١ كو ١ : ١٩ — ٢١).

كان بولس رغم جبروته العلمى ، أحمق الحمقى وأجهل الجاهلين ، حتى قضى فى العربية ثلاث سنوات يعيد الدراسة ويجد المعرفة ، ويدرك كلمة الله فى النور الصحيح ، وخرج على العالم والتاريخ والأجيال ، بالروائع الإلهية ، رسائل بولس الخالدة إلى الأبد ! ! . . . إن أعظم فلاسفة الدنيا الذين حيروا الذهن البشرى بالفلسفات القديمة والحديثة ، كل منهم للأسف هو بولس — قبل العربية ، « إلى أن يفتقد الله الواحد منهم ليرى النور الصحيح ويقول : « كنت أعمى والآن أبصر » (يو ٩ : ٢٥) . . .

كان بولس إلى جانب الأصالة اليهودية لا ينسى أنه يحمل الرعوية الرومانية التى ولد فيها ، فهو إذاً من سلالة الوجهاء اليهود الذين ربما دفعوا مبالغ طائلة حتى حصلوا على هذه الجنسية أو ربما أدوا عملا لخدمة الإمبراطورية ، فاستوجبوا لهذا السبب أو ذاك شرف الانتماء إلى هذه الرعوية ، والتى كانت مغنما فى الحياة والموت ، فلا يجوز جلد رومانى او الحكم عليه بالموت صلباً ، وقد استعمل بولس هذا الحق ، فهو إذاً لم يكن من الرعاع ،.. وقد اتسع أفقه بهذه الرعوية حتى تفهم الأوضاع الجارية فى عصره ، وكان إخلاصه للدولة صادقاً فهو الذى كتب تلك الأقوال العظيمة عن حقوق السلطة المدنية ، والدعوة إلى الصلاة لأجل الملوك وجميع الذين فى منصب ، كان اسمه العبرى شاول أى « المسموع » . . أى الذى جاء نتيجة الصلاة ، أما اسمه « بولس » فليس من المؤكد معرفة ما إذا كان قد أعطى له من

الابتداء ومعناه « صغير » أو أعطى له بعد أن تعمد على يديه سرجيوس بولس أو عظيم غيره اهتدى بواسطته . يعتقد البعض أن بولس كان قصير القامة، وأنه ربما سمى بالصغير نتيجة لذلك ولكن الواضح أنه رغم أنه عملاق الأجيال إلا أنه كان يحس أنه صغير تجاه الله والرسالة العظيمة التى وضعت عليه ! ! . . على أية حال ، إن بولس يعلمنا أنه يلزم استعمال الحق كلما كان ذلك مناسباً وهاماً ، كما استعمل هو حقه الرومانى مرات متعددة ! ! . . وقد أضاف بولس إلى الأصالة اليهودية ، والرعوية الرومانية ، الثقافة اليونانية . كان بولس من أبلغ المقتدرين فى الكلام والكتابة باللغة اليونانية ، . . وكانت طرسوس ميداناً واسعاً للدراسات اليونانية ، كان عند أبوابها تمثال جبار كتب أسفله : « كل واشرب وتمتع بالحياة ، فكل ما غير ذلك لا قيمة له » . . . وعرف بولس هذا وندد به وهو يقول : « إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت » (١ كو ١٥ : ٣٢) . . . وقد ظهر فى كتابات بولس اطلاعه الواسع على الحضارة اليونانية كالسباق ، وأكاليل الفوز ، ومواكب الظفر ، ومصارعات الوحوش ، والعادات المختلفة ، مما يشير إلى إدراكه للفلسفة اليونانية واستيعابه لكل ما هو طيب فيها ، ورفض مالا يتفق مع سمو الحياة والأخلاق المسيحية وهو القائل : « امتحنوا كل شيء . تمسكوا بالحسن » (١تس ٥ : ٢١) ! ! .

بولس والولادة الجديدة :

خرج بولس من أورشليم إلى دمشق والمسافة تقطعها الخيل فى ستة أيام . وإذ اقترب من ختام رحلته عند بقعة يدعوها التقليد الصالحية ، جاءه المسيح ، ومس قلبه ، وأحدث التغيير الهائل الكامل فى قلبه ، وهو ما نطلق عليه الولادة الجديدة ! ! . . ولعل دراسة حياة بولس لا يمكن أن تفهم على الإطلاق ، دون إدراك هذا التغيير العميق العجيب الذى حدث فى حياته ! !

فكيف تم ؟ ! ، إننا عندما نحلله بتأمل وعمق من واقع أقوال بولس وإحساسه ، يمكن أن نخرج بعدة حقائق أساسية ، . . ولعل أولها : اكتشاف بولس الصحيح للخطية، قبل أن يلتقى بالمسيح ، ويعيش معه ، ويدرك الحقيقة بعينى مخلصه ، . . كان يرى نفسه بلا لوم فى الناموس ، وهو إذا قورن بغيره سيتفوق فى حياة البر والصلاح ، وقد لا يوجد له نظير ، لكنه عندما عرف السيد صاح : « صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا . لكننى لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فىَّ أنا أولا كل أناة مثالا للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية » (١ تى ١ : ١٥ ، ١٦) . . . ومن العجيب أن الإنسان كلما نما فى حياة القداسة ومعرفة الرب ، كلما أدرك حقيقة الخطية وبشاعتها فى الأرض ، . . قال صموئيل رزرفورد : « كلما تأملت حالتى الخاطئة كلما أدركت أن خلاصى هو معجزة مخلصى الكبرى . إنه لم يفعل شيئاً فى السماء أو على الأرض مثل خلاصى ! ! . . » وروى يوحنا بنيان قصة حياته تحت عنوان « النعمة المتفاضلة ليوحنا بنيان أول الخطاة . هلم واسمعوا فأخبركم يا كل الخائفين الله بما صنع لنفسى » . . . قالت القديسة تريزا فى ضجعة الموت : « لا تتخذونى مثالا فقد كنت اعظم امرأة خاطئة فى العالم » . . ثم صاحت متضرعة إلى الله : « القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره » . . وقال لوثر : إن إنساناً مثلى عندما يتبين ضربة قلبه ، فإنه لا يكون بائساً فحسب ، بل هو البؤس بعينه » . . . وبكى الأسقف أندروز وهو يقول : « إنى معجون بالخطية » . . . وقال يوناثان إدوارد « إذا تعامل الله معى حسب خطاياى ، فمثواى الجحيم » . . . كان من المستحيل على هؤلاء القديسين قبل اللقاء مع المسيح ، اكتشاف خطاياهم بهذه البشاعة وهذه الصورة المفزعة ، ولكن الحياة التى هربت من الظلام ، وتطهرت من

الخطية ، لا يمكن أن تنظر إلى ماضيها أو إلى صراعها مع الخطية دون أن يصدر عنها هذا التوجع والأنين ! ! . . . لقد اقتنع بولس بعمق الخطية ، والهوة التي أخرجه منها السيد . كما أدرك بولس الحقيقة الثانية : وهي التغيير المفاجئ الذي حدث له لحظة لقائه بيسوع المسيح ، . . . ومن اللازم أن نبين أن هذه اللحظة الحاسمة . كانت أشبه ببرميل من البارود ينتظر الفتيلة المشتعلة ، حتى ينفجر في توهج وينسف معه شر الماضي كله ، . . . وإذا صح ما يقوله أوغسطينوس إن تجديد بولس يرجع إلى حد كبير إلى منظر استفانوس وهو يرجم الذي لم يبرح مخيلته ، أدركنا معنى القول إنه « يرفس مناخس » ، إذ كان يعاني صراعاً نفسياً قاسياً ، وكان « ينفث تهدداً وقتلا ، كما ينفث الرجل من شدة الغليان . . .

على أبواب دمشق بلغ ذروة الصراع ، كان يركض بحصانه وهو يقترب من المدينة ، ولم يكن يدري أن هناك من يركض وراءه وقد عبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً : « أدركني أيضاً المسيح يسوع » (في ٣ : ١٢) . . . والتجديد في الحقيقة هو سعي المسيح وراء كل نفس بشرية ، حتى يمسك بها ، ويوجه مسارها ، وللسيد في ذلك أساليب لا تنتهي . . قال الكتاب : « فبغتة أبرق حوله نور من السماء » (أع ٩ : ٣) . . لقد ظهر له المسيح في نور أبهى من الشمس وقد رأى الذين معه النور ، ولكنهم لم يروا شخص المسيح ، وسمعوا الصوت ، ولكنهم لم يعرفوا الكلام على أن السيد تكلم بالعبرانية ، ولو لم يتكلم لبدا ما حدث مبهما لا يقود إلى معرفة ، والسيد لم يتكلم فحسب ، بل أكثر من ذلك تحدث حديثاً خاصاً موجهاً إلى شاول بالذات إذ نادى « شاول » باسمه مرتين حتى لا يحدث لبس أو ابهام . وكم كان الحديث قوياً ودقيقاً ورقيقاً ورهيباً معاً ، فلم يصعقه ، وإن كان قد أسقطه على الأرض من فوق الجواد الذي يركبه ، بحركة قوية تكشف له عن قوة سيده وعن

مبلغ ضعفه هو ، ومع ذلك يقول له : « لماذا تضطهدنى » ، وهنا يندمج المسيح مع أتباعه حتى ليبدو أن اضطهاد أصغرهم هو اضطهاد له هو ذاته كما يبدو هنا أيضاً الوضع مقلوباً إذ لا يمكن أن يكون المضطهد ، إلا من كان أقوى وأقدر . وقطعاً لم يكن شاول هو الأقوى . . قال مارتن لوثر للراهب الطيب ستوبتز : إن الله غاضب علىَّ ، فأجابه الراهب : كلا بل أنت غاضب على الله . . . هذا هو الوصف الصحيح لشاول ولوثر وأنا وأنت قبل أن يدركنا المسيح . . على أنه وقد أدرك بولس ، أصابه بالعمى المؤقت ، حتى يدرك أن ما حدث لم يكن وهماً أو خيالا ، وليتح له فرصة أوسع للتأمل ، وإذ فقد بصره فتحت بصيرته ، وأيضاً ليعطى له ولحنانيا برهاناً على تدخل المسيح فى حماية أتباعه ، وهكذا دخل شاول دمشق وقد تغير وضعه واتجاهه وأهدافه وكل شىء فى حياته ، إذ قد ولد جديداً ، . . . وكل واحد منا عليه أن يعلم بأن المسيح يتبعه فى الطريق . وقد مر اسبرجن أمير الوعاظ فى طريق دمشق عندما استمع ذات يوم إلى رسالة ألقاها صانع أحذية حطم فى كلامه كل قواعد اللغة ، ولكنه أمسك بصيد عظيم ليسوع المسيح . كانت الآية : « التفتوا إلىَّ واخلصوا ياجميع أقاصى الأرض (١ إش ٤٥ : ٢٢) وقال اسبرجن شعرت كما لو أن غمامة قد تبددت من أفق حياتى فرأيت الشمس ساطعة ، وذهبت إلى بيتى أكاد أرقص طرباً . . . سأل أحدهم أدونيرام جدسون : لماذا أصبح مرسلا ! ! .. وقال الرجل : إنه لم يفكر فى ذلك ... ولكن الحقيقة هى أن المسيح هو الذى فكر وقلب حياته بجملتها ! ! ... وهو يفعل هذا بوسائل عجيبة تغير اتجاه الإنسان وتقلبه رأساً على عقب ، . . أو بتعبير أصح تعيد وضعه المقلوب ، الذى قلبته الخطية إلى الوضع الصحيح ! قد تكون عظة كما حدث مع سبرجن فتغير تاريخه ، وقد تكون نظرة إلى شجرة عمل فيها الذبول رآها الأخ لورنس ، ففزع عندما تصور حياته مثل

هذه الشجرة دون أثمار ، واتجه إلى المسيح ، ليكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه . التي تعطى ثمرها فى أوانه ، وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجح » (مز ١ : ٣) . . . قد تكون ترنيمة ، أو مجرد قراءة بعض الأعداد من كلمة الله قرأها القديس أوغسطينوس وهو يسمع صوت صبي يقول فى حدائق ميلان افتح واقرأ ، ففتح كتابه وإذا به يقع على العبارة القائلة : « هذا وإنكم عارفون الوقت أنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم . فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا . قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور . لنسلك بلياقة كما فى النهار لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر لا بالخصام والحسد ، بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات » (رو ١٣ : ١١ — ١٤) . . . ومهما كان الأسلوب ، فإنه الطريق الذى يسلكه المسيح حتى يدركنا ويغير اتجاهنا ومسارنا كما فعل مع الطرسوسى القديم ! ! . . .

الحيـاة فى المسـيح :

والإنسان بعد أن يولد يحيا ، ولابد لنا أن نتابع بعض الوقت هذا الرجل العظيم ، وكيف عاش على الأرض أعظم حياة يمكن أن يعيشها مسيحى ، ونحن لا نستطيع أن ندرك ذلك إلا إذا تبين لنا أولا : « الحياة السرية فى المسيح » . يقول الرسول : « لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح فى الله (كو ٣ : ٣) . . . وهو يرينا شخصاً قد مات عن العالم ، وهو فى العالم ، وعاش حياة مستترة أو سرية مع المسيح ، وقد عاش بولس أعمق حياة سرية مع المسيح ، لقد صلب العالم له ، وهو للعالم ، فلم يعد يعيش للعالم ، ولم يعد العالم يجد فيه شيئاً يتجاوب معه ، . . وقد وصفه رينان فأبدع فى الوصف وهو يقول : إن بولس ينتمى بالكلية إلى عالم آخر خلاف العالم الحاضر

ماراثون بولس وأولمبياده ، ومشرق شمسه ومغربها وكل اليونان وروما والأرض المقدسة ، ليست هنا بل هناك » . . فى العلاقة التى تربطه بسيده . . وقد سار كثيرون فى إثر بولس فى ذلك ، فكلفن لم يرفع عينيه إلى جبال الألب أو عظمة سويسرا أو جنيف حوله ، إذ كان كل نهاره وليله عاكفاً على خدمته وكتابه « النظم المسيحية » الذى خلفه للأجيال ، . . وبسكال ، وقد شغلته النفس الخالدة للانسان سار على نفس الدرب ، دون أن يشغله شىء . والقديس برنارد الذى سار يوماً بأكمله على بحيرة جنيف وهو يضع قلنسوة الرهبان على رأسه ، ثم سأل آخر الأمر ، أين هى البحيرة المشهورة التى يقولون عنها ، . . إن الحياة السرية مع المسيح استغرقت حياة بولس ، وحياة هؤلاء العظام حتى شغلتهم عن التأمل فى جمال الطبيعة الفاتنة التى تحيط بهم . . . ولن نعرف بولس على الإطلاق ، قبل أن نلتفت إلى حياته السرية مع المسيح ، أو إلى النبع الدافق الصافى الرقراق الذى كان يرويه بماء الحياة ! ! . . . ولا شبهة فى أن كل مؤمن لابد له من هذه الحياة السرية مع الفادى الكريم ، وعلى قدر عمق الشركة التى له بفاديه ، على قدر ما يمكن أن يخرج إلى العالم جباراً قوياً عملاقاً ، . . وقد أشار السيد مرات متعددة إلى هذه العلاقة ، عندما قال : « أنا هو . . . الحياة . . . أنا هو خبز الحياة . . . أنا هو الراعى . . . أنا هو الباب . . . أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان » (يو ١١ : ٢٥ ، ٦ : ٣٥ ، ١٠ : ١١ ، ١٠ : ٩ ، ١٥ : ٥) قال أحد مشاهير البيورتان : إنه لا يظهر فى الحقيقة أمام الله إلا رجلان هما آدم ويسوع المسيح ، والجنس البشرى متعلق كله بأهداب الرجلين . . . وقد رأى بولس نفسه متعلقاً بيسوع المسيح ، فالمسيح هو رأس الكنيسة ، والمؤمنون أعضاء جسده ، . . والمسيح هو الحياة ، الذى قال عنه بولس : « لأن لى الحياة هى المسيح » (فى ١ : ٢١) . . . والمؤمن فى المسيح ،

والمسيح فيه ، ولطالما أردت كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن يكون المسيح فيَّ وأنا فيه ، ورفعت عينى إلى الهواء الذى يحيط بى على الدوام والذى يدخل صدرى ، وعرفت كيف أنى داخل الهواء ، والهواء داخلى ، . . . إذا جاز التشبيه بالنسبة للمسيح . . . بل رأيت نفسى أشبه بالإسفنجة فى البحر : يملؤها الماء من الداخل ، وهى مغمورة فى الماء فى نفس الوقت ! ! ... وعلى قدر ما تتشبع بالماء يمكن أن أتشبع بالمسيح فيَّ وأنا فيه ! ! .. و لقد كان بولس أكثر تشبعاً بالماء ، أو انتفاعاً بالهواء أو أعمق ارتباطاً بسيده ، فهو يسير معه فى مسيرة الحياة على الأرض ، وهو يحلق بأجنحة قل أن تكون لمسيحى ، وهو هناك فى أعلى قمم الحياة الروحية « يجلس فى السماويات مع المسيح » . لقد كانت له الشركة الدائمة العميقة المتصلة ، وقبله قال إيليا : « حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (٢ مل ١٨ : ١٥) لأن عينيه لم تتحولا قط عن الله ، لكن بولس عاش حياته فى مشاعر المرنم القديم : « من خلف ومن قدام حاصرتنى وجعلت على يدك . عجيبة هذه المعرفة فوقى ارتفعت لا أستطيعها . أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك » (مز ١٣٩ : ٥ — ١٠) ومن ثم كان لبولس فى كل هذه : « حياة الإيمان فى المسيح » . وإذا كان كل مؤمن لابد أن يكون له إيمان بالسيد ، وإذا كان إيماننا بالمسيح هو الذى يحلق بنا فى الأعالى ، فلربما كان بولس النسر الذى حلق فى سماء الإيمان إلى ارتفاع لم يبلغه مؤمن آخر ، . . . وليس معنى ذلك أنه لم يكن من طينتنا أو بطبيعة تختلف عن طبيعتنا ، لقد كان إنساناً تحت الآلام مثلنا ، . . عندما دخل كورنثوس كان فى ضعف وخوف ورعدة ، أى أنه كان يرتعد من

الصعوبات والمخاوف التى تجابهه فى الخدمة : وفى أسيا وصل إلى اليأس من الحياة نفسها : « فإننا لا نريد أن تجهلوا أيها الاخوة من جهة ضيقتنا التى أصابتنا فى أسيا أننا تثقلنا جداً فوق الطاقة حتى أيسنا من الحياة أيضاً . لكن كان لنا فى أنفسنا حكم الموت لكى لا نكون متكلين على أنفسنا بل على الله الذى يقيم الأموات . الذى نجانا من موت مثل هذا وينجى الذى لنا رجاء فيه أنه سينجى أيضاً فيما بعد » (٢ كو١ : ٨ — ١٠) . . . هل سمعت عن ذلك الجندى الذى قرر الأطباء أن مرضه ميئوس منه ، وأنه لابد أن يموت ، وإذ أدرك الجندى هذه الحقيقة قال لنفسه : إذا كان ليس من الموت بد ، فلماذا لا أقاتل لأموت فى المعركة شجاعاً باسلا بدلا من موت يأتى بطيئاً معذباً مؤلماً ، . . وتحول الجندى كما تقول القصة إلى اسطورة فى المعركة ، فعندما يتراجع الجميع يتقدم هو ، وعندما يفشل الكل يصمد بصورة غير مألوفة عند البشر ، . . وكانت النتيجة أنه قلب ميزان المعركة وانتزع النصر من بين براثن الهزيمة ، . . وتعجب القائد لأمر الجندى ، وعز عليه أن يموت مثل هذا البطل فى عذاب المرض ، فأرسله إلى كبار الأطباء الذين نجحوا فى انقاذه من الموت ، . . . لكن الجندى وقد تيقن من الحياة ، عاد إلى طبيعة البشر فى الخوف من الموت ، وانتهت أسطورة البطولة الخارقة التى كانت عنده ، وأصبح واحداً من الجنود العاديين ، . . . على أن بولس لم يكن مثل هذا الجندى ، بل عاش فى المعركة فى ألوانها المختلفة بين الهزيمة والنصر وبين الفشل والنجاح ، بإيمان ربما لم يتح بلوغه لغيره من المؤمنين ، وعندما اقترب من النهاية كان هو القائل : « لأننى عالم بمن آمنت » (٢ تى ١ : ١٢) وفى معاركه العظيمة اخترق كافة الحواجز ، وفاز فى السباق ، وهو يقول : « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » . . (فى ٤ : ١٣) وهذا الإيمان العظيم ، قاده إلى « حياة الصلاة فى المسيح » . . ولا يتسع الوقت أمامنا لنرى بولس مصلياً ، لكنه يقول : « بسبب هذا أحنى ركبتى

لدى أبى ربنا يسوع المسيح الذى منه تسمى كل عشيرة فى السموات وعلى الأرض» (أ ف ٣ : ١٤ ، ١٥) . . « صلوا بلا انقطاع » (١ تس ٥ : ١٧) . . . كان السير توماس براون رجلا من رجال الصلاة العظام على الأرض ، وقد قال فى مذكراته : « لقد صليت فى كل الأماكن الهادئة التى أتيح لى أن أوجد فيها ، فى أى بيت أو برية أو شارع ، وليس هناك شارع واحد فى المدينة التى أعيش فيها ، ومررت فيه دون أن يشهد صلاتى ، فلم أنس إلهى ومخلصى فيه ، وليست هناك قرية أو مدينة ذهبت إليها ولم أفعل كذلك ، ولم أر كنيسة أو أمر بجوارها ماشياً أو راكباً إلا ورفعت صلاة من أجلها . إنى أصلى يومياً وعلى وجه الخصوص لمرضاى الذين أعودهم ، وكل مريض يقع تحت عنايتى ، . . وما دخلت بيتاً قط لأحد هؤلاء المرضى إلا وطلبت عند مدخله السلام والرحمة لهذا البيت ، وما سمعت عظة إلا وطلبت أن تكون مباركة ، وصليت لواعظها ، وما رأيت وجوهاً جميلة إلا وشكرت الله الخالق لهذا الجمال ، وصليت لأجل جمال نفوسهم أيضاً لكى يغنيهم الله بالنعمة الداخلية التى تتجاوب مع الجمال الخارجى ، وعند النظر إلى الساقطين كنت أصلى أن يرسل الله إليهم نعمته ليعطوا جمال الحياة المقامة مع الله » . . . اضرب عدد صلوات السير توماس براون فى عشرات أضعافها ، تقترب من روح بولس رجل الصلاة العظيم أمام الله ! ! . . .

كان بولس — فى الأصل كما تحدثنا عند عرض قصة غمالائيل — يختلف عن أستاذه ومعلمه فى الحياة الملتهبة ، التى تحولت كالوحش الضارى إلى اضطهاد المؤمنين ، الأمر الذى عاش طوال حياته يأسف عليه ، إلا أن هذه الغيرة تحولت ناراً متقدة لا تهدأ فى خدمة سيده وفاديه . عندما تحدث أمام الملك أغريباس ظنه فستوس ، من طريقة حديثه وحركاته ، مجنوناً ،

قائلا له : « أنت تهذى يا بولس . الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان » (أع ٢٦ : ٢٤) . . . كان فستوس عاجزاً عن أن يدرك النار العظيمة التى كانت تتقد فى أعماقه ، وأوقدها يسوع المسيح ، ولم يستطع سيف الجلاد نفسه ، إلا أن يشهد بشجاعتها الباسلة التى لا تتراجع حتى الموت ! ! .

وأى ثبات أو صبر يفوق الوصف ونحن نسمع الرجل يقول : « بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات فى ضربات فى سجون فى اضطرابات فى أتعاب فى أسهار فى أصوام فى طهارة فى علم فى أناة فى لطف فى الروح القدس فى محبة بلا رياء فى كلام الحق فى قوة الله بسلاح البر لليمين ولليسار ، بمجد وهوان بصيت ردىء وصيت حسن . كمضلين ونحن صادقون ، كمجهولين ونحن معروفون . كمائتين وها نحن نحيا . كمؤدبين ونحن غير مقتولين . كحزانى ونحن دائماً فرحون كفقراء ونحن نغنى كثيرين . كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء » (٢ كو ٦ : ٤ — ١٠) . . .

يقول توماس بوسطن فى احدى كتاباته البليغة : «يولد الإنسان صارخاً، ويعيش مشتكياً ، ويموت تعساً ، وهو يقول : باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح . . لخلاصك انتظرت يارب » . . . ومع أن بولس عاش فرحاً بالهه ، وحتى فى السجن كان يصلى ويسبح الله مع سيلا ، . . لكن بولس مع ذلك كان واحداً من أعظم المحزونين فى الأرض ، . . وكان حزنه عميقاً لا ينقطع ، أليس هو القائل : « أقول الصدق فى المسيح . لا أكذب وضميرى شاهد لى بالروح القدس . إن لى حزناً عظيما ودجعاً فى قلبى لا ينقطع فإنى كنت أود لو أكون أنا نفسى محروماً من المسيح لأجل إخوتى أنسبائى حسب الجسد » (رو ٩ : ١ — ٣) . . . قال الفيلسوف

بسكال : إن عظمة الإنسان تقاس فى العادة بعظمة بؤسه . وكان من المستحيل أن يرى بولس الجحيم وهو يبتلع كل يوم النفوس التى تتهاوى إليه وبينهم الكثيرون من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه دون أن يدمى قلبه ويتقطع ، وقد أعطاه السيد حباً عجيباً للنفوس التى مات المسيح لأجلها ! ! . . .

على أنه لا يمكن أن نذكر حياة بولس فى المسيح دون أن نذكر شوكته فى الجسد ، وقد أدرك بولس أن هذه الشوكة أعطيت له ضماناً للحياة التى اختارها له الله فى قصـــده الأزلى ، . . ولا يتسع المجال للحديث عن الأفكار المختلفة ، والشروحات المتعددة عن هذه الشوكة . ومن الغريب أن الآباء ورجال العصور الوسطى صوروها كتجارب جسمية أو نفسية ، . . . وكان الذهبى الفم يرى الشوكة فى هيمينايس واسكندر النحاس اللذين عذبا نفسه وأظهرا له شروراً كثيرة ، . . وكان يراها كلفن فى الصراع الداخلى المستمر فى الإنسان الباطن ، . . وموشين يصورها فى الندم على حياته الأولى ، . . لكن الاتجاه الحديث يصورها كمرض من أمراض الجسد ، فمثلا لايتفود يظنها الصرع ، ودين فرار الرمد ، وبروفسور رامسى ، حمى من الحميات التى كانت منتشرة فى أسيا الصغرى ولعلها الملاريا ، . . وأياً كان التصور عن هذه الشوكة ، وعجز بولس عن فهم الحكمة منها فى بداية الأمر ، إذ كان يعتقد أنها معطل له عن الخدمة ، . . وقد صلى ثلاث مرات ، أو لعلها ثلاثة فصول ، أو لعله ركز عليها ثلاث فترات معينة ، ولم يجبه الله بالصورة التى تمناها ، بل قواه على احتمالها . . قال أحدهم لقد صليت أن يرفع الله الحمل عن كاهلى ، . . ولكن الله أعطانى كتفاً أستطيع به أن أحمل هذا الحمل ! ! . . . وقد ظهرت قوة الله فى ضعف بولس وأعانته أن ينتصر تماماً على الشوكة ، ويعيش بها مرتفعاً فوق الضعف ، وفى الوقت نفسه تخزه كلما جرب بأن

يرتفع ! ! . . لقد ذكرنا فى مطلع الحديث أن بولس كان يؤمن بالاختيار المطلق ، ونعرف الآن أن الشوكة كانت واحدة من الوسائل المتعددة التى استخدمها الله لتحقيق غرضه فى حياة بولس .

بولس الراعى المثـالى :

ونحن نتحول هنا إلى بولس الراعى المثالى ، كم نود أن كثيرين من الرعاة وخدام الكلمة الإلهية يدرسون حياة بولس كراع . . . قال أحد الأعضاء لدكتور ج . ر . جوردان إنه يتردد الآن كثيراً على الكنيسة كما كان يفعل من قبل ، لأن الواعظ هناك يعتقد أنه يعرف كل شىء ، ولا يجهل شيئاً البتة ، بل الأكثر من ذلك إنه يأمر الذين حوله كما لو كانوا فعلة فى خندق ، ويبدو أنه يعتقد أن الرعية لا تفهم شيئاً ، وهو إذ يصعد إلى المنبر ، ويصرح ويأمر المستمعين كما لو كان قائداً يلقى أوامره من فوق سفينته الحربية ، ثم قال الرجل إنى مستعد أن أدفع ألفاً من الدولارات ، ليعترف ولو مرة واحدة ، أن هناك شيئاً لا يعرفه ، ومستعد أن أدفع مليوناً من الدولارات لو أنه جلس مع الآخرين ليضحك ويمرح . . وقال آخر عن مرشح سقط فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، إن سر سقوطه يرجع إلى أنه كان يخاطب المنتخبين كما لو كانوا أقل منه وأضأل شأناً ! ! . . . وربما نستطيع أن نرى صورة لبولس كراع ، ونحن نتأمل المدة التى قضاها فى أفسس ، وكانت المدينة تعد أكبر مدينة فى أسيا الصغرى ، والعاصمة الرومانية للولاية المعروفة حينئذ بولاية أسيا ، وقد بنيت عند مصب نهر كيستر فى بحرايجه ، وكان لها ميناء متسع ترسو فيه السفن الكبيرة ، ولهذا فقد كانت مركزاً تجارياً عظيماً ، كما كانت ملتقى الغادين والرائحين بين الشرق والغرب فى أرجاء الأمبراطورية الرومانية ، على أن المدينة أخذت شهرتها من وجود هيكل أرطاميس بها

وكان يعد من عجائب الدنيا السبع ، كانوا يقولون إن الشمس لم تر ما هو أفخم منه أو أعظم وقد بنى بأكمله من الرخام الأبيض وكانت أعمدته مائة وسبعة وعشرين عموداً من اليشب ، أهدى كل عمود منها ملك من الملوك . وكانت أرطاميس أو ديانا عند الأسيويين ، تعد أم الحياة ، على العكس من أرطاميس أو ديانا اليونانية التى كانت آلهة الصيد . وقد كان تمثالها فى أفسس موضوعاً داخل مذبح كبير فى نهاية الهيكل ، وكان بالمدينة على مقربة من الهيكل مسرح هائل يتسع لخمسين ألفاً من المتفرجين ، .وقد جعل بولس المدينة مركزا للتبشير فى أسيا كلها ! ! . . وقف هناك يتحدى أرطاميس ويسقطها إلى الحضيض .

وسنعرف بولس كراع من خلال حديثه الوداعى لقسوس أفسس عندما التقى بهم فى ميليتس (أع ٢٠ : ١٧ — ٣٨) . والراعى عند بولس لابد أن تتوفر فيه الشروط التالية :

(١) الراعى المدعو : فهو لا يذهب إلى الحقل الرعوى من تلقاء نفسه أو باستحسان الناس أو بدعوة من البشر ، بل بالدعوة الإلهية الصريحة الواضحة : « الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة » . . (أع ٢٠ : ٢٨) وإذا كان الله قد خطط حياة كل إنسان ، ودعاه لعمل معين فى الأرض ، فإنه بالأولى يفعل ذلك مع خدامه الذين يحدد لهم الزمان والمكان الذى فيه يعملون . .

(٢) الراعى المتواضع : قال أحد القواد : كانت أمنيتى على الدوام أن أتشبع بروح التواضع ، وخادم الله ينبغى أن يسير فى أثر ذاك الذى قال : « تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب » (مت ١١ : ٢٩) ، ليقول مع بولس : « أخدم الرب بكل تواضع » (أع ٢٠ : ١٩) . وجدير بنا

ألا ننسى أنه يمكن للانسان مع الاحتفاظ بإبائه وشممه وكرامته وعزة نفسه أن يكون متواضعاً ، إن التواضع هو النزول الاختيارى بروح سمحة وديعة إلى مستوى الضعيف والمسكين والمحتاج والجائع .

(٣) الراعى الحنون : يقول التقليد اليهودى إن الله سلم موسى رعاية إسرائيل بعد أن رآه فى البرية يسعى وراء حمل صغير ضال ، قيل إن موسى وجده يرتاد منطقة بعيدة بحثاً عن الماء ، فأسف موسى لأنه لم يتنبه لعطش الحمل ، وبعد أن تركه ليرتوى ، حمله على منكبيه خوفاً عليه من التعب ، والتقليد يقول : إن الله من تلك اللحظة استأمن موسى على شعبه ، بعد أن رآه حنوناً على الحمل الصغير ، وقد مزج بولس رسالته فى أفسس بدموع كثيرة ، والدموع لايمكن أن تنبعث إلا من القلب الرقيق المفعم با لحنانوالحب ! ! . .

(٤) الراعى الصبور : وقد أحاطت به فى أفسس متاعب ومكايد وتجارب متعددة ، فقد كان الناس هناك أشبه بالوحوش الضارية ولذا قال : « حاربت وحوشاً فى أفسس » (١ كو ١٥ : ٣٢) ومع ذلك فقد صبر وتشجع وتقدم وانتصر دون أن يعتريه اليأس والخوار ، ولذا كان جديراً به أن يقول لتيموثاوس : « فاشترك أنت فى احتمال المشقات لأجل الإنجيل » (٢ تى ٢ : ٣) . . .

(٥) الراعى المقيد إذ أنه لا يتبع فى عمله ما يستحسنه هو أو كيفما تمليه إرادته ، بل كان « مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفنى هناك . غير أن الروح القدس يشهد فى كل مدينة قائلا إن وثقاً وشدائد تنتظرنى » (أ ع ٢٠ : ٢٢) حين حاول استانلى أن يقنع ليفنجستون بأن يرجع إلى إنجلترا تاركاً أفريقيا لما رآه عليه من التعب والشدة والضيق والمرض ، كان الجواب النبيل : لا لا ! ! أن تقدرنى الملكة ويحيينى آلاف المعجبين من الجماهير ، هذا قد يبدو جميلا ، ولكن محال أن أقبله إذ ينبغى أن أتمم سعيى ! ! . . .

(٦) الراعى الحذر : عليه أن يحذر مفاجآت متعددة كثيرة قد تلم به ، عليه أن يحترز لنفسه ليكون مثالا صالحاً للرعية من كل جانب من جوانب الحياة العقلية والجسدية والروحية ، وعليه أن يعلم أن أعظم مثال : لا ما يقوله المرء بل ما يكون عليه ، وعليه أن يحذر الآخرين فمن الأصدقاء من قد يصبح عدوا للراعى والرعية ، وعليه أن يحترز لجميع الرعية ، فيعين ويشجع ويحرس ويطعم ويسهر عليهم جميعاً بحسب احتياج كل واحد ووضعه وظروفه!

(٧) الراعى العفيف ! ! . . وما أعظم بولس وهو يقول : « فضة أو ذهب أو لباس أحد لم أشته ، أنتم تعلمون أن حاجاتى وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان » . . (أع ٢٠ : ٣٣ , ٣٤) إنه يذكرنا بقول صموئيل : « فاشهدوا علىَّ قدام الرب وقدام مسيحه ، ثور من أخذت وحمار من أخذت ومن ظلمت ومن سحقت ومن يد من أخذت فدية لأغض عينى عنه فأرد لكم ! ! . . » (١ صم ١٢ : ٣) وقد كان صموئيل قدام الرب وقدام الملك نموذجاً جميلا للنفس السامية العفيفة ، وهكذا ينبغى أن يكون كل راع حريصاً على خدمة الله ومجده ! ! . . .

(٨) الراعى والضمان الإلهى : سار بولس فى طريقه يواجه أمواج الحياة وعواصف الأيام ، سار إلى النهاية ، ولكنه ترك قسوس أفسس وديعة بين يدى الله القادر وكلمة نعمته : « والآن أستودعكم يا اخوتى لله ولكلمة نعمته القادرة أن تبنيكم وتعطيكم ميراثاً مع جميع المقدسين ، (أع ٢٠:٣٢) وهذا هو سر نجاح بولس المختار وكل الخدام على مر الأيام وتعاقب الزمن وامتداد التاريخ ! ! . . .

بولس الواعظ الناجح :

كان القديس أوغطينوس يتمنى ثلاث أمنيات فى حياته : أن يرى

روما فى مجدها ، والمسيح فى الجسد،وبولس وهو يعظ ، وإذا كنا قد درسنا بولس كراع مثالى فى علاقته بالأفسسيين ، فإنه يمكن أن نراه واعظاً من أبرز الوعاظ وأنجحهم ، إذا وقفنا منه سنة وستة أشهر فى مدينة كورنثوس لنرى :

(١) الواعظ والتحدى العظيم ، وربما لم يجد بولس تحدياً لخدمته كالتحدى الذى لاقاه فى مدينة كورنثوس . التى كانت عاصمة ولاية أخائية ، ومن أشهر مدن اليونان والعالم ، وكانت تعدادها فى أيام بولس يزيد على أربعمائه ألف نسمة ، ومع أنها لم ترتق يوماً ما الى مقام أثينا فى المعرفة والعلم ، لكنها تفوقت على عاصمة اليونان ، فى ميدان التجارة ، واللهو ، والفجور ، إذ كانت ممراً عالمياً للتجارة بين الشرق والغرب ، كما كانت المدينة التى تقام فيها الألعاب الأولمبية كل أربع سنوات ، والتى تنظم أكاليل الغار للفائزين ، كما كانت مدينة الفجور والفساد والأوحال ، المدينة التى دعاها يوحنا فم الذهب أشر مدينة عرفها التاريخ ، ودعاها آخر سدوم القرن الأول ، إذ كان هناك هيكل فينوس أو أفروديت آلهة الجمال والحب ، وكان بالهيكل ألف امرأة خصصن أنفسهن لأشر ألوان الدعارة والفجور كجزء لازم من أجزاء العبادة ، وقد قيل إن بولس كتب الأصحاح الأول من رسالته إلى أهل رومية وهو ينظر محزوناً إلى مافى كورنثوس من أثام ومفاسد ، وقد وصفها أحدهم بالقول : إنها تشبه فى الوقت الحالى نيويورك فى كونها تجمع خليطاً من الشعوب ، وتشبه لندن فى جمعها للمال وحبه ، وتشبه باريس فى الخلاعة والدعارة ، . . اخلط هذه كلها وخذ شر ما فيها وأفظعه ، ترى صورة مدينة كورنثوس القديمة . وقد هدمها الرومان عام ١٤٦ ق . م وأعاد بناءها يوليوس قيصر بعد قرن من ذلك التاريخ وزارها بولس على الأغلب عام ٥١ فى ختام رحلته الثانية ، ولم يتركها قبل أن ينشىء فيها كنيسة كبيرة ! ! . . .

(٢) الواعظ الذى وعظ بحياته أولا : دخل بولس المدينة ، ودخلها وحيداً وقد ملأه الخوف والرعب والرعدة لبشاعة الإثم فيها : وكان عليه أن يجد أولا مسكناً ، ويعمل ليعيش ويأكل ، وقد وجدسكنه عند زوجين جاءا حديثاً من رومية ، هما أكيلا وبريسكلا وكانا من ذات صناعة بولس ، وقد كان أكيلا يهودى الجنس وقد طرد مع غيره من اليهود من رومية لأن رجلا يهودياً اسمه كريستس أحدث شغباً فى المدينة ، أصدر على أثره كلوديوس قيصر أمراً بطرد اليهود جميعاً ، ومن ثم سار أكيلا وزوجته إلى كورنثوس فى طريقهما على الأغلب إلى بلدهما ، ويظن البعض أنهما عرفا المسيح فى رومية ، بينما يرجح آخرون أنهما عرفا المسيح على يد بولس فى كورنثوس وهنا يقول تشارلس براون : « إن أكيلا وبريسكلا لم يعرفا أولا بولس الواعظ ، بل عرفا بولس الصانع رجل الأعمال ، لقد أبصراه فى صناعته وعمله وحياته الداخلية الخاصة ، ومن المؤكد أنه من أعظم دلائل الحياة والخلق المسيحى المجيد أن تستطيع ربح الشخص الذى يسكن معك تحت سقف واحد ، ويراك فى أغلب الأوقات وفى الحياة البيتية الخاصة » . . . ويقول يوجين فوستر أيضاً : « أى نوع من الناس كان بولس هذا صانع الخيام . . مرات أشعر بأنى لو كنت معاصراً له ، وفى حاجة إلى خيمة متينة ، ومصنوعة على أجمل ما تكون عليه الصناعة ، لحاولت أن أجد واحدة صنعها هذا الرجل بولس ، ولكن لماذا أقول هذا ، إنى أقوله متأثراً بعبارة قالها : « فإن كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله (١ كو ١٠ : ٣١) . . وإذا كان هذا هو شعار الرجل ، فلا بد أن يكون ما يصنعه مجيداً ، وهو ما أرغب فى شرائه » . . . لقد كانت أكبر عظة لبولس هى بولس نفسه .

(٣) الواعظ الملتهب وقد كان بولس فى كورنثوس يعظ بقوة روح

الله الذى حاصره بالتمام : « كان بولس منحصراً بالروح » (أع ١٨ : ٥) لم تكن عظة بولس واجباً يؤديه ، لأنه لابد أن يفعل ذلك ، أو مهنة يتكسب منها عيشه ، أو رسالة تلقى بلا مبالاة أو اهتمام ؛ . . لقد سيطر روح الله عليه فكراً وقلباً وإرادة ؛ وهو ينادى بيسوع المسيح ؛ ويشهد عنه ؛ . . . رسم يوحنا فم الذهب أسقفاً على القسطنطينية عام ٣٩٨ . ؛ وقد كانت المدينة فى أعظم عصور مجدها ، وزهوها ؛ . . وكانت كنيسة أجا صوفيا فخر كنائس العالم كله ؛ . . إلا أن الأسقف العظيم استولى على قلوب الناس ومشاعرهم ، وأطلق عليه « فم الذهب » لشهرته كواعظ تقى مقتدر ، وإذ كان رجلا وديعاً ، دخل الكنيسة ولم تعجبه الأبهة والفخفخة التى تملؤها فهى فى تصوره غير لائقة بالناصرى الوديع المتواضع ؛ . . فما كان منه إلا أن دخل دار الأسقفية ، وأمر بنزع الأثاث الثمين ، وبيعه فى السوق العام ، ووزع ثمنه على فقراء المدينة الذين أحبوه حباً جماً ، لكن الأغنياء والمتقدمين فى الشعب أبغضوه ، لأنهم لم يحبوا أن ينتبه أحد إلى قصورهم ، كما كانت وصايا السيد وطريقة صعبة عليهم ، وقد ندد بتجارة العبيد التى كانت شائعة فى ذلك العهد واغتاظ أعداؤه وعلى رأسهم الامبراطورة التى ساءها أن ينتقد الأسقف تصرفها وخلاعتها ، فسعوا إلى نفيه ، فلم يبال . كان يمكنه أن يعود مكرماً إلى القسطنطينية لو أنه تغاضى عن الحق ، واغمض عينيه عما يراه من آثام ، ولكنه فضل أن يسير ليلاقى الموت ، على أن يعيش غير أمين لسيده ، ولم يقو جسده النحيل الذى أضنته الآلام على السير إلى النهاية حتى المنفى ، فسقط فى الطريق ، وحملوه إلى أقرب كنيسة حيث أسلم الروح ، وهو يقول العبارة التى كانت تجرى دائماً على لسانه ، وودع بها الأرض ، « المجد لله والشكر له لأجل كل شىء » . . .

(٤) الواعظ بالصليب ، وهنا فخر الرجل ومجده ، بل هنا سر قوته

العظيمة ، . . لقد كان بولس الرائد العظيم الذى وضع على جانبى الطريق الطويل للوعاظ المسيحيين اللافتة المشهورة : « لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً » (١ كو ٢ : ٢) . . . إن القوة الجبارة فى الكرازة المسيحية لا تنبع إطلاقاً من بلاغة الواعظ أو قدرته على الاقناع والابداع ، . . بل القوة الحقيقية تكمن فى مادة العظة وموضوعها الذى يجب أن يتركز على الدوام فى الصليب ، . . وقد غلب الصليب ، وسيغلب ، مهما بدت الخطية فى الأرض . . ذهب أمريكى اسمه دكتور جستن ورى نكسون إلى روسيا عام ١٩٣٥ ، وكان يركب القطار من هلسنكى فى فنلندا ، وكان القطار ممتلئاً بالشيوعين الذين كانوا ينشدون الأناشيد ، وكانت أنشودتهم :

إذا ذهبت إلى موسكو ، قبل أن أذهب

اخـــبر ستالين أنى حالا ســــــأجى

ســـتالين قائدنا ولذا لانهـــــــــتز

كان ستالين كل شيء لهم ، وبدا كما لو أن الإيمان المسيحى يترنح ، ولكن الرجل بعد عشرين عاماً ، ذهب مرة أخرى إلى روسيا ، وكان تأثير ستالين ما يزال باقياً ، ولكنه أخذ يهتز ويترنح ، . . وبينما هو يسير وقت الغروب لاح له شيء فى الجو ، كان أعلى كنيسة القياصرة الصليب ، وقد أضاء بشعاعات الشمس ، . . وآمن الرجل إن ستالين سيذهب والشيوعية ستذهب ، وسيبقى الصليب وحده يملأ الجو ويسود عند ما تسقط الخطية ومملكة الشيطان فى الأرض ! ! . . فى ضجعة الموت سمع هنرى دراموند الواعظ العظيم مرنماً يرنم أغنية الصليب ، فطلب منه أن يرنمها مرة أخرى وأنصت إليه ، وعاد بذاكرته إلى الأيام والسنين الكثيرة التى خدم فيها الرب ، وأحس بألم عميق ، لقد وعظ عن الصليب ، ولكنه أدرك أنه لم يعظ عنه

كما يجب ، كان هذا الواعظ ذهبى الفم ، إذ كان فيلسوفاً بطبيعته ، كما كان عميق التفكير ، رائع البيان ، وكان الشباب حين يسمع أنه سيعظ يهرع إليه بالألوف وعشرات الألوف ليستمع إلى عظاته الساحرة ، لكن هذا الواعظ عد نفسه مقصراً لأنه تكلم بالفلسفة أكثر مما تكلم بالصليب ، تكلم كما تكلم بولس فى أثينا ، وكان خطابه من أعظم الخطابات التى سجلها التاريخ ، ولكن محصولها كان محدوداً وضعيفاً ، إذا قورن بمحصوله فى كورنثوس حيث ركز عظاته على الصليب،وترك للصليب أن يفعل فعله المجيد العجيب فى نفس الإنسان الخاطئة الضائعة المريضة ! ! . .

كان كامبل مورجان من أعظم الوعاظ ودارسى الكتاب فى القرن العشرين ، وكان من الذين يؤمنون بعمق بقوة الصليب ورسالته ، وكان يقوم بسلسلة من الخدمات فى يوركشير . وذكر أن أحد عمال المناجم قال له ذات يوم إنه لا يستطيع أن يقبل فكرة الخلاص بالإيمان ، إذ كيف يغفر الله كل خطايا الإنسان لمجرد إيمانه بالمسيح ، ألا يكون الخلاص فى هذه الحالة رخيصاً جداً ، . . فقال له مورجان : ترى هل اشتغلت اليوم فى المنجم ، فأجابه : أجل ! ! . وقد دخلت اليوم إلى جوفه وأعماقه فقال له مورجان : وكيف أمكنك الصعود عندما انتهى عملك ؟ فأجاب الرجل : لقد دخلت المصعد وإن هى إلا لحظة حتى وجدتنى على السطح ! ! .. فسأله مورجان : وكم دفعت نظير صعودك ! ! ؟ فقال له : لم أدفع شيئاً . فقال له الواعظ الكبير : ولكن كيف تصعد بمثل هذه الراحة والسهولة مجاناً ! ! .. أليس هذا رخيصاً ! ! ؟ . . فأجابه : أجل ! إنه رخيص بالنسبة لى ، ولكنه غال بالنسبة للشركة ، فإنها قد دفعت مبالغ باهظة لاعداده ! ! . . وقبل أن يختم قوله ، أدرك مرمى سؤال مرجان على الفور وقال : لقد فهمت الآن ما ترمى إليه ! ! . . لئن كان الخلاص رخيصاً وسهلا بالنسبة لى . فقد

كلف الله ثمناً غالياً على الصليب ! ! . . لقد خرج بولس يقول هذه الحقيقــة للعالم ، وهو يصيح : « الذى أحبنى وأسـلم نفسه لأجلى » (غل ٢ : ٢٠) . . .

بولس والنهاية المجيـدة :

كان بولس فى الثالثة والستين من عمره أو نحو ذلك عندما ذهب شهيداً بسيف نيرون ، ويبدو أنه قضى نصف حياته أو ما يقرب من النصف بعيداً عن المسيح أو بالحرى ضداً له ، والنصف الآخر بعد التجديد قضاه فى الخدمة التى تركت طابعها العظيم والعجيب على تاريخ العالم منذ ذلك الوقت ! ! . وهل يستطيع الإنسان أن يقيم حياة هذا الرجل العظيم ؟ ، . . قال بعضهم إنى أفضل وجود بولس واحد فى الكنيسة على ألف رجل ، . . ولكن هل يوجد بين الملايين على الأرض من يضارع بولس أو يقف إلى جواره ، ... وهل يتكرر بولس فى التاريخ ، . . قال آخر نحن فى حاجة إلى ألف عام حتى نجد تكراراً للرجل أو مثيلا له ! ! . . لكن بولس — على الأغلب — لايتفق معنا فى ذلك ، . . ولقد قيل فى أحد التقاليد إنه يوم استشهاده سار فى الطريق ، وإذا به يبصر فتاة مسيحية مؤمنة تسير وراءه باكية بحرارة ، . وسألها بولس لماذا تبكين يا فتاتى : قالت أبكى الرسول العظيم . . أبكى الخدمة الجبارة ، أبكى الرجل الذى قل أن يكون له نظير ! ! . . فقال لها : لا تبك . . اذهبى وسيرى بالشجاعة والقوة والأمانة وأد رسالتك ، وسنلتقى يا بنيتى هناك حيث لا فراق إلى الأبد ولا تعب ولا معاناة ولا ضيق ! ! . . ربما تفرد بولس ، عن الفتاة أو عن غيره من الناس ، فى الاتساع الذى أعطاه للمسيح فى قلبه ، والفرصة ليعمل به السيد المعجزات العجيبة والمجيدة ، . .. وقد قاس بولس الحياة بعرضها وليس بطولها ، وقاسها ببذلها وليس بمايغنم الإنسان أو يأخذ منها ، . . وما أكثر الذين داخل الحظيرة الدينية أو خارجها ،

طبعوا التاريخ بأعمق طابع ، دون أن يتأثروا بمرور السنين فى حياتهم ، وعلى العكس وجد الكثيرون الذين شاخوا فى سن الرجولة بأفكارهم أو مشاعرهم أو إراداتهم . . . كتب شيشرون أجمل كتبه وهو فى الثالثة والستين من عمره ، وسقط أفلاطون على كرسيه وهو يكتب ويفكر فى الحادية والثمانين من العمر ، وكتب أسقراطس أجمل كتبه وهو فى الرابعة والتسعين ، هذا فى الوقت الذى اعتبر روجر بيكون نفسه عجوزاً وهو فى الثالثة والخمسين ، وانتحب السير ولتر سكوت وهو فى الخامسة والخمسين ، للشيب الذى كلل رأسه ، .. غير أن بولس لم يكن لديه الوقت ليفكر فى السنين التى تمر فى حياته ، إذ كانت الحياة والموت على حد سواء بالنسبة له : « بل بكل مجاهرة كما فى كل حين كذلك الآن يتعظم المسيح فى جسدى سواء كان بحياة أم بموت . لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح » (فى ١ : ٢٠ و ٢١) لقد خف وزن الأرض بالنسبة للرجل بل تلاشى ، بعد أن صعد إلى السماء الثالثة : « وسمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها » (٢ كو ١٢ : ٤) . « لأن ليس أحد منا يعيش لذاته ولا أحد يموت لذاته . لأننا إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت . فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش لكى يسود على الأحياء والأموات ! ! . . » . (رو ١٤ : ٧ – ٩) .

هوت الفأس أو السيف ، وسقط عملاق الأجيال ، وعاش مثلا من أخلد الأمثال لأجمل حياة ، صدحت فى اللحظة الأخيرة بأغنية لم يغن مخلوق اسمى منها وأعظم : « قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الإيمان وأخيراً قد وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل وليس لى فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً » . (٢ تى ٤ : ٧و٨) .

١٣١
أبلوس

« ثم اقبل الى أفسس يهودى اسمه ابلوس اسكندرى الجنس رجل فصيح مقتدر فى الكتب » (اع ١٨ : ٢٤) .

لعله من المناسب تماماً ونحن نذكر قصة أبلوس اليهودى السكندرى : أن نذكر يهودياً اسكندرياً آخر كان من أشهر رجال عصره ، هو فيلو اليهودى السكندرى ، ويعتقد أن فيلو ولد حوالى ٢٠ ق . م ، وعاش إلى عام ٤٥ م أى أنه عاش معاصراً لأبلوس ، وإن كان أكبر منه سناً فى ذلك التاريخ ، ونحن نعلم أن الإسكندرية كانت فى ذلك الوقت من أشهر المدن ، وأنه كان بها ما يقرب من مليون يهودى أى نصف سكان المدينة ، وأن منارها كان واحداً من عجائب الدنيا السبع ، ولعل مكتبتها كانت أعظم مكتبة عرفها التاريخ ، وكان فيلو واحداً من أشهر رجالها ، وكان أخوه اسكندر رجلا غنياً جداً فى المدينة ، ويبدو أن فيلو لم يكن فيلسوفاً فحسب ، أو عالماً من علماء العهد القديم فحسب ، بل كان أكثر من ذلك من قادة

اليهود فى المدينة ، وقد ذهب على رأس وفد إلى روما فى أيام حكم كاليجولا للدفاع عن بنى جنسه عندما تعرضوا للاضطهاد والضيق ، وهو يكاد ينسى نفسه فى حدائق موسينس عندما رأى روما فى مجدها العظيم . . . وقد مزج فيلو الفلسفة بالدين ، وكان شديد الولاء ليهوديته . ولكنه تأثر بالفلسفة الرواقية ، وبأفلاطون وأرسطو . ويبدو أنه كان شديد الإعجاب بهوميروس الذى كان قد أدخل الرمزية فى الكتابات الدينية ، على ما نقرأ فى الألياذة والأودية ، . . . وكان موسى البطل العظيم المفضل فى ذهن فيلو وخياله ، وقد عمد إلى تفسير الأسفار الخمسة ، وكتب الكثير من الكتب الدينية والفلسفية ، . . ومع أنه تحدث عن « اللوجوس » الكلمة ، وكان مأخوذاً فى تفسيره بالفكر الأفلاطونى كما « بالحكمة » فى سفر الأمثال ، . . . إلا أن رحلته فى الحياة انتهت وهو فى اليهودية التى لم تعرف « الكلمة » المسيح مخلص العالم ، . . . لكن أبلوس العبقرى الفصيح وصل إلى أكثر مما وصل إليه فيلو ، وكان واحداً من أعمدة الكنيسة فى أول خطى التاريخ المسيحى ، وها نحن نتابع قصته فيما يلى :

أبلوس الواعظ العظيم :

يبدو لنا أبلوس من أول القصة أميراً من أمراء المنابر ، وواعظاً من أفصح الوعاظ وأقدرهم يملك ناصية البيان وفصاحة التعبير كأروع ما تكون بلاغة الواعظ المتمكن من منبره ، وإذا كانت قواعد علم الوعظ ، على مايدرسه طلاب كليات اللاهوت ، تذكر الصفات والمقومات التى يملكها الواعظ الممتاز بأنها أربع صفات متلازمة ، نلاحظ أنها جميعاً كانت ملك أبلوس وتملأ كيانه ، وهى كما يلى :

التقوى :

والمدقق فى قصة أبلوس وهو ينتقل من الإسكندرية ليحاضر ويعظ فى

أفسس ثم يتجه إلى أخائية : « وهو حار فى الروح » (أ ع ١٨ : ٢٥) يدرك أن هذا الرجل تحرك من البداية بدافع الإحساس الروحى المتعمق فيه كيهودى أولا ، ثم كمسيحى ثانياً ، وأنه كان يحمل فى أعماقه قلباً متقداً بحب الله ، والولاء ليسوع المسيح ، أو فى لغة أخرى لقد كان الواعظ التقى الذى لا ينطق إلا بما يخرج من أعماق قلبه ، ويعبر عن مشاعره العميقة الصادقة ، وتلك هى السمة الأولى للواعظ المسيحى الناجح ، . . والتقوى فى الواعظ هى إحدى خصائص النفس الروحية ، وهى أساس الحماس الأخلاقى البعيد الجذور الذى ينعكس عن الاختبار الدائم لعلاقة الواعظ بالله ، وهى علاقة صداقة وشركة وحب ، يصبح بمقتضاها خليلا لله ، وهى فى لغة أخرى تكريس مهيب لله ، وهى ليست شيئاً مصطنعاً أو أحجية أو تكلفاً ، وهى ليست جامدة ساكنة بل هى نشطة متحركة تمضى قدماً مزدهية بالحق وبمجد وفضائل النعمة المسيحية وبركاتها ، وهى ليست شيئاً ينتمى إلى عالم آخر ، بمعنى العزوف المتكبر ، أو الانطواء المترفع عن حاجيات الناس ومصالحهم ، بل هى تختلط بهم وتعاشرهم وتعاملهم فى الحياة مزودة بل مسلحة بالفضائل المسيحية . وهى ليست ضعيفة خائرة ، بل هى بطلة ، وبطولتها تتجلى فى انتصار الروح انتصاراً رائعاً على الجسد ، وهى الحقيقة الروحية التى لا تقبل أى تهادن أو تهاون مع الزيف أو الكذب أو الخداع أو التظاهر أو النفاق ، وهى تعترف بوجود أعداء الحياة الخلقية والروحية ، ومن ثم تتحداهم ، وليست من المبالغة أن نقول : إن هذه أول سمة فى الواعظ الناجح ، والضمان لتأثيره وأثره ، إذ أنها تلهب الواعظ نفسه بالغيرة المتلظية والحماس النارى ، وهى التى تبقى الشعلة حية متوهجة وسط كل تلك اللامبالاة الجليدية التى كثيراً ما يجد الواعظ نفسه مجابها ومحاصرا بها ، إن هذه التقوى هى التى تظفر للواعظ بتقدير موعوظيه وعطفهم ونواياهم الطيبة ،

بل إن أكثر الناس شراً بينهم ، سوف لا يتمالكون أنفسهم من الإقرار بأن ذلك الحماس الصادق من جانبه أمر خليق باحترامهم وجدير بكل ثناء وتقدير. ومثل هذا الواعظ الصادق والأمين لابد أن يبارك الله جهوده وأتعابه . . . ومن الخطأ البين الفصل بين حياة الواعظ والعظة التي ينادى بها ، فروعة البلاغة وقوة وسائل الإقناع والاستمالة ، تذهب هباء مالم يحرص الواعظ الذى يبشر بالإنجيل على أن ينمى فى شخصيته وحياته عنصر التقوى الشخصية ، ومن ثم فإنها لمأساة دونها كل مأساة ، أن يهمل الواعظ عنصر التقوى الشخصية فى حياته ! ! . .

المواهب الطبيعيـة :

كان أبلوس يملك المواهب الطبيعية للواعظ العظيم والتى تبدأ أولا بالقدرة على التفكير السليم الواضح : « مقتدر فى الكتب » و « خبير فى طريق الرب » ، . . لم يكن ضحل التفكير سطحى التأمل ، بل كان ناضج الذهن ، كما كان يملك العاطفة الملتهبة ، فالواعظ البارد المشاعر لا يصلح قط أن يكون واعظاً ، ولكن الواعظ الملتهب هو الذى يتجاوب مع عظته ، عندما وعظ الواعظ الأعمى جيمس وادل عن الصليب ، وجاء إلى كلمة المسيح : « يا ابتاه اغفر لهم » ، رفع الواعظ منديله إلى عينيه وانفجر باكياً ، . . . لأن العظة مست شغاف قلبه قبل أن تصل إلى الآخرين ! ! . . . وإلى جانب العاطفة هناك الخيال المجنح الذى يرتفع بالواعظ ، ويرفع معه الموعوظين ، كان لجورج هويتفيلد القدرة الهائلة على التصور ، جلس « تشستر فيلد » يستمع إليه ذات مرة ، وسمعه وهو يشبه الخاطئ بشحاذ أعمى سقط عكازه ، فهوى الرجل فى هوة حتى صرخ تشستر فيلد : يا الهى ضاع الرجل ! ! . . وإلى جانب الخيال هناك المنطق الذى ينبغى أن يتحلى به الواعظ لتكون له القدرة على الإقناع ، وقد كان أبلوس ، كما يبدو من الوصف الكتابى ،

لا تعوزه المواهب الطبيعية من حيث الفكر والعاطفة والخيال والمنطق ، مما جعله من أقدر الوعاظ وأفصحهم ! ! . .

المعرفـة :

من المسلم به فى علم الوعظ ، أنه إذا كانت التقوى قوة الواعظ ، والمواهب الطبيعية وسيلته ، فإن المعرفة هى مادته التى يصوغ منها عظاته وتعاليمه . والمعرفة الواسعة أمر جوهرى فى حياة الواعظ ، وقد كانت للخطيب الرومانى الأشهر شيشرون فكرة معينة مؤداها أن الواعظ أو الخطيب البليغ يجب أن يعرف كل شىء . ومن المسلم به أن الواعظ يستطيع أن يستفيد من أية معرفة ، ويفيد معه الآخرين ، ومن ثم ينبغى أن تكون المعرفة هى طموحه المقدس حيث يعرف كل ما يمكن تعلمه من الحقائق الدينية وسائر الحقائق الأخرى التى تلقى الضوء على كل جوانب الحياة ؛ ولن يتحقق هذا إلا عن طريق الدرس المستمر ، والصلاة المتعمقة ! ! . .

المهـارة :

قال المرنم : « فاض قلبى بكلام صالح متكلم أنا بانشائى للملك . لسانى قلم كاتب ماهر » (مز ٤٥ : ١) . . والمهارة هى ذلك الطابع المميز للواعظ فى أصالته ، عن غيره من الوعاظ ، وقدرته على التفرد بشخصية مستقلة لا تخضع لطغيان المؤثرات التى يمكن أن تحدثها البلاغة العالمية أو تقليد الوعاظ الآخرين تقليداً ممسوخا ، ويبدو أن أبلوس كان من هذه الناحية شخصية رائعة متميزة ، لم تتأثر بأخطاء البلاغة اليونانية أو تقليد غيره من الوعاظ ، . . ومن المعلوم أن البلاغة اليونانية شأنها شأن اللغة اليونانية ، كانت وسيلة نافعة مجدية فى توصيل الإنجيل إلى الأمم ، فلقد ظهرت المسيحية فى عالم انتشرت فيه هذه البلاغة . . . وكانت المسيحية فى مطلع الأمر فى

حذر منها ، إذ نشأت فى أرض فلسطين ، وكان رواد الوعظ المسيحى وجماهيره وخلفياته وصلاته الروحية مرتبطة باليهود ، ومن ثم كان طبيعياً بل وضرورياً أن يسير الوعظ المسيحى فى فلسطين على نمط الأنبياء والمعلمين فى الديانة اليهودية ، يضاف إلى ذلك أن البلاغة ، وإن كانت قد وصلت فى فجر المسيحية إلى قمتها فى الحجة والمنطق والتأثير عند العالم اليونانى والرومانى . فإنها قد استخدمت فى كثير من المواطن أسوأ استخدام ، إذ غدت فى أيد غير نظيفة سواء كانت أيدى محامين أو معلمين مزيفين ، فتدهورت وفقدت سمعتها ومركزها الأدبى الذى كان مرموقاً ، بعد أن بدت وسيلة ماكرة خاتلة تحاول أن تجعل الأسود أبيض والأبيض أسود ، ومن ثم كان على الواعظ المسيحى الماهر أن يراقب هذه البلاغة أو يتعامل معها على حذر ، . . على أن هذا كله قد تأثر بعاملين حيويين فيما بعد ، أولهما تضاؤل النفوذ اليهودى عندما انتشرت المسيحية بين الأمم ، وابتدأت الصور البلاغية تدخل فى لباب الوعظ ، . . . ويعتقد الكثيرون أن أبلوس تأثر إلى حد كبير فى الإسكندرية بهذه الصور ، وأدخلها فى وعظه ، الذى سحر به الكورنثيين ، ففضله بعضهم على بولس نفسه ، . . . الأمر الثانى — أنه ربما كان من رجال الأدب والبلاغة ، وتحول إلى الوعظ وخلصه ولا شك من أساليب الختال والخداع التى طغت على المحامين والأدباء الذين استخدموا البلاغة اليونانية أسوأ استخدام .

وقد ظهر فى التاريخ الوعاظ المسيحيون الذين جنبوا وعظهم أساليب الخداع أو التمويه ، وكانت رسائلهم قوية مباركة أمثال أبلوس وباسيليوس وغريغوريوس وفم الذهب وأمبروز وأوغسطينوس ، . . . ومن المسلم به أن أبلوس اشتهر كواعظ فصيح بأسلوبه الخاص الذى تفرد به عن غيره ، . . ولسنا نعلم هل كان يتحلى بصوت موسيقى ساحر ، وإلقاء مدرب عظيم ،

ولكن يبدو أنه كان كذلك ، . . وأن مظهره ومخبره على المنبر كانا كما قال دافيد هيوم : إن سفر عشرين ميلا شيء هين مقابل التمتع بسماع جورج هويتفيلد

أبلوس واكيلا وبريسكلا :

لماذا ذهب أكيلا وبريسكلا إلى المجمع ، بل لماذا ذهب أيضاً أبلوس إلى هناك ، . . كان المجمع في العادة مكان العبادة ، المكان الذى تلتقى فيه النفوس المتعطشة إلى الله ، وقد جرى المسيحيون على عادة الذهاب إلى الهيكل ليس للعبادة فحسب ، بل ليجدوا هناك الفرصة الصالحة المناسبة لجذب النفوس إلى يسوع المسيح ، . . وعندما ذهب بولس إلى كورنثوس ، كان من عادته أن يذهب إلى المجمع ، وهناك التقى بأكيلا وبريسكلا وقادهما إلى يسوع المسيح ، وهنا فعل أكيلا وبريسكلا الشيء نفسه ، إذ اقتادا أبلوس إلى الفادى . كان أبلوس قد تعرف على المسيحية لكن معرفته بها كانت ناقصة ومبتورة وكان يحتاج إلى المعرفة الأصح والأكمل ، ووجدها على يدى الزوجين العزيزين اللذين علماه طريق الرب بأكثر تدقيق . والأغلب أن وراء كل مسيحى مسيحياً أكثر منه قوة أونضوجاً أو معرفة بطريق الرب ، والسلسلة العظيمة تسير من جيل إلى جيل ، . . عندما وعظ سافونارولا فى فلورنسا ، أثر وعظه تأثيراً عميقاً فى شاب اسمه « جون كولت » ، وقد تغيرت حياة الشاب تغيراً كلياً ، وذهب جون كولت إلى انجلترا ، والتقى « بأرازمس » وكانت النتيجة أن أرازمس تأثر وتغيرت حياته ، وذهب أرازمس إلى جامعة كمبردج ، وهناك كان سبباً فى تغير حياة توماس بلينى ، وأثر توماس بلينى بدوره فى حياة « لاتيمار » الذى استشهد مع « ردلى » وهو يقول له : كن رجلا ، فإننا سنضىء فى انجلترا كمشعل ، بنعمة الله ، لن ينطفىء أبداً ! ! . . . ومع أن أبلوس أصبح من أعمدة الكنيسة ،

وحسب فى كورنثوس عند بعض مريديه نداً لبولس ، والأغلب أنه ترك آثاراً أعمق من أكيلا وبريسكلا ، لكنه مع ذلك كان فى حاجة إليها فى مطلع الطريق ليعرف كيف يسير فى الطريق الصحيح من أول الأمر ، . . وكم من المسيحيين يؤثرون فى حياة الآخرين ، دون أن يصلوا إلى شهرتهم فيما بعد ومع ذلك كان من المستحيل على هؤلاء المشهورين أن يشقوا الطريق إلى الأمام دون هؤلاء المجهولين أو شبه المجهولين الذين اقتادوهم إلى المسيح ، ولعلنا قد ذكرنا ، على سبيل المثال ، فى بعض دراساتنا ، قصة يوستنيان الشهيد ، وكان من سكان السامرة ، وكان شغوفاً بالفلسفة ، ولكن الفلسفة لم ترووه أو تشفى غليله ، وحدث ذات يوم وهو يسير حزيناً بالقرب من شاطئ البحر أن التقى مصادفة برجل شيخ غريب عن الديار ، وإذ توقف هذا ليسأل الشاب عن حزنه وتعاسته ، وعرف سره ، وجهه إلى الدين المسيحى بآفاقه الواسعة ، ورؤاه الجميلة ، مشوقاً إياه إلى دراسة الكتاب ، فأقبل يوستنيان على دراسة كلمة الله ، فانكشفت أمامه روعة الإنجيل ، وحمله هذا على مواصلة الدرس ، فكتب يوستنيان كتبه الرائعة ، ومنها الحوار مع ترايفو اليهودى ، ودفاعه عن المسيحية أمام الإمبراطور ! ! . . ونحن لا نعلم من هو الشيخ المجهول الذى قاده ، ولكننا نعلم أنه قاد، وهو لا يدرى ، أحد أبطال المسيحية وشهدائها الأوائل ممن أبلوا فى الدفاع عنها خير بلاء ! ! . .

يقول الكتاب : « فلما سمعه أكيلا وبريسكلا أخذاه إليهما وشرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق » (أع ١٨ : ٢٦) ويبدو أن هذين الزوجين كانا من أنجح الناس فى ربح النفوس ، ولندع الكسندر هوايت يقول : « لو أننا كنا مكان هذين الزوجين لما تركنا الاجتماع قبل أن نعرف الناس من هو أبلوس هذا الذى يتكلم بالفصاحة والبلاغة ، ولكنه لا يفهم ألف باء المسيحية ، ويتكلم عنها متخبطاً دون وعى ، أو ربما كنا نبتسم أو نضيق

بالاجتماع ونحن ننظر إلى الساعة فى قلق حتى ينتهى من كلامه . لكن أكيلا وبريسكلا لم يفعلا شيئاً من هذا ، بل بحكمة ووداعة اقتادا الرجل فى هدوء إلى بيتهما ، وهناك فى الجلسة الحادثة علماه طريق الرب بأكثر تدقيق ! ! . . » .

وما من شك أن الرجل أحس عمق محبتهما التى أسرته ، وجاءت به إلى السيد المبارك ، على أننا ونحن نهنئهما على ذلك ، ينبغى أن نهنئ أبلوس أضعافاً مضاعفة ! ! . . . لم يكن الرجل مصاباً بغرور العلم الكاذب بل بكل وداعة واتضاع تقبل تعليمهما كما يتقبل الصبى الصغير من معلمه الكبير الناضج ، . . ونحن لم نسمعه يصيح فيهما ! ! . . من أنتما حتى تعلمانى ؟ ! . . أنا خريج جامعة الإسكندرية ، والباحث المشهود له . والعالم المتضلع فى اللغة العبرانية واليونانية ، والخطيب المفوه الذى يشار إليه بالبنان ، . . من أنتما حتى تتجاسرا على تنبيهى وتعليمى ! ! . . ذهبت الفتاة الصغيرة ، وكانت تسكن على مقربة من ألبرت اينشتين ، بعد خروجها من المدرسة إليه ليشرح لها درساً فى الرياضة ، وتأخرت عن موعد رجوعها إلى البيت ساعتين وقلقت أمها ، ولما رجعت سألتها لماذا تأخرت ؟ ، فقالت إنها ذهبت إلى إينشتين ، وقضت معه ساعتين يشرح لها الدرس ، وفزعت الأم وذهبت تعتذر لإينشتين العظيم لأن ابنتها أخذت ساعتين من وقته ، . . وأجاب العالم بوداعة : لقد استفدت من الفتاة أكثر مما أفدتها ! ! . . كانت روح أبلوس تحمل هذا المعنى لأكيلا وبريسكلا ! ! . .

هل لنا أن نفكر بعمق فى أثر العمل الفردى فى الكنيسة ؟ إن كثيرين من المؤمنين يجهلون هذا الفن العظيم ، . ولكن هل نضرب مثلا لما يمكن أن يحدث لو أن المسيحيين اهتموا به؟ جاء فى إحدى المجلات الدينية فى عام ١٩٥١ ما يلى : « منذ عشر سنوات فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤١ عقدنا اجتماعاً للصلاة ، وكان عددنا أربعة عشر شخصاً ، وقادنا الرب لأن نبدأ فى العمل الفردى

بصفة جدية . فطبعنا إعلانات عن مواعيد الاجتماعات وتفرقنا نحن الأربعة عشر إلى المنازل المجاورة موجهين دعوة شخصية لكل عائلة لتحضر إلى الاجتماعات ، وبعد سنة أصبح عدد الأعضاء ثلثمائة وستة عشر عضواً ، وفى السنة التالية وصل العدد إلى ستمائة وستة وعشر ، ووصل العدد الآن إلى عشرة آلاف ، ووصل عدد العاملين فى مدارس الأحد إلى أربعة آلاف شخص وبلغت ميزانية الكنيسة أكثر من مليون دولار ولدينا محطة إذاعة لها برامج خاصة ، ولنا نشرات روحية توزع فى كل أنحاء العالم ، وقد بلغت مصروفاتنا لنشر الانجيل عن طريق المطبوعات وحدها مليونى دولار ونحن ننسب نجاح العمل بهذه الصورة لبركة الله على عملنا الفردى ، ففى مساء كل يوم اثنين يجتمع بضع مئات من المؤمنين للصلاة ثم يخرجون اثنين اثنين لافتقاد المتغيبين ولدعوة أشخاص جدد إلى الاجتماعات . وفى صباح كل يوم ثلاثاء يجتمع عدد كبير من المؤمنات ويقمن بنفس العمل . ولكى نضرب مثلا لذلك نقول إنه فى ديسمبر سنة ١٩٥١ اجتمع أكثر من سبعمائة عضو فى الكنيسة وهؤلاء افتقدوا أكثر من عشرة آلاف عائلة فى ظرف ساعة ونصف ، وهذا العمل يتكرر من وقت إلى آخر حتى يحمل الأعضاء ، مسئولية العمل الفردى ! ! . . » .

وفى الواقع إن أهم صور العمل الفردى وأقدرها نجاحاً وإثماراً ترجع أساساً ، لا إلى القدرة الذهنية لرابح النفوس ، بل إلى حياته الروحية وتمكنه من الشركة المسيحية وعمق الاختبار ، وقد استطاع الأخ لورنس وهو يقوم بعمله كطباخ متواضع أن يعلم الكثيرين من لاهوتى عصره حياة التدرب على المثول أمام الله ، وقال يوحنا بنيان عن النعمة المتفاضلة : « إنها نعمة الله الصالحة التى دعتنى الدعوة العليا فى بدفورد ، إذ كنت أسير ذات يوم فى أحد شوارعها لأرى ثلاثاً أو أربعاً من النساء الفقيرات جالسات عند دورهن فى

الشمس وكن يتحدثن عن أعمال الله ، وإذا كانت بى رغبة عميقة أن أسمع ماذا يقلن ، اقتربت منهن ، وكنت إلى ذلك الوقت محدود الدراية بالنواحى الدينية واستمعت إلى مالم أستطع فهمه إذ كان أعلى كثيراً من إدراكى وفهمى ، لقد كن يتحدثن عن ولادة جديدة وعن عمل الله فى قلوبهن ، وكيف اقتنعن بتعاسة حياتهن الخاطئة بالطبيعة وكيف سكن الله فى قلوبهن بمحبته فى المسيح يسوع ، وكيف منحهن القوة ضد تجارب الشيطان ، وكن يتكلمن بفرح عميق وبسرور بالغ بالأقوال الكتابية ، وكانت النعمة ظاهرة على وجوههن ، فكن كمن اكتشفن عالماً جديداً ، وأنهن يسكن فى مكان منعزل عن الذين حولهن ، . . وأصبح من عادتى أن أتردد بين الحين والآخر لاستمع لمثل هذه الكلمات منهن إذ لم أستطع أن أنتظر أكثر . وقد وجدت أمرين عظيمين من وراء هذا كله ، أولا عذوبة وحلاوة ورقة القلب الممتلىء بهذه المشاعر ، والأمر الثانى جمال التأمل المستمر فى كلمة الله » . . . لقد أخذ بنيان طريقه العظيم فى مؤلفه الرائع « سياحة المسيحى » من نساء مسيحيات مختبرات ، وإن كن فقيرات بل شبه معدمات من الناحية المادية ! ! . .

أبلوس وبولس :

وهذا يأتى بنا آخر الأمر إلى علاقة أبلوس ببولس ، ومع أن بولس أسس كنيسة كورنثوس ، وتركها بعد سنة ونصف كنيسة كبيرة عظيمة إلا أن أبلوس جاء إلى المدينة ، وخدم فى الكنيسة تالياً للرسول العظيم ، غير أن الكنيسة هناك قد انقسمت شيعا وأحزابا ، فهناك حزب لبولس ، وحزب لأبلوس ، وحزب لصفا ، وحزب للمسيح ، تماماً كما تنقسم الكنائس إلى مذاهب مختلفه فى أيامنا الحاضرة ، وضاق بولس بهذا الانقسام ، وكشف عن نفسه وعن أبلوس ، فما هو إلا زارع غارس ، جاء بعده أبلوس ليروى ويسقى ، وكلاهما عاملان مع الله ولله ، . . وهما خادمان ليس

لأحدهما فضل فى الخدمة : « فمن هو بولس ومن هو أبلوس خادمان آمنتم بواسطتهما وكما أعطى الرب لكل واحد . أنا غرست وأبلوس سقى لكن الله كان ينمي . إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذى ينمى . والغارس والساقى هما واحد ولكن كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه . فاننا نحن عاملان مع الله وأنتم فلاحة الله . بناء الله . حسب نعمة الله المعطاة لى كبناء حكيم قد وضعت أساساً وآخر يبنى عليه . ولكن فلينظر كل واحد كيف يبنى عليه . فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذى وضع الذى هو يسوع المسيح (١كو ٣ : ٥ – ١١) .. فإذا اختلف الكورنثيون حول الرجلين وأيهما أفضل فمن المؤكد أن الاثنين عاشا صديقين يخدمان سيدهما دون أن تتطرق عاطفة الأنانية أو الحسد أو حب الذات إلى الواحد منهما تجاه الآخر ، ويحسن أن نختم هنا بما قاله هربرت لوكاير من أن أبلوس كان وهو « حار بالروح » النبع العظيم من المياه المنعشة الباردة : « وأبلوس سقى » . وقد تدفق مجراه فى الكنيسة على مر العصور وكلها مياه هادئة جميلة صافية حلوة منعشة رقراقة ! ! . . .

١٣٢
سيلا

« ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصليان ويسبحان الله والمسجونون يسمعونهما »
(أع ١٦ : ٢٥) .

جاء في قصة خيالية طريفة أن الله أمر ملاكين أن ينزلا إلى الأرض ويبحثا فيها عن أسعد إنسان هناك ، ونزل الملاكان وأخذا يجوبان الأرض، بحثاً عن الرجل السعيد في كل قصور الدنيا ، وقد تعجبا أن يجدا أغنياء الأرض أكثر تعاسة وشقاء مما كانا يظنان وصعدا إلى الله ، وقالا : لم نجد غنياً سعيداً في الأرض ، . . وقال الله : اذهبا وابحثا فهناك السعيد الذي أعرف مكانه بين الناس ، وفي هذه المرة تركا قصور الأغنياء إلى أكواخ الفقراء ، . . وهناك أيضاً رأيا مذلة الفقر والشقاء والتعاسة والأنين ، وخرجا بتقريرهما إلى الله : إن الفقراء كالأغنياء لا يوجد بينهم السعيد ، . . وقال الله : إنني أعلم أين يوجد السعيد ، وعاد الملاكان ليبحثا حيث لا يتصور إنسان أن هناك سعيداً ، وذهبا إلى المستشفيات والسجون ، وبينما هما في سجن قاس

فى مدينة فيلبى سمعا ترانيم وصلوات وأغانى ، فاقتربا لبريا بولس وسيلا فى السجن نحو نصف الليل يصليان ويسبحان الله والمسجونون يسمعونهما . . . يعتقد البعض أن سيلا كان موهوباً فى الصوت ، وأنه كان المرنم فى نهضات بولس تماماً كما كان يفعل تشارلس ويسلى مع أخيه يوحنا ويسلى ، أو كما كان يفعل سانكى مع مستر مودى ، على أننا نعتقد مع ذلك أنه لم يكن مجرد مرنم بل كان واعظاً مبرزاً ، وربما كان كاتباً معدوداً بين أفضل الكتاب ، . . . ولعل السر فى عدم وضوح صورته ، يرجع إلى أنه كان رفيقاً لبولس ، فلم تظهر أضواؤه بوضوح إلى جانب نور بولس وعظمته وعبقريته ، . . لكن عظمة سيلا ، رغم أنه الموهوب فى نواح متعددة ، هى أنه رضى أن يأخذ المكان الثانى متوارياً خلف بولس ، . . وها نحن سنتأمل الرجل من النواحى التالية :

سيلا المتقدم بين الاخوة :

يصف الكتاب سيلا مع برسابا زميله : « رجلين متقدمين فى الإخوة » (أع ١٥ : ٢٢) . . . وهو يرينا إياه ، بهذا المعنى يشق طريقه فى الكنيسة الأولى إلى الصفوف الأمامية ، . . . وهو أشبه بيوسف الصديق القديم فى مصر ، عندما شق الطريق إلى الأمام ، ولكنه ركب المركبة الثانية ، إذ كانت المركبة الأولى لفرعون ، أو هو أشبه : « أبيشاى » أخو يواب بن صروية هو رئيس ثلاثة . هذا هز رمحه على ثلثمائة فقتلهم فكان له اسم بين الثلاثة . ألم يكرم على الثلاثة فكان لهم رئيساً إلا أنه لم يصل إلى الثلاثة الأول » (٢ صم ٢٣ : ١٨ ، ١٩) . . . ونود أن نشير هنا إلى أنه لم يبلغ هذا المركز ، لصفاته الاجتماعية بين الناس ، إذ يظهر من حديث بولس فى فيلبى عندما أدخل إلى السجن مع سيلا ، وعوملا معاملة سيئة ، وأراد الولاة بعد ذلك اطلاقهما : « فقال لهم بولس ضربونا جهراً غير مقضى علينا ونحن

رجلان رومانيان وألقونا فى السجن . أفا الآن يطردوننا سراً . كلا ! بل ليأتوا هم أنفسهم ويخرجونا (أ ع ١٦ : ٣٧) يظهر من هذا الحديث أن سيلا كان كبولس متمتعاً بالجنسية الرومانية ، وهو مركز يدل على سمو مكانة عائلته وربما غناها ، . . . لكن الكنيسة لا تعطى الصفوف الأولى لمجرد أن يكون الإنسان غنياً أو من عائلة كبيرة معروفة فى المجتمع : « فانظروا دعوتكم أيها الأخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء ، بل اختار الله . . . أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه » (١ كو ١ : ٢٦ — ٢٩) . . . ذكر كاتب غربى أنه وهو صغير كان يتردد على الكنيسة فى إحدى المدن الاسكتلندية ، وهناك كان يشاهد رجلا مسناً يواظب على الصلاة ، وقد ترك الرجل أثراً طيباً عميقاً فى حياته ، وتصادف ذات يوم أن رآه يكسر الحجارة على إحدى الطرقات العامة ، فاستغرب كثيراً أن يرى هذا الشيخ المحترم يقوم بمثل هذا العمل الوضيع ، وعندما أخبر والده بذلك ربت الآب على كتف ابنه ، وقال إن جيمس يكسر الحجارة ليحصل على قوت يومه ، ولكنى أعترف بأنه لا يوجد شخص هنا يعرف عن الله أكثر منه ، ولا تنس يا ابنى أن ابن الله الذى عاش على هذه الأرض ، كان فقيراً إذ لم يكن له أين يسند رأسه ! ! . . . إن القياس الدائم عند الله للحياة المتقدمة ليس المظهر الذى يمكن أن يكون عليه الإنسان ، بل الداخل الذى يراه الله . . . كان فى مدينة قديمة ثلاثة رجال مشهورون خدموا المدينة أعظم الخدمات ، وكان هؤلاء الثلاثة بركة للمدينة أحدهم حكيم عظيم ، والثانى خطيب قدير ، والثالث فاعل خير ، ولكن ليس له الشهرة الظاهرة أمام الناس ، وتقول القصة الخيالية إن الله أرسل ملاكاً معه تاج ، وأوصاه أن يضع التاج على رأس أفضل واحد فيهم ، وقال الملاك : ترى من هو الأفضل

فيهم . . جاء الملاك إلى الحكيم وقال له إن الله يريدك أن تذهب إلى أكواخ حقيرة وراء الجبال لتخدمه هناك ، فتألم فى نفسه وقال « كيف » ! ! ؟ وجاء إلى الخطيب وقال له أن يذهب إلى الأكواخ الحقيرة ويخدم فتألم وقال « لماذا ! ! ؟ . . ثم جاء إلى فاعل الخير وقال له الشيء نفسه ففرح وقال : « متى » ! ! ؟ . . وعندئذ وضع الملاك التاج على رأسه ! ! . . . لقد تقدم سيلا بين الإخوة لا لمركزه الاجتماعى ، بل لحياته الروحية الخادمة لأنه وزميله : « قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح » (أع ١٥ : ٢٦) وما أروعها من شهادة للحياة المسيحية فى كل عصر وجيل ! ! . . . . قيل عن سيدة أسبانية نبيلة ، فى عصر الإقطاع ، إنها طلبت من زوجها أن يهبها قطعة أرض لتنفق من ريعها على الفقراء ، وكان الزوج غليظ القلب وبخيلا ، ولكنه رضى بذلك مشترطاً عليها أن تأخذ من الأرض بقدر ما تستطيع أن تطوف حوله ، ذلك لأنه عرف أنها مريضة ولا تستطيع أن تقطع مسافات كبيرة ، بيد أن هذه السيدة ، دفعها حب الخير الذى يملأ شغاف قلبها ، لأن تغادر سريرها ، فبدأت بالزحف حتى دارت حول قطعة بلغت مساحتها اثنين وعشرين فداناً ، وكانت النتيجة أنها أنهكت قوتها وفقدت حياتها ، لكن هذه الأرض التى اكتسبتها بدافع حب الخير ظلت مواردها للفقراء مدة سبعمائة عام ! !... إن روح البذل هى التى أعطت سيلا مكانه المتقدم ، وهى التى تعطى كل خادم المكان الممتاز فى الرسالة المسيحية ! ! . . ربما أشرنا فى بعض الدراسات السابقة إلى قصة دكتور دف الاسكتلندى التى كان لا يمل مودى ذكرها ، وسنذكرها كما جاءت فى كتاباته ، قال : بينما كنت أتأهب لترك الولايات المتحدة إلى انجلترا فى عام ١٨٦٧ قال أحد أصدقائى : أرجو أنك تستطيع الذهاب إلى أدنبره وتحضر المحفل العام ، وقال الصديق إنه سمع فى

ذلك المحفل العام الماضى حديث دكتور دف الذى ألقاه وكان كأنه من نار ! !
قضى دكتور دف — مرسلا فى الهند — خمسة وعشرين عاماً يكرز بالإنجيل ويؤسس مدارس ، وعاد إلى أدنبره بجسم محطم ، ولما أعطيت له الفرصة للكلام فى المحفل العام خاطبهم وهو يحثهم على إرسال مبشرين لحقول الأجنبية ، وبعد أن تكلم مدة طويلة ، بلغ به الإعياء إلى حد أن أغمى عليه فحملوه من قاعة المحاضرات إلى مكان آخر ، وأسعفه الأطباء إلى أن أفاق ، فلما عاد إلى وعيه تحامل على قدميه وقال : « إنى لم أتم حديثى ، احملونى إلى هناك لكى أتمه » فلما قالوا له إنك لا تستطيع إلا بتعريض حياتك للموت قال : سأفعل ذلك ولو مت ! ! . . وحمل الرجل الذى تكلل شعره بالبياض وحالما رأيناه فاضت دموعنا ، وهو يقول : « يا أباء وأمهات اسكتلندا . . هل حقاً ليس لكم أولاد أيضاً ترسلونهم إلى الهند فى عمل الرب يسوع . . إن صوت الاستغاثة يعلو ويعلو دون أن يجد جواباً منكم . . عندكم المال فى المصارف لكن أين العمال الذين يذهبون ! ! . . عندما تعلن الملكة فيكتوريا عن حاجتها إلى متطوعين فى الجيش تقدمون أولادكم بسخاء ، ولا تذكرون وقتئذ شيئاً عن صحتهم ، ولا عن الطقس المتعب ، ولكن عندما يدعو الرب يسوع تقول اسكتلندا : ليس عندنا أبناء أيضاً ! ! . . ثم التفت إلى رئيس المحفل وقال : يا حضرة الرئيس . . إن كان حقاً أن اسكتلندا ليس عندها أبناء تقدمهم لخدمة الرب يسوع المسيح فأنا بالرغم من أنى أضعت صحتى فى تلك البلاد ، وبالرغم من أنى جئت إلى الوطن لأموت . . نعم ! ! . . إنه فى حالة عدم وجود آخرين يذهبون ليبشروا الوثنيين عن المسيح ، سأسافر غداً لأخبرهم أنه يوجد فى اسكتلندا شيخ مستعد أن يموت من أجلهم . . سأعود إلى شواطئ نهر الكنج ، وهناك أضع حياتى شهادة لابن الله ! ! . .
كان دكتور دف الاسكتلندى نوعاً من سيلا الذى بذل حياته من أجل المسيح ! ! . . .

ومع ذلك فمن الواجب أن نلاحظ أن شهوة التقدم إلى الأمام بين الاخوة لم تكن الشهوة التي تسيطر على سيلا ، أو الهدف الذي يذهب إليه بدافع الأنانية وحب الذات ، أو في لغة أخرى إنه لم يسع لأجل العظمة التي تعطيه المكان المتقدم بين المسيحيين ، لقد جاءته هذه العظمة عن طريق الخدمة على أساس قول المسيح : « من أراد أن يكون فيكم عظيماً ، فليكن لكم خادماً » ، (متى ٢٠ : ٢٦) . . إن العظمة المسيحية تأتي تلقائياً ، ودون سعي أو جهد ، كما يتبع الظل صاحبه ، عن طريق نكران النفس والذات ، . . . ولابد من أن نقرر أن تحديد المسافة التي تصل إليها ليس في يد صاحبها أو في يد الآخرين ، بل في يد الله الذي يدفع الخادم ، ويحدد مركزه في الخدمة ذاتها ، . . ومع أن المركز الاجتماعي لبولس وسيلا كان متماثلا فكلاهما يحمل الجنسية الرومانية ، وليس فيهما من هو أفضل من الآخر من هذا القبيل ، . . لكنه من الوجهة الروحية ، وبحسب الترتيب الإلهي كانا لا يمكن أن يقفا في خط واحد ، أو كما قال ديسمان في دراسته عن بولس : « كان رفيقه الأول برنابا يكاد يقف معه على قدم المساواة ، لكن المساعدين الذين جاءوا بعد ذلك لم يكن فيهم من يأخذ هذا المركز بل كانوا أدنى إلى الاتباع ». وقد قنع سيلا بهذا المركز التابع دون تذمر أو تردد ، مما يكشف عن روحه الوديعة ، وامتلائه بالخضوع والاتضاع ، وكان بولس في الوقت نفسه أبعد عن روح التسلط والاستعلاء والشموخ ، ويكفيه أنه في رسائله إلى الكنائس كان يضم بعض المساعدين إلى جوار اسمه في كتابة الرسالة : « بولس المدعو رسولا ليسوع المسيح بمشيئة الله وسوستانيس الأخ » (١ كو ١ : ١) . . وسوستانيس هو سيلا بنفسه ، وفي الرسالة الثانية : « بولس يسوع رسول المسيح بمشيئة الله وتيموثاوس الأخ إلى كنيسة الله » (٢ كو ١ : ١) . . . وهذا الإكرام المتبادل هو السمة التي ينبغي أن تسود الجميع مهما اختلفت

مراكزهم أو أوضاعهم ، كما قال السيد : « ملوك الأمم يسودونهم والمتسلطون عليهم يدعون محسنين وأما أنتم فليس هكذا . بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر. والمتقدم كالخادم » (لو ٢٢ : ٢٥ ، ٢٦) . . .

سيلا وقضية الحرية المسيحية :

كان لسيلا وبرسابا زميله نصيبهما الواضح فى الدفاع عن الحرية المسيحية إذ أرسلا من الرسل والمشايخ مع برنابا وبولس إلى كنيسة أنطاكية لإذاعة القرار الذى انتهى إليه مجمع أورشليم ، وقد اجتمع هذا المجمع على الأغلب عام ٥٠ م ، وكانت المسيحية تسير فى سبيلها حتى بلغت مفترق طريقين خطيرين وكان عليها أن تختار أحدهما ، وبهذا الاختيار سيتقرر مصيرها النهائى وشكلها الدائم ، أتكون جزءاً من اليهودية وفرعاً منها تحتفظ بشكلها وطقوسها وعاداتها وفرائضها أم تصبح ديانة حرة واسعة سمحاء للانسانية جمعاء ! ! ؟ وهل من الواجب على المقبل عليها من الأمم أن يتهود أولا ، فيختتن ويحفظ الناموس الطقسى الموسوى ، أم يدخل فى الإيمان دون مراعاة لهذه الطقوس والفرائض والعادات ! ! ؟ قال فريق من المؤمنين الذين كانوا فى الأصل قبل المسيحية فريسيين ، وذهبوا إلى كنيسة أنطاكية حيث حدث نزاع كبير ومباحثة فى هذا الموضوع ! ! . . قال بولس وبرنابا وفريق المتسعين الأحرار : كلا . . وتمسك كل من الفريقين برأيه وأخيراً اتفقوا على استطلاع رأى الرسل والمشايخ فى كنيسة أورشليم فى ذلك ، واجتمع أول مجمع مسيحى فى التاريخ ليناقش قضية الحرية المسيحية ، كان هناك عدد من المؤمنين الذين كانوا فى الأصل من اليهود الفريسيين ، وقبلوا على مضض الذين آمنوا بالرب يسوع من الأمم ، ولكن كان من العسير عليهم تصور فتح باب الخلاص للأمم دون حدود أو قيود أو شروط ، ولم تستطع قصة كرنيليوس رغم وضوحها وظهورها أن تقنعهم كثيراً ، وعندما بلغتهم

أخبار بولس وكنيسة أنطاكية وكيف جاء عدد هائل من الأمم إلى المسيح ، وكيف أن بولس لم يشترط على الاثنين مراعاة الختان والناموس الطقسى ، ثار فريق منهم وسعوا إلى كنيسة أنطاكية من أنفسهم ودون أن يأمرهم أحد ليبثوا أراءهم ودعاياتهم بحماس وتعصب شديد مما دعا الرسول إلى أن يصفهم فى رسالته إلى غلاطية « . . الإخوة الكذبة المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التى لنا فى المسيح كى يستعبدونا . الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل . . . » (غل ٢ : ٤ ، ٥) . . كان هؤلاء الإخوة يرون ضرورة الحرص على الختان كشرط للخلاص . والمقصود بالختان هنا ملاحظة كل الناموس الطقسى من أكل وشرب وملبس وأعياد وتطهير ونذور وفرائض وما لا نهاية له من الطقوس التى ناء بحملها جميع اليهود . وأغلب الظن أنهم كانوا يعتقدون بهذه كلها ، لأن المسيح نفسه اختتن وقال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمل . وظنوا أن الأمم ينبغى أن يظهروا انفصالهم عن الوثنية بعلامة الختان وترك العوائد والأوضاع الأممية والاحتفاظ بالطقوس اليهودية عند دخولهم الكنيسة كرمز أكيد لحياتهم المنعزلة النقية ، أما بولس فقد رأى فى هذا تناقضاً مع الإعلان الإلهى الصريح بفتح الباب دون شرط أمام الآتين من الأمم ، ورأى أن هذا الرجوع إلى الطقسية ، ابعاد وإضعاف وتحطيم للخلاص بالإيمان الذى ينبغى أن يكون له الموضع الأول والأخير فى علاقة المخلصين بسيدهم ، كما أن المسيح ذاته أبطل بجسده ناموس الوصايا فى فرائض ، إذ كانت هذه رموزاً تنتظر مجيئه ، وعندما جاء الأصل بطل الرمز ! ! . . هذا هو النزاع الذى نشب بين بولس وبرنابا من جهة ، وهؤلاء الإخوة من جهة أخرى ، وأبى كل من الفريقين أن يتزحزح عن مكانه أو يغير موضعه ، وإذا كان هذا النزاع فى حد ذاته مما يوجب الأسف أو يدعو إلى الألم ، إلا أنه يعطينا شيئاً من الرجاء

وعدم اليأس عندما نرى المنازعات الكثيرة أمامنا . فلقد كان فى الكنيسة الأولى نزاع ، ويعطينا أن نفهم متى ينبغى أن نسالم ومتى ينبغى أن نناضل ونحارب ، فعندما نرى الحق والنور ومجد الله تتعرض للاساءة والهوان والمذلة علينا أن ننسى كل شىء إلا أننا جنود السيد وأبطال الحق ، . . من يستطيع أن ينكر على لوثر دفاعه عن الغفران المسيحى الكامل ، وحججه التى ألصقها على أبواب كنيسة ويتنبرج ! ! ؟ ومن يستطيع أن يلوم كلفن الذى ربض فى مدينة جنيف يكتب كتبه العظيمة التى أثارت أوربا بأكملها ! ! ؟ ومن يقول ليوحنا نوكس فى أدنبره أخطأت وأنت تتحدى السلطات والخطية من فوق منبرك العظيم ! ! ؟ ومن يمكن أن يرد يوحنا ويسلى الذى خرج من اجتماع صلاة فى لندن ليبشر بإنجيل هز انجلترا والعالم هزاً عنيفاً ! ! . . . هؤلاء بولس وبرنابا ولوثر وكلفن ونوكس وويسلى وغيرهم أبطال الله وجنود المسيح الذى يعلموننا متى وكيف نحارب لأجل الإنجيل ! ! .

فى كتاب جميل لجريس ونتر هذه القصة الرمزية الطريفة : منذ أيام بعيدة جداً كان هناك بستانى ماهر يحب الأزهار ، وقد أهداه أحدهم قطعة كبيرة من الأرض ، ومع أن أغلب القطعة كان لا يصلح للزرع ، ولكن البستانى الماهر صمم أن يجعل منها حديقة غناء جميلة ، فاخذ يتنقل فيها هنا وهناك حتى أبصر رقعة فى الوسط أصلح من غيرها ، فعزم على أن يبدأ فيها بالزرع وقال : فى هذا المكان سأنشىء حقل تجارب يمدنى بالبذور والزهور والأشجار والزنابق الجميلة ، وخوفاً عليها من عدوى الحسك والأشواك والزهور البرية ، بنى حولها سوراً عريضاً مرتفعاً يحميها من كل ما يأتى عليها من الخارج . وقالت الأزهار بعضها لبعض داخل السور ، إن البستانى لنا وحدنا لأنه يقصر عنايته علينا ولا يمكن أن يرعى الأرض القاحلة فى الخارج المملوءة بالأعشاب . على أنها امتلأت دهشة يوماً ما إذ

أبصرت البستانى ينقل إليها من الخارج زهرة أو زهرتين بريتين ويعنى بهما عنايته بها ؛ وأكثر من ذلك رأت الأزهار رجالا يهدمون السور من أعلاه إلى أسفله فصاحت لابد أنها غلطة ،فبستانينا لا يقصد أن يزيل السور ونحن نرحب بمجيء الأزهار الخارجية إلينا على أن يبقى السور كما هو ، لكن البستانى ابتسم وصاح : « لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير » . . وأنت ايتها الأزهار ما وضعتك فى هذا المكان وبسطت عليك من الرعاية والعناية والمحبة الكثيرة إلا لأجعل منك خيراً لما هو حولك من أرض فأهدأى واسكنى واعلمى أنى أريد الأرض كلها حديقة واحدة جميلة زهراء » . . . أعطى مجمع أورشليم الحرية الكاملة للأمم ، وتحفظ فيما يمنع اللوم والعثرة ، كأكل ما يذبح للأصنام والدم ، وهو ما يصدم المؤمن ويعثره لما فيه من عبادة وثنية ، والمخنوق الذى كانوا يخنقونه ليحتفظوا بدمه فيه ، وهذا من شهوات الوثنيين ووحشيتهم . والزنى ، ولا يقصد به عمل الفحشاء والمنكر من الناحية العامة ؛ فهذا بداهة ويقيناً معروف أنه خطية واثم ونجاسة ، ولكن المقصود على الأغلب أمرين هما الاباحية فى الزواج عند الوثنيين مما لم تكن تجيزه الشريعة اليهودية كبعض زواج الأقارب المحرم . والفساد الذى كان يجرى فى المعابد كنوع من العبادة الأممية ! ! . . وقد دونوا هذا فى رسالة أرسلت إلى الكنائس ، . . وقد صحب سيلا وبرسابا بولس وبرنابا ليشهدا بهذه الحقيقة فيما اطلق عليه « ماجنا كارتا » أو دستور الحرية المسيحية الذى رفع عن أعناق المؤمنين نير الناموس الطقسى وفتح الباب واسعاً أمام الجميع لقبول الإيمان المسيحى ، . . . ومن الطريف أن يوستنيان الشهيد قال عام ١٥٠ م فى حديث تهكمى : « وحتى المسيحيون الذين يحافظون على الشعائر اليهودية يمكن أن يخلصوا » ، مما يشير إلى انتصار الروح المسيحية السمحة التى حملها سيلا إلى الكنيسة ، وكان واحداً من دعاتها وأبطالها ! ! . . .

سيلا المساعد الامين :

يقول هربرت لوكاير إن كثيرين من أبطال الكتاب يقفون فى شموخ الانفرادية والعزلة عن الجميع ، على العكس من بولس الذى كان يتكئ كثيراً على الأصدقاء ولايكاد يطيق البعد عنهم ، فإذا بعد أحدهم ، فانه يترك بولس بقلب مكسور كما فعل ديماس ، . . وإذا افترق عنه آخر بسبب العمل ، فإنه يحس العزلة كأقسى ما يحسها المحبون المخلصون ، . . لقد عاش بولس على الدوام ينشد الحب والإخلاص . وكان سيلا واحداً من هؤلاء الذين أحبهم بولس ، وبادلوه حباً بحب ، . . وما من شك فى أن بولس كان سعيداً فى فيلبي أن يسجن ويهان من أجل السيد ، . . ولكنه كان أكثر سعادة لأنه لم يكن وحيداً فى سجنه إذ كان معه سيلا الشريك المخلص المحب ، الذى رفع الصلاة والأغنية كأسعد إنسان وهو فى قلب السجن على ما أشرنا فى المقدمة ، . . كما أنه لم يعرف الحسد أو الطمع أو التذمر باعتباره فى المرتبة الثانية وليس فى المقام الأول . . . وقد وصف الرجل إلى جانب ذلك بأنه « نبي » وليس المقصود بموهبة النبوة الحديث عن الآتى من الأحداث فى المستقبل ، بقدر ما يقصد بها الوعظ وكشف حقائق الله للناس ، وكان سيلا بهذا المعنى واعظاً عظيماً ، كان بولس يرسله هنا وهناك كخير مساعد ومعين ، وقد أدى الرجل رسالته مدافعاً عن الحرية المسيحية ، وخادماً مجداً أميناً ليسوع المسيح ومجده وملكوته العتيد ، وكان صورة رائعة تستحق التقدير والاعجاب على مدى العصور والأجيال ، كالساعد الأيمن الذى لايستطيع أى قائد العمل بدونه أو التقدم دون حبه واخلاصه وغيرته ومساعدته وشركته لمجد القائد الأعلى وسيدنا الواحد المبارك الأحد الرب يسوع المسيح ! ! . .

١٣٣
مرقس

« خــذ مرقس واحضره معك لأنه نافــع لى للخدمة » (٢ تى ٤ : ١١) .

فى واد جميل فى إيطاليا ، يعد من أجمل وديان العالم ، حيث المناظر الجميلة الرائعة الخلابة ، كان الزائرون يستمتعون بأبهج مناظر الطبيعة هناك ، ولم يكن ما يشوش المنظر سوى كتلة صخرية صماء رابضة على تل يشرف على الوادى ، وقد مر الكثيرون بالمكان ، وقد ضاقوا بها ، وتأذوا من منظرها ، إلا شاب فى شرخ الشباب ، تعود أن يذهب إليها ، ويطيل النظر ، ثم يعود إلى بيته ، وبعد بضع زيارات حمل ازميله وبدأ يعمل فيها ، وبعد فترة صنع من الكتلة تمثالا رائعاً لملاك يحنو على الوادى ويرفرف بجناحيــه ، وتحول المنظر الكئيب إلى أبهج منظر يتوج التل والوادى معاً ، كان هذا الشاب هو المثال الإيطالى العظيم ميشيل أنجلو ! ! . . كان يوحنا مرقس فى لحظة من اللحظات أشبه بهذه الصورة المشوهة ، حتى لمسته اليد

العظيمة التى تصنع من حياتنا أوان للكرامة ، ونجح الفخارى الأعظم ، فى أن يصنع من الشاب الذى لفظه بولس ، ورأى أنه لن يصلح للخدمة قط ، . . ولكن رأى بولس لا يمكن أن يضيع نعمة الله واحسانه ورحمته وحبه ، ونجح الشاب ، وسر بولس بخطأ تصوره ، وأكذوبة تفكيره ، فى الشاب الذى نجح بعد الفشل الذريع ، وعاد إلى موقعه من المعركة ، حيث لم يرتد قط إلى الوراء ، وذهب شهيداً ، وعلى الأغلب فى الاسكندرية حيث قضى الجزء الأخير من حياته فى بلادنا ، وقد أخذ بولس بالحياة العظيمة للشاب ، وكان فى حاجة إليه ، وإذا به يقول لتلميذه تيموثاوس : « خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع لى للخدمة » . . هذه هى القصة التى أرجو أن نتأملها ، وعلى وجه الخصوص لأن صاحبها يمثل الفرصة الثانية التى يعطيها الله فى العادة لنا نحن المتعثرين فى الطريق لننهض بعد الكبوة التى كثيراً ما تلحق بالكثيرين منا . وهنا نحن نراه فيما يلى :

مرقس ومن هـو ؟؟

إن الاسم « مرقس » لفظ لاتينى يعنى « مطرقة » . . ويبدو أن هذه المطرقة كانت من النوع الكبير وليست ما يطلق عليه « مرسيليوس » أو المطرقة الصغيرة ، وقد أعطى له هذا الاسم إلى جانب اسمه اليهودى يوحنا ، كما أخذ بولس اسمه إلى جانب شاول ، . . والاسمه يشير إلى القوة التى تمكنت فى حياة هذا الرجل فيما بعد ، حتى أصبحت حياته كالمطرقة التى تحطم الوثنية والشر بين الأمم الذين ذهب إليهم ، . . وكان الرومان يسمون أولادهم كثيراً بالاسم مرقس ، وعلى وجه الخصوص كانوا يعطون هذا الاسم للابن البكر ، وكان شيشرون الخطيب الرومانى الأشهر يسمى « مرقس توليوس شيشرون » إذ كان الابن البكر فى عائلته ، . . وإن كنا لا نعرف اسم أبى مرقس ، لكننا نعرف أن أمه كانت تدعى مريم ، وأنها كانت من الشخصيات القوية

التى أخذت مركزاً ممتازاً فى الكنيسة المسيحية الأولى ، وكان بيتها فى أورشليم على الأغلب ، البيت الذى صنع فيه المسيح الفصح مع التلاميذ ، والمكان الذى ألف التلاميذ أن يلتقوا فيه ، ويظن أن فيه أيضاً ولدت الكنيسة الأولى يوم الخمسين ، وهو البيت الذى ذهب إليه بطرس بعد أن أخرجه الملاك من السجن إذ كان كثيرون مجتمعين هناك للصلاة ، والظاهر من ذلك أن يوحنا وأمه كانا على جانب ليس بقليل من الثراء ، إن لم يكونا غنيين ، فلابد وإن الأم كانت كأخيها برنابا الذى باع حقله وقدم ثمنه للرسل ، . . ويقول البعض إن الشاب وقد كان من سبط لاوى ، كان يمارس الخدمة ككاهن ، . . على أنه لا يستطيع أحد أن يقطع بكيفية تجديد الشاب ، هل تجدد فى أثناء خدمة المسيح ، وهل كان للعشاء الربانى فى بيته ، وبينما كان التلاميذ هناك تم القبض على السيد ، ثم ما أعقب ذلك من الصلب ، والقيامة آثارها فى حياته ! ! ؟ أم أنه جاء إلى المسيح يوم الخمسين أو بالعشرة مع بطرس فترة من الزمن ؟ ! وهل دعاه بطرس : « ومرقس ابنى » (١بط ٥ : ١٣) باعتبار أنه ابنه الروحى الذى ولده فى المسيح أم باعتبار الشركة العميقة التى تربط بين شيخ وشاب أحبا بعضهما البعض حباً عميقاً ، أياً كان الأمر ، فمن الثابت أن الشاب كان مسيحياً مجدداً ، وأنه خرج فى رحلته التبشيرية الأولى مع بولس عام ٤٨ م وكان برنابا خاله رفيق بولس فى تلك الرحلة ،وفى برجة بمفيلية تركهما وعاد إلى أورشليم،وقد رفض بولس أن يأخذه فى رحلتهما التبشيرية الثانية عام ٥٠ م ، وافترق عن برنابا لهذا السبب ، على أنه عاد فقبله إذ ظهر أنه تغير كثيراً عما كان عليه أولا ، وبقى معه إلى النهاية ، ومن الواضح أنه ذهب إلى رومية ، . . وعندما قال بطرس : « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة ومرقس ابنى » (١بط ٥ : ١٣).. ظن البعض أن بابل هنا هى روما بالمعنى الرمزى ، غير أن آخرين يعتقدون

أنه لم يكن من داع للرسول بطرس إلى أن يشير إلى رومية بهذا المعنى ، . . وأنه يقصد حقاً بابل التى كان بها جالية يهودية كبيرة ، ويعتقدون أن الرسول قصدها مع مرقس ابنه ، . . . ومن المرجح أن مرقس وهو يكتب انجيله ، الذى يعتقد أنه أقدم البشائر الأربع ، استقى الكثير من معلوماته من بطرس نفسه ، وقد تواترت شهادات ايرانيوس وترتليانوس وجيروم بذلك ، . . وقد كتب جيروم يقول : « كان القديس مرقس مترجماً للرسول بطرس ، والأسقف الأول لكنيسة الاسكندرية وقد جمع الحقائق ، التى تلقنها من وعظه ، وضمنها الإنجيل بحسب الحق الذى تضمنته مواعظ بطرس وليس بترتيب الزمن الذى وقعت فيه » . . . وقال أوغسطينوس إن نهج مرقس كان أكثر تركيزاً مما جاء فى متى ، مما تلقنه من الرسول بطرس ، ولأجل ذلك جاءت المعلومات الكثيرة فى إنجيله أكثر تركيزاً مما جاء فى إنجيل متى الذى اهتم بعرضها وشرحها ! ! . . وقد سر الرسول بطرس بالإنجيل الذى كتبه مرقس ، وطلب أن يقرأ — على ما يقول جيروم — فى الكنائس ، وقد حمل إنجيله إلى الإسكندرية حيث أسس الكنيسة المسيحية فيها ، ويقال إنه مات شهيداً بها ، وحمل جسده من الإسكندرية إلى البندقية عام ٨٢٧ م : على يد بعض التجار المسافرين ودفن هناك وبنيت فوق القبر كنيسة من أجمل وأروع الكنائس فى العالم المسيحى ، وقد أعاد الفاتيكان رفاته منذ سنوات قليلة إلى مصر ! ! . . . ومن المعلوم أن رمزه بين البشائر رمز الثور ، أو رمز القوة التى كان يبهر بها الرومان ، وجاءت المسيحية لتؤكد قوتها وصبرها واحتمالها وشجاعتها ! ! . . .

مرقس بين النجاح والفشل :

انفرد مرقس بالحديث عن القبض على المسيح ، بذكر قصة الشاب الذى كان لابساً ازاراً على عريه ، وكان أشجع من التلاميذ إذ تبع المسيح ،

فى الوقت الذى هرب فيه الجميع ، ويبدو أنه كان نائماً أو مقبلا على النوم عندما سمع عن واقعة القبض على السيد . وهو يمثل خصائص الشباب على أدق الوجوه ، إذ أنه لم يتمهل ليلبس ثيابه ، بل أخذ الازار ولفه على جسده العارى ، وجرى مسرعاً وراء الموكب ، ومن الغريب أن بعض المفسرين كيوحنا فم الذهب اعتقدوا أن هذا الشخص هو يوحنا الرسول ، وآخرون قالوا إنه يعقوب أخو الرب ، . . لكن الرأى الأرجح الذى يأخذ به غالبية المفسرين يتجه إلى أنه يوحنا مرقس نفسه ، وأنه عندما كتب القصة أوردها كما حدثت معه ، واختبرها بنفسه ، والذى يشجع على هذا الاعتقاد ، هو أنها تعطينا صورة طبيعية حقيقية لحياته كشاب بين الاندفاع والتراجع ، بين الإقدام والإحجام على نحو مباغت عنيف ، كما سنراه فيما بعد . ، . وكما يبدو الشباب فى الأغلب قبل أن تعركهم الحوادث . وتصلب وتثبت ارادتهم الأيام ! ! . . . وفى الحقيقة إننا لا نحتاج إلى الوقت الطويل مع أى شاب — إذا قورن بالشيخ — لنحركه فى الاتجاه العاطفى الذى ينقله من النقيض إلى النقيض فى سرعة بالغة .

كان الشاب طموحاً يعتقد أن الله سيساعد طموحه ، ويدفعه إلى النجاح بسرعة مذهلة ، وسيعطيه المال الوفير الذى يحقق كل آماله وانتظاراته ، ووضع كل ماله فى زراعة الخوخ ، وبدأت الأشجار تبشر بمحصول جيد ، مما زاده يقيناً بأن الله سيعطيه الكثير من الخير ، . . ولكنه صدم ذات يوم بنزول الصقيع الشديد الذى أتلف كل المحصول ، . . وتغيب الشاب عن الاجتماعات الكنسية التى لم يتعود من قبل أن يهملها أيام الآحاد ، . . فذهب القسيس ليسأل عنه ، وإذا به يواجهه بثورة عارمة قائلا : إنه لاعلاقة له بالإله الذى يتلف بستانه بالصقيع ، وصمت القسيس برهة ثم قال : الله يحبك أكثر مما يحب الخوخ ، فإنه يعلم أن الخوخ قد يكون أفضل بدون الصقيع ، ولكنه يعلم أيضاً أنك قد تكون أفضل بالصقيع ! ! . . .

مرقس الفاشــل :

كانت نقطة الفشل البارزة فى حياة مرقس ما حدث عند برجة عاصمة بمفيلية فى جنوب آسيا الصغرى ، وكان ذلك فى أثناء رحلة بولس التبشيرية الأولى ، فبعد أن سار مرقس مع بولس وخاله برنابا فى هذه الرحلة ، وبعد أن ربحوا سرجيوس بولس والى قبرس ، وركبوا البحر متجهين نحو آسيا الصغرى رجع مرقس إلى أورشليم رافضاً الاستمرار مع الرسولين ، ولم يفصح الكتاب عن السبب ، ولكن بولس صدم فى الشاب صدمة قاسية ، . . فهل رجع مرقس لما رأى من هول الصعاب والمتاعب لأن برجة عاصمة بمفيلية تقع فى بقعة منخفضة واطئة تنتشر فيها الأمراض والحميات ، ويرجح بروفسور رامسى أن بولس نفسه أصابته حمى الملاريا فى هذه البقعة ، وخلفت له شوكة الجسد التى ناء بها ، والرحلة من برجة إلى أنطاكية كانت من أشق وأخطر الرحلات لصعوبة المواصلات ، وكثرة اللصوص ، والمرتفعات والمنخفضات التى كانت تواجه المسافرين ، وعندما يصل المسافر إلى أنطاكية بيسيدية كان عليه أن يصعد إلى المدينة التى ترتفع عن سطح البحر أربعة آلاف قدم ، وكانت واحدة من ست عشرة مدينة بناها سيلوقس الأول ودعاها جميعاً باسم أبيه ، . . . وعلى أية حال فالتعب والجهد والمنخفضات والمرتفعات والأوبئة والأمراض ، واجهت الشاب الغض ، ولعلها ردته عن الخدمة ، وهو كما نعلم الشاب الثرى الذى تعود الفراش الوثير والحياة الناعمة ، ولم يألف الجبال والبحار والمخاطر أوالمتاعب ، . . وما أكثر الذين تراجعوا عن الخدمة لما واجهوا من متاعب أومشقات أو صعاب ! ! . . . وربما كان السبب حب الوطن والحنين إليه ، ولعلها كانت المرة الأولى التى فارق فيها أمه ، وافتقد فيها حبها وأحضانها ! ! . . وما أكثر ما ضعف الخدام الكثيرون عندما كان عليهم أن يتركوا بلادهم

إلى أوطان غريبة ، دون رجاء فى عودة أو أمل فى رجوع ، . . . على أن البعض يعتقد بأن مرقس رفض التقدم إلى الأمام لأنه ضاق بتقدم بولس على خاله برنابا . . . أليس برنابا هو الأسبق ، وهو الذى شجع بولس نفسه ، وفتح أمامه الطريق ، . . وها بولس يظهر فى الرحلة متقدماً على خاله ، ومبرزاً عليه كقائد للرحلة ومن فيها ، . . . وهو لا يستطيع كشاب غيور على خاله ، وعلى مركزه ، أن يقبل مثل هذا الوضع ، . . . وعلى أية حال أياً كان السبب ، فمن الواضح أن بولس استاء بعمق من هذا التصرف ، وتمكن فى ذهنه وقلبه ، أن هذا الشاب لن يصلح مرة أخرى للخدمة ، . . ولكننا نشكر الله لأنه حتى تصور بولس لا يصلح أمام نعمة الله قياساً للفشل أو النجاح فى الحياة ! ! . .

مرقس النـاجح :

أما كيف تحول مرقس من الفشل القاسى إلى النجاح العظيم ، فتلك قصة تروى ، ولعلنا نستطيع أن نراها من الزوايا التالية :

مرقس ودرس بولس :

وحق لكلوبس تشابل أن يرى بولس الذى بدا كما لو أنه عقبة فى سبيل نهوض الشاب ، سبباً فى قيامه على قدميه ، إذ أن يوحنا مرقس كان أدنى إلى الشاب الناعم الذى يخرج من بيته والملعقة الذهبية ملتصقة بفمه ، والثوب الناعم ينساب على جسده ، وكانت تعوزه – إلى حد بعيد – حياة الخشونة والرجولة التى لا يمكن أن تكون فى الهدوء والدعة والأمن وكانت ثورة بولس فى رفضه لقبوله رغم حبه وإعزازه لبرنابا ، ورغم حنانه ولطفه كإنسان مسيحى ، سبباً فى أن يتنبه الشاب إلى حقيقة موقفه ، . . كانت جروح المحب التى أحدثها فيه ، أفضل من أية قبلات غاشة ومخادعة ،

يمكن أن تقضى على مستقبله وخدمته ، . . كان من رحمة الله بمرقس ، أن قسا بولس عليه ، . . فى قصة مثيرة عن الحرب العالمية الأولى ، إن ثلاثة من الشباب الضباط الإنجليز فى إحدى الكتائب كانوا يتأهبون لدخول المعركة ، عندما بدا واحد منهم فزعاً مرتاعاً خائفاً من الحرب ، وقد استطاع عن طريق أبيه الذى كان من الرجال ذوى النفوذ السياسى أن يتخلف عن المعركة ، وينجو من دخول الحرب ، . . . وذهب الشاب إلى ايرلندا ، حيث خطب لنفسه فتاة حلوة جميلة ، وتأهب للزواج ، . . . وبينما كان الشاب وخطيبته فى جلسة يتضاحكان جاء رجل البريد يحمل صندوقاً صغيراً استلمه ، وإذ فتحه وجد فيه ريشتين صغيرتين بيضاوين ، فضحكت الفتاة للمنظر ، واستفسرت منه عما تعنيان ، وكان الشاب أميناً فأخبرها بالقصة ، وكيف أن زميليه فى الجيش أرسلا له الطرد ، كتعبير عن جبنه وتخلفه عن المعركة ، وتلاشت بسمة الفتاة ، وامتلأ وجهها بالجد ، وأخذت من قبعتها ريشة مماثلة ، وضمتها إلى الريشتين ، وتركته وخرجت ، . .فامتلأ الشاب من الخزى والعار ، . . . ثم وقف قليلا متأملا ، وسرعان ما ذهب إلى لندن ، وهناك دخل الجيش تحت اسم مستعار ، وما هى إلا أسابيع قليلة حتى وجد نفسه فى الكتيبة القديمة التى كان قد خرج منها ، . . واحتدمت المعركة ذات ليلة ، ولم يعد أحد زميليه ، وإذ به يسأل قائده أن يذهب بحثاً عن الرجل ، . . وحاول القائد أن يمنعه دون جدوى مؤكداً له أنه يغامر بذلك بحياته ، ولكنه إذ أصر سمح له بالذهاب ، وعاد يحمل الضابط الجريح الذى قال له : يا توم أنا أعلم أنه كان لابد لك من العودة ، لأنك لا يمكن أن تكون جباناً ، وسرعان ما أخرج توم ريشة من الثلاث وسلمها لزميله فأخذها بيده وقبض عليها ، وهو يحتضر ، ومات وهى فى يده ، . . وفى هجمة من الهجمات أصيب زميله الثانى بشظية ، وكان يصرخ طالباً الماء ، . .

ولم يكن مع توم سوى القليل منه ، فأسرع وأعطاه لزميله الذى شربه إلى آخر نقطة ، وإذ بدأ الجريح ممنوناً أسرع توم وأخرج الريشة الثانية وأعادها إلى زميله الذى أخذها بحب وفرح ، . . وإذ عاد إلى بلاده مثخناً بالجراح ، خرجت الجماهير تستقبله وزملاءه الأبطال ، وأسرعت إليه فتاة كانت تلبس ثياب الممرضات فى الصليب الأحمر ، فقدم لها صندوقاً ممزوجاً بالطين والدم ، فأخذته ، وفى غرفتها فتحت الصندوق لتجد الريشة الثالثة ، . . لقد تحول الجبان بطلا ! ! . . . وهكذا كان مرقس فى المعركة الأسمى والأعظم ، وكان بولس وهو لا يدرى عاملا فى عودة البطولة إلى الجبان الرعديد ! ! . . .

على أنه إذا كان بولس قد عالج مرقس بالشدة والتوبيخ ، فإن بطرس قد عالجه بالرجاء والتعزية ، . . ولعل قصة بطرس نفسه كانت خير مشجع له على العودة إلى معركة المسيح ! . . . ألم يتحول بطرس فى اللحظة الحرجة جباناً أمام الجارية ، بطرس الذى بلغت به الجرأة إلى تحدى المسيح نفسه بالزعم أنه سيبقى أميناً حتى ولو أنكره الجميع ، ولكن المسيح كان يعرف بطرس أكثر مما يعرف بطرس نفسه ، وكان يرى بطرس ، وهو كالوعل الذى يتخبط فى الشبكة ، عندما أمسكت به الشراك ، . . ولم يكن له من أمل ، إلا فى النظرة الحلوة العطوف التى لاحقته فى أعماق تجربته ، والغفران الواسع الشامل الذى طوقه فى الوقت الدقيق . وعرف يوحنا مرقس من بطرس ، أن الرجاء الدائم ينبغى أن يثبت فى المسيح ، . . ومهما يختلف تلاميذ المسيح بين بطرس وبولس وبرنابا فى سعة قلوبهم أو ضيقها تجاه ضعفات الآخرين ، فإن قلب المسيح أوسع وأكمل وأصدق وأحن ، . . . ضاق قلب بولس عن قبول مرقس ، ولكن يسوع المسيح قبله ! ! . . .

على أنه يجمل بنا – مهما كان الأمر – أن لا ننسى دور برنابا هنا فى انقاذ الفتى من الفشل العميق ، وبرنابا يعطينا درساً من أعظم الدروس فى السماحة وكرم النفس ،وهو دائماً المشجع للضعيف والخائف والمنهزم والمتردد ، لكن مهما تكن السماحة عنده . فإن الدرس الخاص الذى يعطيه لنا هنا ، هو أن السماحة إذا كانت مع جميع الناس ، فلا يجوز بالأولى أن تقف أو تتردد دون القريب والأهل والصديق ، . . . إن بعض الناس الأتقياء كثيراً ما يجهلون هذا الدرس أو يتجاهلونه ، وهم يكونون فى العادة أشد قسوة على أقرب الناس إليهم ، بل كثيراً ما يقفون بعيدين عنهم ، خشية تصور الناس أنهم يفعلون هذا بهم لأنهم أهل وأقرباء ، . . . على أن النزاهة فى حد ذاتها لا ينبغى أن تتحول عائقاً فى طريق مساندة الضعيف متى كان قريباً أو صديقاً ، وقد كان برنابا شجاعاً ، فلم يخش أن يتصور أحدهم أنه يساند يوحنا مرقس لأنه ابن أخته ، ليكن ما يكون طالما أن الشاب يحمل علامات التوبة ورغبة الرجوع الصادقة ، فهذا واجب الأقوياء تجاه من هم أضعف أو أصغر أو أقل أمام التجربة ، . . . وفى الحقيقة لقد أنقذ برنابا الشاب من الفشل والتراجع ، عندما أخذه على مسئوليته ، واصطحبه فى الرحلة ، يعلمه ، ويدربه ، ويشجعه ، ويقويه ، ويعطيه أفضل الدروس فى القوة والشجاعة والحماس والثبات ، . . وأبى الصغير أن يخيب رجاء الكبير فيه ، وتعلم منه كيف يأخذ المرء الفرصة الثانية إلى الحياة الأقوى والأشجع والأكمل والأصلح . . . كان شاب من ولاية البنوى فى أمريكا ، قد فشل فى عمله ، وفى السنة التالية سعى إلى المجلس التشريعى وهزم . ثم فشل فى العمل مرة ثانية ، ولما كان عمره تسعة وعشرين عاماً ، حدث له انهيار عصبى ، ثم هزم فى معركة الخطابة فى المجلس ، وكذلك هزم فى انتخابات مجلس الولاية ، وفى انتخابات البرلمان ، ولم ينجح فى انتخابات مجلس الشيوخ

وبعد سنة هزم فى معركة الترشيح نائباً للرئيس ، سعى مرة أخرى إلى مجلس الشيوخ وفشل ، وفى سنة ١٨٦٠ انتخب رئيساً للجمهورية ، وكان هذا الشاب هو ابراهام لنكولن ! ! . .

وهل يمكن أن نختم القصة دون أن نعجب للشاب اللابس الازار على عريه . والذى هرب يوم الصليب عرياناً بعد أن ترك ازاره بين يدى من حاولوا القبض عليه ، والشاب الذى عاد فاشلا إلى أورشليم بعد توقفه عند برجة بمفيلية ، والشيخ الذى قضى شاهداً وشهيداً فى مدينة الاسكندرية فى بلادنا المصرية ، وشتان بين الصورتين الأوليتين والصورة الأخيرة ، ولكنها نعمة الله هى التى غيرت إلى الأفضل والأحسن والأنفع ، . . فإذا ذكرنا كل هذه . وتذكرنا القصة التى يقولونها عن بيت كان فى قلب غابة أوربية ، يذهب إليها الصائدون . فإذا غنموا صيدهم استراحوا فى ذلك البيت ، وكان جميلا فى بنائه وتصميمه . وكانت به ردهة كبيرة ، حدث أن أفسد جمالها بعض من شربوا الصودا وسكبوا بعضها على جدرانها ، وكان المنظر مشوهاً حتى جاء رسام بارع فرسم غزالا يخوض ماء بحيرة فوق البقعة المشوهة ، وتحول القبح جمالا ، حتى إن الغادين والرائحين ، كان يستهويهم المنظر الساحر الذى غطى التشويه المتخلف عن الصودا المسكوبة ، . . . فإذا كان هذا الرسام قد استطاع لا أن يغطى القبح فحسب ، بل أن يحوله جمالاً رائعاً ، . . فإن الرسام الأعظم قد فعل الشيء نفسه ، فى حياة مرقس وحياتى وحياتك ، إذ حول قبحنا إلى جمال ، وضعفنا إلى قوة ، وفشلنا إلى نجاح ، وهزيمتنا إلى نصر يحق معه القول : « خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع للخدمة » . .

١٣٤
لوقا

« لوقا وحده معى » (٢ تى ٤ : ١١) .

عندما سقطت روما تحت أقدام جحافل القوط دخلت أوربا فيما يطلق عليه المؤرخون عصور الظلام التى استمرت خمسة قرون متوالية ، وقد انطفأت مصابيح العلم والحضارة ، إذ كان الغزاة من البرابرة الذين لا يملكون سوى القوة الغاشمة ، كالثيران العاتية الحمقاء التى تحطم بقرونها كل شىء ، وتسحق بأقدامها كل ما تطأه حتى ولو كان أثمن النفائس ، . . وذهبت أوربا فى طريقها لتغرق فى الظلام ، لولا رحمة الله الذى جعل العلماء ورجال الدين ومحبى الثقافة والمعرفة يهربون كمسيحيين إلى الأديرة ، ويحملون معهم كل ما يمكن حمله من مخطوطات ، ويجدون الفرصة الوحيدة المتاحة لهم لنقل المعرفة والعلم ، ولولا ذلك لما شق النور طريقه مرة أخرى إلى الناس والحياة . كانت الكنيسة هى المصدر الوحيد الذى انبعثت منه أشعة النور والحق عندما أطبق الظلام من كل جانب ، . . . ولم تكن الكنيسة إلا

مجموعات من المسيحيين أمثال لوقا الذى اسمه « معطى النور » . . والذى جلس ذات يوم إلى جوار بولس فى زنزاته فى روما ، . . كانت الشمعة المضيئة العظيمة تحترق وتوشك أن تأتى إلى نهايتها ، بعد أن أضاءت الدنيا كلها ، ولكن كان إلى جانب الشمعة وهى تلقى أضوائها الأخيرة على العالم ، شمعة أخرى صغيرة مضيئة ، لم تكن فى لمعان الشمعة الأولى ، لكنها مع ذلك كانت ترسل أضواءها العظيمة والجميلة ، وصاح بولس فى زنزانته القديمة : « لوقا وحده معى » . . ونحن نشكر الله لأجل لوقا الذى خلف للأجيال إنجيل لوقا وأعمال الرسل ، الضوئين العظيمين اللذين سيبقيان مابقيت الأرض وما عليها ، . . وكم نتمنى لكل قارئ أن يكون فى عصره وجيله نوراً للآخرين بالمعنى الذى قاله النور الأعظم الذى أنار حياتنا : « أنتم نور العالم » (متى ٥ : ١٤) . . ولعله من المفيد بعد ذلك أن نرى لوقا فيما يلى :

لوقــا ومن هــو ؟؟ :

الكلمة لوقا اختصار للكلمة اليونانية التى تعنى « معطى النور » أو « مانح النور » وهو من الأمم الذين آمنوا بالمسيح ، أما أين ولد وماذا كانت نشأته الأولى ، فلا نكاد نعرف عنها شيئاً ، ولئن كان البعض يظن أنه ولد فى فيلبى ، وأنه كان مكدونياً ، إلا أن الرأى الراجح أنه ولد فى أنطاكية ، ويكاد هذا الرأى يكون الرأى الوحيد من أيام يوسابيوس إلى اليوم والذى قال : « لوقا الذى كان من مواطنى أنطاكية ، وكان يحترف مهنة الطب ، وقد قضى الشطر الأعظم من حياته فى صحبة بولس ، وكان معروفاً من بقية الرسل ، والذى ترك كتابيه الدينيين الموحى بهما . . . وقد أيد جيروم المعنى نفسه بوصفه : « لوقا الطبيب من أنطاكية الذى لم يكن بعيداً عن المعرفة الوثقى باللغة العبرانية ، كما تظهر أعماله ذلك ، والذى كان تابعاً للرسول بولس ورفيقاً له فى كل تجولاته ، وقد كتب إنجيله الذى أشار إليه بولس

أكثر من مرة » . . . وكانت مهنة الطب الشائعة فى ذلك الوقت يمتهنها المحررون من العبيد ، أو أبناء المحررين ، وقد حررت ليفيا الامبراطورة زوجة أوغسطس قيصر عدداً كبيراً منهم وتعلموا مهنة الطب ، . . . ويعتقد كثيرون أن لوقا ولد عبداً فى بيت ثاوفيلس ، وأن هذا الأخير إذ يكنى بالعزيز – وهى عبارة فى الأصل اليونانى تشير إلى صاحب مقام أو مركز ممتاز كان من طبقة الحكام أو الولاة ، ولذا يرجحون أنه كان حاكم أنطاكية وأن ثاوفيلس هذا إذا أحب الصبى الصغير وأعجب بذكائه وألمعيته ودماثة أخلاقه ، حرره ، وبعث به إلى جامعة طرسوس لينهل من مناهل العلم والثقافة أوفرها وأغناها ، وكانت طرسوس بالذات مركزاً ممتازاً لتعليم الطب ، وهناك تعلم الفتى كيف يكون طبيباً بارعاً وكاتباً ألمعياً ، . . ويظن كثيرون أنه كان من أوائل من قبلوا المسيح فى مدينة أنطاكية ، حيث دعى التلاميذ هناك مسيحيين لأول مرة ، وعلى أية حال فمن الثابت أن الرجل كان يتحلى بصفات مجيدة لعل أهمها :

لوقا الوديع :

يقال إن لوقا كان بارعاً فى الكتابة والرسم ، ويبدو من كتاباته أنه كان من أكبر العقول وأكثرها صفاء وقوة ، حتى يظن البعض أنه كان أقرب التلاميذ من هذه الناحية إلى ذهن الرسول بولس ، لكن هذا الرجل الجبار العقل والذهن كان يحلو له دائماً الاختفاء ونكران الذات ، فلم يضع اسمه ولو فى ركن من أركان كتاباته سواء فى البدء أو الختام ، يقول كلوفس تشابل عنه : « لقد أدخلنا إلى السر لا بما قال بل بما امتنع عن أن يقوله . . فعندما كتب إنجيله مثلا لابد أنه التقى بشخصيات متعددة ليستقى منهم معلوماته المدققة ، وكانت العذراء الأم ولا شك واحدة منهم ، ولكنه لم يشر إلى هذا اللقاء ، . . ولم يشر إلى اسمه قط فى كل القصة ، وعندما كتب سفر الأعمال ،

مع أنه كان واحداً من الذين ظهروا على المسرح ، لكنه أبى إلا أن يخفى اسمه لأنه لا يريد أن يعرف شماله ما تفعل يمينه ، وهو لا يذكر عن نفسه شيئاً البتة : إذ يبدو أنه آثر أن يخفى كل ذلك ، ومع أنه كتب أجمل كتابين إلا أنه أخذ من سيده خلة الوداعة وتواضع القلب ، وإذا كان العلم ينفخ فإنه لم يفلح فى أن ينفخ هذا الرجل الذى امتلأ — إلى جانب العلم — بالنعمة التى تحفظه من الغرور والانتفاخ ، فإذا صح أنه كان يتقن الرسم أيضاً فمن العجيب أنه لم يفعل ما يفعله الرسامون عادة بعد أن ينتهوا من آيات فنهم إذ يضعون أسماءهم على ركن من الصورة ، أما هذا الرسام العظيم ، فلم يشأ وهو يرسم صورة حياة المسيح ، وحياة الكنيسة أن يضع على أية من الصورتين اسمه على الإطلاق ! ! . . .

لوقا الحبيب :

لست أعلم لماذا انفرد لوقا بهذا اللقب فى وسط الكثيرين من التلاميذ والمؤمنين الذين أحاطوا ببولس ، يبدو أنه كان فى حياته اشعاع متوقد من المحبة ، وربما كان يملك الوجه البشوش المبتسم الذى يضحك فى لحظة المحنة ، ويساعد الآخرين على البشاشة والضحك ، ولعله كان يدخل إلى المريض الذى تروعه عذابات المرض والمتاعب والخوف ، فلا يتركه إلا وقد ابتسم وربما تغنى وترنم ، . . ويربط البعض بين كلمة « الطبيب والحبيب » فاللفظان مترادفان معاً ومتعانقان ، . . فالحب والحنان والرحمة تظهر وتلمع على وجه الخصوص فى الآلام والأمراض والمتاعب ، وربما لا يسهل أن تكتشف حقيقة الحب إلا فى المآزق والمآسى . . . طلب شاب عملا فوجد وظيفة فى مصنع ، . . كانت ساعات العمل طويلة ، والعمل غير مناسب ، ولكن الأجر اجتذبه ، فكان يشتغل ساعات العمل ، وساعات فوقها ، وقد دعاه زملاءه أكثر من مرة ليحضر حفلات سمرهم ولهوهم وطلبوا أن يشاركهم

فى النفقات فرفض ، ضحكوا عليه وسخروا منه ، واضطهدوه، ولكنه ظل يعمل ويوفر ، وبعد مدة استطاع واحد منهم ، أظهر له شيئاً من العطف ، أن يعرف قصته ، وخلاصتها أن له أختاً فقدت البصر ، والأمر يتطلب اجراء عملية سريعة لرد بصرها ، فهو لذلك يعمل بكل قواه للحصول على المال اللازم قبل ضياع الوقت ، فلما عرف زملاؤه القصة تغير مسلكهم تجاهه ، وعدوه بطلا ، وقدموا له من أموالهم ما مكنه من اجراء العملية لأخته فى الحال ، . . . كان لوقا على أية حال وضيئاً بالحب للجميع ، يشع منه كما يشع النور فى الظلام ! ! . .

لوقا الوفى :

كان لوقا مثلا نادراً للخل الوفى بين الناس ، ونحن نقرأ لبولس وهو يقول : « لوقا وحده معى » ونحن لا نعلم بأية صورة فاه بالتعبير ، لقد تلفت حوله يمنة ويسرة فلم يجد إلا لوقا الوفى الأمين ، فهل ران على نفسه الألم العميق وهو يكتب هذه العبارة أم التمعت عيناه ببريق الاشراق ، . . وهل غمس قلمه فى مداد من الدموع أم غمسه فى ينبوع من الوفاء والولاء ، وهو يلتفت إلى الصديق الذى لم يخنه فى اللحظة القاتمة ! ! . . لقد اختلطت الذكريات فى ذهنه ، فهو يذكر ديماس الصديق الذى كان رفيقاً له وللوقا كما جاء فى رسالة كولوسى ، ولكنه ذهب إذ اجتذبه العالم الحاضر إلى تسالونيكى ، . . وهو يذكر آخر ربما كان صديقاً وتحول عدوا قاسياً وهو اسكندر النحاس الذى أظهر له شروراً كثيرة ، فهو يذكر الطيب والردئ فى قصة الحياة ، ولكنه يرتفع فوق الألم ليقول : « لوقا وحده معى » . . كان لوقا يحمل القلب المحب الجسور الذى يقف فى لحظة المحنة إلى جوار صديقه دون أن يتردد أو يتراجع أو تبدو أقل شبهة فى حبه ووفائه وولائه ! ! . . . على أية حال أظن أن عينى بولس غامتا بالتأثر والدموع وهو يذكر ديماس

الذى تركه ، ولوقا الذى بقى معه فى أتعس اللحظات ! ! . . ما أحوجنا فى الحياة المسيحية إلى روح الوفاء المتمكنة من لوقا ! ! . . .

لوقا الطبيب :

إن الرأى الراجح هو أن ذكر لوقا : « يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب » (كو ٤ : ١٤) فى وصف الرسول بولس له فى رسالته لأهل كولوسى دليل على أنه استمر يؤدى رسالته كطبيب طوال حياته ، ومن المعتقد عند الكثيرين من المفسرين أنه كان قريباً من بولس لمعالجته من أمراضه وعلله وجراحه الكثيرة التى تعرض لها ، . . وقد يعن السؤال وما الفارق بين عمله كطبيب قبل اهتدائه إلى المسيحية ، وبعدها ، . . وهو فارق بعيد ، بل وبعيد جداً ، . . إن الفارق بين الصورة الأولى والثانية ، هو الفارق بين المهنة والرسالة ، . . أو الفارق بين الأخذ والعطاء ، أو الفارق بين البحث عن المقابل والخدمة الباذلة ، . . قبل أن يلقى أحدهم خطاباً أمام الخريجين فى إحدى الجامعات ، اجتمع بهؤلاء الخريجين وأخذ يسألهم عن أهدافهم فى المستقبل ، فإذا بكل واحد يجيب وفق تخصصه ، فهذا محام وذاك مهندس وثالث طبيب ، ورابع محاسب وما أشبه ، . . وقال الرجل : يبدو أنكم لم تتنبهوا إلى السؤال . . أنا لم أسأل الواحد منكم عن مهنته ، بل عن رسالته ، . . فهناك من يحول المهنة إلى رسالة ، وهناك من ينزل بالرسالة إلى مستوى المهنة ، . . إن خادم الدين الذى يقوم بالخدمة الدينية كمجرد واجب يلزم به ، حتى ولوكان ثقيلا أو بغيضاً على نفسه ، فإنه يحول الرسالة إلى مهنة ، أما الطبيب الذى ينحنى على المريض ، ويبذل جهده الكامل لانقاذ حياته مهما تكلف من جهد ومشقة وتعب ، وبدون تطلع إلى ما يأخذ من مقابل ، فهو إنسان يحول المهنة إلى رسالة ، . . إن الرسالة تبدأ باحساس الإنسان أنه فى عمله مرسل من الله إلى الأرض بالمهنة التى يلزمه أن يمجد الله

فيها ، . . عندما سئل سر جيمس سمسون مكتشف الكلوروفورم عن أعظم اكتشاف وصل إليه كان جوابه : إن أعظم اكتشاف وصل إليه هو : « أنه خاطئ وأن يسوع المسيح هو المخلص الوحيد الذى خلصه » . . وكانت عبارة الجراح الفرنسى العظيم دكتور بارى : « أتعامل مع المريض بالمشرط ولكن الله هو الذى يشفيه » . . . لم يغير لوقا مهنته ، ولكنه مسحها بروح المسيح فكان أول طبيب فى جيش الأطباء المرسلين الذين خرجوا فى كل الأماكن والأزمنة لا ليهتموا بشفاء الجسد فحسب ، بل بشفاء الروح أيضاً ! ! ولعل القصة التالية تكشف كيف يسيطر روح المسيح على الطبيب وهو يؤدى واجبه ، فيحوله من المهنة إلى الرسالة ! ! . . . كانت الساعة الواحدة صباحاً ، والطبيب الساهر فى المستشفى يستمع إلى قرعات سريعة متلاحقة عندما دخلت الممرضة لتعلن أن هناك جريحاً يعالج سكرات الموت ، ويحتاج إلى عملية سريعة ، . . فأسرع الطبيب إلى غرفه العمليات وهو يجهز نفسه ، والمبضع فى يده ، وما أن تسلطت الأضواء على الجريح ، حتى فغر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وتصبب العرق البارد من جبينه ، وقلقت الممرضة وهى تقول : « دكتور ! ! دكتور ! ! أتشعر بشىء ! ! ؟ » . . واستجمع الطبيب نفسه ، وهو يقول : « لا . . لا ! ! . . » . . وقد تبين أن الجريح هو زوج ابنته التى ماتت فى ميعة الصبا منذ خمسة عشر عاماً ، وكان الجريح ابناً لصديق له ، وقد تزوج ابنته ، لكنه انصرف عنها لمعاقرة الخمر ولعب الميسر ، وقد تركها فى عذاب ، فانتابها المرض وذهبت ضحية الزوج الشرير الأحمق ، . . ولم يحتمل الطبيب الصدمة ، إذ كانت ابنته الوحيدة ، وترك المكان ، وذهب إلى مكان بعيد آخر ، وهناك افتتح المستشفى وأغرق نفسه فى آلام الآخرين ومتاعبهم لعله ينسى ابنته الحبيبة التى ذهبت فى نضارة الحياة وميعة الصبا ! ! . . وها هو زوجها الذى تسبب فى كل ذلك يمثل أمامه

ضعيفاً مريضاً يقف على الخط الفاصل بين الحياة والموت ، . . . أعطت الممرضة المخدر . . وفى تلك اللحظة تحول الطبيب من رجل مهنة إلى صاحب رسالة وخلال ساعتين أتم العملية ، ونجحت ، وفتح الجريح عينيه ليصاب بالذهول وهو يرى أمامه طبيبه يقول له : « يا بنى أنت فى مأمن الآن من كل خطر وستشفى قريباً وتحيا . لقد شاء الله أن يحملوك إلىّ جريحاً لاضمد بجراح جسدك جراح نفسى ، . . دمك النازف قتل فىّ شهوة الدم ، وآلامك المريرة أطفأت فى نفسى حمى الثأر ، فإذا أنت فى عينى إنسان ككل إنسان يطلب معونة الإنسان ، . . جراحك أشعلت فى داخلى نور الله الذى أوشك أن يخبو ، فإذا نفسى ترتفع بضعفها إلى فوق ، إلى الخالق العظيم تستمد من جبروته قوة ، ومن نوره قبساً . . الآن فقط أستطيع أن أقول لقد بدأت أعرف الله وأقترب منه . . وشكراً لك يا بنى شكراً . . شكراً . . » . . . بمثل هذه الروح تتحول المهنة إلى أعظم رسالة يمكن أن يؤديها الإنسان فى الحياة على الأرض ! ! . . .

لوقا الكاتب المؤرخ :

على أن أهم رسالة قدمها لوقا للعالم وللأجيال كانت سفريه : الإنجيل المسمى باسمه ، والذى أطلق عليه رينان « أجمل كتاب فى الدنيا » وأعمال الرسل ، . . . ولعلنا نستطيع ملاحظة ما يلى :

أولا : إن لوقا لم ينهج قط ككاتب أو مؤرخ نهج الباحثين عن أظهار نفوسهم أو إثباتها من خلال كتاباتهم أو أبحاثهم ، . . كان مارك توين على سبيل المثال من أعظم الكتاب الذين أنجبتهم أمريكا ، ولقد جاهد جهاداً طويلا جباراً قبل أن يبلغ إلى ما وصل إليه من مركز وشهرة ، لقد ذهب فى إحدى المرات إلى أوربا فاستقبل استقبالا عظيماً ، وكان الملوك يفتحون له قصورهم ، ويجتهدون فى إظهار تقديرهم وإعجابهم بالرجل ، ورجع

مارك توين مع عائلته إلى أمريكا ؛ وفى الطريق كان يستعرض الملوك والعظماء الذين حيوه بفخر وإعجاب ، وإذا بابنته الصغيرة تقول له : يخيل إلىّ يا أبى أنك ستعرف بعد قليل جميع الناس ، إلا الله ، . . وكانت الصغيرة ، لا تعنى المعنى البعيد الذى يذهب إليه تعبيرها ، . . ولكنها الحقيقة التى تلاحق الكثيرين من أرباب القلم فى الأرض ! ! . . . أما لوقا الكاتب الموحى إليه من الله ، فقد كان وديعاً يمتلئ بالإحساس بالاتضاع ازاء كتابيه العظيمين الخالدين ، ولقد أبى إلا أن يبقى فى الظل معطياً المجد كله لله . وللمضمون الذى يظهر فى سفريه عن المسيح وكنيسته ! ! . . .

وثانياً : إن السفرين العظيمين اللذين كتبهما لوقا ، ودون فيهما قصة المسيح والكنيسة . قد اضحيا تراثاً خالداً للجنس البشرى لا يمكن تقديره بأى ثمن . . .

ولعله لابد لنا من وقفة قصيرة أمام هذين الكنزين العظيمين ، . . ولا شبهة فى أن إنجيل لوقا كان إنجيل الإنسان من حيث هو إنسان ، فإذا كان الرمز الخاص بانجيل متى هو الأسد ، باعتبار المسيح الأسد الخارج من سبط يهوذا ، وإذا كان الرمز الخاص بانجيل مرقس هو الثور الذى يشير إلى الصبر والقوة والاحتمال ، وإذا كان الرمز الخاص بانجيل يوحنا هو النسر الذى يشير إلى لاهوت المسيح ، فإن الرمز الخاص بانجيل لوقا هو « الإنسان » باعتبار أن هذا الإنجيل لا يفصل بين يهودى وأممى ، فالخلاص لليهود وللسامريين ، ومن ثم نراه هو المتحدث الوحيد عن قصة السامرى الصالح (لو ١٠ : ٣٠ – ٣٧) . . والسامرى الشاكر (لو ١٧ : ١١ – ١٩). والذى أشار إلى أرملة صرفة صيدا ونعمان السريانى (لو ٤ : ٢٥ – ٢٧) والذى أبرز فى الحديث عن قائد المئة القول : « يأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون فى ملكوت الله » (لو ١٣ : ٢٩)...

وقد دعا بعضهم هذا الإنجيل إنجيل المظلومين والمضطهدين، فهو الوحيد الذى أشار إلى المرأة الخاطئة فى بيت سمعان الفريسى (لو ٧ : ٣٦ — ٥٠) . . وهو الذى كتب عن زكا العشار (لو ١٩ : ١ — ١٠) ، وهو وحده الذى أشار إلى قصة اللص التائب . . وهذا الإنجيل يعد انجيل الصلاة ويكشف عن أن المسيح قضى أوقات كثيرة من حياته فى الصلاة فعند المعمودية صلى (لو ٣ : ٢) . . . وقبل اختيار التلاميذ صلى (لو ٦ : ١٢) وفى جبل التجلى صلى (لو ٩ : ٢٩) . . كما صلى من أجل بطرس (لو ٢٢ : ٣٢) . . ولوقا يركز على قوة الصلاة ، فى قصة الصديق المصلى فى نصف الليل (لو ١١ : ٥ — ١٣) . . وقاضى الظلم (لو ١٨ : ١ — ٨) . وهو إنجيل المرأة بل ربما أخذت المرأة مكاناً أعظم عنده ، فهو الذى يفيض فى الحديث عن العذراء ، وهو يكتب عن اليصابات وحنة وهو المتحدث عن مريم ومرثا والمجدلية . . . وهو المحذر من أخطار المال ، فهو المتكلم عن الغنى الغبى الذى اخصبت كورته ، وفكر فى البناء والهدم ولم يعرف أن حياته ستهدم قبل نهاية يومه ، وهو المتحدث عن الغنى ولعازر ، وقد أسفر المسيح فى الباقى من القصة عن الطرف الآخر من الأبدية . . ومن الملاحظ أن لوقا كطبيب كان يميل — على ما يقول علماء اللغة اليونانية — لاستخدام العبارات الطبية ، فإذا تحدث متى ومرقس فى مثل الجمل وثقب الابرة واستخدما عن الإبرة اللفظ الذى يشير إلى ابرة الخياط ، فإن لوقا تكلم عن « ابرة الجراح ».. مما يدل على رغبته فى استخدام العبارات الطبية فى سياق ما كتب ! ! . . . ونحن نراه فى سفر الأعمال يؤرخ للكنيسة الأولى ويتابع امتدادها ونشاطها ، وقد كشف فى سفر الأعمال عن سمو المسيحية ومركزها ليس فقط أمام العامة أو الشعب بل أمام الرؤساء الرومانيين ، فسرجيوس بولس والى قبرص يؤمن بها ، وغاليون أخو سينكا والذى كان فى كورنثوس لا يتحيز ضدها،

وكلوديوس ليسياس يحرص على تأكيد أن بولس لم يفعل شيئاً يستحق الموت ، وهذا ما اتفق عليه أيضاً فستوس وأغريباس ، . . على أن السفر يتقدم أكثر من ذلك فيكشف عن أن المسيحية جاءت لكى تكون دين الإنسانية كلها ، الأمر الذى كان يصعب تصوره عند اليهودى ، الذى كان يعتقد أنه شعب الله المختار ، ولكن لوقا يشير إلى تبشير السامرة ، ومجىء كرنيليوس إلى المسيح ، وامتداد الكنيسة شرقاً وغرباً . وفى الأصحاح الخامس عشر نرى أول مجمع مسيحى يضع الأممى على قدم المساواة تماماً مع اليهودى ، . . وعلى أية حال لقد كشف لوقا عن أن المسيح المنتصر المقام دعا تلاميذه ليكونوا شهوداً له فى أورشليم واليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض ! ! ...

على أنه لابد لنا ونحن نصل إلى ختام قصة الرجل الطبيب الحبيب والكاتب المؤرخ أن نتذكر أنه مسح كل شىء فى حياته بطيب التكريس والصلاة ، .. وإذا كان الأمريكيون وهم يضعون دستورهم بعد حرب الاستقلال.وقد اجتمعوا فى مؤتمر . وظلوا يناقشون مواده أسابيع متعددة دون جدوى ، فى جو من الاختلاف والتشاحن والفشل ، وعندئذ طلب بنيامين فرانكلين من واشنطون الذى كان يرأس المؤتمر ألا يبدأوا أعمالهم فى البرلمان قبل طلب معونة الله ومساعدته بالصلاة الصباحية ، . . وقد تمكنوا بعد ذلك من وضع دستورهم ، واضحى هذا تقليدهم العظيم . وإذا كان نوح وبستر بعد أن أتم قاموسه . وهو يمسح قلمه انحنى مع زوجته ومساعديه ليشكروا الله على يده الكريمة معه ، والتى أعانته على هذا الانجاز الضخم ، فاننا نثق بأن لوقا — وهو يكتب تحت سلطان الله هذين السفرين العظيمين وبوحى منه ، لاشك أنه شكر الله ، ونحن وراءه فى كل العصور نشكر لأجل الأممى الوحيد الذى أعطيت له هذه الفرصة فى العهد الجديد ليكتب إنجيل لوقا ، وسفر الأعمال ! ! ! . . .

١٣٥
أفتيخوس

« وكان شاب اسمه أفتيخوس جالسا فى الطاقة متثقلا بنوم عميق » (أع ٢٠ : ٩)

يطلق على أفتيخوس « أبوالنيام » فى الكنيسة ، وقد يكون من أول من ناموا فيها ، ولكنه لا يمكن أن يكون الأخير ، . . والنوم فى الكنيسة وفى أثناء الخدمة أو إلقاء العظة ظاهرة تشغل المهتمين بالأمور الدينية إلى حد بعيد ، وهى تثير هذا السؤال : من الملوم فى مثل هذه الحالة ! ! ؟ أهو الواعظ ؟ قد يكون ، وقد نصح أحد مشاهير الوعاظ شماس الكنيسة ، قائلا له : إذا لاحظت أحداً ينام فى أثناء الوعظ ، لا تذهب إليه لتوقظه بل تعال إلى أنا وأيقظنى ، . . وقد يصل الأمر إلى ما هو أسوأ من ذلك ، كما عبر واحد من الغلمان الصغار وقد رفض أن يذهب إلى الكنيسة ، وعندما سألوه عن السبب أجاب : لأن وعظ الراعى ينميني ، وفى الوقت عينه صوته المرتفع المزعج يمنعنى من النوم ، فلا أنا بقادر على اليقظة ، ولا أنا بقادر على النوم ، . . . أم أن السبب يرجع إلى السامع نفسه ، وما أكثر ما يلتقى

الواعظ البليغ بالسامع الملول أو المجهد أو المتعب ، والذى لا يملك إلا أن ينام مهما كانت فصاحة العظة وبلاغتها وسحرها فى أذان باقى السامعين ! ! . . إن أفتيخوس بنومه فى تلك الليلة المشهودة يفتح أمامنا الباب لمناقشة هذه القضية ! ! . . . والتى تعطينا فى تلافيفها صورة للواعظ والموعوظين وجو العظة ، ومن ثم يحسن أن نتأملها فيما يلى :

افتيخوس وبولس الواعظ :

كان أفتيخوس أسعد حظاً من القديس أوغسطينوس الذى كان يتمنى أن يرى بولس واعظاً ، . . ومع أن أجيالا كثيرة كانت ترغب ذات الرغبة إلا أننا يمكن أن نتصور هذا الواعظ الذى لا شك كان من أقدر وعاظ العصور والأجيال ؛ وذلك لأنه يحمل سمات الواعظ الناجح العظيم المقتدر ، وقد يكون من المناسب أن نأخذ القارىء بعض الوقت مع طلبة كليات اللاهوت ؛ ونحن نتحدث معهم عن « إلقاء العظة » وكيف يظهر هذا الإلقاء على أروع صورة ، عندما يتحلى الواعظ بالسمات الخاصة به ، . . . ومن المعتقد أن بولس كان من أقدر الوعاظ فى القائه للعظة ، . . وإذا كان ديموستينس الخطيب اليونانى الأشهر كان يؤمن أن الالقاء هو الشئ الذى يأخذ المرتبة الأولى والثانية والثالثة فى خطابات البلاغة ، . . فإن العظة تسمو عن ذلك بمضمونها القوى الفعال ، فإذا صدرت عن واعظ ممتلىء بروح الله ، فإنها ستفيض بالقوة والجلال والفاعلية ، . . والواعظ المسيحى الناجح كبولس يستطيع أن يضيف إلى الخطابة حسب قواعدها البليغة ، قوة المضمون فى الرسالة التى يؤديها ، وأكثر من ذلك قوة الحياة التى يحياها ، لأنه من الصعب الفصل بين الواعظ والعظة ، وإن كان من اللازم أن نفعل ذلك فى بعض المواطن لأنه : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا

لأنهم يقولون ولا يفعلون » (مت ٢٣ : ٢ و ٣) . . . أو كما يقول توماس كارليل بعبارة أخرى : « لا تكلمني فإن صوت أعمالك يدوى فى أذنى أكثر من صوت كلامك » . . . وفى كل جيل وعصر ظهر أمراء المنابر الذين عاشوا عظاتهم قبل أن ينادوا بها . . فكان الذهبي الفم ذهبي الحياة ، قبل أن يكون واعظ العصور والأجيال . . . وربما كانت أعظم عظة وعظها اسبرجن لاتلك العظة التى ألقاها من فوق المنبر ، بل تلك التى ألقاها بسلوكه وحياته ، . . عندما اكتشف ذات يوم أن رجلا مأخوذاً بسحر عظاته ، ترك كل ثروته له ، . . وتبين لأمير الوعاظ أن أهل هذا الرجل فقراء جداً وأكثر حاجة إلى التركة ، أعادها اسبرجن بالكامل لهم ! ! . . . ولا نشك قط فى أن أعظم عظة لبولس كانت بولس نفسه ، ولندع خيالنا يرسم صورة لبولس فى الليلة التى سقط فيها أفتيخوس من العلية ، عندما كان بولس يعظ ! ! . . .

كان بولس يملك مظهر الواعظ المقتدر روحياً ، ونفسياً ، وطبيعياً ، . . ونقصد بالمظهر الروحى تلك المسحة التى تبدو عليه ، والتى لابد أنها تركت أثرها العميق فى نفوس السامعين . . . غداة الحرب الأهلية الأمريكية كان هناك واحد من القواد الذين خاضوا المعركة ، ورشح نفسه فى الانتخابات بعد نهايتها ، . . وقد حدث أن أحدهم ، وكان لايحب الرجل ، آلى على نفسه أن يعطى صوته لآخر ، . . ولما دخل مكان الانتخاب تطلع إلى الوجوه ، وكان من بينها وجه القائد المذكور ، وما أن استقرت عيناه عليه ، حتى أبصر وجهه وقد اكتسى بالألم الذى طبعته الحرب عليه ، ولم يستطع أن يقاوم فى داخله مشاعر العطف والحنان والحب التى ولدتها هذه النظرة ، وأعطى صوته له ، . . ومن المعتقد أن بولس كان ممتلئاً بهذه المسحة الروحية التى تأسر سامعيه ، . . وكان بولس يحمل إلى جانب ذلك المظهر النفسى . . .

والمظهر النفسي يعني أن يظهر الواعظ فى الحالة النفسية التى ينبغى أن تكون عليها العظة . إذ يلزم أن يكون صادقاً مع نفسه ، ومع نفوس سامعيه ، إذ لا يجوز أن يعظ عن الشجاعة وهو مرتعب ، وعن التعفف وهو دنىء ، .. إن العظة أساساً هى الصدى النفسي الداخلي للواعظ ، ونحن نشكر الله لأن داود – وحسناً فعل – لم يترنم بأى مزمور أمام الله فى خلال سقطته الشنيعة ، وعندما تغنى بالمزمور الحادى والخمسين ؛ غناه ، للأجيال كلها ، وهو يستعيد مركزه الصحيح أمام الله والتاريخ والأجيال ، . . وكان بولس فى العادة يتكلم من أعماق نفسه وبخلجات مشاعره . . . وكان بولس يتحلى إلى جانب ذلك بالمظهر الطبيعى ، والمقصود بالمظهر الطبيعى هنا . هو أن الواعظ ينبغى أن يكون أقرب إلى الطفل أو الصبى عندما يتكلم أو يعبر أو يلعب مع غيره دون أن يلاحظ أنه موضوع تحت ملاحظة أو رقابة أحد من الناس .. فانك تجد مظهره عادياً من غير تكلف أو تصنع على الاطلاق .. ويقال إن السر فى ذلك هو أن الطفل أو الصبى ينسى فى العادة نفسه ، الأمر الذى يصعب على الكبير عندما يواجه الناس ، أويبدو أمام الآخرين ، . . وبولس عندما كان يعظ كان ينسى نفسه تماماً ، ولا يذكر إلا الرسالة التى كان عليه أن يؤديها ويكشفها للسامعين ! ! . .

يعتمد الإلقاء ، كما رأينا ، على مظهر الواعظ ، كما أن [illegible] على المنبر تلعب دوراً مهما فى لفت الأنظار . ولست أعلم كيف [illegible] يتحرك بولس . وهو يعظ ، . . وقد أطلق على الحركة فى المنبر « [illegible] الجسد » فالجسد يتكلم على المنبر قبل أن يبدأ الواعظ وعظه ، وينتهى [illegible] لتى آخر كلماته . ولعلنا نذكر ذلك الواعظ الشاب الذى جهز عظة [illegible] أنها [illegible] السامعين هزا ، وصعد إلى المنبر مندفعاً بخفته واستهتاره وألقى [illegible] وأحس هو قبل غيره بفشلها ، فنزل من المنبر بطيئاً منكمشاً ، وإذ [illegible] باختباره

إلى واعظ أكثر خبرة وأعمق إدراكاً ، قال له الواعظ التقى : لو أنك يابنى صعدت كما نزلت ، لنزلت كما صعدت ! ! . . . على أن الأمر يعتمد أكثر من ذلك على الصوت ، ولست أعلم كيف كان صوت بولس ، وهل كان يملك الصوت الساحر ذا الرنين ، أو الصوت الفخم الضخم ، وإن كان من الواضح أنه كان من النوع الذى ينفعل بكل قوة حتى تصوره فستوس لفرط القوة والانفعال ، نوعاً من الهذيان : « أنت تهذى يا بولس . الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان » ! ! (أ ع ٢٦ : ٢٤) . . . على أية حال كان بولس الواعظ من أبرع وعاظ التاريخ وقد حسبوه فى لسترة هرمس اله الفصاحة والخطابة ، مما يدل على قوته العجيبة فى تملك ناصية البيان والقدرة على التأثير فى الآخرين ! ! . . .

فإذا حاولنا أن نتعرف على قدرة بولس الوعظية ، فإننا يمكن أن نرى هذه القدرة فى النماذج الوعظية المسجلة لنا فى كلمة الله ، فلنره فى أريوس باغوس ، وأمام أغريباس ، وعندما تحدث إلى قسوس أفسس مثلا ، وهل ترى استهلالا ومقدمة أروع من استهلاله ومقدمته ! ! ؟ . . إن المقدمة هى ذلك الجزء الأول من العظة الذى يقصد منه شد انتباه السامع وتحريك أفكاره وعواطفه لمتابعة الواعظ طوال العظة كلها ، . . ومن المسلم به أنه إذا نجح الواعظ فى المقدمة فإن الطريق سيكون مفتوحاً أمامه طوال العظة كلها للتأثير القوى البليغ على موعوظيه ، . . ومن المعروف أن السامعين ليسوا من صنف واحد ، بل هم فى العادة على أصناف متعددة . فإلى جانب السامع المؤمن الذى هو من حظ الواعظ وينجذب بسرعة وسهولة إلى تيار العظة ، هناك السامع الملول الذى يتبرم ويتذمر إذا لم يسترح إلى العظة أو إذا تجاوزت صبره واحتماله ، . . وهناك أكثر من ذلك : السامع البليد ، أو السامع المعادى الذى قد يأتى متحفزاً بروح قاسية من العداء . كان الكثيرون الذين

يذهبون لسماع جورج هويتفيلد تمتلئ جيوبهم بالأحجار التى يحملونها استعداداً لضرب الواعظ بها ، ولكن المقدمة الساحرة ، كانت تسقطها من جيوبهم وأيديهم . . . وشتان بين واعظ يحسن المقدمة وآخر لا يحسنها ، . . فى الحرب الأهلية الأمريكية كان هناك واعظ يضع الكتاب على المنبر ويضع إلى جواره المسدس ، وكان يعتذر للموعوظين بأنه مضطهد من أعدائه الذين يحاربونه ، وأنه ينبغى أن يكون مستعداً للدفاع عن نفسه ، وعلى العكس من ذلك كان هناك ضابط يقوم بالخدمة الدينية بين المحاربين ، . . وقد طلب إليه أن يعظ فى وسط جماعة كانت روحها مشبعة بالعداء لتحرير العبيد ، . . وكانوا ملزمين على حضور الاجتماع بأمر عسكرى ، . . وعندما بدأ الضابط الخدمة بين الجماعة قال لهم : أيها الأصدقاء ليس لى اختيار فى المجىء إلى هذا المكان ، لقد جئت إلى مدينتكم كضابط إلى مدينة ، لأهتم بنفوس أقربائى الذين هم أنتم الحاضرين هنا ، وأنا أقف فى مكان راعيكم الموقر بأمر عسكرى عال ، . . لكن أنا واعظ للمسيح نفسه الذى هو لكم ، وأنا أرجو أن تسمعونى لأجل اسمه ! ! . . . » وقد قيل أن هذه المقدمة ملكت على قلوبهم فاستمروا يستمعون بشوق إلى هذا الواعظ طوال ثلاثة شهور قضاها بينهم ! ! . . .

ونحن لا نستطيع أن نحدد ماذا تكلم بولس فى تلك الليلة وما نوع موضوعه أو الموضوعات التى طرقها ، . . وإن كان من المؤكد أنه لم يكن من عادته إطالة الكلام إلى مثل هـــذا الحد ، إذ كان الخطاب كما هو مفهوم خطاباً وداعياً ، ولا يصلح أن يكون قياساً للمواعظ العادية لبولس ، وطول العظة موضوع متنازع عليه فى كل التاريخ ، فبينما كان عصر البيورتان هو العصر الذى كان يرى العظة قصيرة ومبتورة ، إذا لم يتكلم الواعظ على الأقل ساعتين من الزمن ، ولا يمكن أن يلام بولس إذا أطال الكلام فى الليلة الوداعية ، ومن المتصور أنه تناول مواضيع

جوهرية أساسية ، كان يلزم أن يثبتها فى أذهان الجميع ، وإذا كان أفيتخوس قد نام ، لهذا السبب أو ذاك ، فإن قدرة بولس على الإطالة فى الكلام ، وإثارة انتباه الجميع حتى منتصف الليل شهادة من الجانب الآخر ، له ، وليست عليه ، . . . قال دافيد هيوم إن السفر عشرين ميلا لسماع هويتفيلد يعتبر أمراً هيناً ميسوراً ازاء قدرته الساحرة على جذب الانتباه إلى كلامه ، . ومن المعتقد أن بولس رغم أنه تكلم فى ذلك اليوم ربما عشرين ساعة دون ملل من الآخرين ، فإن الاستماع إليه كان يشهد على مافيه من قوة وجلد وجاذبية قل أن توجد بين الوعاظ جميعاً فى مختلف العصور والأجيال ! ! . .

افتيخوس ينام وبولس يعظ :

إذا كان بولس واعظاً عظيما مجيداً استطاع أن يملك على الجميع مشاعرهم إلى منتصف الليل ، فلماذا نام أفتيخوس إذاً بل لماذا تثقل بالنوم العميق ! ! . قد لا نملك الإجابة بالتحقيق ، لكننا عكن أن نتصور أن أفيتخوس كان صبياً صغيراً ، فالكلمة التى تصفه « شاباً » هى فى الأصل أقرب إلى « الصبى » منه إلى الشاب ، ويظن البعض أنه كان ابن صاحب البيت ، . . وإذا استطاع الرجل القوى الناضج أن يغالب النوم ، فإنه يصعب على الصبى الصغير أن يفعل هكذا . . وإذاً ، هو ضعف الجسد ، وطراوة الحياة التى فعلت هكذا ، . . . ومن اللازم أن نتوقف ههنا لكى نلاحظ المواءمة بين السامع والعظة ونوعها ووقتها ، . . فإذاً كان جورج هويتفيلد يشك فى أن التجديد عكن أن نحدث بعد نصف الساعة الأولى من وقت العظة ، عندما يشحن الذهن أو يجهد الفكر أو تتوتر الأعصاب ، . . مما يعنى أن الأساس ينبغى أن يركز على مضمون العظة ، لا على امتداد الوقت فيها ، . . . وقد قيل إن رجلا لم يكن يكره فى حياته أو يرتعب على ما صور تشارلس ديكنز فى إحدى رواياته — أكثر مما يكره أو يرتعب — من أجراس الكنائس عندما

تقرع ، ويصل صوتها إلى سمعه ، وذلك لأن أباه كان من جماعة البيورتان وكان حريصاً على أن يأخذ ابنه وهو طفل إلى الكنيسة يوم الأحد ، ويجلسه إلى جواره طول وقت العبادة وقد ذكرنا أن العظة عند البيورتان كانت تستغرق على الأقل ساعتين من الزمان ، والولد مجبر على الجلوس دون حركة إلى جوار أبيه هذا الزمن الطويل ، الأمر الذى يتعارض مع طبيعته الغضة التى خلقه الله عليها ، . . وكانت الجلسة عنده نوعاً من العقاب والعذاب الذى جعله يتعقد ويكره الكنيسة وما فيها عندما شب عن الطوق ، ونحن لا نعجب لصبي صغير ينام فى العظة أو مدرسة الأحد ، طالما أن الله لم يعطه بعد الطاقة التى تمكنه من اليقظة طوال الوقت !! . . . وهذا يقودنا بدوره للمواءمة بين وقت العظة وقدرة السامع على مواصلة الاستماع ، . . على أن هناك سبباً آخر واضحاً من سياق القصة ، وهو ازدحام المكان الذى لم يتح للشاب أن يجلس إلا فى الطاقة ، وكان مكان العبادة كما هو ثابت فى الدور الثالث من البيت ، وهو يعطينا صورة للعبادة فى أوائل العهد المسيحى ، عندما لم تكن هناك كنائس متسعة ذات قباب وأبهاء ونوافذ وما يلحق ذلك من فخامة وعظمة وجمال ، . . وبالتالى لم تكن هناك المنابر المرتفعة ، وفرق الترنيم ، وما أشبه مما يوجد بكنائسنا الكبرى فى هذه الأيام ، لقد نشأت الكنيسة فى بيوت ، مهما اتسعت ، فإن غرفها وقاعاتها محدودة لا تستوعب العدد الكبير الذى يتزاحم فيها ، ومع ذلك كانت بيت الله المهيب ، الذى يطل على باب السماء ، . . . وهنا لابد لنا أيضاً من وقفة فيما يجوز أو لا يجوز فى بناء الكنائس ، . . قال أحد الرعاة الأمريكيين إنه كان يتمنى لو أن مائة ألف دولار أخذت من تكاليف بناء الكنيسة وألقى بها فى البحر ، وذلك لأن الكنيسة ، وقد بنيت بتكاليف كبيرة باهظة ، تحولت إلى مايشبه المتحف أو المبنى الفخم الذى يذهب إليه الناس ليتسلوا بمنظره العظيم أكثر من الانتفاع به كمكان للعبادة يلتقى فيه الإنسان بعمق مع الله ! ! . . إن

الفضيلة كما يقول أرسطو وسط بين رذيلتين . ونحن لا نود أن يقف الإنسان من الكنيسة ليرى مافيها من زينة وبهاء . وفى الوقت عينه لا نود أن تكون مكاناً محتقراً مهدماً ضيقاً يبعث على الكآبة والألم لمجرد منظره ، . . إن الجمال الصحيح يكون فى الاتساع الذى يساعد على راحة الناس وعدم تكدسهم وتزاحمهم على نحو يخنق الأنفاس . . . كان المكان مزدحماً . وممتلئاً بالمصابيح ، وقد اختلف المفسرون حول كثرة المصابيح ، فرآها بعضهم تمييزاً ليوم الرب ، واعتقد بنجل أنها ضرورية فى منتصف الليل حتى تمنع أية شبهة للتصرفات الخاطئة فى الظلام والزحام . وقال آخرون إنه جاء ذكرها لأنها كشفت ولا شك سقوط الشاب من أول لحظة . . وقال غيرهم إنها كانت السبب فيما تركته من حرارة فى المكان ، مما دفع الشاب إلى البحث عن الطاقة ليجلس فيها . . . ومهما يكن فإنه واضح أن الزحام كان قاسياً وشديداً ، ولعل بولس كان يتصبب عرقاً وهو يتحدث طوال هذا الوقت : . . وهنا مكمن التجربة ، فإن الشاب جلس فى المكان الذى ساعده لا على النوم فحسب ، بل على التثقل به ، وربما استسلم للهواء فنام ونعس ، وكانت النتيجة سقوطه من الطابق الثالث إلى الأرض ! ! . . .

أفتيخوس والله المعزى :

وقع الشاب من الطاقة من الطابق الثالث وسقط ميتاً . وما من شك فى أن أفكار الناس ومشاعرهم فى مثل هذه الحالات تختلف ، وتكثر التساؤلات والتفسيرات ، فأصحاب أيوب اختلفوا مع أيوب فى تفسير النكبات التى لحقت به ، والمآسى التى طوقته من كل جانب ، والذين رأوا الأفعى تنشب نابها فى يد بولس بعد خروجه ومن معه من السفينة المحطمة ، اعتقدوا فى أول الأمر أنه مذنب تطارده العدالة الإلهية ، فإن كان لم يمت غرقاً فإنه سيموت مسموماً ، ولما لم يسقط أمامهم انتقلوا من النقيض إلى النقيض

وحسبوه إلهاً تسربل بجسد بشر بين الناس . وهكذا الناس دائماً يجنحون فى تفسيراتهم . إلى مختلف دروب الظنون والمشاعر والأحاسيس دون ربط أو ضبط على الإطلاق ، . . . فى الواقعة التى أمامنا ، ربما يوجد من يلوم الشاب لأجل نومه فى أثناء الصلاة أو العبادة ، . . وما أكثر ما يسخط الساخطون سواء كانوا وعاظاً أم موعوظين من أولئك الذين ينامون فى أثناء المواعظ ، وقد « يغطون » أيضاً فى نومهم ، . . . وقد يلام الشاب للمكان الذى جلس فيه ويصفونه بالحماقة والاستهتار والغباء إذ ليست الطاقة بالمكان الذى يجلس فيه الناس ، وقد يقرعه آخرون لأنه جلس فى ممر الهواء واستسلم للهواء البارد الذى ساعد على تثقله بالنوم ، . . وقد يضيق آخرون به لأنه حبس الهواء عن الآخرين فى مكان مزدحم ، ولعل الله عاقبه على هذا كله ، . لكن القصة تحول هؤلاء جميعاً إلى ما يشبه السؤال الذى طرحه التلاميذ على السيد تجاه المولود من بطن أمه أعمى : « أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى » ، ولم يشف السيد فضول التلاميذ لأن هناك أسراراً متعددة تحيط بالحياة البشرية ، ولا مجال لتفسيرها على الأرض ، . . ولا نحس من سياق القصة أن بولس غضب أو قرّع الشاب الذى نام أثناء وعظه ، فأمام الكارثة لا يجوز للعواطف الرخيصة أن تشق طريقها ، أو للاتهامات أن تأخذ سبيلها ، والصمت أزاء ما فعل الله أجدى وأنفع ، ونحن على أية حال نرى الله أوسع حباً وحناناً ورحمة من الجميع ، فحتى ولو أخطأ الشاب وتصرف بحماقة ورعونة وإسفاف ، فإن الله لا يصنع معه حسب خطاياه أو يجازيه حسب آثامه ، . . والفرق واضح بين فعل الشاب وفعل حنانيا وسفيره ، لقد نال الزوجان عقابهما نتيجة الإصرار على الشر والرغبة فى تغطيته مما سيكون وبالا على الكنيسة وتدميراً لها وهى لا تزال زهرة تشق طريقها إلى الحياة والنور ، . لكن أفتيخوس كان ضحية ضعف الجسد الذى يترفق به الله فى طول أناته

وإحسانه وجوده ورحمته ، وأفتيخوس النائم الساقط يكفيه أن يتعلم العبرة التى تلاحقه الحياة كلها ، . . ولا أعلم هل نام مرة أخرى فى الكنيسة ، أم ترسبت الواقعة فى وجدانه بعد ذلك فنبهته كلما هم به الضعف أو ناله الإعياء والتعب ، على أية حال إنها لمسة الحنان من ذاك الذى أبصر تلاميذه فى جثسيمانى فقال لهم فى عتاب رقيق أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ، اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف " . . (مت ٢٦ : ٤٠ ، ٤١) . وهى لمسة الحنان أيضاً التى حولت الكارثة إلى ينبوع من الإحسان والتعزية ، كثيراً ما نسأل لماذا لا يمنع الله الكارثة ؟ ومع أنه سؤال جرئ ربما لا يحق لنا أن نسأله . إلا أن أعمال الله وأمجاده تظهر فى العادة فى خلال الكارثة وبسببها وهنا يأتى جواب المسيح لتلاميذه عندما سئل عن الأعمى إذ قال : « لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه » (يو ٩ : ٣) . . . فإذا كانت خطية الإنسان قد كشفت عن حب الله ، . . وإذا كانت المآسى مكروهة عند الله وعند الناس . . . لكنها مع ذلك هى فرصة الله فى الكشف عن وجوده وقدرته وإحسانه للذين يتطلعون إليه ! ! . . . فإذا نظرنا إلى أفتيخوس وهو يقطع العبادة ووعظ بولس ، ويحدث ولا شك الارتباك الذى أحاط بالجميع نتيجة الحادث ، فلنتطلع إلى عمل الله العجيب الذى قصد إعلانه من وراء عودة الشاب إلى الحياة ، . . لا شك فى أن هذا قوى إيمان العابدين وإيمان بولس نفسه ، وبين كيف أن الله يقف مع عابديه وعبيده ولا يسلمهم إلى الضياع والبوار وفقدان الثقة واليقين والإيمان ، وكان تعزيزاً لرسالة بولس وختماً لها وبرهاناً أمام الجميع على سلامتها وصدقها ، . . كما أنها تعلمنا أنه لا يوجد شىء اسمه متأخر أو بلا رجاء فى القدرة الإلهية ، لأن « عند الرب

السيد للموت مخارج » (مز ٦٨ : ٢٠) . . . كانت العلية مضاءة بمصابيح كثيرة ، وقد شاء الله أن يعطيهم — وقد تكلم بولس إلى الفجر ، بعد الواقعة فى نصف الليل — مصباحاً جديداً وهاجاً ، وتحولت حرارة العبادة وأنوارها إلى شيء لم يسبق له مثيل عند منتصف الليل ومن ثم قيل : « وأتوا بالفتى حياً وتعزوا تعزية ليست بقليلة » (أع ٢٠ : ١٢) . . .

١٣٦
يعقوب أخو الرب

« ولكنني لم أر غيره من الرســـل الا يعقوب
أخا الرب » (غل ١ : ١٩)

فى إحدى كنائس لندن دخل دوق ولنجتون القائد الإنجليزى العظيم الذى هزم نابليون فى معركة ووترلو ، وركع يصلى بجانب أحد العمال ، وما أن أبصره العامل حتى هم بالوقوف، إذ كيف يركع إلى جانب القائد العظيم، . . وإذا بولنجتون يهمس فى أذنه : « اركع معى أيها السيد فنحن أخوان متساويان فى حضرة الله » . . . يخيل إلىَّ أن هذا هو الإحساس الدائم الذى عاش يعقوب به بين التلاميذ، فلا نجده قط يمتلئ بالزهو أو الفخر أو الاستعلاء على بقية الرسل أو التلاميذلأنه كان أخاً ليسوع المسيح بحسب الجسد، ولعل هذا يبدو بوضوح من استهلال رسالته إلى الذين فى الشتات إذ قال : « يعقوب عبد الله والرب يسوع المسيح » . . وهو فى هذا المعنى

يتراجع ليأخذ مكانه فى الصف الوديع بين سائر التلاميذ ويكشف لنا أنه « وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد – كما يقول الرسول بولس – لكن الآن لا نعرفه بعد » (٢ كو ٥ : ١٦) . . وأن علاقة الانتساب الجسدى بالمسيح لا تعطى ميزة لأحد على الإطلاق ، ولا تعد شيئاً ازاء العلاقة الروحية فى ذاك الذى جاء ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ، . . . بل إنه إذا كان هناك ما يثير ويدعو إلى التساؤل والدهشة والتعجب ، فهو كيف أن إخوة المسيح عاشوا معه تحت سقف واحد ، ومع ذلك لم يؤمنوا به حتى قام من الأموات ، . . ما أكثر ما تعلمنا قصة يعقوب أخى الرب من دروس وحقائق ومن ثم يحسن بنا أن نتابعها فيما يلى :

يعقوب ومن هو ! ! ؟

عندما تحدث بولس إلى الغلاطيين وصف يعقوب بأنه أخو الرب ، وهو قطعاً يشير إلى تلك الأخوة المرتبطة بالجسد ، والتى يبدو فيها يعقوب أخاً على الأساس الجسدى ، وإلا لما كانت ثمة تفرقة بينه وبين بطرس أو سائر التلاميذ إذا كان المعنى المقصود روحياً ، وهذا يدعونا للسؤال عن هذه الأخوة حسب الجسد ، . . وقد سبق لنا أن تعرضنا للموضوع عند الحديث عن شخصية يوسف النجار باعتباره رجل مريم ، ولا حاجة لتكرار ما ذكرناه هناك، إنما نود الإشارة باقتضاب إلى النظريات المختلفة فى الموضوع ، فنظرية جيروم التى قال بها عام ٣٨٣ م ، ويتلاقى معه فيها أوغسطينوس هى أن يعقوب كان ابن خالة المسيح ، ويعتقد جيروم أن يعقوب واحد من الرسل الاثنى عشر . وحيث إنه لا يمكن أن يكون يعقوب بن زبدى الذى مات أول الرسل شهيداً بسيف هيرودس ، فلابد أن يكون يعقوب بن حلفى ، وحيث أن هناك أماً هى مريم أم يعقوب الصغير ويوسى وكانت احدى الواقفات إلى جانب مريم المجدلية وأم ابنى زبدى كما ذكر متى (مت ٢٧ :

٥٦) فلابد أن تكون هى مريم زوجة كلوبا التى ذكرها يوحنا (يو ١٩ : ٢٥) حسب القول : « وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية » وعلى حد تصور جيروم ، إن التعبير ينصرف إلى ثلاث سيدات وليس أربعاً ، وعليه فإن أخت أمه مريم زوجة كلوبا هى أم يعقوب ويوسى ، وليست القراءة : أمه وأخت أمه باعتبار أنهما أختان وقفتا إلى جانب مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية ... ونقطة الضعف فى رأى جيروم أنه لا يقبل التصور أن تكون للعذراء أخت اسمها مريم ، هى أم يعقوب ويوسى ، . . . وجيروم يتمسك برأيه ، مدفوعاً على الأغلب باستمرار عذراوية العذراء ، ويحاول دعم موقفه بالقول إن كلمة رسول التى وصف بها يعقوب فى رسالة غلاطية لا يمكن أن تنصرف إلى غير الاثنى عشر ، . . وهو رأى غير صحيح لأن بولس وهو من غير الاثنى عشر دعى رسولا كما هو ثابت فى رسائل رومية وكورنثوس وغلاطية ، وبرنابا دعى أيضاً رسولا (أع ١٤ : ١٤ ، ١كو ٩ : ٦) وسيلا (أع ١٥ : ٢٢) وأندرونكوس ديونياس (رو ١٦ : ٧) . . . على أن هناك نظرية أبيفانس وهى فى ٣٧٠ م وتقوم على أساس أن هؤلاء الإخوة هم أبناء يوسف من زواج سابق ، ويميل لهذا الرأى الأسقف لايتفوت ، ووجد من قال إن كلوبا أو حلفى كان أخا ليوسف ، وإن الأب مات مبكرا وإن يوسف ضم أولاد أخيه إليه ، وحسبهم أولاده ، فإذا هم اخوة ليسوع المسيح على اعتبار أن يوسف هو أبو المسيح بالتبنى حسب ما هو شائع أو معروف عند اليهود ، . . وعلى أساس نظرية إبيفانس يكون يعقوب أكبر سناً من المسيح ، والمعترضون على هذا الرأى يقولون إن المسيح بهذا المعنى لا يكون البكر الذى يمكن أن يرث عرش داود ، والآخذون بهذا الفكر أو الفكر السابق لا يتصورون أن العذراء يمكن أن تكون قد ولدت بعد

المسيح آخرين ، . . على أن هناك نظرية هلفيدس وتقوم على أن الزواج مقدس . ولا يقلل من مركز العذراء فى شىء أن تتزوج وتأتى بأولاد آخرين ، ونحن نرجو القارئ أن يرجع إلى ما كتبناه عن شخصية يوسف النجار ، بهذا الصدد . ويكفينا هنا الآن أنه كان أخاً للمسيح بالمعنى الذى يربطه حسب الجسد بالسيد قبل أن يصبح عبداً تابعاً له بالروح ! ! . .

على أنه من المعتقد أنه عاش حياة متقشفة ربما كانت بسبب حرصه العميق على التدقيق فى الحياة على نهج يقرب أن يكون فريسياً ، حتى إن البعض أطلق عليه « الفريسى المسيحى » ، وقد نقل يوسابيوس المؤرخ المسيحى عن كاتب فى القرن الثانى يصفه بالقول : « إن هذا الرجل كان نذيراً من بطن أمه . وإنه لم يشرب خمراً أو مسكراً وامتنع عن أكل اللحوم ، ولم يعل رأسه موسى ، ولم يتدهن بالزيت ، ولم يلبس قط صوفاً بل كانت ملابسه كلها من كتان . وقد كان معتاداً أن يدخل الهيكل وحده ، وكثيراً ما وجد راكعاً على ركبتيه يسأل المغفرة لشعبه ، حتى اخشوشنت ركبتاه ، وأضحتا كركبتى الجمل لفرط تعوده على التضرع والركوع أمام الله ، كما دعوه العادل لصلاحه الزائد » . . . ومهما يكن من صحة هذا التقليد ، فإنه يكشف لنا عن طبيعة عاشت مع صرامة الحياة وخشونتها إلى النفس الأخير ! .

ومع هذا كله فمن السمات الواضحة فى حياة الرجل الوداعة والتواضع ، فهو عبد الله والرب يسوع المسيح ، وهو كثير الإحساس والحدب على الأخ الضعيف الفقير الذى لا يطيق أن يراه فى المجمع ذليلا أو مهاناً أمام الرجل الغنى الذى يدخل إلى المجمع بخواتم ذهب فى لباس بهى ، . . . فى أيام الحرب الأهلية كان هناك قائد من قواد الشمال اسمه الجنرال ميكللند ، وكان شاباً فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وقد حدث أن ذهب إليه الرئيس لنكولن فى أثناء فترة دقيقة من فترات الحرب وانتظره فى بيته ثلاث ساعات ،

وما أن حضر حتى دعاه الرئيس لاجتماع فى الحال فما كان منه إلا أن أجاب الرئيس إجابة غير لائقة إذ قال له إنه متعب وذاهب إلى فراشه ، وإذ سمع ذلك جون هاى سكرتير لنكولن انفجر غاضباً لهذه الإجابة . . وإذا بلنكولن يبتسم ابتسامة حزينة ويقول لسكرتيره : لا تغضب يا جون فأنا مستعد أن أمسك لميكلند حصانه إذا كان هذا يعطينا النصر ! ! . . . ما أجمل وأعظم روح الرئيس الأمريكى الوديعة ! ! . . .

إن لنكولن يذكرنا بالوداعة العظيمة التى سيطرت على يعقوب الذى لم يجرؤ أن يذكر أنه أخو المسيح بل عبده ورسوله ! ! . . .

يعقوب وإيمانه بالمسيح :

ألا تحس معى أن يعقوب واخوته وهم أبعد الناس عن الإيمان بالمسيح حتى يوم قيامته . قصة مثيرة عجيبة يلزم أن نتوقف عندها قليلا أو طويلا ؛ للدرس والتأمل . . . هذه السنوات الطويلة فى مدينة الناصرة وهم يعيشون معه تحت سقف واحد يرقبونه فى حياته وتصرفاته وحركاته وسكناته وكلماته وصبره وحلمه وجوده وتفانيه ، ولا يدفعهم هذا إلى الالتصاق بالنموذج الأعلى الذى لا نظير له فى كل أجيال التاريخ ، . . كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة . وكيف يمكن تصورها ، وهى أعلى من كل تصور أو خيال ، . . . لقد تخيل ألكسندر هوايت يعقوب وهو يقول فيما بعد : « ضعوا عيونكم على البيت ؛ فقد اخطأت خطأ قاسياً هو أنى لم أفتح عينى على البيت إلا متأخراً ومتأخراً جداً . . . على أنى الآن أذكر ، وكلنا نذكر أمثلة كثيرة لا نهائية من صلاحه ، ووداعته ، وتواضعه ، ورقة قلبه » . . . أجل إن من يعيش والمسيح تحت سقف واحد ولا يبصر جماله وجلاله وجوده وعطفه وروعة حياته وجاذبيتها لابد أن يكون أعمى مظلم البصر والبصيرة ! ! ؟ ... لعل المأساة تكمن فى بادئ الأمر ، فى أن الإنسان فى البيت لا يظهر فى الفخامة

أو الروعة أو المظهر الذى يبدو به فى الخارج أمام القريب ، فالبساطة فى الأكل والشرب واللبس وعدم التقيد بالقواعد المظهرية والشكلية التى نتقيد بها أمام الآخرين ، تظهر لأهل البيت بكل وضوح مما يشجع على كشف الإنسان فى القاع وليس فى القمة ، . . . ومثل هذه الرؤية قد لا تعطى الإنسان — وهو لا يدرى — البهاء الذى يجذب إليه الآخرين ، . . مع أنها بالعكس بالنسبة ليسوع المسيح الذى كان وحده بلا شك نسيجاً فريداً فى القطاع أو فى القمة على حد سواء ، . . . وعندما يبدو الإنسان هكذا ربما يثير عواطف غريبة فى الغير هى أدنى إلى الحسد والحقد والضغينة والانتقام ، إذ لم يستطع إخوة يوسف مثلا أن يقابلوا بين حياتهم الحافلة باللهو والشر والنميمة ، وحياته الرائعة الجميلة شكلا وخلقاً ، وكان امتيازه وتفوقه وتقدمه كالقذى فى عيونهم والحسك لأجسادهم ، وهم لا يطيقون رؤياه إلا مجندلا مقتولا ، ... لست أعلم حقيقة الحياة فى سنى الصمت بالنسبة ليسوع المسيح ، لكن الذى يستوقفنى هو أنه وصل الأمر بالأسرة والأهل ، أنهم رأوا فى المسيح الذى هو الحكمة الوحيدة ، انساناً مختلا ، وكانوا فى تصور أنفسهم هم العقلاء ، ابهتى أيتها السموات واقشعرى أيتها الأرض لأغرب منطق مقلوب على هذه الأرض ، . . هذا العمى القريب ، من المؤسف أنه لاحق إخوة المسيح أولا ، وأهل الناصرة ثانياً ، والأمة اليهودية ثالثاً ، . . « إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله » ، (يو ١ : ١١) وهو ما يزال إلى اليوم مرفوضاً من أولئك الذين لا يتصورون المسيح المتجسد الذى يأخذ صورة عبد ليعيش نجاراً بسيطاً فى الناصرة وهو الإله السرمدى الأزلى ، . . لقد جاء من علو سمائه ليسكن فى الأرض ، وهى لا تزيد عن كوخ من الأكواخ بالنسبة لمجده الأسنى ، والناس تراه فى الكوخ كما رآه إخوته فى كوخ الناصرة حيث كانوا يعيشون فى عمق الحاجة والمسبغة والفقر .

كان يعقوب إلى جانب هذا كله يختلف عن السيد فى روحه وأسلوبه ونوع الحياة التى يعيشها بين الناس ، كان يعقوب فى طبيعته يهودياً متزمتاً حريصاً على الناموس بكل التزمت الفريسى ، كان أقرب إلى روح المعمدان منه إلى روح يسوع المسيح ، أو كما يقول ألكسندر هوايت إنه عاش نصف فريسى إلى آخر أيام حياته على الأرض ، ومثل هذا النوع من الناس يصعب اقناعه ، أو تحويل مجرى فكره ، وكشاول الطرسوسى القديم كان فى حاجة إلى ظهور خاص من السيد بعد القيامة حتى يؤمن به إيماناً لا يتزحزح ، هكذا كان يعقوب وهكذا وكانت حاجته إلى ظهور خاص من المسيح كما ظهر لبولس وبطرس ، الأمر الذى ذكره الرسول بولس فى رسالته إلى كورنثوس : « وبعد ذلك ظهر ليعقوب » (١ كو ١٥ : ٨) . . وعندما ظهر له آمن هو وآمن إخوته أيضاً وجاء يوم الخمسين وامتلأ بروح الله . ومع أن طبيعته قد صقلت بذلك واتسعت نظرته ونفسه ، لكن المؤمنين اليهود كانوا يرون فيه زعيم الفريق المتمسك بالناموس حتى إن بعضهم عندما ذهب إلى أنطاكية ، وأحدثوا قلقاً كبيراً بسبب اصرارهم على الناموس ، أشاعوا بين الإخوة أنهم جاءوا من قبل يعقوب ! ! . . .

على أية حال إن إيمان يعقوب واخوته بالمسيح يؤكد لنا أن النعمة الفعالة وحدها هى التى تأتى بنا إلى السيد ، وأنه لولا هذه النعمة التى تفتح العين ، وتنخس القلب ، وتحرك المشاعر ، لما تحرك واحد منا فى اتجاه يسوع المسيح مع جلال مثاله وعظمة شخصه وروعة حياته ، ولو ظللنا نرقبها العمر كله ! ! .

يعقوب ورسالته :

إن الآراء المختلفة حول زمن هذه الرسالة تتأرجح بين ظهورها فى الكتابات الأولى للرسائل المسيحية وظهورها فى الكتابات المتأخرة ، وإن كنا نميل إلى الرأى القائل إنها تكاد تكون أول رسالة مكتوبة فى العهد الجديد ، ويميل

البعض للاعتقاد بأنها كتبت قبل مجمع أورشليم الذى ناقش الحرية المسيحية وجاء ذكره فى الأصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال ، وقد جاء فى تاريخ يوسابيوس أنها أول رسالة فى الرسائل الجامعة الرسولية ، ومع أنها كانت غير معروفة على نطاق واسع ، إلا أنه يشهد بأنها كانت تقرأ فى عامة الكنائس ، والقديس كبريانوس لم يشر إليها وإن كانت الإشارات إليها واضحة فى الكنيسة اللاتينية فى كتابات هيلاريوس وجيروم وريفنوس ، ولا شبهة فيما جاء فى أقوال هرماس فى مؤلفه « الراعى » الذى كتبه بين ٩٧م وعام ١٤٠ م ، وكتابات اكليمندس الرومانى من اقتباسات عنها ، . وفى الكنيسة الشرقية يبدو أنها معروفة للقديس غريفورى ساماترجس ، وقد نقل عنها ديونسيوس السكندرى عام ٢٦٠ م ، . . وأوريجانوس يقم ولم شك فى قانونيتها من أيام يوسابيوس حتى عصر الاصلاح ، . . وقد تردد لوثر فى أول الأمر فى قبولها معتبراً إياها كومة من القش ، على أنه ندم على ذلك فيما بعد ، فرفع هذا التعبير من كتاباته المتأخرة ! ! .

ولا شبهة فى أن الرسول يعقوب كان يمثل فى الزمن المبكر للكنيسة المسيحية ، هذا الانفصال التدريجى بين المجمع اليهودى والكنيسة المسيحية ، فقد درج التلاميذ والرسل فى أول الأمر ، على ألا يروا فى الكنيسة المسيحية شيئاً مستقلا عن المجتمع اليهودى ، وكان من عادتهم الذهاب إلى المجمع والمشاركة فى العبادة ، ثم طرح الإيمان المسيحى هناك ، ولم يهجروا هذه العادة إلا بعد أن أرغموا على تركها ، . . وعندما أقاموا اجتماعات منفصلة كانت فى نظرهم مجامع ، ومن هنا نجد يعقوب يكتب فى رسالته إلى المسيحيين الذين كانوا فى الأصل يهودا ، فيذكر أنهم من : « الاثنى عشر سبطا الذين فى الشتات » ، ويشير إلى اجتماع الكنيسة بلفظ « مجمع » وقد شاعت فى الرسالة الألفاظ العديدة التى تربط بين العهد القديم والعهد الجديد وتصلح لليهودى

كما للمسيحى ، . . ومن الثابت أن خدمة يعقوب كان مركزها الرئيسى مدينة أورشليم حيث كان أسقفا فى الكنيسة هناك ، وقد حدث وهو يرعى هذه الكنيسة ، أن اشتدت المجاعة على المؤمنين فيها ، الأمر الذى دعا بولس وبرنابا وسائر الكنائس فى أوربا وأسيا أن يذكروا اخوتهم المنكوبين فى اليهودية ، وأغلب الظن أن هذا هو السبب الذى جعل يعقوب ، إلى جانب نزعته اليهودية المتزمتة أصلا ، شديد التركيز على المسيحية العملية ، لقد وقف الرجل فى مجمع أورشليم ولا شك إلى جانب الحرية المسيحية ، وطالب فقط بالامتناع عما لا يليق أو يعثر ! ! . . . إلا أنه فى الوقت عينه ركز على الأعمال عما أثار القضية التى ظنها البعض نوعاً من النزاع مع بولس حول الخلاص بالإيمان وحده أو بالإيمان والأعمال معاً ، ولكن الحقيقة أنه لا نزاع ولاخلاف عند النظرة المتعمقة ، بل هناك التأكيد والتكامل وفى ذلك يقول دين فرار فى كتابة الأيام الأولى للمسيحية : « ينبغى أن نشكر الله لأجل الحق الذى يعلن تحت أضواء كثيرة . وبالمواهب المتنوعة التى منحها الروح لكل رسول للخدمة بأساليب مختلفة . فيوحى إلى الواحد بأن يعمق حياتنا الروحية فيقول لنا إن بالأعمال لا يمكن أن تبرر بعيداً عن الإيمان ، والآخر ليشدد عزائمنا بان إيماننا لا يمكن أن ينهض صحيحاً بدون أعمال ، وما يبدو تبايناً ظاهرياً ، إن هو فى حقيقة الأمر إلا عمقاً غائراً للوحدة الصحيحة . . فإذا كان بولس يركز على الإيمان ، فإن بطرس يركز على الرجاء ، ويوحنا يؤسس الكل على المحبة والحياة المسيحية وهى مظهر لهذه النعم الإلهية ، ويركز فيها يعقوب على الأعمال كنتيجة للايمان العامل ، والمحبة المحاصرة ، والرجاء المطهر ! ! » . .

ومن الثابت على أية حال أن يعقوب لم يأت بجديد فى تركيزه على الأعمال فقد كان نداء يوحنا المعمدان إلى الجميع أن يصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ، وكانت كلمة المسيح : « من ثمارهم تعرفونهم » وأن « ليس كل من يقول لى

يارب يارب يدخل ملكوت السموات . بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات » (مت ٧ : ٢١) . . وبولس مع ما تميزت به رسائله من تعاليم لاهوتية وعقائدية كان شديد التأكيد على المسيحية العملية ، . . . فإذا كان ثمة خلاف ، فهو فى الموقع الذى يقف فيه الرجلان أو الزاوية التى منها يتكلمان . فبولس يتحدث عن خلاص الفاجر ، وهو مائة فى المائة بالإيمان ، . وليس فيه واحد من عشرة آلاف مليون من عمل الخاطئ أو جهده أو استحقاقه ، فالمدين الميت لاحياة له ، ولا قدرة على عمل على الاطلاق ، . . . ويعقوب يؤمن بهذه الحقيقة ، لكنه يقف فى زاوية أخرى ، لا محدثاً الخاطئ الملوث الأثيم ، . . بل يتحدث إلى المؤمن الذى آمن ونال الخلاص ، وهو يجد فى الأعمال له برهان الإيمان ومظهره ، . . وقد ذكرنا أنه كان يعيش فى أيام امتلأت بالمجاعة ، وهو يكره لهذا مجرد الإيمان النظرى ، الذى لا برهان عليه من الوجهة العملية ، . . . فإذا كنت مؤمناً ورأيت أمامك إنساناً عارياً يتلوى من الجوع ومعك الكساء أو الطعام ، أو تستطيع بصورة ما أن تعين العريان الجائع ، ليكسو جسمه أو يملأ بطنه ، . . ومع ذلك ألقيت عليه محاضرة كاملة ممتلئة بالعطف والاشفاق على مصيره وحاله ، فإن هذا لا ينفع شيئاً ولا يمكن أن يكون تعبيراً عن الإيمان المسيحى ، . . إن يعقوب فى الواقع كان يتحدث إلى الأدعياء الذين يدعون الإيمان : « إن قال أحد إن له إيماناً » . . . « لكن يقول قائل أنت لك إيمان وأنا لى أعمال » . . . وسواء كان الأمر خداعاً للنفس أو للآخرين ، . . فان القضية فى هذا الوضع ليست بحثاً عن خاطئ يرجو الخلاص بل مدع يزعم الإيمان ، وسواء كان الخداع نفسياً أو للآخرين ، فهو خداع غير مقبول أمام الله والحق المسيحى ، . . إن الشياطين يؤمنون ويقشعرون ، فهم يوقنون بالحقائق التى تواجههم ، وهم مقتنعون تماماً فكراً وشعوراً بها ، ولكن العبرة بالحياة الشيطانية التى

يعيشونها رغم ذلك ، . . والمسيحية أكثر من مجرد عقيدة إذ هى حياة ، فإذا لم يبلغ الإنسان مثل هذه الحياة الجديدة ، فكل أقواله زعم وادعاء يخدع به نفسه أو الآخرين أيضاً ! ! . . . على أنه من الوجهة الأخرى ينبغى ألا ننسى أن يعقوب يواجه إدعاء الأعمال الصالحة بدون إيمان ، فالقائل : « وأنا لى أعمال » هو إنسان — قد يكون ملحداً — ولكنه يفخر بالمبادئ الأدبية أو الأخلاق التى لا تستند إلى أساس الشركة مع الله والعودة إلى نبعه ، مثل هذه الأعمال ، مهما سمت أو ارتقت ، مرفوضة بالتمام أمام الله ، وذلك لأنها لا تزيد عن أفضل الغرائز عند الحيوان ، كشجاعة الأسد ، ووداعة الحمام، ووفاء الكلب ، . . ولكنها تحتاج إلى ما ينقص الحيوان ، إلى الضمير الذى يعلم مصدرها ، ويسير بمقتضاها تعظيماً وإجلالا لله ! ! . . . ومن ثم فالمسيحية الصحيحة كما يكشف عنها بولس هى : « الإيمان العامل بالمحبة » (غل ٥ : ٦)،وهوذات قول الرسول يعقوب : « وأنا أريك بأعمالى إيمانى » ... وهى قبل وبعد الكل ، ذات الحق الذى فاه به السيد : « كل غصن فىَّ لا يأتى بثمر ينزعه . وكل ما يأتى بثمر ينقيه ليأتى بثمر أكثر » (يو ١٥ : ٢) . . . وقد تصور أحد الكتاب المسيحيين أنه يتحدث إلى المسيح قائلا : يا سيدى لم أكسر اليوم وصية واحدة من الوصايا العشر إذ لم اوذ أحداً فهل يكفى هذا ! ! ؟ . . وكان الجواب : لقد وقف إلى جوارك على الطريق متعب مسكين يرزح تحت حمله ، ومد نظره إليك ، وكنت تملك الوقت والقوة ! ! . يا سيدى لم أسمعه ! ! . . . هل كانت أذنك صماء ؟ ! . . لقد جاءك ضيف ينشد الحديث معك ، وكان فى حاجة إلى شركتك ، ولقد لاحظت ملامحك وجهتك . . . لماذا لم تكن سعيداً ! ؟ . . . لقد كنت مستغرقاً فى القراءة ولا أحب أن يقطع على أحد حبل أفكارى بكلام تافه ! ! . . كان الأولاد الصغار فى حاجة إليك وهم يلعبون لحظة قصيرة ، وبدونك انحرف

لعبهم إلى الاتجاه الخاطئ ، . . لعب أولاد ! ! وكنت مشغولا بالحقائق الروحية الخفية الأهم ! ! . . إنك لم تتحول بعينيك وقلبك إلى ذلك الأعرج الذى سقط إلى جوارك فى الطريق ، وكان يحتاج إلى معاونتك . . لقد كنت فى عجلة لانجاز أمر مستعجل ، وكنت سأساعده عند عودتى ! ! . . لقد أقامه آخر ! ! . . هل أضيف أسئلة أخرى ! ! ؟ . . . حقاً : « الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هى هذه افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم » (يع ١ : ٢٧) . . .

يعقوب الشهيد :

ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس أن يعقوب قبض عليه عقب موت فستوس ، وقبل مجئ الوالى الجديد . وحوكم بتهمة كسر الناموس ورجم، ويقول يوسابيوس وجيروم إن كثيرين من اليهود اعتقدوا أن الحصار الذى حدث لأورشليم وخرابها كان بسبب قتل هذا الرجل الذى كان مكرما عند المسيحيين واليهود على حد سواء ! ! . . وهكذا سار الرجل فى أثر سيده الذى مات على رابية الجلجثة خارج مدينة أورشليم ! ! . . .

١٣٧

يهوذا أخو يعقوب

« يهوذا عبد يسوع المسيح واخو يعقوب الى المدعوين المقدسين فى الله الآب والمحفوظين ليسوع المسيح » (يه ١)

يعد ج . ر . و . ستوت واحداً من ألمع وأبرع العلماء المسيحيين فى النصف الأخير من القرن العشرين . كان راعياً لإحدى الكنائس فى مدينة لندن عام ١٩٥٠ ، وأصبح الراعى الفخرى للملكة الإنجليز فى عام ١٩٥٩ ، وقد عكف على دراسة اللاهوت واللغات الحديثة ، وله العديد من الكتب والمؤلفات ، ومن أبرز صفاته التواضع الجم والأدب البالغ ، وقد أتيح لى أن ألتقى به ، واتحدث معه ، وأشهد أننى عثرت فيه على واحد من أعظم العلماء ، والودعاء فى الوقت نفسه ، . . على أن جون ستوت رغم هذه الوداعة المذهلة ، لا يتردد بتاتاً فى الوقوف إلى جانب الحق المسيحى بثبات لا يتزعزع مهما كانت العواصف والظروف والأجواء ، وهو لا يقبل البتة أن يكون فى هذا المجال قصبة مرضوضة تهزها الريح ، وقد قال فى مستهل كتابه : «المسيح

رجل الحوار والجدل » رداً على معارضيه : « إن أول اعتراض على موضوع هذا الكتاب سيكون مرده إلى كره الجزم بالعقائد ، ذلك لأن روح العصر فى عداوة تامة مع الجازمين بمعتقداتهم . إن ذوى الأراء المصوغة بوضوح والمعتنقة بقوة ، ليسوا محبوبين من الناس . فالإنسان المتمسك باقتناعه يكون محظوظاً — مهما كان ذكيا ومخلصاً ومتواضعاً — إن هو نجا من تهمة التعصب . فالرأى السائد فى هذه الأيام هو أن العقل الراجح عقل واسع متفتح ، واسع إلى حد استيعاب كل فكرة جديدة تعرض عليه ، ومتفتح إلى حد المداومة ذلك إلى ما لا نهاية ، . . ماذا نقول لهذا ! ! ! ؟ . . . علينا القول إن المسيحية التاريخية جازمة فى جوهرها لعقيدتها ، إنها عقيدة معلنة ، فلو كانت المسيحية مجرد أراء فلسفية اخلاقية من صنع البشر كالهنودسية مثلا لكان الجزم فى غير محله ولكن إن كان الله قد تكلم ، كما يقول المسيحيون ، فى الأزمنة الغابرة بفم الأنبياء ، وفى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه ، فلماذا يقال عن إيماننا بكلمته وتحريضنا الآخرين على الإيمان بها أيضاً : « عقيدة جزمية » ، فان كانت هناك كلمة من الله مقروءة ومقبولة اليوم ، أفلا يكون من الحماقة والخطأ إن نحن أهملناها ، ولم نكترث بها . . . . إن أروقة العهد الجديد تدوى بالكلمات الجازمة المستهلة ب « نعلم » « نوقن » « نثق » فان كنت فى شك من هذا فما عليك إلا أن تقرأ رسالة يوحنا الأولى التى يرد فيها الفعل « عرف » ومشتقاته ما يقرب من الأربعين مرة ، وهذه تضرب على وتر التأكيد البهيج الذى هو ، للاسف ، مفقود فى كثير من كنائس اليوم ومن الضرورى استرداده ! ! . . . . » . . . كان يهوذا أخو يعقوب وديعاً مذهلا فى وداعته ، وفى الوقت عينه ثابتاً كالصخر الأشم وهو يدافع عن المعتقدات المسيحية والإيمان المسلم مرة للقديسين ، ومن المؤسف أن الكثيرين لا يتنبهون ، بما فيه الكفاية ، إلى الرجل ورسالته القوية التى جاءت فى أصحاح واحد فى الكتاب المقدس ، . . وخليق بنا لذلك أن نراه فيما يلى :

يهوذا الرجل الوديع :

لعل ما يدعو إلى العجب أن يستهل يهوذا رسالته بالقول : « عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب » . . . وقد سبق لنا فى الشخصية السابقة أن تحدثنا عن يعقوب أخى الرب ، ووداعته العظيمة التى جعلته يتصاغر فلا يذكر الحق الذى يملكه ، فهو يقول : « يعقوب عبد الله والرب يسوع المسيح » . . . وإذا كان غيره كبولس يصفه بأنه أخو الرب ، . . . فليدع غيره يقولون ذلك ، أما هو فيركع أمام سيده المسيح داعياً إياه ربه الأعلى ، . . . فإذا جاء بعده يهوذا ، فهو لا يجرؤ وهو يكتب رسالته إلى المؤمنين عامة أن يذكر اخوته المباشرة مع السيد ، رغم أن هذا كان من حقه أيضاً ، إلا أنه يقف فى الصف وراء أخيه الآخر يعقوب ، ويكفيه أن يجعل صلته الجسدية « أخا ليعقوب » ، وهنا نقف أمام جلال عظيم رائع ، لأن هذا الأخ الصغير إذا كان يشرفه أن ينتسب إلى أخيه يعقوب ، فإن شرفه الأكبر فى عبوديته ليسوع المسيح الأخ الأكبر الذى لم يستح أن يدعونا إخوة ، . . . والسؤال البديهى لماذا اتخذ يهوذا هذا الموقف ، الذى اتخذه أيضاً من قبل أخوه يعقوب ! ! ؟ . . أهو الاحساس بالحماقة والضعة والجهل ، ومحاولة التكفير عما فعلوه بأخيهم المسيح قبل الإيمان به : « لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به » (يو ٧ : ٥) . . ولعلهم عاشوا طوال حياتهم وهم فى ذهول وندم على تصرفهم تجاه أخيهم العظيم طوال حياتهم معه فى سنى الصمت فى الناصرة ، . . ولعلهم فى الوقت نفسه أحسوا الشرف الذى يجل عن الكلام ، كلما ذكروا أنهم ظلوا سنوات طويلة دون علم مع الرب الفادى تحت سقف واحد، . . ولكنها الحقيقة الغريبة فى موقفنا جميعاً من يسوع المسيح ، ولا يجوز لذلك أن نرجم يعقوب أو يهوذا بأحجارنا لأنهما لم يؤمنا به مع سائر اخوته عندما جاء متسربلا ثوب الجسد الضعيف ، ولم

يكن له اين يسند رأسه . . . . إنه شرف ما بعده شرف أن يكرم الله الإنسان بالتجسد ولكنها قمة المأساة عندما لا يستطيع ملايين الملايين من الناس أن يروا الله فى المسيح المتجسد . مثلما فعل يعقوب ويهوذا قبل قيامته من الأموات . . . على أن يعقوب ويهوذا وكل من كشف له الله عن سر التجسد يفخرون على الدوام بلاهوت المسيح ، ويقولون فى ملء الفخر والاجلال لاسمه المبارك : « يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب » . . . ولا تمنعهم الاخوَّة التى شرفهم المسيح بها ، من الولاء الأعمق والأعظم والعبودية التى يعلنون على الدوام تشرفهم بها للسيد العظيم المبارك ؟ ! . . .

يهوذا الثائر ضد الهراطقة الأشرار :

لا يعلم أحد على وجه التحقيق متى كتبت رسالة يهوذا ، فبينما تقول بعض التقاليد إنها كرسالة أخيه يعقوب من أوائل الرسائل المسيحية المرسلة إلى الكنيسة . إلا أن هناك من يذكرون أنها كتبت متأخرة عن غيرها من الرسائل أو حوالى عام ٨٠ م . وأيا كان زمن كتابتها فمن الواضح أنها كتبت لا لتصد هجوماً خارجياً على الكنيسة يأتيها من الأعداء والمضطهدين الذين يتربصون بها ، بل بالحرى أولئك الذين تسللوا إلى داخلها : « لأنه دخل خلسة أناس » . والمتابع لتاريخ الكنيسة يجد أن الشيطان يحاول دائماً أن يهاجمها من الخارج والداخل معاً ، ففى نشأتها الأولى وقفت الامبراطورية الرومانية بكل ما تملك من صولة وحول ضدها ، وأثارت عليها حرباً ضروساً طوال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ المسيحى ، وكلنا يعلم أن الغلبة لم تكن للامبراطورية ، بل كانت للكنيسة ، وأن دماء الشهداء كانت البذار التى انتشرت فى رقعتها العظيمة . وهى تنتصر فى الشرق والغرب حتى قال جوليان الامبراطور قولته الشهيرة : « لقد غلبت أيها الجليلى » . . فإذا عجز الشيطان عن أن يخضعها من الخارج ، فإنه يدخل إليها ليطعنها طعناته القاتلة من الداخل ، وهو يبدأ

بالمعتقدات والهرطقات التى يلبسها هذه الصورة أو تلك من الصور المختلفة المتسمة بالتحرر والعقلانية ،.. .ومن أقدم الهرطقات التى أراد أن يتسلل بها إلى الكنيسة . ولعلها كانت مقصد يهوذا ، الفلسفة الغنوسية ، ومع أن المجال لا يتسع لشرح هذه الفلسفة . إلا أن أصحابها كما يقول يهوذا : « هؤلاء هم المعتزلون بأنفسهم نفسانيون لاروح لهم » (عد ١٩) أو الجماعات التى تقول إن الاتصال بين الله والإنسان يمكن أن يتم عن طريق العديد من التدريبات والممارسات الخاصة ، يؤدونها بعناية وحرص فائق ، وهم إذا فعلوا ذلك يصلون إلى مرتبة الحكماء الشرفاء الذين يتمتعون بالشفافية الروحية ، فيقدرون على ارتقاء السلم الطويل والوصول إلى الله ، وهم بذلك يختلفون عن الناس العاديين الذين لم ترتق أرواحهم وليست لهم القدرة على بذل أى مجهود ذهنى للحصول على الحكمة العقلية التى تعينهم على ارتقاء السلم الطويل المؤدى إلى الله ، . . وهكذا اعتبر الغنوسيون الناس مجموعتين ، المجموعة الأولى هم الصفوة القلائل القادرون على السير فى درب المعرفة الطويل ، بحثاً عن الله وطلباً له ، أما المجموعة الثانية فتضم الناس العاديين الذين يفتقرون إلى مايؤهلهم للوصول إلى المعرفة ، التى بدونها لن يصل أحد إلى الله ، . . . وكان الغنوسيون إلى جانب هذا ، لا يؤمنون بوحدانية الله ، ولهم فكرة عجيبة مبتدعة عن الله ، فالله — عندهم — روح لاعلاقة له بالمادة على الإطلاق ، . . أما كيف نشأت المادة فى الوجود ، . فقد جاءت عما يسمونه أيونات قد انفصلت عن الله بالتتابع فى سلسلة طويلة أو سلم كبير ، وابتعدت عن الله ابتعاداً متوالياً كبيراً ، وواحد من هذه الأيونات ، أو الآلهة الثانويين هو الذى خلق المادة ، . . وهو بهذا المعنى اله شرير ، لأن الله لا يمكن وهو إله الخير أن يرتبط بالمادة التى هى فى حد ذاتها شر ، . . ومن هنا يتباعد إله الخير وإله الشر عن بعضهما تماماً ، وإله العهد القديم الخالق ، هو ، بهذا المعنى ، إله شرير ، . . هذه هى

الهرطقة الغنوسية التى حاولت أن تتدخل خلسة إلى الكنيسة لكى تهدم الإيمان المسيحى المسلم مرة واحدة للقديسين . . . ومثل هذه الهرطقة لا تقبل الكتاب المقدس إعلاناً إلهياً ، بل تزعم أن الإنسان يستطيع بالإنصات إلى صوت الله فى أعماق نفسه وباطنه ، بعد الدراية الطويلة التى يزعمونها فى الاتصال بالله ، يستطيع أن يسمع صوت الله الباطنى داخله ! ! . . . والنتيجة هى أن مفهوم الخير أو الشر لا يمكن تحديده باعلان عن طريق الوحى بل بالوصول إليه عن طريق المعرفة الداخلية الباطنية ، . . وعلى هذا الأساس اختلط مفهوم الخير والشر عندهم . . . هذه هى الفلسفة الغنوسية التى كانت أول ما حاول التسلل إلى الكنيسة فى عصر الرسل ، ولم تكن هى الأخيرة التى تحاول أن تشق الطريق إلى صفوف شعب الله فى كل جيل وعصر ، فقد جاءت بعدها عشرات الهرطقات التى حاولت هدم الكنيسة من الداخل بالفلسفات المختلفة والتفسيرات المبتدعة ، كالأريوسية والبلاجية والنسطورية والأرمينية وغيرها من كافة الصور القديمة والحديثة ، والتى يصاحبها فى العادة لا التلوث الفكرى فحسب ، بل التلوث الأدبى والشرور التى يحاولون تبريرها بمختلف الاجتهادات والتفسيرات إلى الدرجة التى يصفها يهوذا فى القول الرهيب « فجار يحولون نعمة إلهنا إلى الدعارة » . . . وهو قول يشبه ما قاله الرسول بولس : « فماذا نقول أنبقى فى الخطية لكى تكثر النعمة »؟ (رو ٦ : ١) . . . والنظرية المبتدعة التى نادى بها هؤلاء هى أن ازدياد الخطية عن نعمة الله العظيمة ، فكلما أوغل الإنسان فى الخطية كلما ازدادت نعمة الله ورحمته واحسانه ، واستطاع أن يرى انتصار هذه النعمة على الخطية ، . . فلماذا لا يخطئ الإنسان لكى يكتشف إحساناً أعظم ورحمة أكمل ، . . . ولهذا تحول هؤلاء إلى فجار يحولون نعمة الهنا إلى الدعارة ! ! .

والحقيقة المثيرة الجديرة بكل اهتمام وتأمل ، أنه من الصعب جداً فى كل

عصور التاريخ الفصل بين الهرطقة والفساد الخلق ! ! . . فكلاهما فى الواقع « اباحية » أو تجاوز الخط ، سواء كان هذا الخط يرتبط بالذهن أو الحس ، .
وهل فعل أبوانا الأولان إلا هذا التجاوز يوم أقدما على أكل الثمرة من شجرة معرفة الخير والشر . فتجاوزا بذلك الخط الذهنى الذى كان يجب أن يتركاه لله حتى يعلمهما الفارق بين الخير والشر ! ! . . ولم يدريا وهما يتجاوزانه . أنهما تجاوزا الخط الحسى أيضاً عندما تبينا أنهما عريانان ، يحاولان أن يغطيا هذا العرى بورق من تين دون جدوى ! ! . . . .

ولم يستطع يهوذا وهو يرى الهرطقة والدعارة تزحفان إلى الكنيسة إلا أن يثور الثورة العارمة ضدهما ، الثورة التى تبدت فى غيظه وغضبه وضيقه ، وهو يندد بهما ، وقد كشف بذلك عن حقيقة الغضب المقدس الذى ينبغى أن يسيطر علينا تجاه كل فجور أو إثم أو رزيلة أو هرطقة تتسلل إلى كنيسة المسيح أو تحاول أن تأخذ مركزها هنا أو هناك فى داخلها لتهدم كيانها ومقوماتها . . . ويدعو دكتور موفات رسالة يهوذا صليباً ملتهباً لايقاظ الكنيسة ، وقال ج . ب . ما يرو وهو من أعظم المفسرين الذين قدموا شرحاً للرسالة ، إن القارئ العصرى قد يراها رسالة غريبة من أولها إلى آخرها ، إذا لم يستطع أن يتفهم فكر يهوذا وعواطفه ، وهو يواجه الفساد الذى يراه أمامه فى الكنيسة !

وفى الواقع إن يهوذا ، وهو يكتب رسالته ويكشف عن خبيئة نفسه ومشاعره . ينهض فى كل التاريخ محتجاً على الذين يقفون من الإيمان المسيحى دون مبالاة أو عدم اهتمام ، وعلى الفساد الذى ينخر فى عظام الكنيسة ، دون أن يجد المتصدين له ، والثائرين ضده ، . وهو فى هذا يقف فى مقدمة الصفوف بين أبطال الإصلاح الذين رفعوا أصواتهم وأرعدوا ضد كل هرطقة وشر فى الكنيسة المقدسة . . إن تر شراً ثم تخرس ازاءه ، أو تقف عاجزاً عن صد التيار الهرطوقى أو الفاسد بكل ما تملك من قوة وشجاعة

وبسالة ، فهو الإفك بعينه أو الضلال الذى لا يمكن أن يبلغ النفس المسيحيه الأمينة النقية المحبة لسيدها ! ! . . لا لا . . . إن الله نفسه يثور فى السموات على كل هذا ، وينتظر فى الأرض من يغار لإسمه ومجده : « صنعوا عجلا فى حوريب وسجدوا لتمثال مسبوك . وأبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب . نسوا الله مخلصهم الصانع عظائم فى مصر وعجائب فى أرض حام ومخاوف على بحر سوف . فقال باهلاكهم لولا موسى مختاره وقف فى الثغر قدامه ليصرف غضبه عن اتلافهم . ورذلوا الأرض الشهية . لم يؤمنوا بكلمته ، بل تمرمروا فى خيامهم . لم يسمعوا لصوت الرب فرفع يده عليهم ليسقطهم فى البرية ، وليسقط نسلهم بين الأمم وليبددهم فى الأراضى . وتعلقوا ببعل فغور وأكلوا ذبائح الموتى وأغاظوه بأعمالهم فاقتحمهم الوبأ فوقف فينحاس ودان فامتنع الوبأ . فحسب له ذلك براً إلى دور فدور إلى الأبد » (مز ١٠٦ : ١٩ — ٣١) . . . فى برايتون ابصر الناس فردريك روبرتسون وهو يمشى فى الشوارع كالمجنون لأنه اكتشف إفكا وظلما وقع على فتاة مسكينة ، وكان يطحن بأسنانه غيظاً ، ولم يهدأ حتى تصدى لهذا الظلم ودفعه ، . . فماذا نقول عن الشر الذى يدخل إلى الكنيسة ويستشرى فيها : « ولكن عندك هذا أنك تبغض أعمال النقولاويين التى أبغضها أنا أيضاً » (رؤ ٢ : ٦) ، « أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسى الشيطان وأنت متمسك باسمى ولم تنكر ايمانى حتى فى الأيام التى كان فيها أنتيباس شهيدى الأمين الذى قتل عندكم حيث الشيطان يسكن . ولكن عندى عليك قليل . أن عندك هناك قوماً متمسكين بتعليم بلعام الذى كان يعلم بالاق أن يلقى معثرة أمام بنى إسرائيل أن يأكلوا ماذبح للأوثان ويزنوا . هكذا عندك أنت أيضاً قوم متمسكون بتعاليم النقولاويين الذى أبغضه فتب وإلا فإنى آتيك سريعاً وأحاربهم بسيف فمى » (رؤ ٢ : ١٣ — ١٦) . . .

يهوذا ودينونة اليوم العظيم :

لم يترك يهوذا الهرطقات والضلالات والمفاسد تذهب دون تحذير رهيب، من الواضح أنه تناول الأمر من جانبين يمكن أن نطلق عليهما : طبيعة الفجار ثم عقابهم ، . . . أما طبيعتهم فيكشفها فى القول : « هؤلاء أيضاً المحتلمون ينجسون الجسد ويتهاونون بالسيادة ويفترون على ذوى الأمجاد » . . . « سلكوا طريق قايين وانصبوا إلى ضلالة بلعام لأجل أجرة وهلكوا فى مشاجرة قورح . هؤلاء صخور فى ولائمكم المحبية صانعين ولائم معا بلاخوف راعين أنفسهم . غيوم بلا ماء تحملها الرياح أشجار خريفية بلا ثمر ميتة مضاعفاً مقتلعة . أمواج بحر هائجه مزبدة بخزيهم . نجوم تائهة محفوظ لها قتام الظلام إلى الأبد » . . . « هؤلاء هم مدمدمون متشكون سالكون بحسب شهواتهم وفمهم يتكلم بعظائم يحابون بالوجوه من أجل المنفعة . . . . « إنه فى الزمان الأخير سيكون قوم مستهزئون سالكين بحسب شهوات فجورهم هؤلاء هم ... » . . ومن كل هذه الأوصاف نرى الجماعات المهرطقة الضالة تتكشف عن أقدام أحلامهم رديئة جسدية فاسدة ، لا يفكرون . فى الحقيقة ، إلا فى أنفسهم وأمجادهم الذاتية ، وقد امتلأوا بالكبرياء والاسفاف . وهم أشبه الكل بقايين القاتل لأخيه . وبلعام الذى استهوته أجرة الأثم فافتى بالضلال ؛ وقورح المتمرد الذى يرغب فى المكان الأعلى ، والمركز الأعظم . . . وهم فى الحقيقة جماعات تافهة لاغنى فيها أو خير أو ثمر ، فهم أشجار الخريف المتساقطة الأوراق والعديمة الثمر ، أو الغيوم التى لا تريق ماء أو تسقط مطراً ، إذ هى غيوم بلا ماء تدفعها الرياح ، وهم كالصخور المختفية فى البحار والتى تتكسر عليها السفن العابرة ، أو كالأمواج الهائجة المزبدة التى فى ثورتها تبغى القضاء على كل ما يعبر اليم لتطويه فى جوفها ! ! . . . وهؤلاء لا يمكن أن يهربوا من الدينونة الإلهية دون عقاب ، والله لهم بالمرصاد ، فإن تشكك

أحد فهناك الدليل المستمد من الملائكة والجماعات والأفراد ، فالملائكة الذين تركوا رياستهم ، والتقليد اليهودى يذهب فى هذا الأمر مذهبين ، فهناك الذين فسروا الأمر بأن هؤلاء الملائكة هم أبناء الله الذين رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم من كل ما اختاروا ، على ما جاء فى سفر التكوين الأصحاح السادس ، وانجبوا الجبابرة الذين أصبحوا ذوى اسم فى الأرض يوم كثر فيها الشر والفساد ، وهو تفسير يصعب قبوله والإيمان به ، والنص نفسه لا يحتمله ، . وهناك التفسير الآخر — وهو ما نرجحه — القائل بان الشيطان لم يرض بمركزه العظيم الذى وضعه الله فيه كملاك ، وترك مكانه طمعاً فى مركز أعظم — تماماً مثلما دفع آدم إلى فعله حتى يصبح مثل الله ، . . والشىء العجيب ان الله رغم عقابه لآدم أعطاه فرصة ثانية فى الخلاص بالمسيح ، الأمر الذى لم يعط للشيطان ، إذ عاقبه الله فى الحاضر ، ويعاقبه فى المستقبل عقابه الأبدى الرهيب ، أما فى الحاضر فقد قيده ، وهو محفوظ فى قيود أبدية تحت الظلام ، أو على حد قول كلفن إن الشيطان أينما يسير يرسف فى قيوده . فهو لا يملك السلطان المطلق ليتصرف كما يشاء . وهو السجين الذى لا ترفع عنه قيود سجنه ، وهو يعيش فى الظلام ، وتحت الظلام ، إذ غادر وجه الله ، ولا يعود يتمتع به على الاطلاق ، وهو يعيش بأفكار مظلمة ونوايا شريرة فاسدة ، . . وهو معذب هكذا عندما يذكر ما ضاع منه ، لكن عذابه لا يقاس مطلقاً بالعذاب الذى سيعانيه عندما يطرح إلى الأبد فى جهنم النار المعدة لابليس وملائكته ! ! . . . ترك الشيطان رئاسته ، وأحدث الخلل فى نظام الله العظيم ، وكان لابد أن يجد الجزاء ، وقيل إن الله أسقطه بعد حرب بين ابليس وملائكته وميخائيل وملائكته . وهناك من المفسرين من يفسر الاصحاح الرابع عشر من اشعياء ، على اعتبار ان ملك بابل ليس إلا رمزاً لما حدث مع الشيطان عندما أحدره الله من مركزه

العظيم : « الهاوية من أسفل مهتزة لك لاستقبال قدومك منهضة لك الأخيلة جميع عظماء الأرض . أقامت كل ملوك الأمم عن كراسيهم . كلهم يجيبون ويقولون لك أأنت أيضاً قد ضعفت نظيرنا وصرت مثلنا ، أهبط إلى الهاوية فخرك رنة أعوادك ، تحتك تفرش الرمة وغطاؤك الدود . كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح . كيف قطعت إلى الأرض ياقاهر الأمم . وأنت قلت فى قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسى فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع فى أقاصى الشمال . أصعد فوق مرتفعات السحاب . أصير مثل العلى » (إش ١٤ : ٩ – ١٤) . . . ومهما اتجه التفسير وسواء ارتبط بالشيطان أو الإنسان ، فانه مما لا شك فيه أن الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة ! ! فإذا اتجهنا إلى الجماعات فتاريخ شعب الله يشهد بأن الله لا يمكن أن يهادن الخطية أو يتسامح فيها ، وما عاناه الشعب من متاعب وآلام وعذابات ، يقطع تماماً بأن ديان الأرض لابد أن يصنع عدلا ، . فإذا تحولنا إلى سدوم وعمورة ومدن الدائرة فالشهادة بعقاب الله للخطية ، مكتوبة بأحرف ما نار ، . . فإذا انتهينا إلى الأفراد ، رأينا الجزاء الرهيب واضحاً فى كل جانب ، فقايين المعذب التائه الشارد الصارخ فى دنياه حيثما ذهب ، وبلعام المقتول الذى قتلته أجرة الاثم ، ولم يتمتع بها ، وقورح الذى فتحت الأرض فاها وابتلعته . . . كل هؤلاء يؤكدون أن أجرة الخطية هى موت وأن الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً ! ! . . .

يهوذا والضمان للمؤمنين:

على أنه فى هذا الجو الرهيب القاتم تلمع الشمس بوضوح بالنسبة للمؤمنين إذ هم محفوظون ، فهو من أول عبارة يقول : « والمحفوظين ليسوع المسيح » ويختمها بالبركة التى نسمعها فى العادة من المنابر : « والقادر أن يحفظكم غير عاثرين » . . أو فى عبارة أخرى : إن الرجل يؤمن بالاختيار الإلهى المطلق ،

غير المشروط ، وهو يؤكد أن المؤمنين جاءوا إلى الله نتيجة دعوة مقدسة : « المدعوين المقدسين » . . وهذه الدعوة هى « الخلاص المشترك » الذى يضمهم جميعاً أو هو « الإيمان المسلم مرة للقديسين » ؛ وليس له إضافة أو نقص إذ ليس هو فى حاجة إلى فلسفات الناس أو نظريات البشر ، بل هو إعلان إلهى مقدس واضح النور والمعالم يدعو إلى القداسة التى بدونها لن يرى أحد الرب ! ! . . . على أن هذا الضمان الإلهى لا يعنى عند يهوذا أن يقف الإنسان ساكناً أو مستبيحاً بدعوى أنه مضمون ، إن من يقول مثل هذا هو الدعارة بعينها ، . . . إن الضمان الإلهى على العكس يحرك فىّ كل نشاط وحيوية وقوة واجتهاد لأثبت حقيقة الدعوة الإلهية المقدسة المضمونة ، ويصبح الأمر كالعلاقة بين الطعام والحيـــاة ، فمع أن الحياة فى ذاتها ليست فى الطعام إلا أنها لايمكن أن تستمر بغير طعام ، ويصبح من بديهيات الحياة التى ترتفع على كل مناقشة ، . .. وعلى هذا الأساس تعيش الدعوة العليا التى إليها دعينا ، وهى عمل الله المحض السابق على وجودنا وارادتنا ، . . ومع ذلك فهى ولاشك مرتبطة ومقرونة بنداء يهوذا للمؤمنين ، سواء بالنسبة لأنفسهم أو لإخوتهم المختارين معهم : « وأما أنتم أيها الأحباء فابنوا أنفسكم على إيمانكم الأقدس مصلين فى الروح القدس واحفظوا أنفسكم فى محبة الله منتظرين رحمة ربنا يسوع للحياة الأبدية . وارحموا البعض مميزين . وخلصوا بالخوف مختطفين من النار مبغضين حتى الثوب المدنس من الجسد . والقادر أن يحفظكم غير عاثرين ويوقفكم أمام مجـــده بلا عيب فى الابتهاج . الإله الحكيم الوحيد مخلصنا له المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور . آمين » . . .

١٣٨
تيموثاوس

« الى تيموثاوس الابن الحبيب » (١تى ١: ٢)

لعل من أجمل ما كتب دكتور جورج مليجان ، وهو يتحدث عن صحابة بولس ، أن لوقا قد يكون طبيب الرسول طوال حياته ، ومؤرخ قصته بعد موته ، وأن برنابا وسيلا وأبلوس قد يكونون فى نظر الكنيسة عامة من أهم أصحابه ورفاقه ، ولكن تيموثاوس يتميز عن الجميع بدرجة خاصة فى الصداقة ، إذ هو « الابن الحبيب » والذى برهن على جدارته فى أن يصبح المسئول عن العمل العظيم الذى تركه الرسول الكبير وراءه ، . . وإن كنا نتردد كثيراً مع ج . ر . مكدف فى قبول التقليد الذى يزعم أن رفات تيموثاوس الحقيقية موضوعة فى مزار بكنيسة القديس بولس فى روما ، حيث يقال إن رفات بولس هناك جنباً إلى جنب مع رفات تيموثاوس ، وتوجد على المزار هذه العبارة : « هنا رفات الرسول تيموثاوس حيث يرقد جسده ويستريح » . . على أنه وإن كنا نتردد فى قبول هذا التقليد لأسباب

متعددة ولعل أهمها أن تيموثاوس كانت أعظم وأطول خدماته المعروفة فى أفسس ، . . إلا أننا مع ذلك لانتردد فى أنه كان أقرب القلوب فى حياته إلى الرسول بولس ، وأنه الرجل الذى تلقى رسالتين من الرسول ، وأنه فى رسائله ذكر اسمه ست عشرة مرة ، يتحدث فى ست منها عن العلاقة الشخصية التى تربطهما معاً ، وفى ست أخرى عن المركز الذى صار له كشريك لبولس فى كتابة الرسائل ، وفى أربع كابن له ! ! . . ولعل هذا كله يكشف عن شخصية تيموثاوس العظيمة التى يحسن أن نتابعها فيما يلى :

تيموثاوس وحياته :

ما هى الصورة التى يمكن أن نتخيلها ، ونحن نذكر قصة تيموثاوس عن شخصيته وسماته وصفاته ، . . أغلب الظن أننا نتصور أول الأمر تيموثاوس الجميل الصغير المعمود ، النحيل الذى تعاوده الأزمات الصحية بين الحين والآخر ، والذى لم ير الرسول بدا من النصيحة التى ظلمت فى كل التاريخ ، إذ أضحت ذريعة الكثيرين وحجتهم فى شرب الخمر : « لا تكن فى ما بعد شراب ماء بل استعمل خمراً قليلا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة » . . . (١ تى ٥ : ٢٣) وإذا كنا نشفق على الغلام العليل وهو يتلوى من آلامه الكثيرة ، فاننا نعجب أشد العجب للتحريف الذى أخذ شكل التعبير : قليل من الخمر يصلح المعدة » ويتخذ حجة لشربها وادمانها ، وشتان ما بين السماء والأرض ، بين الخمر وهى تؤخذ فى حالة أقرب إلى الصفة الطبية ، وأولئك الذين يتجرعونها دون توقف أو تحديد ، يبدون كما لو أن بطونهم جميعاً وأجسادهم ملأها المرض والسقم ، . . على أية حال إن الشاب القديم ينتصب أمامنا ، وقد شاء له الله فى قصته لحكمة أسمى وأعلى أن يعيش عليلا مريضاً كثير الآلام والأسقام ، . . ولست أعلم مدى الأثر الذى تركته

هذه الآلام فى حياته ، إلا أنها كانت على الأغلب أحد الأسباب الكثيرة التى جعلت تيموثاوس شاباً من أرق النفوس وأحلاها وأصفاها على هذه الأرض، . وكلنا يعلم أن روبرت لويس استفنسون عانى طوال حياته من علة المرض الذى جعل مربيته والتى كانت تسهر عليه وهو غلام صغير لا يعرف النوم طوال الليل ، وكانت تفتح له النافذة ، لكى يرى بيوتاً أخرى منارة ، بها من يشكو ولا يعرف النوم مثله ، وتعلم الغلام الصغير من نعومة أظفاره ، أن الأرض تحمل مثله ملايين الناس من المعذبين والمتألمين ، وأنه يجمل به أن يكون رقيقاً ودوداً عطوفاً على آلام الآخرين ، . . كان تيموثاوس على الأرجح على هذه الصورة علمه الألم الذى يعانيه ، والدموع التى يسكبها ، كم ينبغى أن يكون رفيقاً رقيقاً بالغ الرقة والرفق بآلام الآخرين من الناس ، كان واحداً من أعظم الناس الذين تكلموا مراراً كثيرة بلغة الدموع ، وقد هز وجدان بولس من الأعماق ، وظلت ذكرى دموعه ماثلة فى ذهنه ومشاعره ، وهو يكتب له فى رسالته الثانية : « مشتاقاً أن أراك ذاكراً دموعك » . . . (٢ تى ١ : ٤) . إنه ذلك النوع من الناس المحب المخلص العميق فى اخلاصه ، الذى يمتلىء بالحب النقى الصافى ، والذى لا يعرف شبهة أو تردداً فى إخلاصه العميق ، . . قد لا يكون له جبروت بولس ، ولا يمكن أمام المواقف القاسية الشديدة ، أن يتحول اعصاراً عاتياً مثل معلمه الجبار ، . . . لكن الجبابرة أنفسهم يحتاجون إلى النسيم الذى يهب على نفوسهم فى معركة الحياة ، . . . كان تيموثاوس بالنسبة لبولس وفى حياته يصلح أن يكون ثانياً ، ولا يمكن أن يخطو إلى الصف المتقدم إلى جوار استاذه ومعلمه ، . . وهو يصلح أن يكون تابعاً ومكملا ، ولكنه لا يستطيع أو يقبل أن يكون ندا أو منافساً ، وفى ذلك يصفه دكتور ا . جيرنى فى مؤلفه الثمين عن رسالة تيموثاوس الأولى : « هناك الوحدة الأعمق فى التباين ، إنها ليست التشابه فى التماثل ، بل التشابه

مع الاختلاف ، . . ان الله يحتاج إلى تيموثاوس جنباً إلى جنب مع بولس ، وكم يبدو مراراً كثيرة ضعيفاً بالنسبة لقوة بولس الشيخ الجبار ، ولكنه مع ذلك كان مصدر قوة عظيمة له ومشجعاً وضرورياً . كان الواحد : الأب الروحي والآخر الابن الحبيب . . . لقد ولد أحدهما قائداً بين الناس ، مختاراً ، ورائداً لإيمان عظيم لا يعيا أو يتقهقر ، وعندما بدا غيوراً كان ينفث تهدداً وقتلا على أتباع الرب . . . والآخر ولد راغباً فى أن يكون فى المركز الثانى ، غير متأكد على الدوام من نفسه ، اذ كان يميل للاعتماد على الآخرين دون أن يأخذ مركز الرئاسة ، . . كان أحدهما قوياً يملؤه اليقين الذى يجعله بالإيمان أعظم من منتصر ، إذ هو واثق ، مهما تخلى عنه البشر ، بأنه معان بالله ، وهو لهذا لا ينقص أبداً عن فائقى الرسل ، ولكن الآخر ، وديع فى استخدام مواهبه يتردد بعض الأحايين فى تأكيد سلطانه تجاه الواجبات المفروضة عليه إلى الدرجة التى يقال معها : « ثم إن أتى تيموثاوس فانظروا أن يكون عندكم بلا خوف . لأنه يعمل عمل الرب كما أنا أيضاً . فلا يحتقره أحد بل شيعوه بسلام ليأتى إلىَّ لأنى أنتظره مع الاخوة » (١ كو ١٦ : ١٠ ، ١١) . . . وقد أضاف دكتور هربرت لوكاير إلى ذلك قوله : « إن تيموثاوس يحمل قلباً وديعاً صادقاً محباً للسلام ، وهو كسيلا يصلح أن يكون ثانياً بصدق وحرارة الصديق الذى يكشف عن روح الراعى والناظر أكثر من المرسل الرحالة ، . . وهو مع بولس مهما اختلفت المواهب والوزنات ، لكنهما يرتبطان بالإيمان المشترك والتعبد المشترك ليسوع المسيح ، . . وهما كوترين فى قيثارة يصدران لحناً صافياً لإلههما المخلص ، وكلاهما يحملان حباً لا يموت لسيدهما وانجيله الذى يريدان نشره فى كل مكان ، ويرغبان بقلب واحد فى إتمام غرض الله فى الخلاص » . . .

ولاشبهة فى أن تيموثاوس إلى جانب هذا كله كان يتميز بالصراحة الكاملة التى

لا تعرف التواء أو مكراً أو تحفظاً بأية صورة من الصور ، إذ ورث عن أمه وجدته الإيمان الصريح العديم الرياء ، فى الأصل اليونانى تعنى التى لا تلبس القناع ، أو فى لغة أخرى إن الصراحة كانت من أهم صفاته وأقواها ، فالظاهر عنده كالباطن والخارج كالداخل سواء بسواء ، وهو لا يعرف التمثيل أويتقنه ، كالكثيرين من الممثلين أو المخادعين أو السياسيين من ذوى الوجهين أو أكثر من الوجهين ، الذين يلبسون لكل حالة الصورة المناسبة لها ، حتى ولو كانت على العكس تماماً من الحقيقة الداخلية عندهم ، . . أو كما يقال إن لهم القدرة على أن يأكلوا الشاة مع الذئب ، وينوحوا عليها مع الراعى ، . . . ولسنا نعلم كم جلب هذا الخلق على تيموثاوس من آلام ومتاعب ، ولعله تعلم ، عندما أوغل فى الخدمة ، أن يجمع بين الصراحة والحكمة فى التصرف ، إذ ليس كل ما يعرف يقال ، بدعوى الصراحة الواجبة اللازمة التى قد تتحول فى بعض الأحايين تعباً وضرراً على صاحبها ، الأمر الذى تعلمه يوسف ، ولكن بعد سنوات قاسية من الألم والتشريد والضيق والغربة ، . . عندما تحدث فى صباه عن أحلامه لإخوته ، وعن نميمتهم لأبيه ، لم يكن يعلم بأنه يضع الأساس العميق لكراهيتهم له ، والقسوة البالغة التى عاملوه بها ، . . وقد عدل عن هذا وهو يتحدث إلى رئيس السقاة ، فهو يتحدث إليه عن الظلم الذى عاناه دون أن يشير البتة إلى ما فعل اخوته أو زوجة فوطيفار : « لأنى قد سرقت من أرض العبرانيين . وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعونى فى السجن » ... (تك ٤٠ : ١٥) .. على أية حال كانت الصراحة واحدة من السمات الواضحة فى علاقة تيموثاوس بالله والناس إذ كان يحمل الإيمان الصريح العديم الرياء ! ! . . .

وفوق هذا كله كان تيموثاوس الشخص الذى تستطيع أن تثق به ، وتعتمد عليه ، . . . وإذا كان أحد الحكام البيض قد وضع على قبر دكتور أجرى

الزنجى الأفريقى هذه العبارة : « تستطيع أن تثق به تماماً » . . فإن هذه الكلمة تصلح بكل يقين فى وصف تيموثاوس ، الشاب الذى أحس بولس وهو فى لحظاته الأخيرة بالحاجة إليه : « بادر أن تجئ إلىّ سريعاً » (٢ تى ٤ : ٩) وهو الشخص الذى كان يأتمنه ويثق به ويعتمد عليه فى كل الأوضاع والظروف ، . . ولك أن تتأكد أن أى عمل يعد تيموثاوس بالقيام به فلا بد أنه سيفعله مهما واجه من صعاب أو مهما تكلف من مشقات بل لو كلفه الحياة بجملتها ، . . . إذ هو الخادم الذى امتلأ من الإيمان والطاعة مما يجعله صورة من أندر الصور وأعظمها للوفاء العميق الرائع النبيل ! ! . . .

تيموثاوس ونشأته :

تحدثنا فى كتاب « نساء الكتاب المقدس » عند عرض شخصية افنيكى أمه عن هذه النشأة ، ولا نود أن نعمد إلى التكرار ، غير أننا نقول إن هذا الشاب كان يمكن أن يضع تاريخه تماماً ، أو كان يمكن أن يتحول شريراً آثماً لو أنه أخذ القدوة من أبيه الذى كان يونانياً وثنياً ، وكان يمكن أن تدمر وثنيته حياة الغلام الصغير . . ذهب الشاب هنرى مع أبيه إلى المدينة ، ومكث فى مكتبه إلى وقت الغداء ، وكانت هذه هى أول مرة يمكث فيها هنرى مدة طويلة فى المدينة وقد سر كثيراً من كتب أبيه وأوراقه ومكاتبه وأدراجها ، وقد كان وأبوه صديقين ، وعندما ذهبا لتناول الغداء فى مطعم قريب ، كان والده معروفاً فيه ، طلب الأب أصناف الطعام ، وعندئذ سأل الخادم الغلام عن الشراب الذى يطلبه . ولم يسأل الخادم أباه لأنه كان يعلم أن من عادته أن يتناول زجاجة من الخمر كل يوم ، . . وروع الأب أن جواب ابنه هو : أنا أتناول ما يتناوله أبى ، . . وكان لابد أن يفعل شيئاً فأسر فى أذن الخادم أن يأتيه بكوب لبن بدلا من زجاجة الخمر ، وجاء الخادم بكوبين أحدهما للأب والآخر للابن ، . . وعندما خرج من المكان كانت الكلمات التى

قالها الصغير ترن فى أذن أبيه أنا أتناول ما يتناوله أبى ! ! . . . وفحص الرجل نفسه ، وأقلع عن الخمر والتدخين والعادات الرديئة التى كانت تسيطر عليه ! . ربما لم يكن أبو تيموثاوس هكذا . . ولكن لعل الغلام كان محظوظاً لأن أباه مات وهو صغير ، . . أو لأن الأم والجدة طوقتاه بالحنان والحب والرحمة ، واستطاعتا تربيته من الصغر على صورة تجنبه التأثير المدمر الذى قد يأتيه من أبيه الوثنى ! ! . . . وهناك سيل لا ينتهى من أمثال افنيكى ولوئيس من الأمهات اللواتى لولاهن لضاع أعظم الأبطال والعظماء . . قيل عن واحد من أعظم علماء النبات فى الغرب إنه لم يكن يرى نبتة إلا ويتناولها ويشمها أو يقبلها ثم يقابل بينها وبين غيرها ، ولاحظت أمه هذا فأسرت به لوالده فسخر منها ، وأصر على أن يعلم ابنه مهنة تفيده ، ولم يكن الولد يميل إلى المهنة ، فهدده والده باحراق جميع كتبه فى التاريخ الطبيعى إذا ظل على ملازمته هوايته ، ثم فوض أمره إلا نجار بارع ليعلمه المهنة ، وكانت المهمة الشاقة على الأم أن تشجع مواهب ابنها ، فى الوقت الذى لا تثير فيه ثائرة الأب عليه ، وكان من أقسى الأمور أن يجمع الغلام بين طاعته لأبيه وارضائه لهوايته ، إلى أن تمكن من أن يقنع العالم كله بعظمة أبحاثه كعالم للنبات ، وقد ظل طوال عمره يذكر أمه بفخر قائلا : « أنا مدين لأمى بنجاحى » . . وقد قيل إن المؤرخ ميشلى كان يقول : كل ما تذكرت أمى ، تنحدر الدموع من عينى لقد فقدت فى هذه الوالدة الكريمة آخر صديق لى ! ! . . لقد كانت قدوة صالحة ومشجعاً صادقاً لى فى جميع واجباتى وأعمالى . وفردريك العظيم ملك بروسيا كانت والدته دوريثا المشهورة بحصافة العقل وسداد الرأى أكبر موجه له . وبرنارد دى سان الكاتب الشهير كان والده يائساً من تعليمه ولكن مربيته خالفت الرجل الرأى ، وهيأت له الفرصة التى مكنته من أن يكون الكاتب العظيم ! ! . .

على أية حال من الثابت أن أفنيكى ولوئيس جهزتا الغلام من الطفولية أجمل تجهيز وأعدتاه أعظم إعداد ومن المعتقد أن تيموثاوس يذكر هذا بالفخر طوال حياته على الأرض ، كما كان يفعل داود ليفنجستون وماري سلسر ودوايت مودى وغيرهم ممن تركت الأمومة أعظم الأثر فى حياتهم الروحية الخالدة أمام الله ! ! . . .

ومن المعتقد أن تيموثاوس نال التجديد على يد بولس وهو فى أوائل الشباب ربما بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، ويرجح هربرت لوكاير أن كلمة بولس : « لذلك أرسلت إليكم تيموثاوس الذى هو ابنى الحبيب والأمين فى الرب الذى يذكركم بطرقى فى المسيح كما أعلم فى كل مكان فى كل كنيسة » (١ كو ٤ : ١٧) . . بالاضافة إلى قوله : « الابن الحبيب » (١ تى ١ : ٢) وكذلك « فتقو أنت يا ابنى بالنعمة التى فى المسيح يسوع » (٢ تى ٢ : ١) . . . تشهد جميعها بأن تيموثاوس جاء إلى السيد نتيجة لوعظ بولس فى لسترة أو حياته وخدمته فيها ! ! . . . وأيا كان الأمر فمن الواضح أن بولس تولى الغلام برعاية أب يهتم أعمق الاهتمام بابنه الروحى الذى يحبه من كل قلبه ! ! . . . وكان تيموثاوس ولا شك من أسعد الناس على الأرض ، بأن يكون لوئيس وأفنيكى وبولس معلميه ومدربيه فى الحياة والخدمة المسيحية ! ! .

تيموثاوس والخدمة المثالية :

ربما لم يهتم بولس بخادم كاهتمامه بابنه تيموثاوس ، ويكفى أن نطلع على ما جاء فى رسالته إليه ، وهو يرينا الخادم النموذجى الناجح فى شخصه ، وكنيسته ، وكتابه ! ! . . .فالرسالة الأولى ، فى الأصحاح الثالث ، ترينا الشروط الواجب توافرها فى الأسقف ، ولم يكتف الرسول بذكر هذه الشروط عامة ،

ولكنه أوصى بتموثاوس فى الاصحاح الرابع بالتطبيق العملى لها ، فكشف لنا عن :

(١) الخادم المتربى : « إن فكرت الاخوة بهذا تكون خادماً صالحاً ليسوع المسيح متربياً بكلام الإيمان والتعليم الحسن الذى تتبعته » . . وكلام الإيمان يقصد به التعليم المسيحى العام ، والتعليم الحسن يشير على الأغلب إلى التعليم العقائدى أو فى لغة أخرى إن من واجبنا أن نتمتع ، كخدام كلمة الله ، بما تبعثه هذه الكلمة فى حياتنا من تعاليم ووصايا وعقائد ! ! . . ومن واجبنا مصاحبة هذه الكلمة باستمرار لأن التربية تستلزم المداومة ، وهنا يمكن أن نلاحظ ما قاله دين انج : « إنه من الطبيعى والمحتوم أننا إذا صرفنا ست عشرة ساعة يومياً فى أعمال العالم وخمس دقائق فى التفكير فى الله والنفس فإن العالم سيضحى واضحاً وحقيقياً أمامنا مائتى مرة أكثر من الله أو النفس » .

(٢) الخادم الواثق : والخادم المتربى لابد أن يكون الخادم الواثق الذى يستطيع أن يوصى بالسلطان الذى له من الله ويعلم ، كمن يقف على أرض ثابتة صخرية ، ولا يستطيع الخادم أن يبلغ هذه الثقة إلا إذا لاحظ الذين يخدمهم أنه يتكلم مستنداً إلى كتاب الله ، وأنه يتكلم ، وهو مؤمن بما يقول ، وأن يبدو من تصرفه ما يؤكد ذلك . .

(٣) الخادم المثال : ولا يشترط أن تأتى المثالية وليدة السن المتأخرة ، لقد كان المطلوب من تيموثاوس أن يكون قدوة رغم حداثة سنه ، ولقد كان عندما كتب له الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره على ما يرجح البعض .

(٤) الخادم القارىء : وهى نقطة بالغة الاهمية إذ يحرض الرسول بولس تلميذه على الدرس المتواصل ، ولعل كلمات ألكسندر هوايت فى هذا

الصدد هى خير ما يقال : « إن هذه الكلمات لوجاءت فى هذه الأيام من خادم خبير إلى خادم مبتدئ ، فربما كانت تجئ على هذا المثال : واظب على الدراسة واحرص عليها على الدوام ولا تجلس دون أن يكون فى يدك فى يدك كتاب أو قلم ، ولا تقرأ الكتب التافهة أو المؤذية أو غير البانية فليس لك الوقت أو المال لتفعل ذلك . . لا تقرأ شيئاً إن لم يكن الأفضل فى نوعه ، سواء كان فى الأدب أو الدين أو أى شيء آخر .. كن كملتون فى شبابه النبيل » . . . ولكن القراءة فى أيام تيموثاوس كانت تعنى شيئاً أكثر من ذلك . . فقد كانت تعنى الوعظ التفسيرى ، أو المحاضرة . . وقد كان الآباء الأقدمون يقرأون الكتاب ليفسروه وليحاضروا فيه كما فعل الذهبى الفم وأغسطينوس . وكما كان كلفن يفعل على منبره الخشبى فى جنيف ! ..» .

(٥) الخادم الموعود : .. وقد لاحظ بولس أنه وهو يتحدث إلى ابنه الشاب تيموثاوس مذكراً اياه بهذه الواجبات ، أن هناك أعظم وعد ينتظره وهو وعد يشمل الحياة الحاضرة والعتيدة ، فإذا كانت الرياضة الجسدية نافعة لقليل فإن التقوى لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة . ومن يمتلكها يمتلك النجاح فى العالم الحاضر والأبدية أيضاً ! ! . . .

فإذا تحولنا من الخادم إلى الكنيسة ، فهناك عمود الحق وقاعدته ، وهى المكان الذى ينبغى أن يعد فيه المؤمنون أجمل إعداد وأكمله ، والمطلوب من تيموثاوس أن يجعل من الكنيسة معهداً للكتاب المقدس أو مدرسة لا هوت ، ولعل من الطريف أن نتذكر ههنا أن سيدة سألت دكتور أيرنسيد قائلة له : « هل تستطيع أن تخبرنى أين يوجد فى الكتاب ما يحتم تعليم الخدام فى معاهد للكتاب المقدس أو مدارس لاهوت ، وقال أيرنسيد : يا سيدتى أنا لا أعرف بالضبط المكان ولكن أعلم أنه لا بد أن يكون فى المكان التالى للآية التى تلزم بالذهاب إلى المدارس العامة ، إن كانت هناك مثل هذه الآية ، ثم تذكر

أيرنسيد بعد ذلك أن ماقاله الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس هو بمثابة فتح لمدارس لاهوت : « وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أنا ساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً ! ! . . » وهنا يفرق الرسول — كما يقول بروفسور بلامر — بين الأحاديث والتعاليم الخاصة التى ولاشك علمها لتيموثاوس ، وبين التعاليم العامة التى علمها له على مسمع من الجميع ، والتعليم التى يعنيها الرسول ههنا هى التعاليم العقائدية والوعظية التى تحدث بها بولس ، والتى تتناول مناقشة للامور والأوضاع الخاصة ، . . والرسول يعلم بأن هذه التعاليم ينبغى أن تتداول من جيل إلى جيل ، ويلزم أن يتوفر أمران فيمن يتداولونها ، وهما الأمانة والكفاءة ، وكل طالب لاهوت يريد أن يقدم خدمة ناجحة ، لا يمكن أن يقدمها مالم يكن أميناً فى حياته الروحية وكفؤا فى استعداده الذهنى ومقدرته العلمية ، . . والخدمة لا ينبغى أن يسعى إليها أو يكلف بها من لم تتوفر له هاتان الخلتان ! ! . . .

فاذا أضفنا إلى الخـــادم والكنيسة ، الكتاب الذى ينبغى أن يكون مرتبطاً بالخادم ، نتذكر كيف تعلم تيموثاوس الكتاب وهو طفل على أيدى جدته وأمه ، وكيف استمع إليه على فم بولس ، . . . والكتاب لابد أن ينسخ فى قصة حياتنا ونحن نرضع من ثدى امهاتنا . . قال أحد الشيوخ القديسين : إن أجل ذكريات الطفولة وأبعدها أثراً فى حياتى ، الذكريات التى بقيت معى ، هى اللحظات التى كانت أمى تقرأ فيها لنا أجزاء من الكتاب المقدس كل صباح وكل مساء . . . وقال أحدهم : — وقد كان من عادة الآباء اليهود أن يعلموا أولادهم الشريعة فى الخامسة من العمر ، إن كل الآباء المسيحيين هم الكهنة الذين عينتهم عناية الله لبيوتهم ومن واجبهم أن يضرعوا إلى الله من أجل أولادهم ، وعندما نأخذ الكتاب المقدس بالإيمان فهو قادر أن يهدى ويحكم للخلاص الذى فى المسيح يسوع

وإذا كنا — من الصغر — نقرأ كتباً كثيرة ، فإن أول واجب هو أن نقرأ كتاب الله لأنه يختلف عن كل كتاب آخر ! ! ...) . وقد ذكر أحدهم أن ما يميز الكتاب المقـــدس عن الكتب الأخرى ، ويربط الستة والستين سفراً فى كتاب واحد ، هو الوحى والإعلان ، إذ أنه كتاب موحى به من الله ، ومعلن للناس . وأحسن شهادة عن الوحى موجودة فى كلمات الله نفسها ، ولذا قال هوش تايلور : إن الكتاب حين يدرس ، ويحب ، ويطاع ، ويوثق به ، لا يمكن أن يخدع أو يضلل أو يفشل ، والكتاب ينفعنا فى كل ظرف إذ أنه ينير الجاهل ، ويوبخ الشرير ، ويصحح طريق من يريد السلوك فى البر ، . . إنه يجعل إنسان الله متأهبا لكل عمل صالح ! ! . . . عندما سئل دكتور جاك — وهو من أساتذة اكسفورد — حتى يمكن أن نعلم الدين ؟ . . . أجاب : نحن نعلم الدين فى كل وقت . إذ نعلمه فى الحساب بالتنظيم ، وفى اللغة بالدقة ... وفى التاريخ بتعليم الإنسانية ، وفى الجغرافيا باتساع الذهن ، وفى الفلك بالتأمل . . . نحن نعلم الناس أن يبنوا كنيسة المسيح . . .

تيموثاوس والجذوة المضرمة :

من الواضح أن تيموثاوس عانى الكثير من المتاعب وهو يواجه الخدمة بما فيها من مشقات وصعاب ، ويبدو أن جذوة الغيرة للخدمة والحماسة لها ، تعرضتا للضعف أو الانطفاء وجاءه صوت الرسول: « فلهذا السبب أذكرك أن تضرم موهبة الله التى فيك بوضع يدىَّ . لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح » (٢ تى ١ : ٦و٧) ... كان بولس قد سبق فوضع يده عليه عندما رسم تلميذه للخدمة المقدسة ، .. ووضع اليد كان علامة ورمزاً لعمل روح الله الداخلى عندما يدعونا للخدمة المقدسة ، . . والانسان يشتعل فى بدء هذه الخدمة بنارها الملتهبة ، . . ولكن هذه النار لا تلبث

أن تتعرض للخمود أمام قسوة الخدمة وأشواكها !! . . ولعله ليست هناك مشقة تواجه المرء كما تواجه خادم الله ، أو كما قال أحدهم : « إذا كان الواعظ أشيب الشعر قيل عنه إنه عجوز ، وإذا كان شاباً قيل إنه حدث ليس له اختبار ، وإذا كان له عشرة أولاد ضج الناس من كثرتهم ، وإذا لم يكن له ولد قيل إنه لا معرفة له بأولاد الناس ، وإذا رنمت زوجته فى فرقة الترنيم قيل إنها غير رزينة ، وإذا لم تفعل قيل إنها لا تهتم بعمل زوجها ، وإذا استعمل الواعظ مذكرات فى منبره ، تذمروا منه ، وإذا لم يستعمل قيل إنه غير متعمق فى وعظه ، وإذا جلس فى بيته للدرس قيل إنه لا يهتم بالزيارات ، وإذا رؤى فى الشوارع قيل إنه من الواجب أن يكون فى بيته ليستعد أكثر فى مواعظه ، وإذا اهتم بعائلة فقيرة قيل إنه يتظاهر بالوداعة ، وإذا اهتم بعائلة غنية قيل إنه ارستقراطى ، ومهما يفعل فسيجد من يقول إنه كان يمكنه أن يفعل أحسن . . هل عانى تيموثاوس شيئاً من هذا ! ! ؟ . . . هل ضاق بمرضه ومتاعبه وسأل نفسه وربه لماذا يعيش مريضاً طوال حياته وهو يخدم الله ، وهل أثر مرضه على الخدمة . . كانت تجربة قاسية على أية حال ! ! . . وهى تجربة الذين يعيشون أسرى علتهم وسجناء سرير مرضهم ... ولكن الله مع ذلك يرفعهم فوق علتهم وشوكتهم ، . . هل كان تيموثاوس يعانى كشاب غض الاهاب حيا رقيقاً خجولا بطبيعته ، . . عندما عيروا وليم بت فى مجلس العموم بأنه شاب صغير ! ! . . التفت إلى معيريه وهو يقول : أنا أعلم أن عيبى هو ما يتمنى كل واحد منكم أن يكون فيه ! !

وأيا كانت أسباب المتاعب أو قسوتها فمن الثابت أن تيموثاوس نجح فى اضرام النار مرة أخرى ، ولعله وهو يستمع إلى تنبيه بولس ، تذكر أول كل شىء أن المتاعب هى الضريبة الأساسية فى الخدمة ، والتى لا يجمل به كخادم أن يتراجع عنها أو يتخاذل تجاهها ، ويكفى التلميذ أن يكون كمعلمه

فإذا كان المسيح هو المثل الأعلى ، فان بولس نفسه تحدث إلى تلميذه قائلا : « فاشترك أنت فى احتمال المشقات كجندى صالح ليسوع المسيح » (٢تى٢ : ٣)..

كان أحد الخدام يتذمر من معاملة الناس له فى كنيسته ، ويتحدث عن قسوتهم وعدم رحمتهم ، فقال له زميله الذى كان يستمع إلى شكواه : وهل بصق أحدهم على وجهك ! ! ؟ . . فأجاب : كلا ليس إلى هذا الحد ! ! ؟ . . هل ضربك واحد منهم ! ! ؟ قال : كلا ؟ ! . هل وضعوا اكليلا من شوك على رأسك ! ! ؟ . . وهنا أدرك الآخر ماذا يقصد زميله ، وأحنى رأسه فى خضوع وتأمل ، وأدرك أنه مهما كانت آلامه فليست شيئاً ازاء آلام سيدنا الأعظم ، . . . ومن الواجب علينا ألا نهتم كثيراً بنفوسنا ، بل ليكن اهتمامنا الأول بكلمة الله التى نقوم بخدمتها . وقد ذكر بولس تيموثاوس بذلك فى قوله : « الذى فيه أحتمل حتى القيود كمذنب . لكن كلمة الله لا تقيد » . . . فإذا تعرضت لتجربة تيموثاوس ، ورأيت الجذوة الملتهبة تتعرض للانطفاء فاستمع إلى نصيحة دكتور جويت الحماسية :

(١) عليك أن تذكر أول كل شىء أن نارك المقدسة قد تتعرض للانطفاء مهما كنت فى نظر نفسك كخادم لله ! ! . . . هذا شىء هام ينبغى ألا تطرحه من حسبانك ! ! . .

(٢) عليك أن تضع ارادتك بثبات خلف مواهبك ، . . فمثلا ضع ارادتك خلف محبتك ، ولا تسمح لها البتة بالتقهقر أو التراجع ، وليكن لك العزم الراسخ فى أن تبقى على الشعلة متوهجة ولا تسمح لها بالانطفاء .

(٣) دع خيالاتك تغذى ارداتك ، ولينهض الخيال والإرادة معاً ، وعلى سبيل المثال تأمل احتياجات وأحزان أية مدينة كبيرة ، واضرم جذوة الحنان التى لا ينبغى أن تنطفى تجاه هذه الاحتياجات . .

(٤) يلزم أن نصلى بلا انقطاع ، أن نضع نفوسنا فى اتجاه السماء حتى يهب علينا روح الله باستمرار . إذا أسقطنا الصلاة ضاعت الرياح المحركة ! ..

(٥) ولنقدم لله ذبيحة الحمد إذ أن القلب الشكور يرسل الأوكسجين اللازم لاضرام الموهبة الخامدة ! ! . . .

١٣٩
سجان فيلبى

« آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص انت
واهل بيتك » (أع ١٦ : ٣١) .

من المناسب أن نذكر القصة المشهورة التى ذكرها مودى فى أحد اختباراته عندما كان يعظ فى احدى الليالى فى سانت لويس ، وكان موضوعه فى تلك الليلة : « كيف أمسك سجان فيلبى » ونشرت احدى الصحف هذه العظة فى اليوم التالى ، وقرأ سجين اسمه « فالنتين برك » هذه العظة وهو فى السجن ، وكان برك هذا من أشر المجرمين وأقساهم ، وكان الجميع يخشونه ويرهبونه ، قرأ العظة وهو يظن أنها حادثة تتعلق بسجان أمريكى قد أمسك به ليسجن ، ولأجل هذا قرأها ، ولكنه ما انتهى من قراءتها حتى كانت نعمة الله قد مسته هو ، فانحنى فى زنزانته وصلى للمرة الأولى فى حياته ، ومن تلك الليلة تغير « برك » تغيراً حاسماً ، وخرج من السجن يبحث عن عمل ، وفشل فى الحصول على عمل ، لأن الجميع كانوا يعرفون ماضيه ، وبعد شهور من

التنقل بين نيويورك وبلده ، دعاه حاكم المدينة ، فخاف وظن أنها تهمة جديدة توجه إليه ، ولكن الحاكم تحدث إليه حديثاً ودياً ، وبين له أنه كان يراقب باعجاب كفاحه ضد الظروف السيئة المحيطة به ، وعينه حارساً على مخزن كبير ، وكان «برك» سعيداً لأنه أوتمن على المجوهرات وكان قبل ذلك لصاً ، وكان يفخر بأن اللص القديم قد أصبح حارساً مؤتمناً ، لأن نعمة الله فعلت فيه فعلها العجيب . ونحن اليوم سنعود إلى القصة القديمة لنرى قصة السجان وكيف تغير و آمن بالرب يسوع المسيح . ويمكن متابعة القصة فيما يلى :

سجان فيلبى والحاجة الى الخلاص :

ما هو الخلاص الذى كان يقصده سجان فيلبى ، وهو يقول لبولس وسيلا « يا سيدى ماذا ينبغى أن أفعل لكى أخلص » ؟ ! ! ... (أع ١٦ : ٣٠) أغلب الظن أنك لوسألته : ماذا تعنى بكلمة الخلاص ، لما وجدته قادراً على الافصاح عن مدلولها العميق الحقيقى ، . . وفى الواقع إن الخلاص هو الحاجة الأولى للانسان ، التى لا يستطيع أن يتبينها على وجه الدقة ! ! . . وكان بولس يعلم ذلك تماماً ، وإلا لما استطاع أن يجد تفسيراً لذهابه إلى مكدونية اثر الرؤيا التى رآها فى الليل لذلك المكدونى القائم الذى طلب إليه قائلا : « اعبر إلى مكدونية واعنا » ، وعندما دخل بولس فيلبى ، المدينة المكدونية العظيمة ، لم يجد هناك الرجل الذى رآه فى حلمه ، بل وجد امرأة هى ليديا بياعة الأرجوان : أول من آمن بالمسيح فى أوربا ، . .. وعندما وجد الرجل ، لم يجده فى تلك الصورة التى رآها فى الحلم ، رجلا يستنجد به ويرجوه أن يأتى إليه لمعونته ، بل وجده الرجل الذى كان يمزق ثيابه ويضربه ضربات قاسية ، ويضع رجليه فى المقطرة فى السجن الداخلى ، وكثيراً ما أسأل : ترى هل كانت صورة المكدونى فى الحلم هى ذات صورة السجان أم صورة

أخرى كصورة الموالى الذين خرج مكسبهم من الجارية التى أخرج منها بولس روح العرافة ، وجروا بولس وسيلا على الولاة ؟ أم الولاة الذين مزقوا ثياب بولس وسيلا ، وأمروا بضربهما بالعصى ، ... لعل بولس رأى ملامح المكدونى فى واحد من هؤلاء ، الذين وقفوا ضده ، والذين يبدو حسب الظاهر أنهم يكرهون وجوده بينهم ، ويقاومونه ، ويضطهدونه ، . . . لكن بولس أدرك أن المكدونى الذى يضطهده ، هو فى وجدانه العميق أحوج الناس إليه ، وإن كان لايدرى ، ... إن هذه مأساة الإنسان الأعمى عن حاجته إلى الخلاص ،.. وكانت الرسالة الموضوعة على بولس أصلا هى : « لتفتح عيونهم كى يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله » . . . (أع ٢٦ : ١٨) . ما أتعس الإنسان الذى لا يدرى بحاجته الحقيقية ، ويتعلق بالأضاليل والأوهام والباطل ، يرى النور ظلاماً ، والظلام نوراً ، ويحسب الحق باطلا ، والباطل حقاً ، يسرع إلى الشر كأنما هو الخير الأعظم ، وينفر من الخير كأنما هو الشر المطبق ، يضحك مما كان ينبغى أن يبكى عليه ، ويبكى مما كان ينبغى أن يبهجه ويسره ، . . وهو يعيش أسيراً فى كل شىء ، ويكفى أن نراه هنا على سبيل المثال : أسير الخرافة التى تحاول استطلاع الغيب عن طريق « الروح » فالجارية التى تملكها روح شريرة كانت تجوب شوارع فيلبى ، وهى تستهوى الناس بما تحدثهم به مما يأتى من عالم الغيب والكلمة « روح » وفى اليونانية « بايسون » تعنى تنين البر أو حية الصخرة ، أو الأصلة على ما يطلق عليها السودانيون ، وهى من أصل فعل معناه « يتعفن » إذ هى على ما تذهب أساطير اليونان الحية الكبرى التى قتلها أبولو على جبل البارينثوث ، وتركها هناك للعفن ، والروح هو خادم أبولو أو كاهن دلف الذى يعطيه أبولو معرفة المستقبل ، . وكان الناس يذهبون إلى معبد دلف يستطلعون الغيب ، محاولين معرفة المستقبل ، وقد قيل إن كهنة دلف قالت لسقراط

إنه أحكم اليونانيين جميعاً ، . . على أية حال إن هذه الروح التى بلغت قمة الفلسفة اليونانية ، كانت أسيرة الخرافة والجهل والظلام والقتام التى تعيش فيها بعيدة عن حق الله والاعلان السماوى الذى جاء به المسيح سيدنا مخلص العالم ، عندما جاء فادياً يفصل بين النور والظلام كما عمل خالقاً فى اليوم الأول عندما ارسل النور يوم كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه . وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين بين النور والظلمة . ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلا . وكان مساء وكان صباح يوما واحداً » . . (تك ١ : ٢ — ٥) وأليس عجيباً أن أصغر مسيحى يعرف عن الله والحق والأبدية والخلاص مالم يعرفه سقراط وأفلاطون وأرسطو وجميع أساتذة الفلسفة اليونانية القديمة ! .

ولسنا هنا بصدد الأسر للخرافة وحدها ، بل أكثر من ذلك للشيطان نفسه ، فقبل أن يفد بولس وسيلا إلى فيلبى كان الشيطان يرتع فى المدينة ويسود إذ استولى على جارية بائسة مستعبدة ، بل استولى على المدينة كلها التى آمنت بقدرة الشيطان على كشف الغيب والمستقبل . وعندما دخل بولس المدينة وأراد أن يؤسس عملا للمسيح هناك ، سارع الشيطان إلى التعاون معه : « هذه اتبعت بولس وايانا وصرخت قائلة هؤلاء الناس هم عبيد الله العلى الذين ينادون لكم بطريق الخلاص . وكانت تفعل هذا أياماً كثيرة . فضجر بولس والتفت إلى الروح وقال أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها . فخرج فى تلك الساعة » . (أع ١٦ : ١٧ و ١٨) إن الكلمة ضجرة تعنى فى الأصل ، تضايق إلى درجة الغضب . . . ولماذا يتضايق بولس ، ويغضب إلى هذا الحد المثير ، من روح تنادى أيضاً بالخلاص ، ؟ ! . . قد لا نستطيع أن نفهم ذلك إلا إذا أدركنا كيف كانت تعمل . لقد صورتها لنا فلورانس مورس كنجسلى ، وسادتها وراءها فى شوارع

فيلبى وهم ينادون الناس قائلين : تعالوا تعالوا واعرفوا المستقبل من النبية الملهمة مارا ،. مارا التى هى أعظم من كهنة دلف ،مرسلة السماء مارا ، .. هل فقدت شيئاً ! ! ؟ . إن مارا يمكن أن تخبرك عن المكان الخفى المخبأ فيه هذا الشيء ! ! ؟ هل أنت فى شك عما سيأتى به الغد ! ! ؟ . . إن مارا تستطيع أن تقدم لك النصيحة ! ! ؟ هل أنت مريض ! ! ؟ إن مارا يمكن أن تشفيك . . إنها تستطيع أن تكشف عن مناجم الذهب الموجودة فى فيلبى ، وهى تستطيع أن تحدثك عن أفضل يوم تتزوج فيه ، . . وأفضل يوم يمكن أن تعينه للسفر ! ! وما أشبه . . . وكان من الطبيعى أن بولس لو قبل كلام الجارية فإن الناس بعد ذلك لا تستطيع أن تفرق بين الاثنين ، وعندئذ تختلط الحقائق بالأوهام ، والصدق بالكذب ، والحق بالباطل ، وهذا ما يفعله الشيطان على الدوام ، . . وهذا ما رفضه المسيح عندما شهد له الشيطان ، ورفضه بولس ، ورفضه كل تلميذ صادق مخلص للسيد ، إذ ليس هناك أمان على الإطلاق لقبول شهادته مهما بدت صورتها مغرية ، ومهما لبس من قناع الحب والتعاون ، لقد أراد من أول التاريخ البشرى أن يهدم الحق ، فلم يرفض الدين لعلمه بتعلق الإنسان بالابدية التى اودعها الله فى قلبه ، . . إذا فليكن هناك لادين واحد بل مئات الأديان ، فقط بالصورة التى يمزج فيها الحق بالباطل والسم بالدسم والخير بالشر ، فإذا كان هابيل يتقرب إلى الله عن طريق الذبيحة ، ويقيم مذبحاً ،فإن قايين لا يجوز له أن يرفض الفكرة ، فليصنع مذبحاً ويقدم عليه لا الذبيحة ، بل أفضل محصول الحقل وأكرم قربان مما يزرع ، أمام الله ، . . وويل لمن يخدع بهذا التغيير الذى يبدو فى الأول يسيراً إلى أن يصبح فى النهاية رهيباً مهولا ! ! . . . ماذا يحدث لو أن فاوست – على ما صوره جوته شاعر الألمان – يعقد معاهدة مع الشيطان ، فإذا أشبعه الشيطان من كل شيء فهو عبد له ، وإذا لم يشبعه فهو حر ،

ووافق الشيطان ، ونقل ڤاوست من متعة إلى متعة ، وهو يسأله السؤال التقليدى هل شبع وارتوى ، والرجل يجيب بالنفى ، حتى استنفد الشيطان كل شىء ، وحسب المعاهدة قال فاوست أخيراً : أنا حر . . .فقال له الشيطان : أنت حر ! ! . . ولم يدر أن الخطية قد قيدته بقيود حديدية وهو لا يدرى ، .. كانت فلسفة تشرشل فى الحرب ، وقد رأى زحف الألمان الرهيب ، أنه على استعداد أن يتحالف مع الشيطان لقهرهم ، ومن المؤسف أنه فعل ذلك ، . . ولكن العالم اليوم يعانى من أخطار روسيا ومن الفزع الذى تسببه للعالم الغربى أضعاف أضعاف خوفه من الألمان الذين انضموا إلى الغرب تجاه الشيطان الروسى ! ! ... لم يكن الخلاص من الخرافة وحدها ، بل من سر الخرافة من الشيطان نفسه ! ! . .

وكان الخلاص أيضاً يعنى الخلاص من المال الحرام ، . . . لقد دخل بولس المدينة ليرى تجارة بشعة محرمة ، فالجارية لا قيمة لها عند سادتها ، أكثر من أنها مصدر كسب حرام ،أما قيمتها الآدمية كفتاة يعذبها الشيطان ،فهذا شىء لا يخطر لهم ببال ، وأما أن المال يأتى ولو بطريق آثم فاسد شرير ، فأمر لا يهمهم البتة ، . . إنهم يريدون الكسب على أية صورة ، وبأى أسلوب يجئ ، وهم لا يمكن أن يثوروا لشىء إلا إذا « خرج رجاء مكسبهم » وهذه قصة المال الحرام فى كل التاريخ ، والذى خلف من ورائه أبشع صور الفساد والرجاسات والآثام والحروب والدنايا ، . . وهو ما يزال إلى اليوم فى كل ركن من أركان الأرض المعول الذى يحاول به الشيطان هدم الصروح العالية الشامخة التى يبنيها الله والحق فى الأرض ! ! . . . ليس المهم عند طالب المال الوسيلة التى يأتى بها ،فالغاية تبرر الوسيلة ، مهما كانت بشعة ومرة وفاسدة ، « ولم يكن بولس كانسان ينادى بالخلاص

ليقبل هذا الوضع ،ولأجل ذلك ضجر وقاومه ، مصححاً الوضع الذى كان ينبغى أن يصحح ! ! . .

على أن الخلاص فى حقيقته كان يعنى ذلك الانقلاب الذى صوره موالى الجارية وهم لايدرون إذ اتهموا بولس وسيلا بأنهما « يناديان بعوائد لا يجوز لنا أن نقبلها ولا نعمل بها إذ نحن رومانيون » (أع ١٦ : ٢١) والخلاص فى حقيقته ليس مجرد تغير فكر الإنسان أو مشاعره ، بل بالحرى تغير ارادته أيضاً ، أو تحوله عن العوائد التى أرساها العالم فى أعماقه وحياته ، . . . « إذاً إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة . الأشياء العتيقة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً » (٢ كو ٥ : ١٧) . . . . كان الانتحار عند الرومانيين مثلاً — فضيلة ، وقد انتحر بروتس وكاسيوس خارج فيلبى بعد أن هزما فى معاركهما ضد اكتافيوس وأنطونيوس ، كما أن كاتو الفيلسوف وهو يقتل نفسه ، وجد تأييداً وتمجيداً من سينكا وأبيقور وبلنى ، . . فإذا جاء السجان ليهم بالانتحار بعد أن تصور هروب المساجين ، فان هذا لم يكن جبناً منه فى مواجهة السلطات التى قد تسأله عن سر الهروب ، بل كان الشجاعة التى يتطلبها الرومان فى مثل هذه المواقف ، . . كما أن القسوة التى عامل بها السجان الرسولين ، وهو يضبط أرجلهما فى المقطرة ، كانت تكشف عن طبيعته الجافية القاسية ، والتى لم يرفيها ضرراً أو عيباً ، فقد كانت هذه العوائد تعد فضائل عند الرومان ، وكان ينبغى أن تقلب رأساً على عقب فى المفهوم المسيحى للخلاص ! ! . . . وكان سجان فيلبى فى حاجة إليه ، . . أو بتعبير أدق وأصح ، كان المكدونى المنتصب أمام بولس فى الليل هو الرجل الذى يعانى منها الأمرين ويحتاج إلى الخلاص الذى جاء به المسيح سيدنا مخلص العالم ! ! . . .

سجان فيلبى والبحث عن الخلاص :

لكن السؤال الذى يمكن أن يثار بعد أن أدركنا حاجة السجان إلى الخلاص ، هو لماذا بحث عنه على هذه الصورة التى فيها يذهب إلى بولس وهو مرتعد وفزع ! ! . . إن هناك أسباباً عديدة يمكن أن تكون دافعة له إلى ذلك ! ! . . ولعل فى مقدمتها الزلزلة العظيمة التى حدثت بغتة ، وهى الأسلوب الذى رآه السيد مناسباً لا ليوقظ الرجل من نومه فحسب ، بل ليوقظه من نوم الخطية وغفلتها ! ! . . ولا نملك هنا إلا أن نرى الأسلوبين المختلفين والمتضادين اللذين استخدمهما الله فى فتح قلب ليدية ، وفتح قلب السجان ، . . . لقد فتح الرب قلب ليدية بهدوء ، وهى تستمع إلى كلمات بولس على شاطئ النهر خارج المدينة لكنه عندما أراد أن يفتح قلب السجان لجأ إلى الزلزال ، والسؤال : هل يرجع الأمر إلى طبيعة القلبين المختلفين ، فقلب ليدية المطيع الهادئ ، كان يحتاج إلى أسلوب هادئ ، فهو يستجيب إلى أبسط الطرق وأهدأها ، فى الوقت الذى يحتاج فيه قلب السجان القاسى إلى الزلزال العنيف ! ! . . لسنا نعرف على وجه اليقين ، ولا نستطيع أن نحدد الأسلوب الذى يستخدمه الله فى علاج القلوب البشرية وفتحها ، لكننا نعلم ، على أية حال أن هناك ألوفاً من الوسائل والسبل التى يستخدمها الله بنجاح فى إخضاع النفس البشرية لشخصه المبارك ، وهى تتفاوت بين الطرقة الخفيفة والزلزال المرعب ، . . على أنه لا يجوز أن نقف هنا عند مجرد دافع الخوف الذى دفع الرجل إلى طلب الخلاص ، . . لقد اكتشف أن الرسولين ينتميان إلى عالم مجهول لم يحدث الزلزال فحسب ، بل فتح أبواب السجن وحل قيود المسجونين ، . . فهو إذاً أمام قوة المسيحية العجيبة التى تستطيع أن تخضع الجبابرة والعتاة ! ! . . وفى الحقيقة إن المسيحية وهى تنادى بخلاص النفوس ، ليست مجرد كلمات تسمع ، بل هى زلزال يقلب

جميع الأشياء رأساً على عقب ، وهى قوة ينبغى أن يحسب لها ألف حساب ، فى عالم المنظور أو غير المنظور ، . . إنها تكشف عن قوة الله الذى يتدخل فى حياة البشر ، على صورة لا يمكن أن تكون موضوعاً للجدل والمناقشة أو محلا للغموض والإبهام ، . . . على أن هناك شيئاً آخر أهم وأعظم ، دفع السجان إلى طلب الخلاص ، ونعنى به قوة السلام المسيحى ، فهذان الرجلان اللذان مزقت ثيابهما ، وعوملا أعنف معاملة وأقساها ، واللذان زج بهما فى المقطرة ، ووضعها فى السجن الداخلى ، فى وسط جماعات المجرمين وحثالة القوم والذين لا يسمع منهم إلا أقسى الكلمات وأشرها وادعاها إلى الحقد والضغينة والتذمر ، ما بالهما يفعلان شيئاً لم يعرفه سجن فيلبى من قبل على وجه الإطلاق ، إنهما يصليان ويسبحان الله ، والمسجونون يسمعونهما ، والكلمات فى الأصل اليونانى تشير إلى أن السمع كان بالبهجة والشوق والسرور ، . . إن من السهل أن يضحك الإنسان ويصلى ويغنى فى النهار ، وفى القصر أو فى الحديقة الغناء ، أما أن يحدث هنا فى السجن الداخلى والجراح قاسية والحشرات تنهش الأجسام ، والنوم صعب وممتنع ، فهذا شيء فوق الطبيعة البشرية ، . . وهو كما عبر عنه الرسول : « سلام الله الذى يفوق كل عقل » وهو يفوق الإدراك والتصور والفهم البشرى ، . . إنه سلام الفرح المسيحى الذى قال عنه الرسول لأهل فيلبى فى رسالته إليهم : «افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا » (فى ٤ : ٤) . . ولم تكن نصيحة يقولها فى برجه العاجى ، بل إنه كتبها وهو فى سجن روما ، إلى اخوته الفلبيين الذين يعلمون تمام العلم أنه اختبرها فى السجن الداخلى فى المقطرة عندهم فى فيلبى ! ! . . . حقاً عندما يرى الناس الفرح المسيحى فى حياتنا عميقاً قوياً فى كل الظروف ، فلابد أنهم يهرعون إلينا وهم يقولون : ماذا نفعل لكى نصل إلى هذا الخلاص ونحصل عليه ونتمتع به مثلكم ونظيركم ؟ ! ! . . . ومع هذا فإن هناك

سبباً ثالثاً ونعني به الرحمة المسيحية ! ! . . . لو أن واحداً غير بولس أبصر السجان يهم بقتل نفسه ، لسر كثيراً ورأى فى ذلك عدالة الله تجاه الشر والظلم والقسوة التى حاقت به وبزميله إلا أن بولس فى صرخته للرجل : « لا تفعل بنفسك شيئاً ردياً لأن جميعنا ههنا » كشف عما فى المسيحية من رحمة وحب وإحسان وتسامح ، . . إنها ليست شيئاً أرضياً مما يموج به الجنس البشرى من أفكار وعواطف ، بل هى - أكثر من ذلك - اعلان سماوى مجيد عن حب الله وإحسانه العظيم للأئمة والأشرار والمتمردين والخطاة ! ما أكثر ما يفهم العالم تصرفنا الرقيق أكثر من مواعظنا البليغة ، . . . وما أكثر ما تترجم رسالة المنبر من خلال حياتنا وتصرفاتنا اليومية ! ! . . .

سجان فيلبى والطريق الى الخلاص :

رفع سجان فيلبي صوته صارخاً : « يا سيدىَّ ماذا ينبغى أن أفعل لكى أخلص » (أ ع ١٦ : ٣٠) . . وكان على بولس وهو يجيب على السؤال أن يصحح أمرين أولها عبارة « ياسيدىَّ » إذ يلزم السجان أن يتحول عنهما ومن النظر إليهما إلى الرب والسيد الصحيح : « آمن بالرب » وبولس هنا أشبه بأليشع فى القديم الذى ذهب إليه نعمان السريانى ينشد خلاصاً من برصه ، ورفض اليشع أن يظهر مجرد ظهور أمام الرجل وطلب إليه أن يذهب إلى الأردن ليغتسل سبع مرات ، الأمر الذى أغاظ نعمان أشد الغيظ ، لتجاهل النبى أبسط قواعد الضيافة التى يمكن أن يظهرها المضيف للغريب الذى يسعى إليه من بلاد بعيدة ، . . ولكن أليشع كان عنده ما هو أهم من كل أساليب المجاملة البشرية ، ونعنى به خلاص الرجل ، الذى ينبغى أن ينسب إلى الله دون الأداة البشرية التى تتمثل فى مظهر النبى ويده على موضع الداء والمرض! كانت أنظار سجان فيلبي وهو يحمل الضوء إلى داخل السجن فى فيلبي مسلطة

على الرجلين اللذين أصبحا لا فى مركز المتهمين المهانين المتألمين ، بل فى مركز السيدين ، . . وحول بولس نظر السجان إلى الشخص الوحيد — دون سواه — الذى يمكن أن يعطى الخلاص ، . . وكان الأمر الثانى الذى يلزم تصحيحه هو « أن أفعل » فالمفهوم عند الكثيرين ، وإلى اليوم فى كل أجيال التاريخ أن الخلاص عند ملايين البشر ، حسب تصورهم يتوقف على طقوس أو فرائض أو أعمال أو جهاد بأية صورة من الصور . « أن أفعل » . وقد بين الرجل أنه مستعد أن يفعل كل ما يطلب منه فى سبيل الخلاص ، . . . وجاء جواب الرسول بعيداً جداً عما يتخيل الرجل أو يتصور على الإطلاق ! ! لقد أخرجه من منطق الفعل إلى منطق الإيمان ، . . وكأنما يقول له : إن أكبر خطأ يقع فيه الإنسان هو تصوره الحصول على الخلاص عن طريق فعل ما ! ! . . . . إن هناك فعلا مالابد منه للخلاص ، . . ولكنه ليس فعلى أو فعلك ، . . بل هو ما فعله الرب يسوع المسيح على هضبة الجلجثة هذا هو فعله الكامل الذى لا يحتاج إلى أية إضافة بأية صورة من الصور ، . . . قال كريسماس إيفانز رجل النهضات العظيم إنه وقف على باب السماء وهو يراقب دخول الناس ، . . ورأى رجلا يقترب ، وسأله الواقف على باب السماء : على أى أساس تستند فى الدخول ؟ . . وذكر الرجل — وكان فى مطلع حياته يبيع البيرة ، وكسب منها مكسباً طائلا ، وقد دفع ذات مرة خمسين ألفاً من الدولارات لعمل خيرى — . . وذكر هذا الرقم أمام باب السماء ، ووجد مرفوضاً ! ! . . واقترب آخر وعندما سئل على أى أساس يدخل أجاب : على حساب دم الفادى الكريم ربى يسوع المسيح ، فلم يطلب منه أى شيء آخر ! ! . . . فى الحرب الأهلية الأمريكية كان هناك واعظ معروف نشط يعمل بين المقاتلين ، وذات يوم كان فى طريقه إلى أحد المعسكرات ، فأوقفه الحارس وسأله عن

كلمة المرور فأجاب بكلمة كانت مستخدمة فى اليوم السابق ، ولكنها تغيرت بعد ذلك ، وقال الجندى وهو يعرفه : ارجع فإن الكلمة تغيرت ، وإلا فالموت نصيبك ، ورجع الواعظ وعرف الكلمة ثم عاد ليقولها للحارس ، وإذ سمح له بالدخول قال هو بدوره للحارس : هل تعرف جواز السفر إلى السماء ، وما هى كلمة السر التى بها يمكن أن تدخل هناك ! ! . . وأجاب الجندى وكان رجلا مسيحياً مجدداً نعم أعرفها : « ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » . . . أجل ! ! ولهذا قال بولس للسجان : « آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص » . . . ولعله ما تجدر الإشارة إليه أن حرف « الباء » فى الأصل اليونانى « εpi » يمكن أن يترجم بصورة أقرب وأدق إلى « على » ، . . وعليه فالكلمة «آمن بالرب» يمكن أن تكون « اعتمد على الرب يسوع المسيح » . . . ولعلنا نستطيع أن نفهمها بالمعنى الذى فهمته فتاة صغيرة ، كان أبوها يعمل عملا فى قبو فى المنزل ، وطلبوا إليها أن تذهب إليه ، ولكنها وجدت السلم إلى القبو مرفوعاً ، . . فقالت لأبيها لا أستطيع أن أنزل لأن السلم غير موجود . . وقال لها الأب : اقفزى سأتلقاك ! ! . . . وأجابت : ولكن الظلام شديد ولا أستطيع رؤياك ! ! . فقال أبوها : ولكنى أراك أنا يا بنتى وذراعاى مفتوحتان وواسعتان ومستعدتان للامساك بك عند النزول ! ! . . ولم تتردد البنت فى القفز لتجد الذراعين القويتين تحملانها فى سلام وأمان ! ! . . . هذا هو المعنى المسيحى لإيماننا بالخلاص فى الرب يسوع المسيح ! ! . . . لقد فعل هو كل شىء ، وخلاصنا من الألف إلى الياء يرجع إليه وإلى كفارته وشفاعته وضمانه الأبدى ! ! . . فقط « آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص » ! ! . . . على أن الرسول بولس أضاف إضافة مثيرة جديرة بكل ملاحظة وانتباه ، فى القول « أنت وأهل بيتك » ، وليس معنى هذا أن خلاص البيت يأتى

بالجملة نتيجة خلاص رب البيت ، فالخلاص دائماً إلى الأبد عملية فردية شخصية فى العلاقة بين الإنسان وربه ، . . لكن الرسول بولس – كالسيد المسيح سواء بسواء – يربط خلاص البيت بخلاص صاحبه إذ هذا امتيازه ومسئوليته ، وكما قال السيد لزكا : « اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن ابراهيم » (لو ١٩ : ٩) ، قال بولس للسجان « فتخلص أنت وأهل بيتك » ! ! . . .

سجان فيلبى والتمتع بالخلاص :

لا تحتاج عملية الخلاص إلى زمن أو جهد كبير ، ومن ثم نلاحظ أن سبرجن وهو يتحدث عن السجان وخلاصه ، يصف مراحل حياته المتغيرة فى ساعة واحدة من الزمن من « ١ » وثنى وحشى إلى ، « ٢ » باحث مجد إلى ، « ٣ » مؤمن فرح ، إلى « ٤ » مسيحى عامل .

ومن اللحظة التى قبل فيها المسيح تغير كل شيء ، فالجراح التى سببها للرسولين عاد فغسلها ونظفها ، والاضطهاد والقسوة استبدلهما بالترحيب والدعوة إلى بيته ، وتقديم المائدة الحافلة . والفزع والاضطراب والارتعاد إلى الدرجة التى فيها أوشك على الانتحار ، تحولت إلى الفرح المجيد العميق بالخلاص ، وهو يأتى إلى بيته بهذه البشرى ، ويسمع البيت رسالة الخلاص ، ويؤمن الكل بالرسالة الإلهية ، ويعتمد هو والذين له أجمعون ، ويلتحم البيت بصاحبه التحاماً كاملا فى الخلاص ، وفى المعمودية أيضاً ، التى تتم على هذا الأساس لتمتد إلى البيت المسيحى ، وكما اعتمدت ليدية هى وأهل بيتها ، اعتمد السجان والذين له أجمعون ، ويكاد يكون غريباً وغير مألوف أن يقال إن جميع من كانوا فى البيتين كانوا كباراً بالغين ، ولم يكن فيهم صغير ، وذلك على مذهب المؤمنين بمعمودية الكبار ليس إلا ، . .

ولكن النص الشامل عن البيتين فى فيلبى يشجع على امتداد المعمودية حتى إلى الصغار الذين ينتسبون إلى أباء وأمهات من المؤمنين . . . ومن المثير أيضاً أن السجان تساءل عن فعل يفعله ، وجاءه الجواب خلواً من كل فعل ، وفى هذا رد على القائلين بضرورة ارتباط الإيمان بالأعمال . إذ قال الرسول : « آمن بالرب يسوع المسيح » وإذا تم الإيمان وحدث الخلاص ، وولد الرجل جديداً . جاء ثمر الإيمان نتيجة للخلاص ، لا سبباً أو تكميلا له ، وهذا برهان ناصع وقاطع فى المسيحية على أن الخلاص بالإيمان وحده ، وبرهان قاطع وناصع على أن الخلاص الصحيح بالإيمان لابد أن يكون له الثمر الواضح الظاهر للجميع .

ونحن لا يمكن أن نختم قصة السجان دون أن نشير إلى أن بولس تمسك بحقه القانونى عندما رفض أن يخرج سراً من السجن ، كما طلب الولاة ذلك ، الذين دانوه وهو رومانى الجنسية وآذوه دون وجه حق ، ولو أن بولس رفع الأمر إلى القضاء على المعاملة غير القانونية ، لسبب لهم الكثير من المتاعب التى قد تبلغ حد فقدان وظائفهم أو ماهو أكثر من ذلك من أحكام . وبولس يعلمنا أن التمسك بالحق القانونى ليس مجافياً للأسلوب المسيحى أو ضده ، بل يبقى أمراً لازماً فى كثير من الأحايين إذا كان فى خدمة الحق ولمساندته . مع ما ينبغى أن نتحلى به فى الوقت نفسه من المرونة التى جعلته يقبل الاعتذار من الولاة الذين أبدوا أسفهم على ما ارتكبوه من خطأ ! ! . . وخرج بولس من المكان بعد أن أسس كنيسة كتب لها من سجنه أجمل وأحلى رسالة عن الفرح المسيحى وحول المكلونى الصارخ — فى شخص السجان — إلى الرجل الذى قيل عنه : « ولما أصعدهما إلى بيته قدم لهما مائدة وتهلل مع جميع بيته إذ كان قد آمن بالله ! ! . . » .

١٤٠
تيطس

« الى تيطس الابن الصريح حسب الايمان المشترك » (تى ١ : ٤) .

كان الرسول بولس من أعظم العمالقة الذين ظهروا على صفحة التاريخ البشرى ، وأكثرهم قدرة على العمل ، وهو من ذلك الصنف من الناس ، الذى لا يعد الواحد منهم فرداً واحداً ، بل جيشاً بأكمله فى النضال والمعركة ، وإذا كان إيليا فى القديم ، ومن بعده أليشع ، قد وصفا بأنهما « مركبة اسرائيل وفرسانها » ، فإن هذا الوصف يمكن أن يقال عن بولس ، دون شبهة أو تردد ، فى علاقته بالكنيسة المسيحية ، اسرائيل الله ، وإذا كانوا قد ألفوا القول — وهم يتحدثون عن جلد نابليون بونابرت فى المعارك — بأنه كان يكفيه أربع ساعات من النوم يومياً ، . . . فإن جلد بولس فى المعارك الروحية العظيمة التى كان يخوضها ، أعظم وأروع . إنه كان يسهر الليل والنهار فى الخدمة دون أدنى ضجر أو تبرم أو ضيق ، ولكن بولس

كان لا يؤمن بالانفرادية فى العمل . وكان يجمع حوله المساعدين النافعين . كان كالقائد فى المعركة يوزع العمل بنجاح . على زملائه من الضباط والجنود . وكانت أقسى لحظات حياته أن يترك ولو لحظة واحدة من معاونيه ومساعديه . وكان تيطس واحداً من الأوفياء الصادقين الذين لا يستطيع الاستغناء عنهم . وقد ضاق بالدنيا فى ترواس عندما غاب عنه هذا الصديق : « ولكن لما جئت إلى ترواس لأجل إنجيل المسيح وانفتح لى باب فى الرب ، لم تكن لى راحة فى روحى لأنى لم أجد تيطس أخى » (٢ كو ٢ : ١٢ و ١٣) كان بولس يثق . فكراً وعاطفة وإرادة . بتيطس وبكل الجنود العاملين معه فى معركة المسيح ، وسنتناول اليوم دراسة تيطس وما خلف وراءه من أثار مباركة فى العصور كلها . ولذا يحسن متابعة قصته فيما يلى :

تيطس والحرية المسيحية :

كان تيطس شاباً يونانياً التقى ببولس ومن المرجح أنه آمن بالمسيح على يديه : « الابن الصريح حسب الإيمان المشترك » وقد واجهت بولس وواجهته من البداءة مشكلة قاسية حدثنا عنها الرسول فى رسالة غلاطية : « ولكن لم يضطر ولا تيطس الذى كان معى وهو يونانى أن يختتن . ولكن بسبب الأخوة الكذبة المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التى لنا فى المسيح كى يستعبدونا . الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق فى الإنجيل » (غل ٢ : ٣ — ٥) . . كانت المشكلة أن هناك فريقاً من اليهود الذين آمنوا بالمسيح ، ولكنهم كانوا يؤمنون أن اليهودية لابد أن أن تكون طريقاً للعبور إلى المسيح . والآتى إلى المسيحية من الأمم لابد أن يتهود أولا ، ويتمم الناموس الطقسى قبل أن يقبل فى الكنيسة المسيحية ، ومن ثم كانوا يصرون على ضرورة ختان كل مؤمن كعلاة مؤكدة لإيمانه المسيحى ، وقد سبب هذا الفريق بلبلة ونزاعاً وكان اهتمامهم الأكبر هو

التحمس على من يراعى أو لا يراعى الناموس الطقسى ، فهذه كبيرة الكبائر التى يتهم بها الإنسان سراً أو علناً ولأجل ذلك وصفهم الرسول بأنهم جواسيس الحرية المسيحية التى ينبغى أن يتمسك بها المسيحيون المؤمنون : « ليتجسسوا حريتنا التى لنا فى المسيح كى يستعبدونا » . ورفض تيطس بتشجيع بولس وتأييده أن يختتن ، وقد يكون عجيباً أن نلاحظ الفرق بين تيطس وتيموثاوس فى هذا الأمر ، ففى الوقت الذى ختن فيه بولس تيموثاوس ، رفض أن يختن تيطس ، . . . كان تيموثاوس نصف يهودى ، إذ كانت أمه أفنيكى يهودية الأصل . ورأى بولس وقاية للعثرة أن يختن ، . . لكن تيطس كان أممياً فلو أن الختان كان ضرورة له ، لأضحى الختان ضرورياً لكل أممى ، ولعادت الطقسية تتسرب إلى المسيحية ، . . . وتهدد بذلك « حريتنا التى لنا فى المسيح » . . . وفى الحقيقة إن بولس عرف الحرية المسيحية المتوازنة بين تيموثاوس وتيطس ، وهذه الحرية هى التى يمكن أن نطلق عليها الحرية المنضبطة ، . . وحقاً هناك قول مشهور يصف الحرية : « الحرية يلزم أن تقيد لكى تمتلك » ويمكن أن نرى هذا التعبير ذاته يصف به الرسول بولس نفسه : « وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس . مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح » (١ كو ٩ : ٢١) . إن الحرية هى القاعدة فى المسيح والمسيحية وليست استثناء ، وهى ليست مجرد حرية شكلية أو نظرية ، بل حرية حقيقية عملية ينبغى أن يحرص عليها بثبات ، ويناهض كل ما عداها ، ومن ثم نجد الرسول يقول للغلاطيين : « فاثبتوا إذاً فى الحرية التى قد حررنا المسيح بها ولا ترتكبوا أيضاً بنير عبودية » (غل ٥ : ١) . . . كان العبيد الذين حررهم ابراهام لنكولن يأتون إليه ويسألونه إلى أى مدى نتمتع بالحرية ، وكان الجواب : أنتم أحرار كالهواء الذى تستنشقونه ، وكالشمس التى تتمتعون بشعاعها فى كل مكان ! ! . . .

وفى معنى أعمق وأعظم يمكن أن نقول للمسيحى . . أنت حر تتمتع بحريتك التى جاء المسيح ليعطيها لك كاملة غير ناقصة أو محدودة ! ! . . لكن الحرية المسيحية مع ذلك ستبقى على الدوام واقعة بين تيطس وتيموثاوس ، فهى ليست حرية جامحة بلا قيود ، أو كما قال أحدهم إن بولس وقد تحرر من ناموس موسى الطقسى الذى أتمه المسيح فى جسده على الصليب ، لا لكى يصبح بلا ناموس ، بل ليصبح أمام ناموس أعظم وأكمل هو ناموس المسيح ،.. لقد تحرر تيطس من الناموس الطقسى ، وأضحى خادماً لناموس المسيح ، أو قانون المسيح ، أو مبدأ المسيح أو قيد المسيح ، لقد أضحت حرية تيطس هى الحرية المنضبطة ، والحرية المنضبطة هى أسهل الحريات وأصعبها فى الوقت نفسه ، . . إنها لم تكن ولا يمكن أن تكون الفوضى التى تحطم كل مبدأ وكل قيد ، بدعوى الحرية . عندما ثارت الشعوب على الاستبداد والطغيان والرق وقف العالم كله ليهتف بالحرية ، وقامت الثورة الفرنسية فى العصر الحديث لتنادى بالحرية والمساواة والأخاء،وأضحت أسعد الدول هى التى تنعم بالحرية ويتساوى فيها الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والعالم والجاهل ، . . لكن هذه الحرية قد انطلقت إلى الفوضى والإباحية والفساد ، بالزعم أننا أحرار نفعل ما نشاء وكما نريد ، فخرج الشباب فى السنين الأخيرة يحطمون كل قيد اجتماعى أو أدبى أو دينى باسم الحرية ، وتفككت الأسر ، ولم يعد للأب سلطان على ولده ، ولاللأم سلطان على ابنتها ، وتحول المجتمع إلى الفساد والدعارة وشباب الهيبز والخمر والمسكر والمارجونا وغيرها من صور الضياع والعربدة والانحلال ! ! . . ولعلنا نستطيع أن نرى قيوده السامية ، متى ذكرنا بعض صورها فمثلا : إن حرية المسيحى مقيدة بقيد المحبة أو كما قال الرسول للغلاطيين وهو يناقش الحرية : « بالمحبة أخدموا بعضكم بعضا » (غل ٥ : ١٣) . . ولسنا نظن أن هناك قيد أقوى من قيد

المحبة ، . . فالأم المربوطة إلى جوار سرير ولدها المريض وهى لا تعرف راحة أو هدوء ، أو نوماً ، ليس هناك من قيد يقيدها أقوى من قيد المحبة ، . والأب الذى يبذل فى عمله أضعاف أضعاف ما يفعله الأجير دون أن يتقيد بوقت أو جهد ، إنه يفعل كل ذلك مدفوعاً تماماً بدافع المحبة ! ! . . ولعل أوغسطينوس وهو يقول : « أحب وبعد ذلك افعل ما تشاء » كان يقصد هذه الحقيقة العظيمة فى حياة الناس ! ! . . والقيد الثانى للحرية هو قيد النقاوة والطهارة . . . تحدث تشارلس هارون اسبرجن عن زيارته ذات مرة لمكتبة كلية الثالوث فى كامبردج حيث يوجد هناك تمثال جميل للورد بايرن ، والجميع يعلمون أن هذا الكاتب الإنجليزى وصف نفسه فى السادسة والثلاثين من عمره بأن أيامه أضحت ورقة صفراء،إذ ولت من حياته زهور المحبة وثمارها ، وجاء على أثر ذلك الدود والسوس والحزن ، وهذا كل ما وصل إليه ! ! . . . وعندما أخذ المشرف على المكتبة اسبرجن وطلب إليه أن يتأمل التمثال ، بدا النظر وكأنما يكشف عن عبقرية الكاتب الشاعر ، وكان المظهر جميلا رائعاً ! ! . . على أنه عندما نقله إلى زاوية أخرى وطلب منه أن يتطلع إلى وجه بايرن بدا المنظر مخيفاً ، وكأنما هو ذات الشيطان عندما قال فى الفردوس : « إننى أفضل أن أحكم فى جهنم من أن أخدم فى السماء ».. وسأل اسبرجن متعجباً : هل تعتقد أن الفنان قصد أن يعطى النظريتين ، وأجابه الآخر : نعم اعتقد ذلك ، . . إن إباحية بايرن مع عبقريته لم تعرف قيد النقاوة والطهارة الذى كان يمكن أن يحميه من الدمار وهو فى أوج الشباب وقوة الرجولة ! ! . . . وناموس المسيح وهو يمنحنا الحرية ، لا ينسى أن يقيدنا بالنقاوة الداخلية التى تهتز لأقل غبار يلوث ثوب الحياة المسيحية النقى الجميل ! ! . . وقد يأتى القيد أيضاً عن طريق الوداعة ، إذ أن الحرية تعرض صاحبها للشموخ والكبرياء ، ومن واجبنا أن نقاوم الكبرياء

من كل وجه . فنقاومها أولا فى أنفسنا فلا نكون معجبين بنفوسنا ، والمتكبر فى الواقع إنسان يجهل حقيقة نفسه ، إذ لا شىء فينا يدعو إلى الكبرياء ، وكل ما نتمتع به ، ليس إلا نعمة الله السابغة علينا ، . . عندما رأى يوحنا نيوتن رجلا يقودونه إلى الإعدام صاح : هذا مصير يوحنا نيوتن لولا نعمة الله ، . . . كما أنه من واجبنا أن نترفق بضعفات الآخرين فإذا أخذ إنسان فى ذلة ما ، فمن واجبنا أن نصلح هذا بروح الوداعة والتواضع ناظرين إلى أنفسنا لئلا نجرب نحن أيضاً . . . ومما يؤثر عن دانيال وبستر أنه أبصر — وهو محام شاب ، ذات ليلة من ليالى ديسمبر القاسية والثلوج تتساقط — امرأة تقترب من بيته ، وتتلفت هنا وهناك بكيفية مريبة ، فتابعها ليجدها تمسك بلوح من الخشب كان موضوعاً أمام المنزل ليسهل السير عليه فى أثناء تكاثر الثلوج ، . . فتابعها الرجل ليجد أنها تسكن كوخاً فى أطراف المدينة ويبدو أنها كانت فى حاجة إلى خشب للتدفئة . . فإمتلأ وبستر ألماً وإشفاقاً على المرأة ، وفى اليوم التالى أبصرت المرأة كمية كبيرة من الخشب أمام سكنها ، أرسلها وبستر الذى أراد أن يصلح زلتها وسرقتها بروح الوداعة والإحسان والحب والرحمة ! ! . . . وهناك قيد البذل والتضحية مهما يكن لونه ، أو سببه ، فقد يكون السبب أن الآخرين يرزحون تحت أعباء ثقيلة قاسية . . أبصر أحدهم منظراً مؤثراً فى مدينة نيويورك إذ رأى أحد العمال يسير مترنحاً تحت ثقل كتلة ضخمة من الخشب ، وقد ضاعفت الزوابع والعواصف إحساسه بالثقل إذ كان اليوم عاصفاً والرياح تدفعه هنا وهناك ، وإذ رأى ذلك عامل آخر كان يسير فى ذات الاتجاه ، جاء من خلفه ووضع كتفه تحت الطرف الآخر من الكتلة فى صمت ، قد أحس الأول بقدرة أوفى على السير ، وعندما انتهى إلى آخر المطاف ، انسحب الآخر فى هدوء كما بدأ . . لقد كان قيده نابعاً من نفسه دون ضغط من أحد ، . . . وعندما نتحمل حرماناً

اختيارياً حتى لا نعثر الآخرين ، نضع أنفسنا تحت ناموس المسيح بملء الحرية والاختيار ! ! . .

إن القارئ لرسالة بولس إلى تيطس يكتشف هذه الحرية المتوازنة فى أروع صورها ، الحرية التى تدعو إلى التعقل والورع وضبط النفس ، بل التى هى ثمرة المسيحية العظيمة التى جمعها الرسول فى عبارة عظيمة رائعة ، قال عنها واحد من مشاهير الوعاظ : لو أنه قيل لى أمامك عظة واحدة تجمع فيها الإنجيل كله فى رسالة ، لما وجدت أفضل من قول الرسول لتيطس : « لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس معلمة إيانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر ، منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً فى أعمال حسنة . تكلم بهذه وعظ ووبخ بكل سلطان لا يستهن بك أحد » . . . (تى ٢ : ١١ — ١٥) وقد وعظ الشاب بشخصه وحياته وتعليمه عظة الحرية المسيحية التى جاء بها المسيح مخلصنا إلى هذا العالم ! ! . .

تيطس والصداقة الوفية :

يقول الرسول بولس فى رسالته إلى كورنثوس : « ولكن لما جئت إلى ترواس لأجل إنجيل المسيح وانفتح لى باب فى الرب ، لم تكن لى راحة فى روحى لأنى لم أجد تيطس أخى » (٢ كو ٢ : ١٢ ، ١٣) . . . « لكن الله الذى يعزى المتضعين عزانا بمجيء تيطس . وليس بمجيئه فقط بل أيضاً بالتعزية التى تعزى بها بسببكم وهو يخبرنا بشوقكم ونوحكم وغيرتكم لأجلى حتى إنى فرحت أكثر » (٢ كو ٧ : ٦ ، ٧) . . . ومن هذين النصين نتبين مدى حاجة الرسول بولس إلى تيطس ، ومدى القلق الذى اكتنفه فى

ترواس عندما غاب الشاب الصديق عنه ، ومدى التعزية التى وجدها عندما جاءه من كورنثوس يحمل الأخبار المعزية الطيبة . . . قيل إن أحد الملوك أهدى تابعاً له كأساً من ذهب ، وأعطى قبلة لآخر فحسد حامل الكأس صاحب القبلة ، لأن القبلة المعبرة عن صدق المحبة وعمقها ومجدها وجلالها ، لا يمكن أن تساويها كنوز العالم وثرواته وذهبه ، للنفس البشرية الخالدة العطشى للمعنويات والأدبيات والروحيات ، . . . وقد يكون من السهل تصور حاجة تيطس إلى بولس ، أو حاجة الأضعف إلى الأقوى ، والأصغر إلى الأكبر ، ولو أن تيطس هو القائل إنه فى أية مدينة من المدن ، كان يسعى إلى بولس ، ولم يجده ، ولهذا لم تكن له راحة فى روحه ، لبدا الكلام معقولا أو مقبولا ، أما أن يأتى الكلام من بولس ، ويبدو فيه بولس فى حاجة إلى تيطس ، فإن هذا هو الغريب ، . . ولكن الأمر مع ذلك لايدعو إلى العجب ، لأن النفوس الكبيرة العظيمة ، كلما كبرت واتسعت وعظمت ، كلما كانت فى حاجة أكثر إلى التجاوب النفسى مع الآخرين ، وليس أدل على ذلك من أن المسيح فى جثسيمانى كان فى حاجة إلى بطرس وابنى زبدى ليسهروا معه ولو إلى ساعة واحدة ، وكان الأمر نفسه بالنسبة لبولس الجياش العاطفة المترع الأحاسيس ، فقد كان فى حاجة — فى ضحك الحياة أو مأساتها — إلى من يقف معه متجاوباً مع ظروفه وأوضاعه . على أساس قوله المعروف « فرحاً مع الفرحين وبكاء مع الباكين » (رو ١٢ : ١٥) لقد تعزى بولس كثيراً وارتفعت روحه ، وكان أشبه بالغريق الذى طغت عليه أمواج الآلام والأحزان ، وإذا بيد رقيقة رفيقة تمسك به وتقوده إلى شاطئ الراحة والتعزية والفرح ، . . كان فى وادى الاتضاع حيث واجه العداوات من داخل الكنيسة وخارجها ، وكثيراً ما كان يبدو واقفاً وظهره إلى الحائط ، وقد استبد به الضيق والحزن والتعب ، . . ولكن الله الذى

يشفق على المتضعين المجربين والمتعبين ، والذى سلموا أمورهم وأوضاعهم ليدى الله ، يرسل له التعزية فى رسالة طيبة وصديق محب . . وقد جاءه تيطس ببشارة طيبة عن الأحوال فى كورنثوس أثر الأزمة التى حكم فيها بولس بطرد الزانى من الكنيسة حتى يتوب ويرجع إلى الله ، وقد نفذت الكنيسة ماقاله بولس ، وعندما تاب الرجل قبلته الكنيسة أيضاً بتوجيه بولس ، وحمل تيطس أخباراً مشجعة عن مشاعر الكنيسة تجاه الرسول العظيم الذى كان رابضاً فى وادى الاتضاع ، والله دائماً يعزى المتضعين ، . . بل إن مجرد مجىء تيطس إلى بولس كان رفعاً لنفسه المنحنية المتألمة المحزونة ، وكان هذا المجئ ، عند بولس ، أكثر من مجرد تلاق مع صديق محب أمين ، إذ هو مجئ الله نفسه إلى خادمه فى شخص تيطس للتقوية والتعزية ، . . . يوجد أناس لايرون فى الصديق الوفى إلا مجرد إنسان ، . يرون تيطس ، ويسرون بتيطس ، ولا يرون على المسرح غير تيطس ، أما بولس نقد تغنى بالشكر لله ، لأنه رأى الله يأتى إليه فى شخص تيطس ، . . كتب أحد الأصدقاء إلى صديق له كان يجتاز فى ظروف قاسية ، وامتلأت رسالته بالتقوية والتشجيع ، ورد عليه الصديق قائلا : « لقد كنت سعيداً بتسلم خطابك ، فقد كان لى بمثابة مجئ تيطس » . . وأنا سعيد لأن العناية ترسل تيطس عن طريق البريد فى هذه الأيام ! ! . . . أيها الأخ الصديق ، قد لا يكون من الضرورى أن تبذل جهدا خارقاً لمعونة الآخرين وتعزيتهم ، وقد لا يزيد الأمر عن كلمة طيبة أو تحية رقيقة ، أو ابتسامة حلوة ، أو تعزية مشجعة لإنسان يقف على الخط الفاصل بين النجاح والفشل ، . . والكلمة المشجعة تفعل ماهو أكثر من السحر ، إن جاز هذا التعبير ، فى نفس اليائس المنكوب ! ! . . إن كثيرين يحتاجون إلى روح تيطس فيك ، حتى تعمل على تعزية الآخرين ! !.

تيطس والخدمة المشتركة :

قال بولس فى استهلال حديثه إلى تيطس فى رسالته إليه : « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا » (تى ١ : ٥) . . . وهى كلمات رائعة لمن يحسن التأمل فيها ، رائعة فى صدورها من بولس ، ورائعة فى اتجاهها إلى تيطس ، ورائعة فى الاعلان الكاشف عن العمل الذى يحتاج إلى الكمال ، . . أما من حيث بولس فقد كانت سياسته على الدوام كقائد ، شجب الانفرادية فى العمل ، وعدم توزيع المسئولية على المساعدين والمعاونين مهما اختلفت درجات جهدهم ومواهبهم ، . . وفى الحقيقة إن الخدمة المسيحية لا تعترف على الاطلاق بالانفرادية فى العمل ، وسياسة الله الثابتة فى العهدين القديم والجديد ، تأخذ بنظام المشاركة ، ومنذ ذلك التاريخ القديم الذى وقف فيه يثرون يراقب موسى وهو يواجه الشعب بمفرده ثم يقول له : « ليس جيداً الأمر الذى أنت صانع . إنك تكل أنت وهـذا الشعب الذى معك جميعاً . لأن الأمر أعظم منك . لا تستطيع أن تصنعه وحدك . الآن اسمع لصوتى فأنصحك . فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله ، وقدم أنت الدعاوى إلى الله . وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذى يسلكونه والعمل الذى يعملونه وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فيقضون للشعب كل حين . ويكن أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها إليك ، وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها . وخفف عن نفسك فهم يحملون معك . إن فعلت هذا الأمر وأوصاك الله تستطيع القيام . وكل هذا الشعب أيضاً يأتى إلى مكانه بالسلام » (خر ١٨ : ١٧ — ٢٣) . . . ومنذ ذلك التاريخ الذى دعم فيه هرون وحوريدى موسى فى

المعركة مع عماليق ، وهاجمت دبورة بعد ذلك بسنين عديدة ، الذين لم يدخلوا الحرب مع باراق . وأقاموا بين الحظائر لسمع الصغير للقطعان ، أو بقوا على الحياد فاستحقوا اللعنة كميروز التى لم تأت لمعونة الرب بين الجبابرة . واحتاج جدعون فى معركته مع المديانيين إلى الثلثمائة الذين يحملون أبواقهم وجرارهم ومصابيحهم المنيرة، ... وفى العهد الجديد اختار المسيح الاثنى عشر ثم السبعين وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه . وبولس كانت سياسته الدائمة شجب الانفرادية ، ومع أنه كان سجيناً فى الزنزانة ، إلا أنه مع ذلك كان القائد الذى يرسل مساعديه إلى هنا أو الى هناك من ميادين العمل ، إذ أرسل كريسكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية ، . . . كم يحتاج الحمقى من القادة والمتغطرسون منهم إلى إدراك هذه الحكمة التى عاشها بولس طوال حياته . وهو لا يتخلى عن الحاجة إلى المساعدين ! ! . . . ومع أن تيطس لم تكن له البتة قدرة بولس ، إلا أنه كان يرحب بأى تكليف يكلفه به الرسول العظيم .ويبدو أنه كان بطبيعته أكثر شجاعة وصلابة من تيموثاوس الذى كان يتحلى بالرقة المتناهية . . . وقد عهد إليه الرسول بمهام مختلفة فى السفر هنا وهناك وجمع المال لخدمة الله ومساعدة المحتاجين . وتكميل الأمور الناقصة فى كريت والقيام بالرعوية هناك رغم صعوبة العمل بين الكريتيين الذين يجب سد أفواههم إذ هم وحوش ردية بطون بطالة يحتاجون إلى التوبيخ الصارم ! ! . .

كان تيطس شاباً فى قوة الشباب ، وكانت شمسه تتألق فى الظهيرة ، فى الوقت الذى كانت شمس بولس تسرع نحو الغروب . وكان من المستحيل على بولس ، سواء من ناحية المكان أو الزمان أن يعمل كل شئ ، . كان يضع الأساس ليبنى عليه آخر ، وكان يزرع ليسقى غيره ، وكانت مملكة الله ميداناً فسيحاً للجميع ليقوموا بالخدمة فيها دون أن تكون حكراً لقوى أو

عظيم بمفرده ، وقد حمل تيطس الرسالة بوفاء وأمانة وشجاعة ، أبى و مع غيره أن يسقط العلم من يد القائد إلى الأرض دون أن تتلقفه اليد الفتية التى حل بها يشوع محل موسى ، وأليشع محل ايليا ، وتيموثاوس وتيطس ولوقا وسائر رفقائه محل بولس ليبقى العمل الإلهى مستمراً من جيل إلى جيل بالروح الحية القوية المنتصرة الغيور ! ! . .

وما أجمل أن يختم بولس رسالته إلى تيطس قائلا : « حينما أرسل إليك أرتيماس أو تيخيكس بادر أن تأتى إلىَّ إلى نيكوبوليس لأنى عزمت أن أشتى هناك . جهز زيناس الناموس وأبلوس باجتهاد للسفر حتى لا يعوزهما شئ . وليتعلم من لنا أيضاً أن يمارسوا أعمالا حسنة للحاجات الضرورية حتى لايكونوا بلا ثمر . يسلم عليك الذين معى جميعاً . سلم على الذين يحبوننا فى الإيمان . النعمة مع جميعكم . آمين (! ! ... (تى ٣ : ١٢ — ١٥) .

١٤١
فيلكس

« وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة ان تكون ارتعب فيلكس » (اع ٢٤ : ٢٥) .

كان أحد الوعاظ يعظ جمعاً غفيراً عن يوم الدينونة ، وكان كلامه رهيباً ومرعباً ومؤثراً للغاية ، فسالت دموع كثيرة ، واشتد التبكيت بالبعض حتى صرخوا بأصوات عالية ، كما لو أن الديان نفسه قد حضر ، وفى وسط هذا الصراخ ، صاح الواعظ قائلا : كفوا لاسمعكم شيئاً أرهب وأفظع مما سمعتم ، فأنصتوا ليروا ما هو أرهب من كلامه عن الدينونة ، فقال : إن ما أخشاه أكثر وأرهب مما سمعتم ، هو أنكم بعد ربع ساعة من خروجكم من هنا ستهدأ عواطفكم ، وتسكن مشاعركم ، وتتلاشى فكرة القضاء الرهيب من أذهانكم ، وهكذا تعودون إلى سابق مجونكم وفسادكم ، وبهذا تهيئون أنفسكم للدينونة التى سمعتم عنها الآن !! ... وهذا حدث مع فيلكس بالتمام ، لقد نقله بولس إلى الحقيقة العظيمة ، وكشف له عن يوم الدينونة الرهيب ، يوم

لايجلس قاضياً على عرش . بل متهماً أمام العرش العظيم الأبيض . وارتعب فيلكس . ولكنه مع الارتعاب فعل الشيء الأفظع والأرهب الذى يفعله ملايين الناس على الأرض بتأجيل التوبة . وهكذا هيأ نفسه للدينونة الأبدية ، كما يفعل الحمقى والمجانين من الخطاة . . وها نحن نتابع قصته فيما يلى :

فيلكس العبـد :

لعل تاسيتوس المؤرخ الرومانى قد اعطانا أدق صورة عن الرجل إذ قال : « إنه كان يحمل سلطة ملك فى روح عبد . بكل مافيه من القسوة والشهوة »... ووصفه يوسيفوس قائلا : « لقد سحق الغيورين بزعم أنهم لصوص . وصلب المئات منهم ، وقتل أتباع الساحر المصرى الذى جاء ذكره فى سفر الأعمال (أع ٢١ : ٣٨) ، وقضى على الفتنة التى أثارها » . . . وهو ماقال عنه ترتلس « السلام » الذى جاء به إلى الأمة : « إننا حاصلون بواسطتك على سلام جزيل وقد صارت لهذه الأمة مصالح بتدبيرك » ... وعندما تزوج دروسلا كان هو قد تجاوز الستين من عمره . وكانت هى صبية فى الثامنة عشرة من عمرها . وهى ابنة هيرودس أغريباس الأول الذى ضربه الله فصار يأكله الدود ومات ، وأخت هيرودس أغريباس الثانى ، وكان قد سبق لها الزواج فى الخامسة عشرة من عمرها من ازيزس ملك حماة . . . ولكنه استخدم سيمون الساحر فى اغرائها على التخلى عنه ، وتزوج بها . . . وكان له أخ اسمه « بلاس » محبوب وأثير عند كلوديوس الامبراطور ... وكان كلاهما عبداً وحررهما الامبراطور ، وأضحى نفوذ أخيه سبباً فى أن يصبح هو أيضاً والياً . يتمتع بالقوة والثروة والنفوذ على أوسع الصور . .. وقد امتلأ بالشهوة واللصوصية والرشوة استناداً إلى نفوذ أخيه . حتى أقصاه الأمبراطور نيرون عن الحكم ورده إلى أسوأ مصير عام ٥٩ م ، وأنجب ولدا واحداً من زوجته ، وبعد عشرين عاماً ثار بركان فيزوف ودفن الزوجة

والولد تحت أنقاضه . كان فيلكس حسب الظاهر حاكماً جليلا وعظيماً ، له السلطان والجلال والنفوذ الذى يحسده عليه الكثيرون . . . ولكنه فى الواقع عاش طوال حياته عبداً للشهوة والثروة . وشتان بين ظاهر الرجل وداخله ، والازدواج فى الشخصية البشرية أمر جدير بالتأمل والإلتفات ، ولعل دراستنا الكتابية والاختبارية تؤكد أنها ليست مجرد أسطورة تلك التى تخيلها أحد الكتاب الأدباء عندما دعا ربه أن يحول الناس على الأرض إلى الصورة التى تكشف عن طبائعهم الحقيقية . وإذا بالجنس البشرى يتحول بين يوم وليلة إلى ما يشبه غابة من الوحوش . فتحول الناس إلى حيوانات مفترسة أو أليفة،فهذا أسد ، وذلك نمر ، وآخر ثعلب أو ذئب أو ثعبان أو بغل أو حمار أو قرد أو تمساح أو عقرب أو حمل أو ما اشبه من الصور المختلفة لهذه الحيوانات وطبائعها . فإذا تعجب البعض لهذا الخيال ، فانهم ينسون أن الكتاب المقدس قد تحدث بأعمق أسلوب وأقوى لهجة عن هذه الحقيقة فى الكثير من الصور الرمزية عن حياة الناس ، ألم يصف يعقوب — بروح النبوة — أولاده على هذه الصورة : « يهوذا جرو أسد . من فريسة صعدت يا ابنى . جثا وربض كأسد وكلبوة من ينهضه ... يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر فرأى المحل أنه حسن والأرض أنها نزهة فاحتى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً . . . يكون دان حية على الطريق أفعواناً على السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء ... نفتالى أيلة مسيبة يعطى أقوالا حسنة ... بنيامين ذئب يفترس. فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا» (تك ٤٩ : ٩ — ٢٧) وتنبأ موسى فى بركته الأخيرة لبنى إسرائيل فقال عن جاد : « مبارك الذى وسع جاد كلبوة سكن وافترس الذراع مع قمة الرأس ... ولدان قال . دان شبل أسد يثب من باشان » (تث ٣٣ : ٢٠—٢٢). ولا أظن أننا ننسى قصص عيسوب فى الأدب الاغريقى أو كتاب كليلة

ودمنة فى الأدب العربى ! ! ... ومن المؤسف أن فيلكس الذى كان فى الأصل عبداً وحرره الامبراطور مع أخيه ، ورفعه إلى أعلى المراكز عاش فى الظاهر سيداً وفى الباطن عبداً إلى آخر حياته على الأرض ! ! .. كان حسب الظاهر يجلس كحاكم على عرش ، وحسب الواقع والحقيقة كعبد يتمرغ فى مستنقع الخطية طوال الوقت . أغرى دروسلا وهى صبية على التعلق به ، وهجر زوجها . وعاش عبداً لها ومعها أسيراً الفساد والشهوة . وكان يعلم علم اليقين براءة بولس مما رمى به من تهم ، واستدعاه وهو ينتظر الرشوة منه حتى يخلى سبيله . ... فى آخر سنى الحرب العالمية الأخيرة . كان أحدهم يسير فى شمال أفريقيا ، وأبصر رجلا من البدو يبيع طائر السمان ، وقد تكدست الطيور فى القفص . فاشترى القفص بأكمله من الرجل . وسر البائع لأن المشترى اشترى كل ما عنده جملة . ولكنه ذهل إذ أبصره يفتح القفص لجميعها لتطير دون أن يبقى على طائر واحد . وإذ ظن الرجل مجنوناً قال له : لاياصاحبي لا تظننى مجنوناً ، بل أنا انسان سقطت فى الأسر . وظللت فيه مدة من الزمن . وأحسست مرارة الأسير ، فآليت على نفسى أن أحرر كل من استطعت إلى تحريره سبيلا ! ! ... ولعل أكبر مأساة يتردى فيها الإنسان أمام الحرية الجميلة العظيمة هى أن يعيش عبداً وهو يتوهم أنه سيد وحر . ... عندما قال المسيح لليهود : « وتعرفون الحق والحق يحرركم ، أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد أحد قط . كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً . أجابهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية والعبد لا يبقى فى البيت إلى الأبد أما الابن فيبقى إلى الأبد . فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً (يو ٨ : ٣٢ — ٣٦) . .

فيلكس القاضى :

وإذ نتحول عن فيلكس العبد إلى فيلكس القاضى يجدر بنا أن نلاحظ

بعض الحقائق الأساسية ، ولعل أول ما نلاحظه هو سخرية الحياة فى أوضاعها المقلوبة فى الأرض ، والتى تجعل العبيد يركبون الخيل كما يقول المثل والسادة يمشون على أقدامهم وترينا المسرح الغريب الذى تمثل عليه أغرب التمثيليات على ممر الأجيال ، عندما يكون العبد الفاجر هوالقاضى الذى يحاكم الحر النبيل ، وعندما تعتلى الرذيلة منصة القضاء ، لتحاكم الفضيلة التى ترسف أمامها فى الأغلال ، ... فليس فى مسرحية التاريخ البشرى كله ما يمكن أن يكون أبشع منظراً من أن يقف يسوع المسيح أمام حنان وقيافا وهيرودس وبيلاطس البنطى . . . وخلف هذا السيد العظيم المبارك يقف كل أتباعه فى الأرض ، كبولس أمام فيلكس أو أمام فستوس أو أغريباس أو نيرون ، .. أو يقف غيره من أعظم الناس وأنبلهم وأشرفهم ، ليحكم عليهم وفيهم الرعاع والعبيد .

فإذا تحولنا إلى التهم الباغية والظالمة ، نرى العجب . لقد وجهت إلى بولس ثلاث تهم أمام فيلكس . التهمة الأولى أنه مهيج فتنة دولى ، أو هومن المجرمين الخطرين على الوجه العالمى : « مهيج فتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » (أع ٢٤ : ٥) وهى تهمة تثير ثائرة الرومان ، إذ أن من يفعلها لابد أن يكون من الطغاة الذين يعكرون صفو الأمن فى كل أركان الامبراطورية ، وهى تواجه فى العادة متى ثبتت بأقسى أنواع العقوبات ، ... أما التهمة الثانية فهى أقل خطراً ولا يهتم بها الرومان كثيراً باعتبار أنها مرتبطة بنزاع دينى لا دخل للرومان فيه « مقدام شيعة الناصريين » . والتهمة الأخيرة : « تنجيس الهيكل » وهى تهمة أقسى من الثانية ، إذ أن الرومان كانوا لا يرغبون فيما يمكن أن يثير ثائرة اليهود فى مشاعرهم الدينية ، ويعاقبون من يحاول ذلك حفاظاً على ولائهم للامبراطورية ، . . هذه هى التهم الثقيلة التى وجهت ضد بولس ، وتولى توجيهها ترتلس باعتباره خطيب

المتهمين والمتحدث باسمهم ، وقد فند بولس هذه التهم فى يسر ، وسهولة ، إذ أن الوقائع تكذبها ، وهى بغير دليل أو شهود ، ويهمنا هنا أن نشير إلى الفرق بين دفاع ترتلس ودفاع بولس ، أو الفرق بين البلاغة عند الرومان واليونان ، والبلاغة المسيحية ، ... وغير خاف أن المسيحية أثرت فى مجرى البلاغة عند الرومان ، وتأثرت بها ، . إذ أن المسيحية عندما انتشرت فى الامبراطورية الرومانية ، كانت البلاغة فى المحاكم والسناتو قد وصلت إلى ذروة مجدها ، واشتهر الخطباء الذين هزوا أرجاء الأمبراطورية بسحر بلاغتهم وروعة بيانهم وقوة اقناعهم ، وإن كان الضعف الذى علق بهم ، وأفسد كل شئ ، هو أنه لم يكن لديهم مانع من استعمال كل الوسائل الممكنة من التمويه والخداع والغش ، دون أن يحسوا بالخجل الأدبى أو النفسى أو الأخلاقى طالما يكسبون القضية التى ينبرون للدفاع عنها ، شأنهم شأن ما نرى فى أيامنا هذه من التهنئة أو المكافأة أو الشهرة التى تسبغ على المحامى الذى يستطيع أن يجعل الجانى يفلت من حبل المشنقة رغم وضوح ارتكابه لجريمته استناداً إلى الشكل أو الاجراءات أو ما أشبه مما يمسك به أبطال الدفاع من كبار المحامين ! ! ... لكن البلاغة المسيحية استطاعت أن تنتفع بكل المهارة والقواعد الخطابية التى اشتهر بها اليونان والرومان ، .. مع الحذر الكامل من كل شائبة تلصق بها من أساليب الغش والخداع والتموية ، ويكفى أن نضع على سبيل المقارنة الفرق بين دفاع ترتلس ودفاع بولس ، ووجه الاتفاق بينهما ووجه الخلاف ، ... لقد اتفق الاثنان على كسب إذن القاضى إلى جانبهما ، وهو أصل من أصول البلاغة التى ينبغى أن نأخذ بها فى حديثنا إلى الآخرين ، سواء كنا فى ساحة المحكمة أو على منبر الوعظ ، اذ يجمل أن تكون المقدمة عند المحامى أو الواعظ هى محاولة جذب السامع للاستماع إلى خطاب المتكلم. وقد استهل ترتلس دفاعه بالقول : « اننا حاصلون بواسطتك على سلام جزيل وقد صارت

لهذه الأمة مصالح بتدبيرك فتقبل ذلك أيها العزيز فيليكس بكل شكر فى كل زمان وكل مكان . . . ولكن لئلا أعوقك أكثر ألتمس أن تسمعنا بالاختصار بحلمك » . . . وقال بولس : « إنى إذ قد علمت أنك منذ سنين كثيرة قاض لهذه الأمة أحتج عما فى أمرى بأكثر سرور . وأنت قادر أن تعرف أنه ليس لى أكثر من اثنى عشر يوماً منذ صعدت لأسجد فى أورشليم » . . . كان ترتلس صادقاً وكاذباً فى الوقت نفسه ، . . . إذ أن فيلكس يمكن أن ينطبق عليه ماقاله لورد بايرن يصف شخصاً : « إن له فضيلة واحدة فى وسط ألف جريمة » ، ... إذ أنه حقق السلام بما سبق أن ذكرناه من العنف الذى أغرق به الضحايا الكثيرين فى أنهار من الدماء ، .. وهو الفضيلة الوحيدة إن صح أنها كذلك . ولكن ترتلس تحدث عن السلام الجزيل والمصالح التى حصلت عليها الأمة ، مما يستوجب الشكر فى كل زمان ومكان ، وهويلتمس من الرجل الحليم أن يسمعه بالصبر والأناة ، ... وهنا تبدو البلاغة فى بشاعة النفاق والرياء والكذب والتملق ، .. الأمر الذى لا يقبل بولس أن ينساق إليه أو يسير فى تياره ، وقد وجد أن فيلكس له زمن طويل فى أرض فلسطين ، وهو ملم بالعوائد الجارية ، ومن ثم فهو يستطيع أن يحتج بأكثر سرور لذلك ، . . وهو بذلك يبدو صادقاً تماماً دون أدنى شبهة من تملق أو رياء .

إن أكبر الشرور وأقساها تأتى مرات كثيرة من ذكر بعض الحق وترك البعض الآخر ! ! . . جاءت سيدة إلى أحد الرعاة وهى تشكو لأن مشاعرها قد أوذيت وقالت بشىء من الصرامة : إنهم فعلوا ذلك بسبب واحد هو أنها قالت كل الحق ! ! . . . وقال الراعى : كل الحق ، إنه لشىء عجيب ياسيدتى ، وهل لك أن تتكرمى بأن تقولى ما رددتيه عن مللى ! ! ؟ . . قالت : إنها تزداد فظاظة وكل الناس تتكلم عنها ، وعلى أمها أن تلاحظها تماماً ،

قبل أن يكون الوقت متأخراً ... وقال الراعى : وهل ما قلتيه يمكن أن يكون الحق كله ! ! . إنك لم تتحدثى عن طفولة مللى الرائعة ، وأناملها الرقيقة ، وقلبها الشفوق ، وإيثارها الواضح ، . . لقد أخذت الظلال على اعتبار أنها الصورة الكاملة . ولم تقدمى الوجه المنير المكمل للحقيقة ، . إذا أردت أن تذكرى الحقيقة فضعى الصورتين جنبا إلى جنب حتى لا يحدث التشويش ، وحتى يبدو الوضع المتوازن الصحيح فى الأمر ! !

كان هذا الخلط بين الحق والباطل نموذجاً للكثير من أوضاع البلاغة اليونانية أو الرومانية والذى أجاده ترتلس ، واستطاع بولس مع ذلك أن يفنده بيسروسهولة . إذ أن التهم المنسوبة إليه بلا دليل أو شهود وتكذبها الوقائع إذ أنه لم يدخل أورشليم إلا من إثنى عشر يوماً سابقة على اتهامه ، . . وهذه لا تصلح أن تقوم دليلا على ما كيل له بدون أدنى سند أو حق ! ! . .

فيلكس المتهم :

يقول الكتاب : « ثم بعد أيام جاء فيلكس مع دروسلا امرأته وهى يهودية فاستحضر بولس وسمع منه عن الإيمان بالمسيح . وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ارتعب فيلكس » (أ ع ٢٤ : ٢٤ و ٢٥) . . . والمنظر هنا يتغير على نحو مثير ، عن المنظر الأول ، . . لقد كان بولس أولا أمام فيلكس ، ثم تغير الوضع فأضحى فيلكس أمام بولس ، وهذه نبوة وإشارة أبدية للموقف الدائم للمؤمنين فى الأرض ، . . فإذا كان الأشرار يدينونهم ويتحكمون فيهم إلى أبعد الحدود فى كثير من الأوضاع والأحايين ، فإنه سيأتى اليوم الذى فيه ينعكس الوضع ، فيدين المؤمنون البشر جميعاً يوم يحكم الله بحكمه الأبدى ، ويغير الوضع على نحو أبدى . على أن السؤال مع ذلك يأتى : لماذا استحضر فيلكس بولس ،

ولم يسمع منه هو فحسب ، بل جاءت امرأته دروسلا أيضاً ؟ ، من الواضح أن فيلكس لم يكن يجهل الإنجيل : « إذ كان يعلم بأكثر تحقيق أمور هذا الطريق » (أع ٢٤ : ٢٢) « ... وتحدث إليه بولس عن الإيمان بالمسيح » . هل جاء الرجل ليسمع القصة المباركة ، لأن قصته مع الحياة بعيداً عنها كانت قاسية وتعسة ؟ ! . . هل كان يبحث عن السعادة وظن أنها تأتيه من المنصب ، وإذ وصل إليه ، لم يجد السعادة هناك ؟ . . هل ظن أن السعادة فى الشهوة والمتعة والزواج ، . . وبحث عنها هناك ولم يجدها ؟ ! . . لقد كان على أية حال شأنه شأن هيرودس الذى كان يحن إلى سماع المعمدان ، ويسر بما يسمعه .

لسنا نعلم أيها كان السبب ، وإن كنا نعلم بكل يقين أن للانجيل سحراً غلاباً على النفوس ، وهناك شهادات عديدة عن جمال الدعوة الإلهية . قال الفيلسوف كانت لصديق له : إنك تفعل حسناً إذ كنت تعتمد فى سلامك على الإنجيل ، وتستمد تقواك منه ، لأن الإنجيل ، والإنجيل وحده هو منبع الحقائق الروحية العميقة ، الحقائق التى تعب العقل فى البحث عنها دون جدوى ! ! . . ويروى عن أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية أنه ذهب ليزور ديدرو ، أحد زعماء الإلحاد ، فوجده يشرح لأبنائه اصحاحاً من الإنجيل بكل جد واجتهاد كما يفعل أتقى الآباء المسيحيين ، فأبدى العضو اندهاشه ، فأجاب ديدرو قائلا : أنا أفهم ما أنت تقصد ، ولكن الحقيقة أنى لم أجد درساً أفضل من هذا أقدمه لهم ! ! . . . على أية حال سواء كان فيلكس قد استحضر بولس عن رغبة فى السمع ، أو لإشباع فضول زوجته اليهودية ، إلا أنه مما يثير الإجلال أن بولس كان مثال الواعظ العظيم ، الذى لم يحول الكلام إلى الدفاع الشخصى عن نفسه أو التملق أملا فى خروجه من سجنه وأسره ، . . لقد تحول بولس تماماً عن نفسه وعن قضيته وعن خروجه

أو الإفراج عنه ، . . لقد تحول من كل ذلك إلى الحديث عن المسيح وعن الإيمان به : فقضية المسيح عنده هى أهم القضايا سواء أكان سجيناً أم حراً ، حياً أم ميتاً ، . . لقد رأى المسيح ، فلم يعد يرى غيره جديراً بالخشوع والخضوع والتعبد ، . . . عندما وعظ لاتيمار أمام الملك هنرى الثامن ، وأرسل إليه الملك كلمة بوجوب الاعتذار العلنى فى الأسبوع التالى ، كان جواب لاتيمار من منبر الله ! ! . . لاتيمار إنك أمام الملك هنرى الثامن الذى بكلمة واحدة منه يستطيع القضاء عليك ! ! . . ولكنك يا لاتيمار مع ذلك أمام الملك الأعظم والأعلى ملك الملوك ورب الأرباب . وانطلق بكل قوة ودون أدنى تراجع متحدثاً بالرسالة الصحيحة ! ! . . .

لقد وضع بولس أمام فيلكس المثال . والواقع . والمصير ، عندما تحدث له عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون . أما المثال فيبدو فى البر . أو المبدأ . أو المستوى النقى الصالح المرتفع الذى وضعه الله فى الأصل للانسان ، والذى ينبغى أن يصل إليه . وهو مستوى ثابت لا تقهقر ازاءه أو تراجع عنه أو تردد أمام مطالبيه وانتظاراته ، سواء للملوك أو الصعاليك للسادة أو العبيد . وهو مثال أبدى صنعه الله البار ليعكس بره ونموذج حياته أمام البشر جميعاً . . . . ثم تحول بولس بعد ذلك الواقع الذى يعيش فيه الرجل هو وزوجته ، فتحدث عن التعفف وقد تكون كلمات كامبل مورجان هنا أفضل ما يقال على وجه الإطلاق : هناك كلمات أربع فى اللغة اليونانية مرتبطة بهذا المعنى الكلمة « سوفرن » والتى تشير إلى الرجل المسيطر على شهواته ، والكلمة « اجكراتس » التى تشير إلى من يحارب ويصارع ومع ذلك يمكن أن يسيطر على شهواته . والكلمة «اكراتس» التى تفيد معنى فقدان السيطرة عليها ، والكلمة الرابعة « اكولاستس » والتى تستخدم فيمن ضاعت سيطرته بالتمام على شهواته ، ولم يستعمل بولس الكلمة

الأولى التى كانت بعيدة عن فيلكس واستعمل الثانية ليشير إليه بوجوب الصراع مع امكانية الفوز ، وكأنما يدعوه إلى المعركة ، التى يمكن إذا أحسن التصرف ، الانتصار فيها ، . . . ثم لم يكتف بذلك ، بل بين له أن العبرة ليست أن يجلس الإنسان قاضياً فى الأرض ، لأن القضاء الأرضى ، سينتهى مهما لعب فيه أصحابه الدور ، .. بل العبرة كل العبرة بالدينونة العتيدة أن تكون ، ولن يهرب أو يفلت منها إنسان ارتفع شأنه أو هبط ! ! . . والنتيجة أن فيلكس أبصر نفسه أمام العرش العظيم الأبيض ، . . وكما وعظ يوناثان ادواردس عظته التاريخية المشهورة : « خطاة بين يدى إله غاضب » .. وإذا بالتأثير الرهيب يستولى على الجميع إلى درجة أن الكثيرين سقطوا من فوق كراسيهم وهم يتمرغون على الأرض ، وآخرين ارتفع صراخهم ، وغيرهم كانوا يهتزون كالقصبة التى تهزها الريح ! ! . . . هكذا دخل الرعب إلى قلب فيلكس ، ورأى نفسه عارياً مجرداً من كل سلطان ، أمام الله الديان الجبار العادل ، . . وهنا لا تفوتنا ملاحظة الكسندر هوايت من أن دروسلا لم تفزع أو ترتعب ، ولربما لو كان فيلكس وحده فى ذلك اليوم ، . . لقبل الإيمان ، ولعمده بولس ، وخرج الأسير من سجنه قبل غروب الشمس ، . . لكن دروسلا وأخواتها على الدوام موجودات فى كل زمان ومكان ، وقتلاهن أقوياء ! ! . . كانت المسافة بين دروسلا وفيلكس أقصر من المسافة التى كانت تفصل بينه وبين بولس ، ومن أتعس تعاسات الرجل أنه أضاف بعداً آخر إلى الفاصل بينه وبين الرسول ، فى القول : « أما الآن فاذهب ومتى حصلت على وقت أستدعيك » . . وكالمسمار الذى يقع بين مغناطيسين ، ينجذب فى العادة إلى المغناطيس الأقرب ! ! . . وابتعد فيلكس عن بولس ليلتصق بالحية والأفعوان أكثر فأكثر ! ! . .

وقع الرجل فى كارثة التأجيل : « اذهب ومتى حصلت على وقت أستدعيك » . . وهدأ الضمير الثائر ، وترنح تحت ضربات الخطية المحيطة به بسهولة ، ومع أن بولس حذره من إضعاف سلطان الضمير بالقول : « لذلك أنا أيضاً أدرب نفسى ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (أ ع ٢٤ : ١٦) . . . وكشف له عن إمكانية العثرة التى يسقط فيها الضمير غير المدرب ، وعندما يتعثر الضمير فإنه يترنح ويهوى إلى الهاوية ، شأنه شأن أى كائن يفقد الحياة ويموت ، . . ومن أجل ذلك نتحدث فى العادة عن فاجعة « الضمير الميت » . . . ومن المؤسف أن فيلكس كشف عن موته ، . . . لأنه حصل فعلا على الوقت ، ودعا بولس ، ولكن آه لقد مات الضمير ! ! . . لقد دعاه لأنه لم يعد يفزع من رعب الأبدية الذى استولى عليه قبلا ، دعاه ليضيف إلى إثمه إثماً أشنع ، لقد دعاه ليطلب منه الرشوة ليفرج عنه ! ! . . .

مسكين فيلكس ، ومسكين إلى الأبد ، . . لم يدفع بولس مالا ، وفضل السجن على تلويث الحق ، بالرشوة ، . . . ولكن فيلكس هو الذى دعى إلى روما ليحاسب على جرائمه ، وليدور به الزمان ، وينتهى ، تاركاً وراءه زوجته وابنه اللذين ابتلعهما بركان فيزوف ، . . وابتلع الجميع بركان الأبدية الذى لن يهدأ إلى الأبد لمن تعطى له فرصة التوبة والخلاص ، ولكنه يقول ما ذكره ارميا فى حزن وألم عن شعبه جميعاً : « مضى الحصاد ، انتهى الصيف ونحن لم نخلص ! (ارميا ٨ : ٢٠) . . .

١٤٢
فستوس

« انت تهذى يا بولس . الكتب الكثيرة تحولك الى الهذيان » (اع ٢٦ : ٢٤) .

لعل من أكبر الكوارث فى حياة الناس الحكم السريع المتعجل ، ولست أظن أن فستوس ، فى كل ما أصدر من أحكام فى تاريخه الطويل ، قد أصدر حكماً أبشع من حكمه على بولس بالجنون والهذيان ! ! ؟ . . إن جامعات الدنيا وفلاسفة الأرض وحكماء التاريخ مهما اختلفوا مع الرسول العظيم ، وأبان اتجهت أفكارهم وميولهم ونزعاتهم بعيداً عنه أو ضده ، إلا أنهم مع ذلك يحنون الهامة أمام الرجل الذى يقف فى الطليعة وفى الصف الأول مع أعظم الحكماء الذين ظهروا على وجه الأرض ! ! ؟ . . . ومع ذلك يرتفع الصوت الطائش الأحمق متهماً بولس بالجنون الناجم عن القراءة الكثيرة ! ! . . . ومع أن فستوس كان أفضل مما لا يقاس من فيلكس إذ أن مشكلة فستوس مرتبطة بالذهن ، مع الإخلاص فى تصوراته ومفهومه الفكرى ، . . فى الوقت الذى كان فيه فيلكس يتمرغ فى الوحل ، بسبب

مشكلاته الأدبية والأخلاقية ، إلا أن فستوس مع ذلك يمثل الكارثة الفادحة التي لا تنتهي في كل زمان ومكان ، الكارثة التي يجلس فيها المجنون في كرسي الحكم ، ليحكم على العاقل . . . ايه لك أيتها الأرض لأنك تجعلين أمثال فستوس يحكمون على بولس العظيم وأمثاله ويتهمونهم بالعته والهذيان والجنون . . . والحصيلة الحقيقية هي أن فستوس لم يحكم على بولس ، بل حكم على نفسه وهو لا يدري الحكم الذي سجله التاريخ لتقرأه الأجيال . . جيل بعد جيل إلى أن تنتهي الأرض وما عليها ، ومن ثم فقصة فستوس جديرة بأن تروى وأن يعلق عليها فيما يلي :

فستوس والواعظ المجيد :

إن الشيء العجيب أن فستوس استمع إلى بولس وهو يعظ ، الأمر الذي كان يتمناه أوغسطينوس كحلم من أحلامه العظيمة في الأرض ، إذ كان يتمنى لو أتيح له أن يرى بولس واعظاً . . . ولكنها مأساة الأرض عندما تطرح الدرر أمام الخنازير لتدوسها بأقدامها وعندما يسمع فستوس عظة من أروع العظات في الدنيا ، يقول عن صاحبها أنه مجنون مختل العقل لكثرة ما يقرأ من كتب ، . . . وقد يكون من المناسب في المعنى الفني — على ما يدرس طلاب علم الوعظ في كليات اللاهوت — أن نبين كيف أن موضوع هذه العظة ، ينطبق عليه القول جمع فأوعى ، وركز فشمل ، . . ومن المسلم به أن لكل عظة « موضوعاً » ينبغي أن تتجه نحوه .. « وهدفاً » تسعى للوصول إليه ، وغاية لا يجوز التحول عنها ، وإلا أضحت العظة مجرد سفسطة أو لغواً بلا معنى ، أو نحاساً يطن أو صنجاً يرن ، من غير لحن موسيقي صحيح ، والموضوع لذلك هو العظة مركزة عند فينلون ، والعظة هي الموضوع مبسوطاً ومشروحاً ، . . ومع أنه ليس من السهل حصر الأنواع المختلفة للموضوع فالبعض يتوسع في عدد هذه الأنواع والبعض

يراها متقاربة المضمون فيقلل من عددها ـ إلا أنه بمراجعة مختلف الاتجاهات الوعظية نلاحظ أن بولس طرح فى عظته الواحدة أهم المواضيع . . . فمثلا . .
« ١ » الموضوع التبشيرى ، وكان بولس هنا يعالج أهم موضوع يشغل بال الواعظ المسيحى ، ولم يكن وقوفه أمام فستوس أو أغريباس إلا فرصة لا يمكن أن يدعها تفلت منه دون أن يبشرها بإنجيل المسيح ، ويوجد فى اللغة الأصلية فى العهد الجديد ما يقرب من عشر كلمات تفيد معنى التبشير لكن أهمها على الأغلب كلمتين « إيوجليزو » و « كرسوا » والكلمة الأولى تعنى التبشير بالإنجيل ـ الخبر المفرح الطيب والتى منها أخذت كلمة « إنجيل » و « انجيلى » و « تبشيرى » والإنجيل يكشف عن أمرين أساسيين هما حاجة الإنسان ونعمة الله ، وهذا هو لب الوعظ التبشيرى فى العهد الجديد إذ أنه يشير إلى حاجة الإنسان البشرى الساقط فى خطيته وأحزانه وآلامه ، وحقيقة النعمة الإلهية التى جاءت لتفرح هذا الإنسان بالخلاص الذى فى المسيح يسوع ! ! . . . أما الكلمة الثانية فهى كلمة رائعة وتعنى أساساً إعلاناً من عرش ، أو فى لغة أخرى هى إعلان رسالة يحملها رسول يمثل حاكما ، وهنا ينقلب الوضع ، فلم يعد بولس أمام حاكمه فستوس أو أغريباس ، بل أضحى فستوس أو أغريباس أمام رسول الحاكم الأعلى ، . . ولم تكن رسالة بولس مجرد إعلان رسالة مفرحة ، بل كانت الرسالة المفرحة المزودة بالسلطان، وهى الفداء الذى يفرح قلب الخاطئ الذى يمده الله بقوته وسلطانه وروحه للنجاة من ظلمة الخطية وسلطة الشيطان . . . والموضوع بهذا المعنى تبشيرى على قدر ما يظهر هذه الحقائق وينادى بها فى بشرى الخلاص ! ! . .

« ٢ » الموضوع العقائدى . . . . وهو الموضوع الثانى الذى يتجه إليه الواعظ ، ولم يغفله بولس فى وعظه عندما قال : « والآن أنا واقف أحاكم على رجاء الوعد الذى صار من الله لآبائنا ، الذى أسباطنا الاثنا عشر

يرجون نواله عابدين بالجهد ليلا ونهاراً — فمن أجل هذا الرجاء أنا أحاكم من اليهود أيها الملك أغريباس . لماذا يعد عندكم أمراً لا يصدق إن أقام الله أمواتاً » (أع ٢٦ : ٦ — ٨) . . . كان يوستنيان الشهيد يرى الحق بذرة ، والواعظ المسيحى هو الزارع الذى يحمل بذوره ليلقيها ، بالمسيح ، فى حقل العالم ، . . والوعظ العقائدى هو هذه البذور التى يلزم أن يطرحها كل واعظ أمين مبارك . والكتاب المقدس فى حقيقته مجموعة من العقائد المتلاحمة والمتلاحقة . وكان الرسول بولس فى العادة وهو يكتب رسائله يضع العقائد أولا ثم يطالب بعدها بالتطبيقات المسيحية . وهنا نراه قد أدخل العقيدة جزءاً واضحاً من عظته . . . والتاريخ المسيحى يشهد بأن قوة المنابر التى نادت بالعقيدة هى التى حفظت الجماهير من السقوط تحت سيطرة الهرطقات المختلفة التى حاولت أن تتسلل ، بالكثير من الطرق ، إلى داخل الكنيسة المسيحية ... ومن المؤكد أن المنبر الروسى فى الكنيسة الأرثوذكسية هناك ، لو أنه نادى بالعقيدة المسيحية السليمة ، لما أمكن للشيوعية أن تتسلل لتأخذ مكانها فى تهديد الإيمان المسيحى على الصورة التى نراها اليوم ، فى الوقت الذى كانت تزعم فيه الكنيسة الروسية أنها حامية الإيمان الأرثوذكسى ! ! . . .

« ٣ » الموضوع الأخلاقى ، وظاهر من عظة بولس أنها لم تكن تهدف إلى حشو الذهن بالمفهوم العقائدى ، بقدر ما تهدف إلى النداء بالسلوك الصحيح والتحرر من قبضة إبليس . ومن ثم أجمل بولس رسالته بأكملها : « لتفتح عيونهم كى يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بى غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين » (أع ٢٦ : ١٨) . . والموضوع الأخلاقى هو الموضوع الواسع العظيم الذى يناقش التصرف فى مختلف دوائر الحياة المتعددة سواء كان هذا التصرف فى الدائرة الشخصية أو البيئية أو الوطنية أو الاجتماعية ، وينبغى للمنبر المسيحى أن يربط بين

الأخلاقيات والإنجيل فلا يتحدث عنها كمجرد بحث فلسفى أو علمى أو أخلاقى يمكن أن نجده فى كتابات مختلفة لرجال مشهورين فى البلاغة والفلسفة والأدب ولو كان بعضهم لم يقرأ الإنجيل أو يسمع عنه كالأقدمين من فلاسفة اليونان أو الرومان أو رواد الأديان الأخرى كبوذا وكنفوشيوس وغيرهما . إن الأخلاقيات السليمة فى مفهوم الإنجيل ليست هى الحق المشاع المجرد المبثوث فى ضمير الناس ، بل هى أكثر من ذلك ، هى الحق الذى تغرسه كلمة الله فى ضمير الإنسان المولود ولادة ثانية ، . . إن المنبع – للأخلاق المباركة – دائماً فى الإنجيل – هو التجديد ، وليس مجرد ترويض الطباع التى سرعان ما تعود بالخطية إلى مراغة الحمأة . وفى الحقيقة إن التجربة التى لم يعرفها بولس ويتعرض لها الكثيرون من الوعاظ هى تحويل المنابر إلى مسارح أدبية أو علمية أو فلسفية ليؤخذ الناس بمقدار ما لهم من معرفة ودراية وأدب ، دون حق الإنجيل الذى هو الأساس الصحيح للأخلاقيات فى كل جيل وعصر ، إن الموضوع الأخلاقى لابد أن يرتكز على الحياة الجديدة بفعل الروح القدس . . . وبعد ذلك فالميدان واسع وبلا حدود . . . . كانت عظة بولس تهدف إلى تغيير فستوس أو أغريباس إلى الحياة الأخلاقية السليمة ، إلى الحياة الجديدة ! ! . . .

(٤) الموضوع التاريخى : وواضح أن بولس رجع إلى التاريخ يأخذ منه سنده ودليله ، عندما تحدث عن رجاء آبائه ، وماكانوا يفعلونه : « الذى أسباطنا الاثنا عشر يرجون نواله عابدين بالجهد ليلا ونهاراً » . . . ولا يوجد كتاب على الأرض كالكتاب المقدس فى العرض التاريخى المفيد ، ومايمكن أن يأخذه الإنسان منه من عبر وعظات ... والميزة الأساسية للموضوع التاريخى هى أن الحقائق المجردة تصبح أكثر قوة وفاعلية وتأثيراً إذا ظهرت وتجسدت فى حياة الناس وفى أحداثهم التاريخية عبر القرون .

(٥) الموضوع الاختبارى ، وهو من أقوى الألوان فى العظة ، وكان بولس لايمل من الرجوع إلى اختباره الشخصى الذى يعيش فيه ، والذى بدأ بالتقاء المسيح معه على الطريق قبيل وصوله إلى مدينة دمشق ، وهو ليس مجرد اتجاه إلى التاريخ العام بل إلى التاريخ الشخصى على أساس المبدأ: « اذهب ... وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك » (مر ٥ : ١٩) .. والسامرية لم تقل لأهل مدينتها أكثر من اختبارها ،.. وكثيرون يهتزون فعلا لاختبارات الآخرين ! ! . . . لقد استوعب بولس فى عظته أمام أغريباس وفستوس المواضيع الأساسية الرئيسية التى تصلح أساساً لتكون الهدف أو الغاية المتوخاة من الوعظ عادة ، وكان بارعاً أعظم البراعة فى عرضها فى تركيز وقوة وثقة ! ! . . .

فإذا أضفنا إلى موضوع العظة طريقة القائها ، والالقاء فن من أهم فنون الوعظ ، ولا يتسع المجال للحديث عنه هنا ، ولا نعرف كيف كان صوت بولس وهل هو من ذلك النوع من الأصوات الضخمة الجهيرة ، أوالمتميزة برنينها الساحرة أو الحركات التى صدرت عن جسم بيده أو وجهه أو جسمه ، وما للحركة من أثار وقوة ملفتة للسامع ، لم نر بولس يعظ ، ولكننا يمكن أن نراه فى المرآة التى عكسها فستوس عنه . إذ من الواضح أن بولس كان يتحدث بكل قوته مستغرقا فى الحديث ، فى يقين كامل وحماس بالغ وأسلوب ملتهب . ... لقد عرفنا تأثيره فى الشخصية السابقة شخصية فيلكس عندما ارتعب فيلكس ، ونحن نرى فستوس يصفه بالهذيان . ومهما يكن من حماقة التصور من ناحية الموضوع ، إلا أنه يكشف عن النار الملتهبة التى كانت تملأ بولس وهو يعظ ، ... وبولس هنا واحد من ألمع الصور للواعظ المجيد فى كل العصور ! ! . .

ولا يمكن أن ننتهى قبل أن نشير إلى أن بولس بدا أمام فستوس قارئاً

مدمناً للقراءة ، إن صح هذا التعبير ، وليس خدماً جهولاً سطحى الفكر أو الأسلوب ، . . والحق ما شهد به الأعداء أو الذين لايمكن أن يتهموا بالتحيز لمن تصدر الشهادة لصالحهم على الاطلاق ، ... وكان بولس من أرغب الناس وأقواهم فى القراءة ، ومع أنه يعلم أنه رسول موحى له من الله ، لكن فى الوقت نفسه ، لايمكن أن يتعارض الوحى أو الإلهام مع الدراسات الدينية أو الأدبية أو الاجتماعية التى يمكن أن يحصلها ، بل لعل هذه جميعها تخضع لما يأتيه من وحى إلهى أو إلهام سماوى ، كما اخضع موسى كل حكمة المصريين ، لسلطان الخدمة الدينية دون أن تنالها أدنى شبهة أو اختلاط بالوثنيات الممتزجة بهذه الحكمة أو ما يمكن أن يلحق بها من خرافيات أو أوهام أو مباذل ! ! . . .

فستوس وهذيان بولس المزعوم :

قطع فستوس أن ببولس مساً من جنون ، وأنه يهذى بخيالات وتصورات لا أساس لها من الصحة ، وقد وصل به الإقتناع إلى حد أن يرفع صوته ويصيح : « أنت تهذى يا بولس » ... ولم يكتف بذلك ، بل أراد أن يعلم بولس السر فى جنونه وهذيانه فرده إلى قراءة الكتب الكثيرة . وبادئ ذى بدء إن الموقف أمامنا يكشف بدون أدنى شك عن وجود هذيان فعلا،.. ولكنه ليس هذيان بولس ، بل « هذيان » فستوس بكل تأكيد قاطع ، .. إن هذه المسرحية القديمة التى ظهرت فى قيصرية ، هى مسرحية الدنيا بأكملها ، التى تقسم الناس إلى نوعين مختلفين من البشر العقلاء والمجانين ، والصعوبة البالغة ليست فى وضوح هذه القسمة التى لاشبهة فيها ، بل فى اعتقاد كل فريق أنه العاقل وأن الآخر مجنون ! ! . . . على أن الصعوبة الأقسى والأشد فى الأرض المقلوبة الأوضاع أن يأخذ المجانين مكان الحكام والسادة وأصحاب السلطان ويأخذ العقلاء مكان السجناء والمضطهدين والمشردين بين الناس ! !.

والدليل الأعظم على هذا كله يظهر فى فكر البعض عن المسيح ، سواء كانوا أقرباء أو أعداء، ألم يقل الكتاب : « ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختل . وأما الكتبة الذين نزلوا من أورشليم فقالوا إن معه بعلزبول . وأنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين » (مر ٣ : ٢١ و ٢٢) .. « أجاب الجمع وقالوا بك شيطان . من يطلب أن يقتلك » (يو ٧ : ٢٠) ، « فأجاب اليهود وقالوا له ألسنا نقول حسنا إنك سامرى وبك شيطان » (يو ٨ : ٤٨) ... وهل هناك ما هو أعجب من أن يوصف ، النور الذى ينير كل إنسان الذى هو الحكمة الأزلى ، والذى يعطى من تعوزه حكمة . فبعها الصافى ، والمذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم . . بأنه مختل العقل ومجنون يسيطر عليه بعلزبول رئيس الشياطين ! ! . . .

من الغريب أن فستوس لن ينقرض من الأرض ، بل يظهر بهذه الصورة أو تلك ، فيمن يظن أنهم سادة الناس أو حكماء البشر أو فلاسفة الدنيا ! ! .. كتب واعظ انجليزى اسمه مارك جى بيرس قصة خيالـــية تحت عنوان « لغزيوبيك » ويوبيك هذه كلمة لاتينية تعنى كل مكان،.. وقد تخيلها الكاتب مدينة غريبة دخل إليها سائح ذات يوم ، وقد أدهشه أن جميع سكانها حفاة الأقدام ، ولم يكن هذا لأنهم فقراء محتاجون ، إذ أن بينهم أغنى الناس وأكثرهم ثروة ومالا ، ومع ذلك فجميعهم ، دون استثناء ، لا يلبسون أحذية ، ويسيرون على الأرض القاسية غير المستوية حفاة مهما تعبوا أو عانوا ، ... وأدهشه أكثر أن رأى بنايات ضخمة فى المدينة كتب عليها مصانع أحذية ، فدخل هذه المصانع فوجد من فيها جماعات من العرج البؤساء ، ووجدهم يتحدثون فى قاعة عن السؤال : « هل يوجد شيء اسمه القدم » . . ولم يكن المكان الذى دخله مصنعاً تصنع فيه الأحذية ولكنه كان المكان الذى يمكن أن تلقى فيه المحاضرات عن الأحذية والأقدام ، وكانت

هناك محاضرات تحت عناوين « المعنى الرمزى للجلد » « مشط القدم والشعر » « المخالب قديماً وحديثاً » « فلسفة الحوافر » « الفكر الثاقب عن الأصابع » .. وخرج الرجل من المكان متعجباً ، وما أن سار قليلا حتى وجد دكاناً يصنع فيه رجل أحذية جميلة ونافعة وجذابة المنظر ، .. وما أن أبصر الرجل هذا المنظر حتى خرج ينادى فى الشوارع وينبه النـــاس إلى الدكان الذى فى مدينتهم ، . . . وإذا به يجد الجميع يستنكرون كلامه ، وتنهال عليه التوبيخات « الرجل الذى يتدخل فيما لا يعنيه » « الذى يتعرض لحرية الناس » « والصحف تصفه بالفضولى الوقح أو ما أشبه من صفات ونعوت » . . . والكاتب يقول إن الناس قد ترى فى هذه القصة خيالا غريباً بعيداً عن التصور ، ولكن أليست هذه هى الحياة البشرية فى كل مكان وزمان ، حياة الذين ينكرون وجود الله والخطية والشر والأبدية ، ويعتقدون أنها لا تزيد عن ضرب من الخرافة والجنون والهذيان الذى يتعلق به الإنسان ! ! . . . .

صعد جاجارين الروسى إلى الفضاء وعاد ليقول إنه فتش عن الله هناك فلم يجده ، وصعد رائد فضاء أمريكى ليترك فوق القمر المزمور الثامن : « أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السموات . من أفواه الأطفال والرضع أسست حمداً بسبب أضدادك لتسكيت عدو ومنتقم . . إذا أرى سمواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التى كونتها ، فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله . تسلطه على أعمال يديك جعلت كل شىء تحت قدميه ، الغنم والبقر جميعاً وبهائم البر أيضاً ، وطيور السماء وسمك البحر السالك فى سبل المياه . أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض » ... أفيقول جاجارين لرائد الفضاء الأمريكى بعد هذا ... « أنت تهذى الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان » . ! ! . . .

فستوس وجواب بولس الصادق الصاحى :

لم يثر بولس أو يغضب أو يرد على أقوال فستوس القاسية بمثلها ، إنه يعلم تماماً أن فستوس البائس المسكين فريسة الظلام والجهل والوثنية ومثل هذا يحتاج إلى الترفق والعطف والإحسان ، فقال له بكل أناة وهدوء : « لست أهذى أيها العزيز فستوس » ، وبولس يعلمنا هنا أمثل صورة لمعاملة كل من يتهمنا بالحماقة أو الجنون أو الهرطقة أو كل الصور الكاذبة التى يمكن أن نوصف بها ، فالجواب الهادئ الحكيم الرصين المتسامح هو أقدر الأجوبة وأقربها إلى النفع والفائدة والسلام والخدمة ، . . ومن القديم قال الحكيم : « الجواب اللين يصرف الغضب والكلام الموجع يهيج السخط » (أمثال١٥ : ١) وقد لانكسب ، فى البداية ، العدو أو الغريب بالحديث والكلام ، غير أننا نكسبه بالحب والوداعة والحلم ! ! . . . والناس فى الواقع فى حاجة إلى حلمنا وصدقنا معاً ، حتى يمكن أن نكسبهم أو نأتى بهم ليسوع المسيح ! ! . . . ولعل هذا يذكرنا بما فعله انجليزى اسمه بانش مع سبرجن فى لندن ، إذ أن الواعظ الإنجليزى العظيم ، وكان فى مطلع شبابه ، قد تعرض للهجمات الضاربة من بانش فى الصحف والمجلات أسبوعاً وراء أسبوع وعاماً وراء عام ، وهو يحاوله أن يسكته متهماً اياه بالحماقة والجنون كما اتهم فستوس بولس تماماً ! ! . . . وصبر الشاب النبيل ، وتألق نجمه ، وأدى خدمات رائعة ليسوع المسيح دون أن يتذمر أو يكل أو يتهاون أو يقابل الاساءة بمثلها ! ... وشاء الله أن يطول عمر بانش ليقف فى تأثر وصمت أمام قبر سبرجن معتذراً عما بدر منه فى حق أمير الوعاظ الذى تحمل السخرية والاهانة من أجل مجد سيده ! ! . . . .

وفى الحقيقة إن الكلمات التى قالها بولس هى الجديرة بأن تكتب على مدى الأجيال بأحرف من بهاء ومجد ونور فى وصف المسيحية ورسالتها فى

الأرض إذ هى كلمات الصدق والصحو ! ! . . وهلا وقفنا لنتأمل اللفظين كلا على حدة ، ثم كليهما معاً ، . . . إن المسيحية هى الصدق بكل مافى الكلمة من معنى ، فهى الصادقة فى وصف الحق الإلهى من كل وجه وجانب .. لايأتيها الباطل مطلقاً أو يحف بها قيدا أنمله ، وإذا رام العالم النموذج العظيم الصالح لكل العصور والأجيال والطبقات فى المجتمع الإنسانى ، فلن يجده إلا فى الكلمات الصادقة فى الكتاب المقدس ! ! . . والمسيحية ليست صادقة فحسب ، بل صاحية أيضاً تمثل أعظم يقظة فكرية وانسانية ، وروحية وأدبية عرفها الجنس البشرى ، . . أوفى لغة أخرى هى الإنسان عندما يستيقظ بالتجديد ويقوم من بين الأموات ، بعد أن قتلته الخطية وأفقدته الحس ، وتركت فيه كل بلادة وتخدر وجمود وضياع ! ! . . .

إن هذه الكلمات تزداد لمعاناً كلما ذكرنا أن بولس قالها بعد عامين من سجنه فى قيصرية ، والسجن لم يقلل من يقينه أو ثقته على الاطلاق ، بل كانت فرصة قيصرية فى الواقع فرصة الراحة الإجبارية ، التى الزمه الله بها ليستعيد قوته الجسدية ويعده للذهاب إلى روما ليؤدى رسالته العظيمة هناك ، وستبقى رسالة المسيح إلى الأبد هى الصدق والصحو لبنى البشر ، ومادونها أو عداها هى الهذيان كل الهذيان ! ! .

١٤٣
أغريباس

« فقـال أغريباس لبولس بقليـل تقنعنى أن أصير مسيحيا » (أع ٢٦ : ٢٨) .

لست أعلم بأية عاطفة قال أغريباس لبولس : « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً ، لكن مهما كانت العاطفة التى قال بها عبارته المشهورة هذه ، فإن بولس الصياد العظيم للنفوس ، والواعظ الذى يحسن انتهاز الفرصة ، لم يدع فرصة دعوته للمثول أمام أغريباس تفلت من بين يديه ، لقد أوقف الملك على رأس الطريق الذى يؤدى إلى الحياة الأبدية ، ودعاه إلى السير فيه ، ووضعه أمام أسمى لحظة تتاح للانسان للاختيار الصحيح ، ولا أشك فى أن بولس نام تلك الليلة سعيداً قرير العين ، فهو يعظ فى وقت مناسب أو غير مناسب » . فإن استجاب سامعه للدعوة فهو شاهد له ، مسرور بدخوله إلى دائرة الإيمان الأقدس أبلغ السرور ، وان رفض ، فهو شاهد عليه ، فى اليوم العتيد ، إذ أبلغه الرسالة التى يتعين عليه كرسول أن ينشرها للناس ، . . وعلى أية حال فقد كانت مشجعات كثيرة هناك أمام الملك ،

عندما وقف على مفترق الطرق ليقرر أعظم قرار فى حياته كلها ، وكانت هناك أيضاً المفشلات التى رجحت للأسف الشديد كفتها ، وانتهت قصة الرجل الذى كان آخر ملك فى إسرائيل ، ولم ينصب بعده ملك لما يقرب من ألفى عام ، وكان الخاتمة الشريرة لأمة تعسة ، رفضت كما رفض ، فرصتها الذهبية . وويل لمن لا يملك يسوع المسيح ربا وفاديا لنفسه . . . إن قصته جديرة بأن تروى لكى تكون لكل إنسان تحذيراً وانذاراً . . وها نحن نتابعها فيما يلى :

أغريباس ومن هــو :

لم يتحدث الكتاب المقدس كثيراً عن أغريباس ، ونحن لا نراه فى غير هذا المكان من الإنجيل ، ولكن التاريخ اليهودى والرومانى أعطانا بعض المعلومات عنه ، وقد قيل إنه كان بهى الطلعة جميل المنظر ، وعلى خط كبير من الثقافة والعلم ، ولم يكن حظه من المواهب الطبيعية محدوداً أو ضئيلا ، ولد فى عام ٢٧ م وعاش إلى الثالثة والسبعين من عمره ، ومات فى روما فى عام ١٠٠ م ، وقد تلقن علومه فى قصر الامبراطور ، وقد قبل كسياسى الدفاع عن اليهود معلناً فى مطلع حياته أنه يهودى ، ولكنه عندما قامت الثورة ضد روما ، انضم إلى الرومان فى حربهم ضد اليهود ، . . وقد كانت علاقته ببرنيكى علاقة فاجرة على ما تذكر كتابات يوسيفوس وكتابات الرومان أيضاً ، . . ومع أنه يبدو على مسرح التاريخ ملكاً ، لكنه فى الواقع كان خاضعاً لنفوذ فستوس أكثر منه سيداً له ، كانت برنيكى اخته ، وأخت دروسلا زوجة فيلكس ، وقد تزوجت برنيكى أحد أعمامها ويدعى هيرودس ، ثم هجرته إلى أغريباس ، ولم تلبث أن تحولت إلى بولمو السيليسى ، وبقيت معه فترة من الزمن ، ثم عادت إلى أغريباس ، وذهبت معه إلى روما ،حيث عاشت عيشة العار مع فسبسيان ثم ابنه تيطس ! ! . . . كان جده الأكبر

هيرودس الكبير الذى قتل أطفال بيت لحم ، وكان عمه هيرودس الذى قتل يوحنا المعمدان استجابة لطلبة صبية راقصة ، وكان أبوه قاتل يعقوب بن زبدى ، والذى ضربه الله عندما تقبل تملق الناس وصراخهم بأنه يخاطبهم وصوته صوت إله لا إنسان ، فضربه ملاك الرب فى الحال لأنه لم يعط المجد لله فصار يأكله الدود ومات ، . . كان أغريباس حسب الظاهر ملكاً ، ولكنه فى الحقيقة كان إنساناً بهيمياً شهوانياً ، ليس له من الملك والتسلط إلا الاسم ، ولا يبالى بالفضائح أو أقوال الناس مهما لاكته الألسنة ، وهو وصولى يسعى إلى المصلحة من حيث يجدها ، ويذهب إليها من كل الطرق ، وعلى أتم الاستعداد أن يكون يهودياً غيوراً ، فإذا لم تتمش الغيرة مع المصلحة ، فهو وثنى ولا شأن له باليهودية على الاطلاق ، . . وهو فى كل الحالات إعلان عن الازدواج الرهيب ، والتركيب الغريب الذى خلفته الخطية فى الإنسان وجعلت منه دكتور جيكل ومستر هايد يتناوبان الظهور بين الحين والآخر فى الشخص الواحد ، . . وفى الوقت الذى يلبس فيه أجمل الثياب وأغلاها وانقاها ، يخفى تحتها أحط الشخصيات وأقبحها وأقذرها ، والتى لا تتورع عن فعل ماقد تعف أقذر الحيوانات عن الهبوط إليه ، والتمرغ فيه ! ! . . .

أغريباس وبولس الواعظ العظيم :

تناولنا فى الحديث عن فستوس عظة بولس أمامه وأمام الملك أغريباس ، من حيث الروعة الموضوعية للعظة ، ردا على قول فستوس : « أنت تهذى يا بولس الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان » .. على أننا هنا سنتناول العظة من جانب آخرا تجنباً للتكرار ، وكشفاً لبولس كواعظ رائع مجيد ، وأسلوبه العجيب النموذجى ، الذى يدرسه الخطباء والوعاظ كمثل يحتذى فى الفصاحة والخطابة والوعظ :

الواعظ الذى نسى نفســه :

لعله من اللازم أن نلاحظ أن أغريباس عندما سمح لبولس بالكلام كان ليتكلم لأجل نفسه ، : « فقال أغريباس لبولس مأذون لك أن تتكلم لأجل نفسك » ... وكان من المنتظر أن يكون حديث بولس أولا وأخيراً لأجل نفسه ، ... ولكن بولس مع ذلك لم يكن يهتم بنفسه بقدر الاهتمام بنفس أغريباس وفستوس وجميع الحاضرين ، .. لقد خرج بولس من نفسه ، إلى نفوس الآخرين ، وكانت أفكاره وعواطفه وصلواته تتجه إلى النفوس البائسة الملتفة حوله تستمع إليه ، وهذا ظاهر من قوله : « كنت أصلى إلى الله أنه بقليل وبكثير ليس أنت فقط بل أيضاً جميع الذين يسمعوننى اليوم يصيرون هكذا كما أنا ماخلا هذه القيود » (أع ٢٦ : ٢٩) ... ومهما يعرف التاريخ من نبل وعظمة ، فإن قليلين جداً هم الذين يرقون إلى هذا المستوى من الايثار الذى لا يريد الخير فحسب للآخرين كما يتمتع هو به ، بل أن لايصابوا بالتجارب والشرور والأغلال التى لحقت به ! ! . .

ومن المسلم به فى المبادئ الأساسية للوعظ وأصوله أنك لايمكن أن تفصل البتة بين الواعظ والعظة ، لأن الوعظ — كما أشرنا فى بعض الشخصيات السابقة — كما قال فيلبس بروكس ، هو : « أن يقوم إنسان بتوصيل الحق إلى إنسان آخر » . . ويتضمن ذلك أمرين أساسيين هما الحق ، والشخصية ، والفرق بين عظة وعظة ، أو واعظ وواعظ هو الفرق فى توفر هذين العنصرين ، أو غيابهما أو نقص أحدهما أو اهتزازه أمام السامعين . ويقول الدكتور جارفى مؤيدا هذا الاتجاه : « إن الوعظ ليس مجرد توصيل معلومات أو معارف لأن الوعظ يستغرق شخصية الواعظ كلها ، ومن ثم فهو يخاطب شخصية السامع كلها باعتباره موضوعاً أدبياً أو دينياً ، وطالما أن الحق الذى ينادى به ، ويدعو إليه الوعظ هو أمر يتعلق بالله والحرية

والخلود ، كذلك فإن غايته وغرضه هو حفز الإيمان والدعوة إلى النهوض بالواجب وابقاء جذوة الأمل والرجاء ذاكية لا تخبو » . . ومن المستحيل الوصول إلى ذلك دون التطلع إلى وجه الواعظ ، ومحاولة النظر والتأكد من أنه يعنى ما يقول ، وأنه ينبع من وجدانه العميق ! ! . . .

لقد عاش بولس طوال حياته مراعياً للقاعدة المشهورة التى ذكرها لقسوس أفسس : « ولكننى لست أحتسب لشئ ولا نفسى ثمينة عندى حتى أتمم بفرح سعيي والخدمة التى أخذتها من الرب يسوع لأشهد ببشارة نعمةالله» (أع ٢٠ : ٢٤) .

واعظ النعمــة العجيبــة :

كان بولس يعلم تماماً أنه يتحدث إلى رجل فى مستنقع من الوحل،وكان الذين حوله على شاكلته وفى الصورة نفسها،ولكن بولس مع ذلك يعلم أن نعمة الله تقدم مجاناً لأشر الخطاه وأقساهم وأضلهم ، . . وأنه ليس هناك أناس يمكن أن يكونوا بعيدين عن متناول يديها ، . . كتب ريتشارد جالين كتاباً عنوانه : « لو كنت الله » وقرأت تاريخ الشعب اليهودى كما جاء فى العهد القديم لمحوت هذا الشعب من الوجود محواً ، . . ولكن شكراً لله أننا لسنا الله ولا يمكن أن نصل إلى عمق احسانه وحبه ورحمته ، فلولا هذه جميعها لما أتيح لنا أن نجد الخلاص ، ولما كان لواحد منا أن يصل إلى المجد السماوى لبشاعة خطايانا وآثامنا ! ! ... تحدث مستر مودى ذات مرة فقال : وأنا أسير فى شوارع مدينة بوسطن منذ عدة أيام أبصرت جمعاً من الناس يتزاحمون حول شيء . . فاقتربت إلى المكان وزحمت الناس ودفعت هذا وذاك لأرى ما هو موضوع الزحام وتساءلت ماذا حدث ! ! ؟ وعندئذ أبصرت شبح رجل بين يدى رجل الشرطة وسمعت تمتمة وعاينت ضرباً ودفعاً وشتائم وسخائم وأخيراً جر رجل الشرطة الرجل ودفعه إلى العربة ، وسمعت فى الوقت

نفسه صوتاً يقول : « هيا ياعمتى . . . ليس هذا إلا رجلا سكراناً » ...
وسمعت العمة تقول : ماذا تقول يا وليم . . ليس هذا الا رجلا سكرانا ! !؟.
إنه ياولدى بلاشك ابن لأم ! ! ... وقد نرى فى ملايين الناس أمثال فيلكس وفستوس وأغريباس أناساً لا يستحقون إلا اللعنة والسحق والجحيم ، .. ولكن الله مع ذلك يرى فيهم أبناء ضالين يلزم أن يسمعهم إنجيل النعمة ! ! . . .
وفى الوقت عينه ، إن كلمة الله لا ترجع البتة إليه فارغة ، وهى كما قال حزقيال : « إذا قلت للشرير موتاً تموت وما أنذرته أنت ولا تكلمت انذارا للشرير من طريقه الرديئة لإحيائه فذلك الشرير يموت باثمه أما دمه فمن يدك أطلبه . . . لأنك لم تنذره يموت فى خطيته ولا يذكر بره الذى عمله . أما دمه فمن يدك أطلبه . وإن أنذرت أنت البار من أن يخطئ البار وهو لم يخطئ فإنه حياة يحيا لأنه أنذر وأنت تكون قد نجيت نفسك » (حز ٣ : ١٨ — ٢١) ...
جاءت فتاة إلى أحد خدام الله وهى تشكو من خالتها التى كانت فى الثانية والتسعين من عمرها ، والتى كان لها طابع دينى خاص ، إذ كانت فى العادة لا تهتم فى دراستها للكتاب المقدس إلا بالبحث فى تهديداته وصعوباته والعقد الفكرية والعلمية والاجتماعية فيه ، وقد عكس هذا أثره على أخلاقها التى أضحت قاسية وجافة وعنيفة وفظة . وقد ذهبت ابنة أختها إلى رجل الله تسأله الحل لهذه المشكلة ، ورغب هو فى الجلوس إلى العجوز ، وإذ تم ذلك ، قال لها : سأعطيك من الوقت نصف ساعة لتقولى كل شيء ، وسآخذ بعد ذلك نصفاً آخر ، وقبلت المرأة : وظلت طوال نصف ساعة تتكلم حتى جاء دوره ليقول : يا سيدتى لقد أخطأت خطايا كبيرة ، لكن أكبر خطية لك خلال اثنين وتسعين عاماً أنك لم تتنبهى إلى وعود الله وحبه واحسانه ورحمته وصوته : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) . وابتدأ

يحدثها عن المحبة الإلهية وإحسانات الله وصبره ، ثم صلى معها وانصرف ، . . وسأل ابنة اختها بعد أسبوع : فقالت له : إنها قضت أجمل أسبوع فى حياتها ، وبعد ثلاثة أسابيع ، والعجوز تجود بانفاسها الأخيرة ، قالت : « خبروه أنى لوفعلت لزملائى فى اثنين وتسعين عاماما فعله هو فى ساعة واحدة لشكرت الله » ... وأيا كانت النتيجة التى وصل إليها بولس فإنه لابد شكر الله الذى أعطاه ساعة يتحدث فيها أمام الملك أغريباس عن نعمة الله العجيبة .

الواعظ الذى يستولى على اذن سامعه:

ومن أهم ما ينبغى أن يتحلى به الواعظ ، قدرته على كسب أذن السامع ، وكان بولس من أبرع الوعاظ وأقدرهم على ذلك ، وهو هنا يفعل هذا على نحو عجيب ، ففى المقدمة يقول : « إنى أحسب نفسى سعيداً أيها الملك أغريباس إذ أنا مزمع أن أحتج اليوم لديك عن كل ما يحاكمنى به اليهود ، لا سيا وأنت عالم بجميع العوائد والمسائل التى بين اليهود ، لذلك ألتمس منك أن تسمعنى بطول الأناة » .. وهنا نحن أمام مقدمة رائعة عظيمة ، فهى قصيرة مركزة لا تبعث على الملل أو الضجر ، كما يحدث عندما تطول المقدمة ، وهى تجتذب النواحى الطيبة فيه ، وتتسلل إلى نفسه فى يسر وهدوء ، إذ أنها تحدثه عن سعادة إنسان يتحدث إلى ملك على علم بالكثير من الحقائق والعوائد ، . . . وهى تتجنب فى الوقت نفسه كافة صور النفاق والتملق ، فهى لا تتحدث عن الملك وتصفه بأوصاف ليست فيه أولا تصدق عليه ، . . وهكذا تكون المقدمات الصادقة الصحيحة فى كل خطابة أو عظة ، . . . أما جسم العظة نفسه فقد تحلى بصورتين عظيمتين ، إذ أنهض عند الملك إيمانه بالأنبياء ، فهو ليس الرجل الملحد الذى ينكر وجود الله ، وينكر الأنبياء ورسائلهم السماوية المرسلة إلى الناس فى الأرض ، وما دام هناك إيمان بوجود الله ، فهناك أمل حتى ولو وصل الإنسان إلى قاع

المستنقع ، ... وعلى العكس من ذلك ، إن إنكار الله ينتهى بالإنسان إلى أقسى ألوان التعاسة والضياع ! ! . . كان فولتير يفاخر بالحاده ، وبرفضه للايمان المسيحى ، ... ولكن الشهور الأخيرة من حياته على الأرض كانت من أقسى وأرهب ما يعانى مخلوق ، . . وفى الخمسة عشر يوماً الأخيرة تمثلت له كل خطاياه وآثامه وكبرياء ذهنه وقلبه ، فقال فى عذابه للطبيب إنه مستعد أن يعطيه نصف أمواله إن هو أعانه على أن يبقى على الحياة ستة شهور فقط . ولكن الطبيب أكد له أن هذا ليس فى قـدرة الإنسان أو فى متناول البشر ! ! . . . كان هناك بصيص من أمل فى أغريباس لأنه يؤمن بالأنبياء ! ! . .

أما الصورة الثانية فلم تكن مأخوذة من تاريخ قديم ، بل من قصة حية ماثلة أمام الملك ، حيث استعرض بولس ، ببهجة وفرح ، اختباراته الشخصية . ولعل الملك وهو يستمع إلى السجين المقيد أمامه ، قارن فى لمحة بينه وبين نفسه . وشتان ما بين الاثنين ! ! ... كان الملك يملك كل أسباب السعادة الأرضية ومع ذلك فهو مجرد منها ، يعيش عيشة شقية بائسة ، وأمامه رجل سجين مظلوم تكبله الأغلال ، ومع ذلك لايوجد من هو أسعد منه على ظهر هذه الأرض ... وهو يقول له بفخر : « ليس أنت فقط بل أيضاً جميع الذين يسمعوننى يصيرون هكذا كما أنا . . » (أع ٢٦ : ٢٩) أى نبع خفى عظيم يشرب منه هذا الرجل ، فيفرح هذا الفرح الذى لاينطق به ومجيد ! ! ... وكان ختام العظة كالسهم البارع . فكان خير ختام اذ هو النداء والتوجيه المباشر الذى يطالب بتحديد الموقف بكل وضوح وجلاء : « أتؤمن أيها الملك أغريباس بالأنبياء . أنا أعلم أنك تؤمن » .

كانت العظة ابتداء وقلباً وانتهاء النموذج العظيم للعظة المسيحية الممتازة ، والتى أوقفت أغريباس وجهاً لوجه أمام المسيح ، ليعطى قراره الفاصل فى الحياة ! !

أغريباس والعقبات الواقعة أمامه :

قد لا يكون من السهل أن نضع كافة صور للعقبات التى وقفت أمام أغريباس فى ذلك الوقت . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أهمها :

(١) حب الاستطلاع الكاذب . . ولعلنا نلاحظ أن الرجل كان من هواة حب الاستطلاع ، فعندما تحدث إليه فستوس عن بولس كان جوابه : « كنت أريد أنا أيضاً أن أسمع الرجل » ... (أع ٢٥ : ٢٢) ... كان من عائلة تحب الاستطلاع وتعشق رؤية الأوضاع المثيرة ، ويكفى أن أباه كان يحب أن يسمع المعمدان، ومع ذلك قتله ، .. وعندما سمع عن يسوع يوم الصليب : « كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تصنع منه » (لو ٢٣ : ٨) . . . وما أكثر الذين لا تعمل فيهم كلمة الله، لأنهم غواة الاستماع أو الرغبة فى حضور الاجتماعات والذين يتحقق فيهم القول : « وها أنت لهم كشعر أشواق لجميل الصوت يحسن العزف » (حز ٣٣ : ٣٢) وكأنما يستمعون إلى لحن موسيقى يطربهم بعض الوقت ، ثم يعودون إلى ما هم عليه من واقع الحياة وسير الأيام ! !

(٢) نقد الآخرين ، وهى العقبة الثانية التى وقفت أمامه ، عندما نعت فستوس بولس بالهذيان والجنون ، فهو اذا استجاب لبولس، فسيراه فستوس مجنوناً آخر نظير بولس . . وما أكثر ما يحجم الناس عن قبول الكلمة الإلهية خوفاً من نقد الناس أو اتهامهم بالغباء والحماقة والنزق والجنون والرجعية ، . . وإلى اليوم يظهر فستوس فى الكثيرين من المنتقدين الذين يقفون حجر عثرة أمام المترددين أو المتهيبين أو الخجلين فيمنعهم من الإعلان الواضح الصريح بإيمانهم بيسوع المسيح .

(٣) الخطية الجاثمة وكانت برنيكى كما ذكرنا أخت أغريباس وعشيقته ، وكانت سمعتها القبيحة كأختها دروسلا ، لا تعطيه فرصة للتملص والتخلص من الأفعوان الذى يطوق عنقه ، والفجور عندما يزداد فى حياة الإنسان ، يدفعه إلى الإباحية التى لا تعرف الحياء أو الخجل ، ومن ثم نرى أغريباس يحضر أخته الفاسقة ليستمع إلى بولس فى حفل عظيم ! ! . . .

وكما ضاع فيلكس مع دروسلا ضاع أغريباس مع برنيكى لأن الفجور يحرق صاحبه كما تحرق النار ، إن لم يسرع الإنسان بالابتعاد عنها بأقصى ما يستطيع من قوة ، وفى الحقيقة إن قتلى الخطية أقوياء ، ما لم يهرب الإنسان لحياته من دائرة شرها ومركز جذبها ! ! . . .

(٤) خوف التضحية . . وهو يرى السجين الذى وضعوا الأغلال فى يديه لأنه آمن بالناصرى وأحبه ، . . ومن يدريه هو فقد يتعرض لفقدان المركز والجاه والسلطان والمجد العالمى . . . إن صليب الناصرى كثيراً ما يدفع ملايين الناس إلى البعد عن حمله خوفاً مما يسببه لهم من جهد وتعب ومشقة وآلام ! ! . . . .

أغريباس والقرار التعس :

قال أغريباس لبولس بعد أن استمع إلى عظته الرائعة : « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً » . . . ثم أعقب ذلك : « فلما قال هذا قام الملك والوالى وبرنيكى والجالسون معهم ، وانصرفوا وهم يكلمون بعضهم بعضاً قائلين إن هذا الإنسان ليس يفعل شيئاً يستحق الموت أو القيود . وقال أغريباس لفستوس كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر » (أع ٢٦ : ٣٠ — ٣٢) . . . فهناك التفسير القديم الذى يظن أن بولس أمسك باغريباس وقاده فى الطريق حتى وصل به إلى ما يقرب من الخطوة الأخيرة التى إذا خطاها يصبح مؤمناً مسيحياً ! ! . . . ولكن أغلب المفسرين المحدثين يأخذون بالنظرية العكسية ، إن لغة أغريباس كانت ممتلئة بالتهكم والسخرية ، أو كأنما يقول له : وهل تظن أنك بحديث واحد مختصر ، أو فى زمن قصير كهذا أو بهذه السرعة المتعجلة المندفعة تستطيع أن تقنعنى بالإيمان الذى تتمسك به وتتعصب له ؟ . . ألست تعلم من أنا . . أنا أثير كلوديوس وصديق نيرون والملك المعروف فى الامبراطورية ، هل مثلى يقبل المسيحية بالصورة التى

تحلم بها أو تريدنى أن أقتنع بقبولها ! ! ... وأيا كان الاتجاه فى التفسيرين وأقربهما إلى الصحة أو الحق ، فمما لاشك فيه أن قرار الرجل كان أتعس قرار أصدره فى حياته ! ! ... لأنه ماذا يمكن أن يفيده ، مهما كانت أفكاره أو نواياه الجادة أو الساخرة ، أن يسبح فى النهر حتى يقترب من آخر شوط فيه ثم يسقط غريقاً قبل أن يبلغ الشاطىء ، ... قبل إن يختا ملكيا إنجليزياً لف العالم كله ، وبعد أن قطع رحلته بسلام تحطم فى اللحظة الأخيرة على خليج فى ويلز ، وكان الضابط الأول فيه قد سبق فأرسل إلى زوجته يخبرها برقياً بالوصول ، فاعدت مائدة العشاء فى انتظار زوجها ، وما أن بلغها خبر ضياع اليخت وغرق من فيه ، حتى نهضت على قدميها فى ذهول وأمسكت بيد الرسول قائلة فى فزع وفجيعة : « قريب من أرض الوطن ولكنه فقد » . . .

ذهب أغريباس وضاع إلى الأبد ، والرجل الذى قال فى قيصرية لبولس : « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً » ... ينهض من وراء الأبدية صارخاً فى كل إنسان لا يستطيع أن يقتنص الفرصة قائلا : تحذر لأنى لا أملك الآن إلا أن أقول وللأسف العميق : من المستحيل أن أصير مسيحياً ! ! . . . حقاً « اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣ : ١٥) ! ! . . .

١٤٤
ترتيوس

« انا ترتيوس كاتب هـذه الرسالة اسـلم عليكم فى الرب » (رو ١٦ : ٢٢) .

جاء بولس إلى ختام رسالته العظيمة إلى أهل رومية ، وأخذ يرسل تحياته إلى الموجودين فيها ، وتلفت حوله ليضم تحيات الذين معه فى كورنثوس – حيث يرجح أنه كتب الرسالة هناك – وكانت بعض الأسماء من الذين معه معروفة للمؤمنين فى روما ، ولكن واحداً عجيباً ، أغلب الظن أنه كان مجهولا من الكنيسة فى روما ، لم يشأ أن تذهب هذه التحيات إلى أخوة له فى المسيح يسوع ، دون أن يدون اسمه بينها ، فكتب جملة وحيدة خاصة به ، وهكذا كشف الرجل عن نصيبه فى واحدة من أعظم الرسائل التى كتبت على الأرض ، وكشفت عن الإيمان المسيحى على أروع أسلوب بوحى الله ، وسر بولس ألا تنتهى هذه الرسالة دون أن يذكر فضل الرجل الذى أملى عليه بولس كلماته العظيمة ، .. ولم يعلم ترتيوس أن اسمه سيظل خالداً مع

هذه الرسالة لمجرد أنه خط ما أملى عليه فيها ، ... كان ترتيوس لبولس ما كانه باروخ بن نيريا الكاتب لإرميا ، وكتب ما كان يقوله إرميا لشعب الله ، . . ومع أن العمل فى حد ذاته يبدو محدداً وضئيلا ، إلا أننا فى العصر الحديث نستطيع أن ندرك أهميته بصورة أعمق وذلك فيما يفعله المساعدون والسكرتيرون ، وكيف أن أعمال القادة والرؤساء تتوقف أو تتعثر أو ترتبك بدونهم ! ! . . ومن ثم يحسن أن نتأمل قصة ترتيوس الكاتب فيما يلى :

ترتيوس وإملاء بولس :

كان ترتيوس يكتب ما يمليه بولس عليه، وقد كانت هذه عادته الغالبة فى كل الرسائل ، ولم يكن يكتب بخط يده سوى التحيات أو كلمات البركة الإلهيـــة ، فمثلا يكتب للكورنثيين : « السلام بيدى أنا بولس » (١ كو ١٦ : ٢١) . . وللكولوسيين : « السلام بيدى أنا بولس . اذكروا وثقى . النعمة معكم . آمين » (كو ٤ : ١٨) . . . ولأهل تسالونيكى يكشف عن السبب فى هذه العادة فى قوله : « السلام بيدى أنا بولس الذى هو علامة فى كل رسالة . هكذا أنا أكتب » (٢ تس ٣ : ١٧) ونفس الشئ يذكره لأهل غلاطية عندما قال : « انظرو ما أكبر الاحرف التى كتبتها إليكم بيدى » (غل ٦ : ١٤) . . . وقد اختلف الشراح فى السبب الكامن خلف هذه العادة ، فمتى هنرى يذهب إلى أن بولس كان من أولئك الذين يكتبون بخط لا يسهل قراءته ، كمثل الكثيرين الذين قد يكتبون بخط ردئ إلى درجة أنهم يعجزون هم أنفسهم عن قراءة خطوطهم ، ويذهب دين فرار إلى أن بولس كانت شوكته الرمد أو التهاب العينين الذى جعله يقول للغلاطيين : « ولكنكم تعلمون أنى بضعف الجسد بشرتكم فى الأول وتجربتى التى فى جسدى لم تزدروا بها ولا كرهتموها بل كملاك من الله قبلتمونى كالمسيح يسوع . فماذا كان إذا تطويبكم. لأنى أشهد لكم أنه لو أمكن لقلعتم عيونكم وأعطيتمونى » ... (غل ٤ :

١٣ — ١٥) . وهو لهذا يكتب بأحرف كبيرة لأنه كان يعانى من عينيه ! !...
وهناك رأى ثالث يقول : إن الكتابة بالاختزال كانت قد انتشرت فى ذلك الوقت ، وقيل إن محاضرات أوريجانوس كانت تكتب أولا بالاختزال ، ثم تعاد كتابتها ، ويجوز أن بولس — على هذا الرأى — كان يطلع على كل ما كتب بعد أن يكتب ثم يضيف إليه التحية بخط يده ، وتصبح الاضافة فى التحية بمثابة توقيعه على الرسالة ! ! . . . على أية حال ، من الواضح أنه كان من عادة بولس املاء الكتابة للآخرين ، وكان له المساعدون والكتاب الذين يقومون بسرور وبهجة وفخر بكتابة ما يمليه عليهم ، وكان ترتيوس واحداً من هؤلاء الكتاب الأمجاد ! ! . . .

ترتيوس وحظه فى كتابة رسالة رومية :

لم يكن ترتيوس يعلم وهو ينقل كلمات بولس الرسول الموحى بها أنه ينقل رسالة من أثمن الرسائل التى كتبت على ظهر هذه الأرض ، الرسالة التى أطلق عليها جويت « كاتدرائية الإيمان المسيحى » « والمنجم الذى ما تزال الكنيسة المسيحية تخرج منه طوال القرون الماضية أثمن الكنوز دون أن يفرغ أو ينفد حتى ترتفع أخيراً من الإيمان إلى المعرفة الكاملة » . . والتى قال عنها كلفن : « إن أى فرد يتمكن من معرفة هذه الرسالة سيجد المدخل المفتوح إلى كنوز الكتاب المخفية » ... ومع أن ترتيوس لم يكن أكثر من مسجل ، إلا أنه كان محظوظاً إذ كان من امتيازه أن يقوم بتسجيل الرسالة العظيمة الخالدة ، ...

ترتيوس وصغر دوره واهميته فى رسالة رومية :

كان دور ترتيوس صغيراً ، ولكنه كان فى الوقت نفسه غاية فى الأهمية ، .. ومن المؤكد أن قارئ الرسالة سيذكر على الدوام بولس، ولكن الغالبية العظمى من الناس لا تلتفت إلى ترتيوس كاتبها ، ... ولكن مهما يكن دور

ترتيوس ، فإنه كان من المستحيل أن نقرأ الرسالة ما لم يقم ترتيوس بنصيبه فيها ، ... والحقيقة أننا فى حاجة إلى أن نذكر الجنود المجهولين الذين يقفون فى العادة خلف العظماء والقادة والأبطال ، ... فمثلا هناك دور الأم ، وما يمكن أن تفعله فى حياة أولادها الذين يلعبون أعظم الأدوار على الأرض ، .. قال لنكولن بعد أن صار رئيس الولايات المتحدة : أنا مدين فى كل ماوصلت إليه أو ما أطمع أن أصل إليه ، لأمى .. وهناك أيضاً دور المعلم ، ومن يقرأ أو يسمع عن تريبونيوس معلم الأطفال الصغار فى ايزناخ ، والذى كان من عادته عند دخوله الفصل على الطلبة أن يرفع قبعته تحية لهم لأن عظماء المستقبل سيخرجون من بينهم ، وكان بين هؤلاء الطلبة مارتن لوثر ، الذى كان يحمل فى أعماقه ثورة الاصلاح الهائلة التى لم تغير مجرى تاريخ أوربا فحسب ، بل العالم كله ! ! ... بل إن الأطفال أنفسهم قد يلعبون الدور الذى لا يتخيله أحد ! ! . . . لما كان القس رسل كونويل شاباً دعى إلى فيلادلفيا ليرعى كنيسة كانت قد تقهقرت فى حياتها الروحية ، ولكنه ما أن استلم قيادتها حتى بدأت تزدحم بالناس إلى أن شعر المجلس بضرورة بناء كنيسة تناسب الحال . ولكن لم يكن لديهم المال اللازم . وكان فى الكنيسة فتاة صغيرة اسمها هيتى ، فهذه جاءت صباح أحد إلى الكنيسة فلم تجد مكاناً لأن الزحام كان إلى ما وراء الباب ، فرجعت إلى البيت حزينة ، واتفق أنها مرضت فى ذلك الأسبوع وماتت ، وبينما كانت على فراش المرض قالت لأبيها : أعط ثلاثة أرباع الريال ملكى للراعى ليبنى به كنيسة جديدة تسع الناس ، ويقول الدكتور رسل إن هذا المبلغ الزهيد هو الذى بنى الكنيسة ، لأنى حالما علمت به بحثت عن قطعة أرض مناسبة ، .. وقد أثارت قصة الصغيرة نخوة الجميع فانهالت التبرعات على الكنيسة ، واستطعنا أن نبنى كنيسة عظيمة ! !

ترتيوس وبركة كتابة رســالة رومية :

لست أعلم قوة الذاكرة عند ترتيوس ، ولكنى اتفق مع من قال إن ترتيوس كان أول من استمع إلى الرسالة العظيمة ، وأول من استمتع بها . كان ترتيوس ، رجلا مؤمناً بالله ، وكان وقع الكلمات على ذهنه وقلبه أحلى من أعظم موسيقى يستمع إليها إنسان فى الأرض ، ... إن الكتابة التى كان يكتبها لم تكن رص حروف جنباً إلى جنب، بل كانت عميقة المعنى ممتلئة قوة كبيرة الأثر فى حياته ، . . وهى تذكرنا بما حدث ذات مرة مع بنيامين فرانكلين عندما كان فى التاسعة عشر من عمره ، وسافر ذات مرة من أمريكا إلى أوربا ، ووصل إلى لندن يبحث عن عمل يتعيش منه ، وكان قد تعلم فن الطباعة ، وإذ رأى فى طريقه مطبعة دخلها ، وقابل مديرها ، وطلب منه عملا ، فنظر إليه المدير متذمراً وقال : « شاب آت من أمريكا يطلب عملا فى إنجلترا . . هذا عجيب . . وهل تعرف حقاً فن الطباعة ! ! ؟ هل تقدر أن تصف بعض الكلمات !! ؟ . . فتقدم الشاب نحو صندوق الحروف دون أن يفوه بكلمة وبسرعة جمع هذه العبارة من الأصحاح الأول من انجيل يوحنا : « فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شىء صالح . فقال له فيلبس تعال وانظر »، . . . وكانت العبارة توبيخاً صامتاً لمدير المطبعة الذى أسرع فأعطى للشاب عملا تحت إدارته ، . . إذ تكلمت الكتابة إليه بلغة أفصح وأقوى ! ! . . . من المؤسف أنه توجد أعداد لا تنتهى من الناس يكتبون للآخرين ، وكأنما هم آلات صماء لا شأن لها بما يكتب أو ينسخ ، وقد تكون أفكارها ومشاعرها وطبائعها ضد ما يكتب أو ينشر بين الناس، .. وهم لا يهتمون إلا بما يأتيهم من مركز مادى أواجتماعى يحصلون عليه من وراء ما يكتبون ، .. ولكن ترتيوس كان يؤمن بكل كلمة يمليها بولس عليه ، وهو سعيد كل السعادة برسالة رومية ، قبل أن تنشر أو تذاع على البشر

وتأخذ مكانتها العظمى فى التاريخ ، وهو ينتفع بها ويتعلم منها ومتميز على الآخرين بسبق الانتفاع والعلم ! ! . .

على أن البركة الأخرى ، تظهر فى الرابطة التى ربطت ترتيوس بالمؤمنين فى روما .... ومن الواضح أن الرجل فى تحيته، يبدو غريباً عن أهل روما ، ويبدو أنه كان من كورنثوس ،وإن كان على الأغلب رومانى الجنسية ، ومن المرجح أنه كان مستقراً بالمدينة ولم يذهب مع بولس إلى أماكن أخرى، وإلا لورد اسمه بين أسماء المرافقين لبولس فى الرسائل الأخرى ، ... ومع أنه لم يكن معروفاً للكنيسة فى روما ، لكنه حياهم فى « الرب » فى ذاك الذى جاء ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ! ! . . . قال جون ويسلى : « إذا كان قلبك ينبض مع قلبى بالحب والولاء للمسيح ، فضع إذا يدك فى يدى واعلم أن الكنيسة مؤسسة واحدة رأسها المسيح ؛ وإيماننا مهما تختلف فى التعبير عنه فهو الإيمان بقوة المسيح المخلصة التى تخلص الخطاة وتعطيهم الحياة الأبدية ! ! . . . وما أجمل الرابطة المسيحية التى تتجاوز حدود المعروف والمنظور والأهل ، لنرى فى كل مؤمن أخاً محبوباً فى الرب ! ! . . . كان هذا شيئاً مجهولا عند الرومانى أو الوثنى ، وكان أبعد من أن يصل إليه اليهودى إذ ألف معلمو اليهود أن يقولوا : إن اليهودى بقوله قريبى يستثنى جميع الأمم ، ويقول الربى سيمون : إن الأمم الذين لا حرب بيننا وبينهم. وكذلك حراس القطعان الإسرائيلية ومن شاكلهم، هؤلاء لا يجوز أن نقتلهم ، ولكننا لسنا ملتزمين أن نعمل على انقاذهم إذا ما وقعوا فى خطر ، فإذا سقط أحدهم فى الماء فلا يلزمنا أن ننتشله لأنه ليس قريبنا . فهو أممى ! ! . لكن ترتيوس أخذ البركة التى تربطه بكل مؤمن على الأرض ، وهو يحبه . ويحييه عن قرب أو عن بعد ، فى الرب ! !

على أن البركة الواضحة بعد هذا كله ، هى بركة الخلود الذى ضمنه

هذا العمل لترتيوس ، كانت عادة بعض الرسامين القدامى ، وهم يريدون أن يخلدوا أسماءهم فى الصور التى يبدعونها ، وفى الوقت نفسه لا يريدون لفت النظر إليهم ، أن يضعوا فى ركن من الرسم شخصاً واقفاً أو راكعاً ، ملامحه هى ملامح المصور نفسه ، . . . ونحن نرى ترتيوس ،فى نهاية الصورة العظيمة لرسالة رومية ، لا يرى نفسه أهلا لأن يظهر فيها إلى جانب بولس العظيم، ولكنه فى ركن متواضع خالد يقول : « أنا ترتيوس كاتب هذه الرسالة أسلم عليكم فى الرب » ، ... ومن العجيب أن هذه الكلمات الوديعة المتواضعة تشع بنور أبدى لتعلن الحقيقة الكبرى فى أن أبسط عمل تقدمه للسيد،سيكتب له الخلود مع أعظم الأعمال وأسماها وأمجدها على وجه الاطلاق ، ولا يضير ترتيوس أن يركب قطار الخلود فى آخر عربة فيه ، حتى ولو كان بولس فى المقدمة وفى أمجد مكان ، مادام كلاهما يسيران بالعمل العظيم أو البسيط إلى المجد الأبدى ! ! .. ترى أية رسالة تكتب فى دنيا الحياة أيها القارئ الكريم !؟.. ضع اسمك مكان ترتيوس وأكمل الجملة التى خلدت الرجل القديم إلى جانب بولس سواء بسواء ! ! . .

١٤٥
كوارتس

« . . . وكوارتس الأخ » (رو ١٦ : ٢٣).

اجتمعت بعض الفتيات فى كنيسة من الكنائس ، وصممن على أن يحتفلن احتفالا خاصاً بذكرى عيد الميلاد فى تلك السنة ، وبعد أخذ ورد وتفكير وتأمل استقر رأيهن على أن ترسل كل واحدة هدية من مالها الخاص إلى أطفال ملجأ من الملاجئ الكبرى ، ووزعت أسماء الأيتام عليهن ، واختارت كل منهن طفلا يتيما ، وكتبت إليه تستشيره فى نوع الهدية التى يرغب فيها ويتوق للحصول عليها ! ! . . .وكان بين الأطفال يتيم عرف بكآبة مظهره ، ووجومه الغريب ، وميله إلى الوحدة والعزلة ، وكتب هذا الصغير مجيباً عن ماهى الهدية التى كان يريدها فقال : إن ما أريده أكثر من أى شىء آخر هو الحصول على أخت لى تحبنى وتسليني وترعانى . فهل من المستطاع موافاتى بهذه الهدية ! ! . . ولا تسل عن وقع هذه الطلبة الخيالية البريئة على نفس الفتاة التى كانت تتأهب للتبرع بهدية عادية ،

ولكن سرعان ما ثارت فى نفسها معركة قاسية ، لم تهدأ قبل الوصول إلى قرار معين بخصوص ذلك الطفل اليتيم الأبوين والمحروم من عشرة الأخوة ، لقد رأت فى الرسالة دعوة لابن صغير يتيم بل من الله نفسه ، وكتبت إلى الطفل لتؤكد له أنه سينال الهدية التى كان يحلم بها ، وأنها منذ الآن فصاعدا ستكون أخته بكل ما تحمل كلمة الأخوة من معنى ! ! . . .. إن المسيحية صنعت شيئاً عجيباً إذ أن الله الأزلى جاء بالاخوة – لكل البشر فى ذاك الذى لم يستح أن يدعونا اخوة ، . . وحطم كافة الحواجز التى تفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان ! ! .. ولعلنا نستطيع متابعة هذا كله ، ونحن نستمع إلى التحية التى كتبها بولس فى رسالته إلى رومية من كوارتس الذى تميز بين الجميع بهذا اللقب « كوارتس الأخ » ؟ ؟ . . .

كوارتس والاخـوة الضـائعة :

إن المسيحية تحمل معها أينما تذهب رسالة الأخوة الصادقة التى ضاعت من بنى البشر ، وكلما بعد الانسان فى أى عصر من العصور عن روح المسيح ومبادئه وعواطفه ، كلما استبدل الاخوة بالوحشية المتمكنة منه ، ... إن العالم كله يعرف أفلاطون الفيلسوف اليونانى المشهور والذى عاش حتى بلغ الثمانين من عمره ما بين ٤٢٨ – ٣٤٨ ق . م ، ومع أنه كان رجلا غنياً متمتعاً بخبرات كثيرة ، لكن قلبه كان ممتلئاً من الألم والأحزان على مآسى الناس ، لقد أبصر الانقسام والجهل والشر والتعاسات والآلام التى يغرق فيها البشر فى كل العصور والأجيال ، وجلس الرجل يفكر فى عالم أفضل من العالم الذى يراه ،وبات يحلم باليوم الذى ينتهى فيه صراع الناس وتموت أطماعهم وحروبهم ومخاوفهم ، ومن أجل ذلك كتب أحد كتبه «الجمهورية » وقسم الناس فى الجمهورية إلى ثلاث طبقات ، الطبقة العالية : طبقة الحكام والرؤساء ، . . وقد تصور أفلاطون أن هؤلاء ينبغى أن يكونوا من طبقة

الفلاسفة ، والطبقة الثانية : رجال الجيش ، والطبقة السفلى : طبقة التجار والزراع والصناع . ويقول أفلاطون إن الموسيقى والألعاب الرياضية والفضيلة ينبغى أن تنتشر فى جمهوريته ،ولم يكتف أفلاطون بمداعبة الخيال فى جمهوريته ، بل حاول أن يطبقها ، وإذ كان صديقاً لملك صقلية وأثيراً عنده ، دعا إلى تطبيق نظامه هناك ،وقد اعتقد الملك أن عمليته عملية تخريب ،وكاد يقتله ،فهرب من هناك ، ... وأدرك أفلاطون النقطة الخاطئة القاتلة فى ذلك الفكر .. لم يضع لله مكاناً فى جمهوريته ،فعاد فى كتاب « القوانين » ليصحح هذا الخطأ ويدعو إلى الإيمان والدين ، .. فإذا تحولنا إلى العصور الأخيرة ، فإننا نرى ما فيها من متاعب ومعاناة كلما تباعد الإنسان عن المسيحية وأفكارها ، .. وهناك أمثلة لا تنتهى عن صور الأخوة الضائعة بين بنى البشر . . كان دكتور أجرى الزنجى الأسود واحداً من أبطال الدفاع عن الاخوة الضائعة بسبب التفرقة العنصرية ، واحتمل فى سبيل ذلك الاضطهادات المريرة ، ولكنه قابلها بشجاعة وابتسام وتسامح ، وعاش يدافع عن الملونين ويهاجم التفرقة العنصرية ، ولم يكن يضيق بلونه الأسود ، بل قال : لو ذهبت إلى السماء وهناك سألنى إلهى عما إذا كنت أرغب فى العودة كرجل أبيض فانى سأجيبه بأن عندى عملا كرجل أسود أكثر مما يستطيع أى رجل أبيض أن يؤديه ، أرجوك أن ترسلنى ثانية أسود حتى يمكننى أن أؤدى عملى . . . وفى رحلاته فى أفريقيا وإنجلترا وأمريكا طالما قوبل بالعداوة العنصرية لكنه كان يتغلب بروح المحبة والتسامح . والمرح . ولقد حدث أن اجلسوه بمفرده على مائدة فى سفينة ، إذ لا يجوز أن يجلس مع رجل أبيض ، فأجاب : إنى أفضل منكم لأنكم تجلسون سبعة متزاحمين حول مائدة ، بينما أجلس أنا مستريحاً دون مزاحمـــة ! ! . . .

وربما لا يجد الإنسان فى العصور الحديثة رجلا سخط على الانقسام البشرى ،

ووقف ضد الكراهية والعنف وناضل ضدهما حتى الموت مثل تولستوى الكاتب والفيلسوف الروسى العظيم ، وقد انتصب أمام عينيه هذا الاحساس الدائم : إن بداية الحياة واحدة عند مولود القصر ومولود الكوخ ، فكل منهما يخرج إلى الدنيا من بطن أمه بنفس الطريقة عارياً من كل ثوب ، بل ومن كل معرفة ، ونهاية الحياة واحدة عند الغنى والفقير ، فكل منهما يلقى به إلى جوف التراب البارد المظلم ، ولا تفرقة بين نهاية الاثنين سواء كانت جنازة تصدح أمامها الموسيقى أم أخرى لا يسير خلف نعشها سوى مجموعة شاحبة النظرات من الحفاة والمشردين ! ! . . فلماذا إذاً هذا الصراع المهول والتفرقة الرهيبة بين بنى الإنسان ! ! . . . ولد تولستوى عام ١٨٢٨ وعاش حتى تجاوز الثمانين من العمر ، وحياته معذبة بهذا الاحساس الذى دفعه إلى أن يصف وهو لا يدرى ودون أن يحب ــ الصورة الرهيبة لحياة الشعب الروسى ، الذى انتهى إلى الشيوعية ، والتى جعلت سوفورين يكتب عنه عام ١٩٠١ : « إن عندنا قيصرين نيقولا الثانى وليو تولستوى ، ولكن أيهما الأقوى ! ؟ . . إن نيقولا الثانى لايستطيع شيئاً ازاء تولستوى ، ولا يمكن أن يزعزع عرشه ، فى حين أن تولستوى بغير شك سيزعزع عرش نيقولا الثانى وأسرته ! . . . ولم تنقض على هذه الأقوال ستة عشر عاماً أخرى حتى تحققت فى الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ .. كتب تولستوى العديد من الكتب والقصص ، لكنه أكثر من ذلك ، حاول كأفلاطون أن يطبق نظرياته عملياً إذ تطلع إلى التخلص من أمواله بتوزيعها على الناس ، وقد وقفت زوجته ضده بكل عنف فى هذا الاتجاه . وجعلت تستعدى الدولة عليه ، وخرج من بيته شريداً متألماً لهذه الفوارق التى تفصل بين الناس بعضهم البعض لمجرد أن واحداً يستطيع أن يجد بدلة يرتديها وآخر تكسوه الخرق البالية ! ! . . . ومن الغريب أن الرجل وقد اهتدى إلى المسيح

علاجاً لكل مشكلة على الأرض عرف السبب وراء تعاسة الناس فى روسيا يوم قال : « إن الكثير من تعاليم الكنيسة الروسية يدفع الناس إلى عدم العناية بالفضائل الجوهرية التى كانت هى غاية المسيح ! ! . . » . . .

كوارتس والأخوة المسيحية :

من الواضح أن كوارتس هذا كان أمميا يدعوه بولس الأخ ، وهو يرسل تحيته إلى جماعات من الناس ربما لم يكن قد رأى أحداً منهم من قبل ، ومع ذلك فهم اخوة له على اجمل ما تكون الاخوة فى الحياة ، ... لقد تأسست هذه الاخوة على الإيمان بالمسيح الذى جاء « ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد » (يو ١١ : ٥٢) . . . كان العالم الرومانى عندما ظهرت المسيحية مجموعات متباينة من الناس حاولت روما بشتى الوسائل جمعهم وربطهم معاً دون جدوى ، . . كان هناك الأحرار والعبيد ، أو الوضع الاجتماعى المنقسم على ذاته ، . . وكان هناك أيضاً اليونانيون والبرابرة ، أو الوضع الثقافى المتباعد الأطراف ،وكان هناك الرومانيون وغير الرومانيين ،أو الوضع السياسى المتفاوت الحظوظ ، . . وكان هناك أخيراً الأمميون واليهود ، أو الوضع العنصرى المتنافر ، .. كل هذه وغيرها تعطينا صورة للمجتمع البشرى قبل المسيحية ، قلنا المجتمع البشرى ، ولم نقل الإنسانى ، لأن الوضع الإنسانى فى معناه العميق الراقى لم يعرف فى العالم قبل المسيحية ، أو كما قال ماكس مولر العالم الألمانى الفيولوجى العظيم — العالم فى فن اللغات — إن الكلمة « إنسانية » لم توجد على الأرض قبل مجئ المسيح . أجل فى المسيح وحده ليس يونانى ويهودى ، ختان وغرلة ، بربرى سكيثى ، عبد حر بل المسيح الكل وفى الكل ! ! (كو ٣ : ١١) لقد تأسست الاخوة المسيحية تحت الصليب ، ونستطيع أن نرى أبهى منظر لها فى شركة المؤمنين التى تكتسح أمامها كل الحواجز البشرية التى صنعها الإنسان ! ! . . فى اجتماع

دينى فى كنيسة هندية ، وفى أثناء تناول المائدة الربانية ، كان راعى الكنيسة الوطنى يقدم الكأس للجميع فردا فرداً ، وقد حدث أن شخصين مسيحيين كانا جالسين إلى جوار بعضهما ، وكان أحدهما أصلا من طبقة البراهمة ، وكان مرتدياً من الثياب مايدل على شخصه ومركزه ، أما الذى إلى جواره فقد كان مظهره ينبئ عن أنه من أفقر الطبقات وأوضعها ، . . وعندما مربهما الراعى قدم الخبز والكأس أولا للشخص العظيم ، ولكن الرجل رفض ، وبوداعة ولطف قدم الكأس لجاره الفقير ، وبعد أن شرب منها ، أخذها هو ووضع شفتيه ، وشرب من ذات المكان الذى شرب منه الفقير الهندى ! ! . . . لم يعد هناك براهمى أو منبوذ ، لقد كان الاثنان أخوين فى المسيح الذى أحبهما وأسلم نفسه من أجلهما ! ! . . . من الأشياء الغريبة عند بعض القبائل الأفريقية أنه إذا أراد شخصان أن يأخذا على نفسيهما « عهد الأخ » فانهما يجلسان متقابلين يحملان فى حجريهما آلات الحرب ، ويذبح خروف أو جدى ، ثم يستخرج قلبه، ويشوى ، ويقسم بين المتعاهدين بعد أن يأخذ كل منهما سكيناً يجرج بها شريان الآخر ، ويغمس نصيبه فى دمه ، ويأكلان النصف المختلط بدمه ، وبهذا يبدوان كما لو أنهما اختلطا وأصبحا واحداً ، . . لكن المسيح وحدنا بما هو أعظم وأكمل ، بدمه الكريم الذى سفكه لأجلنا على هضبة الجلجثة ، فصرنا فيه واحداً ، وأصبح كل واحد منا للآخر أخاً ! ! . . .

كوارتس والاخـوة المميزة :

على أن كوارتس تميز فى التحية عن غيره بالقول : «كوارتس الأخ » والواضح أن هذه كانت أظهر صفة له ، أو أشهر لقب يلقب به ، فيصف بولس الآخرين بألقابهم التى اشتهروا بها رجالا كانوا أو نساء ، أو بما قاموا به من أعمال ملحوظة ومجيدة ، وفى الحقيقة نحن أمام أسماء كان من المستحيل

أن ترتفع إلى مستوى التاريخ لولا أنها تألقت بصفة ما أو صفات محددة ، فمن كان يسمع مثلا عن فيبي التى كانت خادمة أو شماسة لكنيسة كنخريا ، والتى اشتهرت بمساعدتها للآخرين ، . . ومن كان يعلم عن اخلاص أكيلا وبريسكلا ، ذلك الإخلاص النادر الذى ارتفع إلى أسمى الذرى ، حتى أنهما وضعا عنقيهما من أجل بولس فى لحظات الخطر والموت ، ومن كان يسمع عن أبينتوس الذى هو أول شخص آمن فى أخائية ، أو عن النساء مريم وتريفينا وتريفوسا وبرسيس اللواتى تعبن كثيراً فى الرب ولكنهن بذلن كل الجهد دون كلل أو ملل أو عن ترتيوس كاتب الرسالة ، وغايس مضيف الكنيسة أو أراستس خازن المدينة ، كل هؤلاء وغيرهم لحقهم هذا الوصف أو ذاك مما يمكن أن يعرفوا به ، لكن بولس عندما ختم الأسماء ، وصف كوارتس بالاخوة ، ويبدو أنها كانت لقبه الأشهر المعروف به بين الجميع ، ولست أظن أن هناك وصفاً أجل أو أعظم من هذا الوصف الجليل المبارك بما يحمل فى أطوائه من بركات لا تنتهى ! ! . . . إن الاخوة معناها أول كل شىء الوداعة التى تعطى الآخرين مركز المساواة دون أدنى تأفف أو استعلاء ، عندما كتب الرسول يوحنا سفر الرؤيا إلى الكنيسة العامة ، وكان هو آخر الرسل الذين كانوا قد استشهدوا جميعاً ، وكان يمكن له أن يحمل ما يشاء من ألقاب سامية عظيمة ، . . لم يستخدم لقب البابا أو القائد أو الزعيم أو ما أشبه من ألقاب السيادة ، بل قال : أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره !! (رؤ ١ : ٩) ونحن لا نعلم مركز كوارتس فى مدينة كورنثوس ، وحظه فى الحياة بين الناس وفى المجتمع ، لكنه عاش مع الصغير والكبير ، ومع الغنى والفقير ، ومع المتعلم والجاهل ، ومع الحر والعبد ، وهو يراهم اخوة له ويرى نفسه أخاً لهم . كان كوارتس يمثل الأخ المسيحى للجميع ، متمشياً وراء ذاك الذى لم يستح أن يدعوهم

اخوة . « قائلا أخبر باسمك إخوتى وفى وسط الكنيسة أسبحك » ! ! ... (عب ٢ : ١٢) . والأخوه تعنى الحب، والحب العميق ، الحب الذى يسر بالبذل والتضحية ويبتهج بالايثار والعطاء ، ... رأى أحدهم شابا يحمل صبياً ويصعد به جبلا ، فقال له : مسكين هذا حمل كبير ، . . وإذ بالآخر يحتج قائلا : إنه ليس حملا ، إنه أخى ! ! . . وربما أشرنا فى بعض الشخصيات إلى القصة الواقعية لشاب طلب عملا فوجد وظيفة فى مصنع كانت ساعات العمل فيه طويلة والعمل غير مناسب ، ولكن الأجر اجتذبه ، فكان يشتغل ساعات العمل وساعات فوقها ، ودعاه زملاؤه ليحضر حفلات سمرهم ولهوهم وأن يشاركهم فى النفقات فرفض . ضحكوا عليه وسخروا منه واضطهدوه ولكنه ظل يعمل ويوفر ، وبعد مدة استطاع واحد منهم ، أظهر له شيئاً من العطف ، أن يعرف قصته ، وخلاصتها أن له اختاً فقدت بصرها ، والأمر يتطلب عملية سريعة لرد البصر إليها ولذلك فهو يعمل بكل قواه للحصول على المال اللازم قبل ضياع الوقت ، فلما عرف زملاؤه القصة تغير مسلكهم نحوه وعدوه بطلا ، وقدموا له من أموالهم ما مكنه من إجراء العملية لأخته فى الحال ! ! . . ونحن لا نعرف مقدار ما بذل كوارتس لأجل اخوته الآخرين ، ولكنه لا يمكن أن يكون جديراً بلقب « الأخ » إذا لم يكن قد أعطى الجهد والتعب والمال والقوة لأجل الآخرين ! ! . .

ومن المعتقد أن كوارتس وهو يحمل هذا اللقب فى مدينة كورنثوس كان الأخ المسالم الذى يدعو إلى طرح كل تحزب وخصومة وانقسام ، ونحن نعلم أن كورنثوس كانت أكثر من غيرها المدينة التى عانى الرسول فيها الكثير من جراء التكتلات والحزبية وضعف روح التضامن والتعاون ، وربما كان كوارتس حمامة السلام فى كثير من المواقف والمتاعب ، . . عندما امتلأ قايين بروح الحقد والحسد والضغينة ، قتل أخاه ، وكان جوابه

على سؤال الله : أين ها بيل أخوك ــ أن قال : أحارس أنا لأخى ؟ ! ! . . وعندما فقد أخوة يوسف روح الأخوة كانوا على استعداد لقتل أخيهم وأخيراً باعوه ، وسلموه إلى الغربة والعبودية والتشريد ، أما هو فكان على العكس عندما عرفهم بنفسه وذودهم بالطعام ليذهبوا ويأتوا بأبيهم ثم : « صرف اخوته فانطلقوا وقال لهم لاتتغاضبوا فى الطريق » . . وكلما ازداد احساسنا بالاخوة كلما ازددنا انصرافنا عن كل ما يعطل شركة المحبة والسلام مع اخوتنا أينما كانوا وأينما وجدوا ! ! . .

وكان كوارتس فى كورنثوس الأخ الغيور الممتلىء بعواطف المسيح بحثاً عن الآخرين فى المدينة التى جعلت بولس يرتعد لكثرة مجونها وفسادها وعربدتها ، . . . والحقيقة أننا لا يمكن أن نكون اخوة بالمعنى المسيحى الصحيح ، بينما نحن نترك النفوس الثمينة التى مات المسيح من أجلها ، سواء من أهلنا أو الآخرين ، دون أن نبذل كل جهد لاختطافهم من جوف اللهيب .. كتبت احداهن عن سيدة أمريكية كانت تعمل فى بلاد الهند ، وحيدة لا أحد من جنسها معها ، يحيط بها الوثنيون بابقارهم وقرودهم المقدسة وكهنتهم الأردياء وخادمات الهيكل اللواتى يصل عددهن إلى ثمانية آلاف وتقول الكاتبة ، إنها لا تنسى ساعة توديعها إياها ، . . وكم كان صعباً أن تتركها وحدها ولكنها سمعتها تقول : ولكن هذا الشعب شعبى وسيبقى شعبى حتى يصير إلهى إلههم ! ! . . . رأى أحد الأتقياء فى حلم أنه مات وذهب إلى السماء ، فسر سرورا لا مزيد عليه ، وجعل يطفر ويسبح إلى أن اكتشف أن جاراً شريراً له لم يكن هناك ، فسأل لماذا لاأرى الحداد هنا ! ! ؟وكان الجواب : لأنه لم يسأل عنه أحد ، إذ لم يهتم به إنسان . عندئذ استأذن فى الرجوع إلى الأرض لكى يطلب منه أن يرجع إلى الله ! ! . . واستيقظ فقام

فوراً إلى الحداد ماشياً على قدميه ، مسافة ميل كامل ، وأخبر الرجل بالحلم ثم تركه وهو يقول : الآن لا يقل أحد أنه لم يسأل عنك إنسان فقد سألت عنك ، وأثر الكلام فى الرجل تأثيراً كبيراً فعاد إلى الله ! ! . . .

إن العالم يحتاج حقاً إلى « كوارتس الأخ » والاخوة ليست شيئاً هيناً بل هى أمر مكلف ، وعندما قال السيد إنه سيرفعنا إلى مرتبة الاخوة ، كان الثمن المدفوع دمه الذى بذله على خشبة الصليب من أجل كل واحد منا ، . أما الاخوة الرخيصة فهى أخوَّة زائفة ، وما أكثر الذين يدعون أنفسهم اخوة دون حق ، مع أن الرسول يوحنا يقول : « وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه فكيف تثبت محبة الله فيه » . . وقد كتب أحدهم يعلق على ذلك قائلا : اسمع أيها العالم : إن يوحنا يتحدث عمن يمنع الخير عن أخيه ، ولا يتحدث عمن يهجم على أخيه ويسلبه كسرته اليابسة ، وعشته الحقيرة ، بل قد يسلبه أولاده وحياته ، وهو لا يتحدث عن الاخوة الذين يرفعون سيوفهم ويذبحون اخوتهم ، ويركبون البر و البحر ليجلبوا لهم الموت ، وما هو أشر من الموت ، وفى أوربا التى يقال ، إنها مسيحية ، يقوم المسيحيون من هنا ، ومن هناك ، ويسلمون على بعضهم لا بقبلات مقدسة لكن بنار وكبريت ، بسوائل ملتهبة ، وغازات سامة ، وخوف وخراب وموت ، ومن عجب أن ينال الجيش المحارب صلوات وبركات الخدام ، وترفع الدعوات إلى الله لينصر الاخوة فيتمكنون من ذبح اخوتهم ، ومن عجب أن يرتفع صليب المسيح ، رمز الذبيحة والتضحية والمحبة ، فوق رؤوس القاتلين وهم ذاهبون ليقتلوا . . يقول يوحنا : « يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق » ، (١ يو ٣ : ١٨) . إن محبتنا هى الكلمات والقبلات فقط ، أما يوحنا فيطلب محبة حقيقية كمحبة سيدنا . أحب المسيح تلاميذه فى ساعة

القبض عليهم فاهتم بنجاتهم . . ثم مات من أجلهم ، وأحب يهوذا المسيح « فقبله » و « قتله » . . لم يكن كوارتس يعرف الاخوة إلا بالمعنى الصحيح ، والباذل ، ومن ثم كان جديراً بأن يقول عنه بولس . . . « يسلم عليكم اراستس خازن المدينة وكوارتس الأخ » . نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم آمنين . .

١٤٦
أبفرودتس

« لأنه من اجل عمل المسيح قارب الموت مخاطرا بنفسه لكى يجبر نقصان خدمتكم لى » (فى ٢ : ٣٠) .

كان أبفرودتس قطعة من الجمال الخالد فى كل التاريخ ، والاسم أبفرودتس يعنى فى الأصل « جميل » ، « ظريف » ، « بديع » ، « بهى » وهو مأخوذ من اسم أفروديت إلهة الجمال عند الإغريق ، وربما أطلق عليه هذا الاسم لأنه ولد جميلا جداً ، ولكن أبفرودتس لم يخلده قط جمال المنظر ، فما أكثر ما كان الجمال كارثة على الإنسان وفجيعة كبرى له ، وقد هوى بملايين الناس إلى أعماق الجحيم ، لكن أبفرودتس أضحى خالدا لأنه كان من أروع النماذج للجمال المسيحى ، لقد أرسلته كنيسة فيلبى إلى روما يحمل عطية الكنيسة للرسول السجين هناك ، الهدية التى قال عنها : « نسيم رائحة طيبة ذبيحة مقبولة مرضية عند الله » (فى ٤ : ١٨) ... ولم تكن الهدية فى حد ذاتها هى النسيم والرائحة العبقة الطيبة ، بل كان أبفرودتس وما يزال على

مر الأجيال والعصور هو الرائحة الذكية فى فيلبى وروما والتاريخ كله ، وقصته من أجمل وأمتع القصص التى تروى فى الحياة الروحية ، والأدب المسيحى ، ولعلنا نتأمل هذه القصة كما جاءت فى سطورها القليلة العظيمة المعبرة فى الأصحاح الثانى من الرسالة إلى أهل فيلبى والتى يجمل بنا أن نراها فيما يلى :

ابفرودتس وجمال روحه :

كان أبفرودتس يونانيا مكدونيا من فيلبى ، واليونانيون كانوا يعبدون الجمال ، وكانت الآلهة عندهم جميلة ، فأفروديت آلهة الجمال كانت تظهر طاغية الأنوثة على أبدع صورة من الجمال الانثوى ، وكان أبولو يكشف عن جمال الرجولة ، بكل مافى الرجولة من قوة وعظمة ، . . وكان زيوس كبير الآلهة يكشف عن الفخامة والجلالة ، . . كانوا عباد الجمال ،... وربما كان أبفرودتس رائع الجمال ، حلو التقاطيع ، على أجمل ما تكون الصورة المادية للجمال لكن هذا الجمال لا توجد أية إشارة إليه فى كلام الرسول إذ يغطيه دائماً ماهو أعظم وأبهر ! ! .. كان يوسف جميلا ، ولكن جماله الأعظم لم يكن فى الجمال الجسدى ، بل فى تفوق الجمال الروحى ، على جمال الجسد ، ولم يلفت يوسف العالم بجمال شكله ، ولكنه لفت العالم بجمال عقله الذى أدار به حياة أمة ثمانين عاماً بأكملها ، من الثلاثين « أن مات فى المائة والعاشرة من عمره ، . . وفى جمال الأخلاق المترفعة أمام الله والناس ، فهو ليس بالإنسان الذى يعطيه خالقه جمالا ، فيفسد هذا الجمال بالشر العظيم الذى يصنعه أمام الله ، وهو ليس بالإنسان الذى يستغل هذا الجمال ضد الرجل الذى وثق به به وسلمه كل شىء فى بيته ، كان جمال الروح أعظم ما يملأ حياة يوسف ، .. كان موسى جميلا وقد زاده الله جمالا بالشعاع البهى الرائع الذى عكسه على

وجهه ، فجعله أروع من جمال القمر عندما تسكب الشمس أنوارها العظيمة عليه ، واحتاج موسى إلى برقع ، يغطى به هذا الجمال كلما اقترب من الناس أو أقترب الناس منه ، لأن جمال الله كان عليه ، . . ولكن موسى لم ير الجمال فى وجهه أو بنيانه الرائع ولم ير الجمال فى عقله الذى قاد أمة أربعين سنة يصرف أمورها بحكمة عظيمة . . ولكن جماله الأعلى كان جمال الروح فى الحياة السامية التى عاشها على مقربة من الله ، حتى أخذه الله إليه بقبلة كما جاء بالتقليد اليهودى ! ! . . . كانت أبيجايل امرأة جميلة حسنة الصورة ، لكن جمالها الحقيقى لم يكن هو الجمال الأنثوى الذى يسحر العقول ، ويذهل الألباب ،بل كان جمال العقل فى المرأة الجيدة الفهم الحسنة التدبير ، التى تقف فى وجه الكارثة المزمعة أن تكتسحها وبيتها لحماقة زوجها ، وسوء تصرفه ، ... لكنه مع هذا كله كانت أروع جمالا بالسمو الروحى الذى جعلها ترد داود من الانتقام مذكرة اياه بالدعوة العليا التى لا يجمل به أن يضيعها بالانتقام ، بل أن يسمو بها فى انتظار فضل الله الذى لابد أن يأتى ، وأخذ داود بهذا السمو الروحى ، وعف عن القتل وسما إلى العفو ، وجاءه الفرح من الله بعد أيام قلائل ! ! . .

كلا لم يكن جمال أيفرودتس مجرد جمال جسدى أو حتى عقلى،بل كان أولا وأخيراً الجمال الروحى ، العظيم ، كان اسمه مشتقاً من أفروديت آلهة الجمال ، وشتان بين الجمال فى المفهوم المسيحى ، والجمال عند اليونان فى المفهوم الوثنى ، كانت عبادة أفروديت مقرونة بالتلوث والدعارة والعار ، وكانت هناك ألف امرأة فى كورنثوس خصصن أنفسهن من أجل أفروديت لهذه العبادة القذرة الداعرة ، ... . وفى كل أجيال التاريخ عاش الناس وما يزالون وثنيين فى عبادة الجمال والخضوع لسلطانه البطاش الرهيب ، فكم

من شاب ترك دينه من أجل امرأة ، وكم من شابة باعت حياتها وجمالها فى سوق الهوى الرخيص والتبذل القبيح ، .. وكم من نذير حلقت شعر رأسه على ركبتيها فتاة ماجنة وكم من ملايين الناس هووا إلى الجحيم ، وهم أشبه بالوعول الساقطة فى الأشراك ، . . أشراك الحب الآثم والهوى القبيح ! !... لكن أبفرودتس والذى ولد فى مهد الجمال الوثنى ، سطع عليه نور المسيح ، فأضحى مسيحياً يشع منه نور الحياة الإلهية المقدسة الممتلئة من جمال الروح ! ! . . .

وعندما نقرأ قصة أبفرودتس تجد أمامك قصة رسمها فنان عظيم رائع الجمال يعكس جماله على جميع أتباعه وأشياعه ، رسمها ذاك الذى هو أبرع جمالا من بنى البشر ، وهو يعطى جمال الحياة المسيحية لأولئك الذين يخرجهم من جمال العالم ، إلى جماله القدسى العظيم . . . لقد تحول جمال أبفرودتس من المعنى الوثنى المرتبط بأفروديت آلهة الجمال ، إلى الجمال المسيحى كما رسمه المسيح بحياته . والمسيح على الدوام يفعل ذلك على أكمل وجه ، عند مايضع فى مرسمه أولئك الذين يعيد رسمهم من جديد كالفخارى العظيم بعد أن تلف الوعاء وفسد ، فأعاده مرة أخرى إلى دولابه الخالد ! ! ... لعل أكبر ظلم فعله غريغورى العظيم فى مريم المجدلية ، هو أنه صور شياطينها السبعة فى صور الحياة المبتذلة التى اعتقد أنها كانت تعيشها ، وأنها كانت خليعة ماجنة ممعنة فى الفساد والاثم والشر ، حتى مر بها المسيح ، وأخرج شياطينها ليقدس حياتها له ، . . . وقد سار كثيرون وراء غريغورى فى هذا النهج من التفسير وهم يتأملون النعمة المجملة لحياة الإنسان . . وإنى لا أعتقد بتاتاً أن مريم كانت على هذا التبذل فى حياتها الأولى ، بل كانت مجنونة كسائر المجانين الذين يفقدون وعيهم ، وأنها كانت كمجنون الجدريين الذى أفقده الشيطان وعيه وإدراكه وحياته العاملة بين الناس، ... والشيطان على أية

حال وراء ضياع العقل والروح ، وهو يسلب الإنسان جماله ، حتى يسترده فى يسوع المسيح المبارك ! ! . . . وسواء كان جمال مريم مفقوداً بسبب ضياع عقلها أو تبذل حياتها ، فإن الميسح بصنع بكل إنسان ما صنعه بها عندما أعاد إليها جمال العقل والحياة ، وكساها لا بمجرد جمال جسدى ربما كان فى الأصل رائعاً وعظيماً ، بل بالجمال الروحى الأروع والأعظم ! ! ... إن مريم وأبفرودتس وأنا وأنت ، وسواء كنا نتمتع بجمال الجسد أم كنا عاطلين عنه ، قبحتنا الخطية ، وتركتنا أكثر سواء من فحمة الليل ، حتى جاء المسيح نور العالم ، وجعلنا أنواراً تشع بالضياء فى ظلمة الليل البهيم ! ! .. وشتان ما بين أفروديت والمسيح ! ! . . .

أبفرودتس ورقـة مشـاعره :

وهنا نقف أمام مشاعر قل أن توجد بين البشر ، ... كان أبفرودتس كما وصفه بولس : « أخى » وهى ليست مجرد كلمة تلقى جزافاً ، بل هى تعبر عن واحد من أرق المحبين فى الأرض ، .. لم يكن أخا لبولس فى الجسد، فبولس يهودى ، وهو يونانى ، لكنه كان أخاً فى الروح ، ويوجد محب الزق من الأخ ، فى الحقيقة لا نعلم إن كان لبولس أخوة فى الجسد أم لا ، .. إن الكتاب يذكر أنه كانت له أخت، وابن أخت ، أما أخوة فلا نعلم ، لكن بولس تحقق من قول سيده ، من ترك أخوة أو أخوات فسيجد مائة ضعف، .. وقد وجد بولس أحباء كثيرين من الاخوة الذين كانوا على استعداد أن يضعوا أعناقهم من أجله ، وأن يقلعوا عيونهم لو أمكن فى سبيله ، كان بولس محظوظاً من هذه الناحية ، ووجد فى أبفرودتس واحداً من هؤلاء الاخوة المحبين الذين كانوا على استعداد لبذل كل شىء لراحته ، مهما تكلفوا هم من بذل وجهد ، ... وكان أبفرودتس أخاً محبوباً من الكنيسة فى فيلبى ، الذين عندما سمعوا أنه سقط فى روما مريضاً ، وأنه فى خطر امتلأوا

جزعاً عليه . مما يكشف عن مكانته من قلوبهم وعواطفهم ، . . على أن رقة أبفرودتس البالغة ، والتى تكشف عن قلب من أندر القلوب حناناً وعطفاً هو موقفه من مرضه ، فهو لا يجزع لهذا المرض ، ولا يحول انظار الناس إلى مرضه وعلته بشكواه وأنينه ، .. ومن الناس من إذا مرت به أزمة أو ضيق أو ألم أو اضطراب ، يملأ الجو صراخاً ، وينتظر أن تتحول كل اهتمامات الآخرين نحوه ، وتركز عليه ، . . ومن الناس أيضاً من إذا جاءته المعاناة تقسى قلبه تجاه معاناة الآخرين ، وآلامهم ، ومتاعبهم بل يتمنى أن يرى الناس مثل ما رأى ، وأن يعانوا مثل ما عانى وتألم ، وهو يجد تعزيته فى أن الألم هو القاسم المشترك الأعظم بين الناس ، . . ولكن أبفرودتس كان من نوع آخر ، . . وهو فى عمق ألمه ومرضه ، كان مغموما لا لأنه وصل إلى مقربة من الموت الذى وقف على حافته ، بل لأن اخوته فى فيلبى مغمومون على أخبار مرضه ، وهو لا يطيق أن يراهم مغمومين أو محزونين ! ! . . .

ما أكثر ما نعيش حياة الأنانية التى ندركها أو لا ندركها — عندما نأخذ جهد الناس أو أفكارهم أو وقتهم للانشغال بمتاعبنا ، مهما يكلفهم هذا من تعب أو معاناه ! ! تقول الأسطورة إن امرأة ذهبت إلى بوذا تحمل طفلها الصغير وتطلب إليه أن يشفيه ، وكان الولد قد مات ، ونظر إليها بوذا وإلى طفلها ، وقال : أنا مستعد أن أشفى ابنك بشرط أن تذهبي إلى قريتك وتجمعى لى حبات خردل من أشجار فى أية حديقة لمنزل لم يدخل إليه الموت ، فذهبت المرأة وعادت لتدرك مغزى كلمة بوذا وتقول : لقد أدركت أنا نيتى ، فليس هناك بيت لم يدخله الموت ، أعطنى مهلة لكى أدفن ولدى ! ! ... كان أبفرودتس على العكس ، فى عمق ألمه ومرضه ، لا يريد أن يزعج الآخرين أو يقلقهم بهذا الألم والمرض ! ! . . .

ابفرودتس وجسارة مخاطرته :

ومن الغريب أن الرجل الرقيق المشاعر يمكن أن يكون جسوراً إلى أبعد الحدود ، كان رجلا يجمع بين رقة الحمام ، وشجاعة الأسد ، كان رقيقاً كطفل ، وباسلا كبطل ، وهذا من أدق الأمور وأصعبها فى حياة الانسان ، إذ أن المرء فى العادة ، لنقصه وضعفه ، قلما يعرف التوازن ، ومن محنته أن صفة فيه تنمو على حساب صفة أخرى ، وفضيلة على حساب فضيلة غيرها ، فالحازم مثلا من أشق الأمور عليه أن يكون مرناً ، والناعم من أصعب الأوضاع أن يكون حازماً ، وأنت لا تستطيع أن تجمع فى غالبية الناس بين النعومة والصرامة ، وبين الرقة والبسالة ، . . لكن أبفرودتس كان من الشخصيات المتسعة ،فقد كان فى رقته كالحرير وفى حزمه كالسيف ، . . ولعل السبب الأساسى فى هذا التوازن العجيب هو المحبة التى عندما تتمكن فى أرق الناس يمكن أن تجعلهم على أعلى مستو من الجسارة والمخاطرة ، . . . كانت احدى السيدات تفزع من تصور ركوبها الطائرة ، وذات يوم وصلها النبأ أن ابنها فى البلد البعيد ، مريض وفى أقسى حالات المرض ، . . وركبت المرأة الطائرة ، ولم يعد فى ذهنها الخطر الذى يجسمه الخيال أو الوهم ، لأن كل أفكارها وعواطفها أضحت منصرفة إلى ابنها المريض المتألم فى المكان البعيد ! ! . . . وهذا حق تعرفه المترفة المتنعمة الحنون التى تسهر الأيام والليالى دون كلل أو تعب ، أو ضن ببذل أو تضحية ، إلى جانب ابن تأخذه العلة أو تأكله الحمى ، بل كم من أباء يشقون ويضحون ويتعبون ، ويؤذيهم أن يذكرهم أحد بأنهم يفعلون هذا ، متى كان التعب من أجل ولد عزيز ، ويستوى فى ذلك العالم والأمى على حد سواء ! ! . . . كان الأبوان لا يعرفان القراءة والكتابة ، وكرسا حياتهما من أجل ابنهما ، وذات يوم جاء الأب الرقيق الحنون الحسن الطوية الدمث الأخلاق إلى أحد الرعاة وهو يقول : لا يخفى

عليك أنى قضيت أنا وامرأتى شطراً كبيراً من العمر ونحن نسعى ونكد ونتعب لنتمكن من تعليم ابننا فى الجامعة ، ويسرنى أن أخبرك الآن أننا تلقينا مؤخراً بشرى فوزه بالدبلوم فأبرقنا إليه قائلين إن أباك وأمك يفتخران بك ، فورد علينا هذا الجواب ، وناولنى إياه لأقرأه فإذا به يأتى : إن برقيتكما يا والدى كادت تكسر قلبى فأرجو ألا تكتبا شيئاً فيما بعد على هذا النحو . . إنى لا أنسى أيديكما الحانية التى تصلبت واخشوشنت وتشققت من جراء العمل الشاق المستمر . وكل ذلك لمكنكما تعليمى فتضحيتكما العظيمة هى التى كانت سبب احرازى قصب السبق ولذلك فالفخر بكما وليس بى ! ! . . فى حروب كورش الملك الفارسى القديم كان تيجرانس ملك الأرمن ، من الملوك الذين دوخوا جيوش فارس فى الدفاع عن مملكته ، واضطر كورش أن يذهب بنفسه لمقاتلة الملك الجبار العملاق حتى أسره وزوجته وأولاده ورجال بلاطه وقرر أن يعذبهم عذاباً أليماً لما سببوه له من متاعب ومعارك ، وجاء تيجرانس مصفد اليدين ، وكورش فى قصره وعلى عرشه العظيم ، . . ويبدو أن كورش أخذ بمنظر الرجل فقال له : إذا عفوت عنك فماذا تدفع ثمناً لحريتك قال : أدفع نصف أموالى ! ! . . وإذا عفوت عن أولادك وماشيتك قال : أدفع النصف الآخر وقال : وإذا عفونا عن زوجتك . . وكان تيجرانس يحبها حباً مفرطاً فقال : أقدم نفسى فدية عنها ، . . تأثر كورش لهذه المشاعر وعفا عن تيجرانس وكل الذين معه ، . . وفى الطريق كان الجميع يتحدثون عن مكارم أخلاق كورش وشجاعته وشرفه وشهامته ، وظلت زوجة تيجرانس صامتة طوال الوقت فسألها زوجها : هل رأيت قصر كورش العظيم ؟ ! . . فقالت كلا ! ! . . وهل رأيت عرشه المهيب ؟ ، فأجابت بالنفى ! ! .. فسألها : إذاً ماذا رأيت وأين كانت عيناك وهو يخاطبنا بجلاله وهيبته الملكية . . أجابت : إننى لم أبصر إلا الشخص الذى كان على استعداد أن يموت من أجلى ! ! . . .

عندما تسيطر علينا عاطفة المحبة ونمتلئ بها ، يمكن أن نفعل ما يفعله أعظم الأبطال وأقوى الجبابرة ، . . كان أبفرودتس الرقيق المشاعر جندياً باسلا مغواراً ، لم يعتبره بولس أخاً فحسب ، بل بطلا من أبطال الخدمة المسيحية إذ كان :

أولا — العامل : « العامل معى » ومهما عمل الرجل ، فهو لا يمكن أن يعمل عمل بولس ، ربما كان بولس يكلفه بهذا أو ذاك من الأعمال فى مدينة روما ، وكان بولس سجيناً ، وكان هو يستطيع أن ينوب عنه فى كثير من الأعمال ، ولكن بولس رفعه مع ذلك فى رقة بالغة وتقدير عظيم بقوله : « العامل معى » ، . . والعمل المسيحى ليس للقادة أو الأبطال أو الجبابرة أو ما أشبه ممن يأخذون الصفوف الأولى فى الخدمة فقد يكون فى آخر الصفوف من يقوم بالعمل الذى لا يمكن أن تقدره الأرض ، ولكن تعرفه السماء جيد المعرفة . . . من أروع ما جاء فى مذكرات دكتور غوردون بوسطن قصة فتاة صغيرة اسمها « ونى لويس » ، دخلت عليه ذات يوم ، وكان معه اثنان من شمامسة الكنيسة ، وإذ سألها الدكتور عن الغاية من مجيئها ، أجابت بحياء وخجل بأنها تريد الانضمام إلى عضوية الكنيسة ، فقال لها أحد الشماسين : ولكنك صغيرة لا يمكن انضمامك إلى الكنيسة وعمرك لا يزيد عن ست سنوات فقالت له : كلا يا سيدى إن عمرى تسع سنوات ، فأنا أكبر مما يبدو علىَّ ، ثم توجهت إلى الراعى وقالت له : لقد ذكرت فى عظتك الأسبوع الماضى : أن الحملان يجب أن يكونوا داخل الحظيرة ، فأجابها ببشاشة : نعم ! ثم سألها عدة أسئلة أجابت عنها اجابة واعية مدركة ، فضمها إلى العضوية فى الأسبوع التالى ! !. . . وبعد فترة قصيرة من الزمن دعى غوردون ليصلى على جثمانها . . وذهب إلى بيتها ليرى عجباً . . . فهذا الفتى المقعد يبكيها بمرارة لأنها كانت تأتى له وتقدم له كتاباً مصوراً أو تفاحة أو شيئاً آخر

وهو سيذهب إلى السماء تابعاً خطواتها المباركة ، . . وهذا ولد صغير مريض اسمه بوب كانت تزوره « ونى » فى مرضه وكان ترنيمها وحده هو الذى يسكته عن البكاء عندما لا يفلح شىء آخر ، . . وكان الجيران يبكونها لأنها كانت دائماً توزع النبذ عليهم وهى تذهب وتجىء ، وهذه سيدة كان قد أضلها بعض المهرطقين ، وجاءت بها دموع « ونى » وتوسلاتها ! ! . . وهذا عم ونى الذى كان بعيداً عن الله ، ولكن الحياة القصيرة العظيمة لابنة أخيه ، كسرت قلبه القاسى فجاء إلى يسوع المسيح ! ! . . . لم يخطر ببال دكتور غوردون قط أن أصغر عضو فى كنيسته يمكن أن يستخدمه الله بهذه الصورة العجيبة فى الخدمة المقدسة ! ! . . عندما دعى سبرجن ليصلى على جثمان امرأة عجوز كانت من أعضاء كنيسته ، ولم يكن لها من عمل سوى التطلع إلى الوجوه الغريبة التى كانت تراها فى الكنيسة كل أحد ، . . وكانت تعيش الأسبوع كله ، وهى تصلى لمن يبدو عليه الألم أو البؤس أو الحزن أو الحاجة أو من ينم وجهه عن شدة أو ضيق أو ارتباك ! ! . . وقال سبرجن عن المرأة وهو يتحدث عنها إنها كانت « أفضل مساعدة » لى . . . كان أبفرودتس أحد العاملين والمساعدين الذين عملوا مع بولس وشاركوه خدمته !

إن العمل المسيحى واجب على كل مسيحى أن يقوم به ، إذ ليس فى المسيحية مكان للكسول أو العاطل أو المتفرج أو المتعلل بالنظريات الفلسفية دون مشاركة حقيقية فى الخدمة . . . كان ألبرت شويتزر الطبيب الذى ذهب إلى أفريقيا ، وهو يحمل أعلى الشهادات العلمية ، يحفر بيديه أساس المستشفى الذى أقامه هناك ، وسأل غلاماً أفريقياً كان يتفرج عليه ، أن يأتى ويساعده ، ورفض الغلام بكبرياء وقال : أنا متعلم . ولم يكن يعلم أنه يكلم واحداً من أعظم حائزى الشهادات العلمية فى أوربا والغرب ! ! . . وما أكثر الذين يفعلون فعل الغلام تجاه العمل العظيم فى الخدمة المسيحية ! ! . .

على أن الأمر كان عند أبفرودتس أكثر من ذلك ، إذ دعاه بولس « المتجند معى » . . إنه يقف مع بولس على خط واحد من نيران المعركة ولهيبها المتقد ، . . . أو فى عبارة أخرى ، إن العمل المسيحى هو عمل الجندى فى المعركة ، . . . وكما أن لقوات الظلام جنودها وجيوشها فكذلك أيضاً لقوات الحق والبر والنور والسلام ، والجيوش المسيحية فيها الضباط على مختلف عملهم ورتبهم ، وفيها الجنود أيضاً ، . . . ولكل واحد نصيبه فى المعارك إلى الدرجة التى يقول معها الرسول لتلميذه تيموثاوس : « فاشترك أنت فى احتمال المشقات كجندى صالح ليسوع المسيح » (٢ تى ٢ : ٣) . . والجندية ليست نوعاً من الترف أو التطوع ، بل هى الضرورة الموضوعة على كل مسيحى ، والتى تستلزم منه أعلى درجات القوة والحماس واليقظة والجهد، وهى ليست مرهونة بساعات فى اليوم ، كما يفعل الموظفون ، وبعدها يعودون إلى بيوتهم دون أن يلتزموا بما هو أكثر من ذلك وهى ليست تكليفاً بجهد محدود يمكن أن يتوقف عنده المرء ولا مزيد عليه ، إنها الجهد فى كل مكان وزمان ، وهو الجهد الذى لا ينتهى إلا بنهاية الحياة نفسها ، وهو الجهد الذى لا يتراجع أمام صعوبة أو قسوة أو مرض أو تعب أو خطر أو موت ! !

ولعلنا نستطيع فهم ذلك عندما نذكر ما قيل عن أبفرودتس : « لأنه من أجل عمل المسيح قارب الموت مخاطراً بنفسه لكى يجبر نقصان خدمتكم لى » (فى ٢ : ٣٠) .. وبعض الترجمات ترجمت « مخاطراً » « مغامراً » . . وسواء كان الأمر أمر مخاطرة أم مغامرة ، فهى تشير إلى النفس التى تقدم على أخطر الأعمال دون حساب للحياة أو الموت ، فإن عاش فهو فضل من الله ، وإن مات فهو مجد عظيم فى خدمة السيد . . . كان أبفرودتس صورة رائعة لجنود المسيح وأبطاله ، الذين يغنون فى أقسى الظروف ، ويهتفون فى أرهب المعارك ، ويتقدمون بشجاعة عندما تتراجع أصلب الأعواد ،

وما أكثر من عرفت روما قديماً منهم فى ساعات الشهادة والاستشهاد ! ! . . ولقد حدث أن أربعين جندياً فى أوائل التاريخ المسيحى اعتنقوا المسيحية فى عاصمة الرومان ، وإذ سمع الإمبراطور حكم بالنفى عليهم إلى شمال إيطاليا ، فى بقعة من أسوأ البقاع وأقساها ، ومنحوا أربعاً وعشرين ساعة أن يرجعوا عن عقيدتهم وإلا تم نفيهم ، وأوكلت حراستهم لأحد الضباط ، وفى هدوء الليل استمع الضابط الحارس إلى أصوات تحملها الريح إليه ، وإذ ذهب رأى هؤلاء يصلون إلى السيد أن يعطيهم شجاعة وانتصاراً على ما يتهددهم به الإمبراطور ، وكانت صلواتهم حارة قوية جعلت الضابط يتعجب لأولئك الذين يرفضون أمر الإمبراطور لأجل سيدهم ، . . وفى الصباح جاء إلى الضابط واحد فقط من الأربعين وقال له : لقد رجعت عن إيمانى . فسأله : هل أنت الوحيد بينهم الذى فعل هذا ! ! . . قال : نعم ! . وإذا بالضابط يخلع ثيابه ويقدمها للرجل قائلا : سآخذ أنا مكانك مع هؤلاء ! ! . . كم كشفت المسيحية عن أبطال امتلأوا بالقوة والجسارة ، وكان أبفرودتس واحداً منهم ! ! . . . ومع أننا نلاحظ أن أبفرودتس أجهد نفسه فى الخدمة ، وعلى الأغلب كان ذلك لمساعدة بولس فى هذا أو ذاك من الخدمات الخاصة أو العامة ، وقد بلغ به الجهد أقصاه حتى سقط مريضاً ، واقترب به المرض من خط الموت ، ومع أن أبفرودتس كان محباً عظيماً لبولس ، . . لكنه كان يقوم على الخدمة لغرض أسمى وأعلى وأبعد ، لا من أجل بولس مهما كان حبه له ، بل من أجل عمل المسيح . . . ومن أجل المسيح ، يحلو الجهاد ، ويحلو الاستشهاد ! ! . . .

ابفرودتس والعودة من أبواب الموت

يقول الرسول بولس : « فإنه مرض قريباً من الموت لكن الله رحمه وليس إياه وحده بل إياى أيضاً لئلا يكون لى حزن على حزن » (فى ٢ : ٢٧)

ومن العجيب أن تصدر هذه الأقوال من رجل كان يرى بالنسبة له أن الموت هو ربح ، ولكن بولس مع علمه بهذه الحقيقة ، إلا أنه أضاف إلى يقينه من هذا الربح ، أنه يبقى فى الجسد من أجل الرسالة الموضوعة عليه ، وهو هنا وقد رأى جهد أبفرودتس ونشاطه فى الخدمة وحاجة العمل إليه ، إن موته لو حدث فى وقت سجنه فى روما سيكون كارثة تضاف إلى كارثة ، وحزناً يضاف إلى حزن ، .. ومهما يكن من موت المؤمنين من مجد فى السماء ، إلا أن فى بقائهم إحسان ورحمة من الله ، فهو رحمة بهم ، إذ يشاء الله أن يعطيهم ثمراً أكثر وأعظم ، ورحمة بأصدقائهم الذين يحتاجون إليهم أشد الاحتياج للمعونة والمساعدة ، ورحمة بعمل الرب الذى يحتاج إلى كل جهد وتعب وبذل وتضحية ، . . . ومن الملاحظ أن الله لم يسمح لبولس أن يقيم أبفرودتس بمعجزة ، وما أكثر ما فعل بولس من معجزات شفاء بل حتى الإقامة من الأموات كما أقام أفتيخوس ، لكن الله مع ذلك سمع لصلوات بولس ، وصلوات الكنيسة فى فيلبى التى جزعت أشد الجزع عندما سمعت بخبر رجلها المحبوب ، وصلوات الكنيسة فى روما حيث يرقد عندها ، وقد صور أحدهم هذه الصورة عندما بلغت فيلبى أنباء مرضه ، اتجه كثيرون بالصلاة وهم يقولون : لا يارب لا تسمح أن يموت أبفرودتس ، نحن فى حاجة إليه ، وبولس فى حاجة إليه ، وعملك فى حاجة إليه ، . . لا يارب لا يمكن أن يموت أبفرودتس ! ! . . . وسمع الله الصلاة ، وأجاب عليها ، برحمته الواسعة دون أدنى استحقاق من أحد ، . . والصلاة القوية هى الصلاة التى لا تستند إلى شيء فينا أو حكمة عندنا أو حق يمكن أن نطالب به ، ولكنها تلجأ أولا وأخيراً إلى رحمة الله الكريمة المحبة الواسعة ! ! . . . إن قصة الرجل ، وجمالها الأخاذ ، وروعة ما تذيع وتعلن تعطى كل واحد منا امتيازاً لا يدانى ، وتحدياً يلاحقنا الحياة كلها : « لأنه من أجل عمل المسيح قارب الموت مخاطراً بنفسه لكى يجبر نقصان خدمتكم لى » . . .

١٤٧
تيخيكس

« جميع أحوالى سيعرفكم بها تيخيكس الأخ الحبيب والخادم الأمين والعبد معنا فى الرب » (كو ٤ : ٧) .

لست أعلم متى أو كيف خطرت فكرة « جيش الخلاص » عند مؤسسه العظيم الجنرال بوث ، . . . هل جاءته هذه الفكرة ، وهو يرى ضرورة وجود الجيوش فى كل أمة ، وفى كل زمان ومكان ، وأنه لا توجد أمة على ظهر الأرض يمكن أن تعيش بدون جيش يدافع عنها ، ويزود عن كيانها ويصبح أداتها فى التوسع والفتح ، يوم ترغب فى توسيع رقعتها أو نفوذها ! . أم أنه أخذ الفكرة من أن الشيطان نفسه يجند للشر جيوشاً وفرقاً متأهبة : « فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الشر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات » (أ ف ٦ : ١٢) وأنه فى المقابل ينبغى أن تجند جيوش المسيح للحق والسلام والحب والخدمة والخلاص ! ! . . . وعلى وجه الخصوص ، إن المسيحى دائماً فى

الأرض هو جندى يحمل السلاح إلى النفس الأخير ! ! . . . لست أعلم ولكنى أعلم بالتأكيد والتحديد ، أن هناك كثيرين قبل الجنرال بوث قاموا بمعاركهم المنظمة كما تفعل الجيوش تماماً فى خدمة قضية الصليب ، ولم تكن أسلحتهم أسلحة بشرية ، إذ سبق للمسيح أن رفضها ، إنما عملوا فى الخدمة الدينية بنظام فائق وتضحية بالغة ، وواجهوا معارك حامية ، . . وكان بولس من أوائل الذين أسسوا جيش الخلاص ، وكان هو - بعد المسيح - الجنرال العظيم الذى جمع حوله عدداً من أنبل الضباط والجنود ، . . ولو أنك قرأت آخر ما كتب على الأرض وهو سجين فى زنزانته الضيقة فى روما ، لرأيت الزنزانة وقد تحولت إلى غرفة عمليات ، فهو يرسل كل واحد من مساعديه بالرسالة الخاصة فى وسط النضال المحتدم ، وكان تيخيكس واحداً منهم : « أما تيخيكس فقد أرسلته إلى أفسس » (٢ تى ٤ : ١٢) وقد تحدثنا قبلا عن عدد من هؤلاء المساعدين فى الشخصيات السابقة ، وسنركز الآن على شخصية تيخيكس كضابط من ضباط الخلاص ، ونموذج يمكن أن نتفحصه ونحاول إدراك أعماقه ، . . وبالتأمل فى شخصيته سنعثر على فرصة نادرة لدراسة حياته الداخلية من الزوايا المختلفة ! ! . . . ولعله من المناسب أن نراه لذلك فى علاقته مع الآخرين ، ومع نفسه ، ومع الله ! ! . . .

تيخيكس مع الآخرين :

لو تأملنا وصف بولس له لوجدنا أنه وصفه للأفسسيين تماماً بما وصفه للكولوسيين : « ولكن لكى تعلموا أنتم أيضاً أحوالى ماذا أفعل يعرفكم بكل شىء تيخيكس الأخ الحبيب والخادم الامين فى الرب ، الذى أرسلته إليكم لهذا بعينه لكى تعلموا أحوالنا ولكى يعزى قلوبكم » (أف ٦ : ٢١ ، ٢٢) . . « جميع أحوالى سيعرفكم بها تيخيكس الأخ الحبيب ، والخادم الأمين ، والعبد معنا فى الرب ليعرف أحوالكم ويعزى قلوبكم » (كو ٤ : ٧) . . .

ومن الواضح أن تيخيكس كان أسيوياً : « ومن أهل أسيا تيخيكس » (أ ع ٢٠ : ٤) . . وأنه كان خادماً للرب ، « والأخ الحبيب » تبين صلته مع الناس ، « والخادم الأمين » مع نفسه ، « والعبد معنا فى الرب » مع إلهه ! ؟! . . . وسنراه هنا أولا فى صلته بالآخرين ، أو الأخ الحبيب ، ويظن أنه تجدد على يدى بولس فى أفسس وأنه رافقه فى جزء من رحلته التبشيرية الثالثة ، وظل معه حتى آخر حياته ، وقد أرسله إلى أفسس عندما كان فى زنزانته فى الأيام الأخيرة من حياته ، . . . وقبل أن نراه هنا مساعداً لبولس ، ونافعاً له فى الخدمة ، يلزم أن نرى أثر بولس فى حياته ، ومن الواضح من لغة الرسول أنه كان على اطلاع كامل بأحواله ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا لشخص محبوب أثير تتكشف له حياة بولس وأسراره وأفكاره وتصرفاته ، وسعيد ذلك الإنسان الذى يدخل فى المدرسة العملية مع بولس ، والذى يقع عليه ظل الرسول العظيم ، ويتعلم كيف يسلك ويتصرف ويحيا ويعيش ، وكيف يواجه الحياة فى مختلف ظروفها وأوضاعها وألوانها ، . . إن المدرسة العملية التطبيقية أعظم بما لا يقاس من الدراسات النظرية العلمية ، التى مهما يكن أثرها ، فإنها لا يمكن أن تعادل أو تماثل الأسلوب العملى فى الحياة ، . : . وإذا صح أنهم قالوا إن بحاراً إنجليزياً عاد بعد سنوات طويلة إلى وطنه ، متعباً ، مجهداً ، دون أن يملك ثروة أو مالا أو ما أشبه ، وإذ سألوه ماذا أخذت ، وماذا استفدت ، . . أجاب : أجل ! لم آت حاملا مالا أو مادة أو ثروة ، ولكننى بالتأكيد طفت العالم مع أعظم قبطان على الأرض ! ! . . ولا شبهة فى أن تيخيكس ، فى معنى أعمق وأعظم وأجل ، مهما كان مجهداً أو متعباً فى رحلاته الكثيرة مع بولس ، أو بتكليف من بولس ، يمكن أن يقول شيئاً من هذا القبيل أو أعظم من هذا ، . . ومما لا شك فيه أن بولس الجبار العظيم الذى قال : « تمثلوا بى كما أنا بالمسيح » ،

والذى كان حريصاً على أن يكشف أبعاد المسيحية بوعظه وحياته ، وكان نموذجاً يحتذى فى كل الأجيال والعصور ، كان ذا أثر عميق فى تيخيكس وغير تيخيكس ، ! ! . . وعلى وجه الخصوص أن بولس لم يكن يخفى شيئاً عن تيخيكس ، ولم يكن تيخيكس يخفى بدوره شيئاً عن بولس ، وكانت العلاقة بينهما على أسمى ذرى الاخوة بين الناس ، وأروع صور الشركة التى تجمعهما فى الأسلوب والهدف ، وهما يندفعان نحو غاية واحدة عظيمة هى مجد المسيح الذى يعيشان له ، ويموتان من أجله ! ! . .

على أن « الأخ الحبيب » لا تعنى مجرد العلاقة التى تربط بين بولس وتيخيكس ، بل الرابطة المسيحية التى تربط تيخيكس الخادم بجميع المؤمنين ، سواء كانوا فى أسيا أو فى أوربا أو فى أى مكان آخر فى العالم ، فهو الأخ الحبيب للذين فى أفسس أو كولوسى أو فيلبى أو كورنثوس ، وسواء كان أسيوياً أو أوربياً ، أبيض أوأسود أو عبداً أو حراً فالجميع على حد سواء ... اعتاد دكتور موفات أن يتحدث عن عظته التبشيرية الأولى قائلا : حدث فى مساء ما أنى وصلت فى رحلتى الأولى فى أفريقيا إلى مزرعة بويرى هولندى ، والتمست منه أن يستضيفنى خلال الليل ، إذ كان قد حل ، . . وكانت العائلة على وشك الذهاب إلى الفراش ، وقال صاحب البيت : « هلا يرغب ضيفنا أن يلقى بعض النصائح المسيحية ! ! ؟ فأجبت بكل سرور ! ! . . فلما اجتمعوا ألقيت نظرة على الحاضرين ، وإذا هم صاحب البيت وزوجته وأبناؤهما وكانوا ثلاثة صبيان وبنتان ، غير أنى نظرت جماهير من العبيد السود على مقربة من المكان ، وكان عددهم لا يقل عن مائة هوتنتونى فى خدمته ، فانتظرت ، .. فقال البويرى : « ما خبرك ؟ لماذا لا تبتدىء ؟ . . . فأجبت : ألا يأتى خدامك أيضاً ! ! . . فصاح بى بصوت مرتفع : خدمى ! ! ؟ هل تقصد الهوتنتوت . . أيها الرجل هل

أصبت بجنة حتى تفكر فى الكرازة للهوتنتوت . اذهب إلى الجبال وعظ الخنازير . . أو إن شئت أدعو كلابى لتعظها ! ! . . كان كلام الرجل قاسياً إلى الدرجة التى دمعت معها عيناى ، وبعد فترة صمت فتحت كتابى وقرأت : « نعم يا سيد . والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها » (مت ١٥ : ٢٧) . . وعندئذ تأثر مضيفى وقال : انتظر . يجب أن ننفذ فكرتك . سأحضر لك الهوتنتوت وسيسمعونك ، . . وهكذا فعل وامتلأ المكان بصفوف من السود الذين كانوا يتطلعون بنظرات من الشوق نحو هذا الغريب الذى يحدثهم بكلمة الله ! ! . . . ومن الاختبارات المجيدة الأخرى لهذا الواعظ العظيم أنه وصل فى أحد الأيام إلى قرية وثنية على شاطئ نهر الأورنج ، وإذ كان متعباً وجائعاً وعطشاناً ، جلس عند مدخل القرية ، إذ كان الليل قد أقبل ، وكان يتعرض للضوارى لو أنه واصل رحلته ، . . واجتمعت حوله جماهير السكان ، ونظروا إليه نظرات قاسية غضوبة ، طلب أن يقدموا له ماء ، فرفضوا طلبه ، وكان واضحاً أنهم لن يقدموا له طعاماً ، وإذ كان على وشك أن يفقد كل رجاء اقتربت منه امرأة تحمل حزمة من الحطب على رأسها وإناء اللبن فى يدها ، وسلمت الإناء للمرسل بدون كلمة . ثم طرحت حزمة الحطب بجانبه وسارت نحو القرية . ثم عادت حاملة حلة الطبيخ على رأسها وربع خروف فى احدى يديها وماء فى اليد الأخرى ! ! . . نظرت إليه ، ثم أعدت ناراً ووضعت اللحم فى الحلة . سألها موفات المرة بعد المرة من هى ؟ ! ! ولماذا انفردت هى دون أهل القرية بالإحسان إلى الغريب ، ففاضت الدموع على وجه المرأة وقالت : أنا أحب الشخص الذى أنت تخدمه ، ولا شك أنه واجب علىّ أن أعطيك كأس ماء بارد باسمه . قلبى ملآن ولذلك لا أستطيع أن أعبر لك عن الفرح الذى أحس به وأنا أراك فى هذا المكان المنقطع ! ! . . . كان تيخيكس

أخاً حبيباً لكل مؤمن التقى به أو عاش معه ، . . وهكذا تكون كنيسة المسيح وقد تخطت كل الحواجز الشريرة والحمقاء والقاسية التى صنعها الشر والخطية والشيطان بين جميع الناس على وجه الأرض ! ! . . .

كان تيخيكس مساعداً لبولس ، يرسله فى رحلات متعددة إلى مختلف الكنائس ، فهو من أهل أفسس ، وقد أرسله بولس إلى هناك ، وقد ذهب إلى كولوسى ولعله ذهب إلى غيرهما من البلاد ، وكانت رسالة التبشير والتقوية والتعزية والتشجيع حيثما يذهب أو يكون ، . . ومن المعلوم أن المؤمنين فى تلك الأوقات كانوا يتعرضون لأشد أنواع المتاعب والتجارب والآلام ، وكان لهم فى اخوتهم المؤمنين من الذين معهم ، أو من الذين يأتون إليهم من خارج مدنهم ومناطقهم ، أجمل صور التقوية والتعزية ، وكان بولس حريصاً كقائد عظيم يهتم بالكنائس فى كل مكان ، أن يتعرف على ظروفهم المختلفة ، وكيف يمكنهم مواجهتها بحياة شجاعة أمينة منتصرة ، ومن ثم كان يرسل لهم المساعدين والمشجعين حين لا يتمكن هو بنفسه أن يكون بينهم ، وهو يرسلهم مزودين بنصائحه ، وأكثر من ذلك بما يكتب إليهم . وحمل تيخيكس رسالتين من أعظم الرسائل إلى المؤمنين فى كل من أفسس وكولوسى ، وقد كتبها بخط يده بإملاء الرسول بولس ، كما حمل رسالة خاصة مع أنسيمس إلى فليمون هى رسالة فليمون ! ! . . لقد كان الرجل يحمل كنوزاً لا تقدر بثمن فى هذه الرسائل التى ما تزال إلى اليوم ينبوعاً دافقاً محملا بالبركات والخيرات طوال التاريخ المسيحى بأكمله ! ! . . وهكذا كانت خدمة تيخيكس مع الآخرين ! ! . .

تيخيكس مع النفس :

كان تيخيكس الأخ الحبيب « مع الآخرين » « والخادم الأمين » مع النفس ، والأمانة من أهم الصفات النفسية وأعظمها ، وهى الصفة التى

تنهض يوم الدين كالقياس الصحيح للسلامة الروحية : « كنت أميناً » ، لأنها تتعلق بكل إنسان مهما كانت ظروفه المختلفة فى الحياة ، فهى لازمة للفقير كما للغنى ، للعالم كما للجاهل ، للقوى كما للضعيف ، للملك كما للصعلوك ، وهى الشيء الذى لا يستطيع أحد الاعتذار عنه أو التعلل بأنه خارج قدرته وحياته ونطاقه ، . . . وهى إن كانت واجبة للجميع فهى لخادم الدين ألزم وأوجب ، وذلك لأن نجاح الخدمة أو فشلها يرتبطان بمدى الأمانة عنده ، والأمانة شيء بعيد الغور فى النفس البشرية ، وتحتاج إلى الفحص الدائم المستمر القوى المتعمق ، . . قال كولروج : لم أكن أدرك لمدة طويلة فى حياتى أنى فقير وأعمى وعريان وبائس ، وبعد أن عرفت ذلك لم أحسه الإحساس التام ، ولكن شكراً لله لأنى قد بدأت أحس به كما ينبغى الآن ، يا كبريائى ابعدى عنى ، ودعينى أرى هذا الشكل البشع الذى هو نفسى ، أجل لقد خدعتنى أقوال الفلاسفة والشعراء وكبرياء قلبى ، إذ قالوا إنى قوى . . . لكن الكتاب وفشلى يعلنان العكس ، إن ديانة يسوع المسيح تغير فكر الناس عن أنفسهم وحياتهم ! ! . . . وإذا صح أن أحد الرهبان وضع جرساً ضخماً على صخرة قريبة من الميناء فى احدى المدن ليحذر السفن المقتربة منها ، وكانت العواصف والرياح تحرك الجرس فيدق ، ويسمع صوته من بعيد ، ولكن قرصاناً أراد أن يغير على المدينة وينهبها فانتزع الجرس وألقى به فى أعماق المحيط ، وبعد سنوات وفى ليلة عاصفة أقبل القرصان ليدخل الميناء ، ولم يكن هناك الجرس المحذر فتحطمت سفينته وغاصت به وبمن معه إلى أعماق المحيط ، . . وكم من قرصان يدخل إلى سفينة حياة الخادم ، ويحطمها ، لأنه لم يكن هناك التحذير العميق فى النفس الداخلية . . . وعلى العكس إذا وجد الحارس القوى ، فإن الضمير يبقى بلا عثرة ، والنفس تعيش فى الأمان والاطمئنان . . . عندما كان أحد

خدام الله غلاماً صغيراً ، كان يعمل فى دكان ، وجاءه أحدهم وطلب منه أن يزيد فى الميزان لأن صاحبه — أى صاحب الدكان — ليس بالداخل ، . . فأجاب الغلام بحزم وأمانة : « إن صاحبه — أى الله — فى الداخل دائماً . . . وفى الحقيقة إن معارك الخدام مع أنفسهم كثيراً ما تكون أرهب المعارك وأقساها على الإطلاق ، . . . لقد قبل تيخيكس المركز المحدد له فى الخدمة ، ورضى أن يكون ثانياً لبولس أو تابعاً له ، دون أن يحسده أو يتذمر عليه ، أو يمتنع عن طاعته ، وما أكثر الذين يفقدون رسالتهم لأنهم يرفضون المكان المعين لهم من الله فى الخدمة ، ولا يقبلون أن يتقدم عليهم أحد أو يسود على حياتهم أو يأمرهم بالعمل بهذا الأسلوب أو ذاك . كان تيخيكس قد روض نفسه على أن يأخذ أى مركز لخدمة يسوع المسيح ، حتى ولو جاء مركزه فى الصف الأخير من الخدمة ، إذ أن الخدمة عنده هى نكران الذات ، واختفائها بالتمام ، تحت الشعار : ينبغى أن ذاك يزيد وأنى أنا أنقص (يو ٣ : ٣٠) . . ! ! كان أميناً ثابتاً فى الموقع الذى وضع فيه كجندى ليسوع المسيح ! ! . . . كما أنه كان أميناً تجاه المال ، وهو لا يرضى فى يوم من الأيام أن تقدم هذه الخدمة ، بمال أو أجر ، بل هو على استعداد أن يقبل الجوع والعرى والألم والتعب والدموع دون حساب لمادة أو اعتبار لها ، . . ومن المؤكد أنه لمس روح بولس وهو يقول : « ليس أنى أقول من جهة احتياج فإنى قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه . أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن أستفضل . فى كل شىء ، وفى جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص . أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ١١ — ١٣) . . . وكان أميناً تجاه الوقت ، فالخدمة الدينيـــة هى الوحيدة التى لا تنتهى إلا بنهاية الحياة ، وهى لا تعرف فى الأربع والعشرين ساعة كل يوم وقتاً

للعمل وآخر لغير العمل ، وقد نسف بولس كل حدود للوقت أو التعب أو الجهد ، وهو يتحدث عن صورة الخدمة إلى الكورنثيين : « ولسنا نجعل عثرة فى شيء لئلا تلام الخدمة . بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات فى ضربات فى سجون فى اضطرابات فى أتعاب فى أسهار فى أصوام فى طهارة فى علم فى أناة فى لطف فى الروح القدس فى محبة بلا رياء فى كلام الحق فى قوة الله بسلاح البر لليمين ولليسار ، بمجد وهوان بصيت ردئ وصيت حسن . كمضلين ونحن صادقون ، كمجهولين ونحن معروفون ، كمائتين وها نحن نحيا . كمؤدبين ونحن غير مقتولين كحزانى ونحن دائماً فرحون كفقراء ونحن نغنى كثيرين . كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء » (٢ كو ٦ : ٣ — ١٠) . . .

تيخيكس مع ربه :

كان الشيء الثالث الذى وصف به بولس تيخيكس : « والعبد معنا فى الرب » . . وهو يعطينا السر فى كل شيء ، إنه يفعل هذا كله تحت ثقل الاحساس بالمسئولية بأنه عبد مع بولس فى الرب . ومن المناسب أن نلاحظ أن بولس كان فخوراً وسعيداً بهذا اللقب العظيم ، وذلك لأن الله رفعنا إلى مقام البنوة ، وأعطانا اسمى مكان ، ونحن نتصاغر أمامه ، ونرى أنفسنا لهذا السبب ، بروح العرفان والشكر والامتياز ، عبيد الله ، . . ونحن نقبل على الخدمة بروح الأحرار المحبين ، وليس بروح العبيد الذين استعبدهم سادتهم ، فهم يخدمونهم لا عن طواعية واختيار ، بل بالاكراه والضيق والحقد والضغينة ، . . كان تيخيكس أسعد الناس ، وبولس يرسله هنا وهناك ، وهو يتعب ويكد لأنه عبد معنا فى الرب ، ومن أجل الرب ! ! ... هل سمعت عن ذلك المزارع العجوز الذى كان فقيراً وبخيلا ، ولكنه حضر اجتماعاً تبشيرياً يدعو إلى البذل والعطاء لمشروع دينى ، وقد أكد المتكلم

على أن الله يجزى ويكافى : « أعطوا تعطوا . كيلا جيداً ملبداً مهزوزا فائضاً يعطون فى أحضانكم . لأنه بنفس الكيل الذى به تكيلون يكال لكم » (لو ٦ : ٣٨) . . وبصعوبة أخرج من جيبه شلناً ووضعه فى صندوق العطاء.. وفى عودته فى الليل إلى البيت كشفت أشعة القمر عن شلن مطروح فى التراب فلم يتأخر عن أخذه مغطبتاً فرحاً ، ... وعندما وصل إلى البيت قص القصة ، على بيته وجيرانه وهو يقول : لقد تيقنت من أن ما قاله المتكلم صحيح لأنى وضعت شلناً فى الطبق ، ولم ألبث أن عثرت عليه فى الطريق ، وكان أحد خدام الله يسمع الكلام فى صمت ، وأخيراً قال : هل تظن يا سيدى أن فهمك للمسألة . صحيح ! ! . . سأخبرك ما أظنه أنا . . أنت ترى أنك أعطيت الشلن لأنك انتظرت أن يعطى لك مرة أخرى اتماماً للوعد « اعطوا تعطوا » ولولا ذلك ما كنت دفعت بالمرة ، ولكنك تعلم يا سيدى أن الله يحب المعطى السرور ، ولذلك لم يحب عطيتك ، ولم يشأ أن يأخذ تقدمتك ، على هذا المبدأ ، ولأجل ذلك طرحها لك فى الطريق وراءك فسبقتك إلى المكان الذى وجدتها فيه ! ! . . . . إن الله لا يقبل الالتزام المكره ، ولكنه يفرح جداً بالالتزام المبتهج السعيد بخدمته ! ! . . . قال دكتور دف الخادم الإسكتلندى الذى عاد إلى بلاده محطماً بعد ثلاثين عاماً من الخدمة ، وقد وقف فى المحفل العام يقول « يا ابناء اسكتلندا لو أن الملكة فيكتوريا طلبت جنوداً للذهاب إلى الهند ، فانها ستجد الكثيرين يلبون النداء ، ولكن إذا طلب الرب يسوع ،تجد اسكتلندا تعتذر عن أن ترسل أحداً من أبنائها ، فإذا كان هذا حقاً ، فإنى ، ولو أنى اضعت صحتى فى تلك البلاد ، فإنى مستعد أن أعود فى الغد إلى هناك لأموت من أجل الشهادة لابن الله » ... فى الحقيقة إن عمل الله يستلزم أقوى احساس بروح المسئولية ، مهما كانت المتاعب والمصاعب والتضحيات التى تقف فى الطريق ! ! . . . .

سألت سيدة فلول الجيش العائد من القتال . . . أين أخى ؟ فأجابها أحد الجنود : لقد مات فى ساحة الحرب ، وبعد ذلك سألت : أين زوجى فجاء الجواب : لقد مات أيضا ! ! ؟ قالت واين زعيمنا وقائدنا الأعلى فأشار الجندى إليه وقال : إنه حى .. فالتفتت إلى الزعيم وقالت : مادمت أنت حياً فكل ما نكبت به ليس شيئاً ولا أحسب له حساباً ! ! . . . وإن كنا لا نعلم هل ذهب تيخيكس شهيداً كما ذهب بولس أم لا ، إلا أننا نعلم أن الرجل فى الحياة أو الموت عاش سعيداً فى خدمة سيده ، ما دامت قضية المسيح ورسالته المباركة تسير وتعيش وتنتصر .

١٤٨
ابفراس

« يسلم عليكم ابفراس الذى هو منكم عبد للمسيح مجاهد كل حين لاجلكم بالصلوات »
(كو ٤ : ١٢) .

وصف أحدهم الكنيسة التى يريدها فقال : هذه هى كنيسة أحلامى ، الكنيسة المقتدرة على الواجب ، الكنيسة الحارة القلب ، المفتوحة الذهن ، ذات الروح الجسور ، الكنيسة التى تهتم ، الكنيسة التى تشفى الحياة المريضة ، والتى تعزى الأشياخ ، والتى تتحدى الأحداث والشباب ، . . والتى لاتعرف تفرقة لثقافة أوجنس ، . . ليس فيها فواصل جغرافية أو اجتماعية ، . . الكنيسة التى تطلب وتدفع ، تنظر إلى الأمام كما تنظر للخلف ، كنيسة السيد ، وكنيسة الشعب أيضاً ، . . الكنيسة المرتفعة ، والكنيسة العريضة ، والكنيسة المنخفضة مرتفعة كمبادئ المسيح ، منخفضة كاتضاع البشر ، كنيسة عاملة ، كنيسة جذابة ، كنيسة تفسر الحق بعبارات الحق ، وتوحى بالشجاعة لهذه الحياة والرجاء للحياة الآتية ، كنيسة شجاعة ، كنيسة الناس الأبرار ، كنيسة الله

الحى ! ! . . . وإذا كنا لا نعرف مثل هذا الرجل الحالم بالكنيسة العظيمة المثالية ، إلا أن الدراسة التى نحن بصددها تؤكد لنا أن أبفراس عاش طوال حياته بأفكاره وأحلامه وآماله وآلامه ونضاله ، لأجل شئ واحد ، لأجل كنيسة المسيح فى الأرض ، . . وعند ما تذكر أبفراس اذكر الكنيسة ، وعندما تفكر فى الكنيسة فى أوضاعها المختلفة لا تنس أن تذكر أبفراس ، فأبفراس والكنيسة لم يكفا ولا يمكن أن يكونا منفصلين متباعدين أحدهما عن الآخر ، بل هما كيان مندمج متلاحم متحد فى الواحد الذى هو يسوع المسيح ، .. ومن الغريب ، أن اغالبية الناس لا يستطيعون أن يدركوا هذه الصورة لأبفراس ، مع ما فيها من جلاء ووضوح ! . . . ويهمنا لذلك أن نتابع القصة فيما يلى :

ابفراس مؤسس الكنـائس :

يقول الرسول بولس فى مطلع الرسالة إلى كولوسى عن الإنجيل : « الذى قد حضر إليكم كما فى كل العالم أيضاً وهو مثمر كما فيكم أيضاً منذ يوم سمعتم وعرفتم نعمة الله بالحقيقة . كما تعلمتم أيضاً من أبفراس العبد الحبيب معنا الذى هو خادم أمين للمسيح لأجلكم » (كو ١ : ٦ ، ٧) . . وقد شجع هذا الشراح على اليقين بأن كنيسة كولوسى هى ثمر خدمة أبفراس الذى جند نفسه لإنشائها وتأسيسها ، بل يبدو أنه أنشأ أيضاً كنيستى لاودكيه وهيرابوليس إذ يقول الرسول عنه : « فإنى أشهد فيه أن له غيرة كثيرة لأجلكم ولأجل الذين فى لاودكيه والذين فى هيرابوليس » (كو ٤ : ١٣)

لكل إنسان هواية ما تستولى عليه وتملأ حياته وفراغه وعمره ، فتصرفه بقصد أو بغير قصد عن سائر الهوايات الأخرى ، فإذا كان يهوى المال ويعبده ، فهو يعيش ويكد ويموت ، وقبلته الذهب ، وإذا كان عبداً للجاه

والمنصب ، فهو يحارب ويقاتل ويحيا باحثاً عن المركز الأول ، وهو كما يقول ملتون عن الشيطان يرغب أن يكون الأول فى جهنم ولا يرغب أن يكون الأخير فى السماء ، . . وإذا انصرف بحياته إلى عادة أو غواية ما ، فهو يرى الحياة كلها ، ولا شىء غيرها فى هذه الهواية أو الغواية التى استحوذت عليه ، ولنضرب مثلا من اختبارات شاب كان يهوى الملاكمة ، وأصبح واحداً من أبطالها العالميين ، وسجل اختباراته قائلا : لقد بدأت حياتى دون أن أهتم بالدين ، وعشت حتى الرابعة عشرة من عمرى ، ولم أسمع شيئاً قط عن الكتاب المقدس ، وكنت أجهل كل شىء عن وجوده ورسالته ، وبما أنى كنت لا أعرف الله ، واستيقظ فى قلبى عطش إلى الحياة والسعادة ، حاولت أن أروى هذا العطش بالانكباب كلية على ميادين الألعاب الرياضية متوهماً أنى عندما أصبح بطلا رياضياً ستصفق لى الجموع ، وتعجب بى الجماهير ، ويسيل المال بين يدى سيلا ، . . . وبدأت أتمرن على سباق الدراجات ، ثم أخذت أمارس الملاكمة ، . . وكملاكم مقتدر نلت إعجاب أصدقائى ، ولكن رغم نجاحى فى فن الملاكمة ، فإن قلبى ظل غير مكتف فهو على الدوام يطلب المزيد ، بل شعرت فى الحقيقة ببطلان المجد العالمى الذى يذبل ويضمحل وبتعاسة الحصول على المال الذى يبهر ويخدع ، . . وإذ أخذت أعد نفسى لفتوحات جديدة لأصل إلى أهداف أعلى ، وقف الله أمامى ليكشف لى الطريق إلى ينبوع السعادة الصحيحة الوحيدة فى الحياة ، .

كان ذلك عندما بلغت العشرين من العمر ، وتوقفت عند باب إحدى الكنائس التى عرفت فيما بعد أنها إنجيلية ، وقد كتب هذا الإعلان . . « أجرة الخطية هى موت وأما هبة الله فهى حياة أبدية فى المسيح يسوع ربنا » وعلى مقربة منها : إن ساعة الموت ستدق دون أدنى شك لكل إنسان ، وأما ساعة الحياة فإنها ستدق فقط للذين يؤمنون بالرب يسوع ! ! . . استهوانى الإعلان

وأخذ بمجامع قلبي ، وإذ تبينت أن اجتماعاً سيعقد فى الليلة التالية ، كنت على أشد الرغبة فى أن أعرف المزيد عن الموضوع ، ولم ألبث أن أخبرت أربعة من أصدقائى ، وكان اثنان منهما ملاكمين ، واستمعنا فى اليوم التالى لأول مرة لرسالة الإنجيل المباركة ، وما لبثت أن تجددت مع صديقى الملاكمين وهجرنا الألعاب الرياضية ، واتجهنا إلى الإنجيل بكل شغف ، وإذ قرأت حديث المسيح للسامرية : « كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد . . . » (يو ٤ : ١٣ ، ١٤) وكان هذا القول أعظم إعلان لقلبي الظمآن ، فالبئر التى جلست عليها السامرية تمثل العالم حيث يستقى البشر لكى يرووا عطشهم ، ومنه استقيت أنا سنين عديدة ، أما الماء الذى يعطيه المسيح فهو حياته الإلهية الأبدية . . . وإذ قرأت : « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ » (أع ٢٠ : ٣٥) لم أكن أعلم أنى أتمم هذا دون أن أدرى فى حلبة الملاكمة ، . . . لكننى أحسست وأنا أنتقل إلى الحلقة الروحية أن هناك ميدانى الصحيح ، فأختبر عطاء العشور لله ، ثم ازداد عندى الإحساس بأنى يلزم أن أقدم نفسى وذاتى كلية ، . . فأعطيت حياتى ووقتى كله للكرازة بالإنجيل فى وطنى وخارج وطنى وأدركت صدق قول المسيح : « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى ومن أجل الإنجيل فهو يخلصها » (مر ٨ : ٣٥) . إن كل الأمجاد البشرية تتضاءل وتضمحل ، « أما المجد السماوى والأفراح التى ينفحنا بها الإنجيل فإنها تبقى إلى الأبد » . . . نحن لا نعلم ما الذى كان يستهوى أبفراس قبل أن ينال الحياة الجديدة ، وما هى الرغبة أو الرغبات التى كانت تأخذ بمجامع قلبه ، لكننا نعلم بكل يقين أن الكرازة بالإنجيل وربح النفوس وتأسيس الكنائس كانت حلمه وهمه وشغله الشاغل ليل نهار فى كولوسى ولاودكيه وهيرابوليس وفى روما وفى غيرها من الأماكن ، . . . وهو

يذكرنا برجلين عاشا فى الهند ثلاثين عاماً . وقال الأول لقد عشت هذه السنوات وأنا أصطاد النمور ، وقال الثانى وكان مرسلا : وأنا عشت فى الهند هذه السنوات أيضاً دون أن أرى نمراً واحداً ! ! . . . كان أبفراس الخادم الذى لا يني أو يكل عن بناء الكنيسة روحياً ومادياً ، وكان عرقه المتصبب فى الخدمة نهراً ينبع من حبه لسيده وخدمته لكنيسته . . . ! !

أبفراس المتـألم :

على أن القصة تكشف لنا عن وجه آخر من حياة أبفراس إذ هو الإنسان المتألم العميق الألم ، ولعله سافر من كولوسى إلى روما ، وهو لا يريد أن يغيب لحظة واحدة عن مدينته بالنسبة للأخطار التى تحف بالكنيسة هناك ، والتى يلزم دفعها ومكافحتها ، ولكنه ربما ذهب ليتعلم من بولس كيف يواجهها ويعالجها ، . . لقد دخل الهراطقة إلى الكنيسة فى كولوسى ، وامتلأت لاودكيه بالفتور الروحى ، وتسلل العالم إلى داخل الكنيسة ، وهو يحتاج إلى بولس لكى يرشده ويسنده . وأغلب الظن أنه دخل على بولس فى سجنه ، وأبصره الرجل وقد استولى عليه الحزن العميق والهم القاتل ، . . وإذ استفسره عما يعانى حدثه عن هذين الخطرين اللذين يعصفان بقلبه عصفاً ، وكتب بولس ، وقد ثار هو أيضاً لهذه الهرطقات : « فإنى أريد أن تعلموا أى جهاد لى لأجلكم ولأجل الذين فى لاودكية وجميع الذين لم يروا وجهى فى الجسد . . . انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح . فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً . . . فلا يحكم عليكم أحد فى أكل او شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت ، التى هى ظل الأمور العتيدة وأما الجسد فللمسيح . لا يخسركم أحد الجعالة راغباً فى التواضع وعبادة الملائكة متداخلا فى ما لم ينظره منتفخاً باطلا من قبل ذهنه الجسدى وغير متمسك بالرأس الذى منه

كل الجسد بمفاصل وربط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله . إذاً إن كنتم قدمتم مع المسيح عن أركان العالم فلماذا كأنكم عائشون فى العالم تفرض عليكم فرائض لا تمس ولا تذق ولا تجس التى هى جميعها للفناء فى الاستعمال حسب وصايا وتعاليم الناس التى لها حكاية حكمة بعبادة نافلة وتواضع وقهر الجسد ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية (كو ٢ : ١ ، ٨ ، ٩ ، ١٦ — ٢٣) ... وأظننا لا ننسى ما جاء فيما بعد من توبيخ فى سفر الرؤيا لملاك كنيسة لاودكية لتسرب الروح العالمية القاتلة إلى الكنيسة ! ! . . . ولا شىء أقسى على الخادم الأمين من تسرب الهرطقات أو الروح العالية داخل الكنيسة . . .

فى كتاب السيف والمعركة والذى يصور حال الكنيسة أمام مارتن لوثر يقول أحد الرهبان الذين استناروا بكلمة الله وامتلأ بالحزن والغم ، لآخر كان قد وضع فى السجن لأنه ندد بالفساد : « إن لى هنا كما أخبرتك أكثر من أربعين عاماً ، ومع أنى لا أعرف كثيراً من أحوال العالم إلا أنى أرى أشياء غريبة ، لا سبيل إلى نكرانها ، ولا سبيل إلى كتمانها ، .. لقد رأيت حياة الكثيرين من الأخوة ، وبكيت فى السر كثيراً ، أيها السيد الشاب : إن الكنيسة ممتلئة بالفساد . ممتلئة بالعقائد الكاذبة ، وممتلئة بالأضاليل ، ولقد قيل إن عينى لوثر فتحت بقراءة كلمة الله ، وأنا أيضاً أقرأ كلمة الله ، لقد قرأت الإنجيل المبارك مرات ومرات وليس فقط لكى أتعلم كلمات الرب بل لكى أرى ما إذا كانت الكنيسة تسير وفق مشيئته . . . وماذا رأيت ؟ ! . لم أر إلا شبهاً ضئيلا بين الكنيسة كما أشاهدها وبين حياة وتعاليم سيدنا ، . . وليغفر الله لى إن كنت مخطئاً ، لكنى أتكلم بما أحس به ، إنها نار تتلظى بين جوانحى ولا أستطيع السكوت ! ! . . . هنا مثلا رئيس أساقفتنا أمير ، متلاف ، عالمى لا يعنى قط بنفوس الناس ، والأساقفة كلهم ، إلا النادر منهم ، لا يهتمون إلا بالمال واللهو والمجد العالمى ، . . لم تعد الكنيسة مسكناً

ليسوع الوديع المتواضع ، بل أضحت مؤسسة كبيرة فاسدة . . . الخطايا الحقيقية يغض الطرف عنها ، والأمور الصغيرة البريئة ينظر إليها كخطايا ، إن من يرتكب الفسق والفجور يمكن أن تغفر له خطاياه ، أما أن يفكر الإنسان فهذا ذنب لا يغتفر ، وأن يسأل هذا أو ذاك أسئلة عن المعتقدات فأبواب الجحيم تفتح له . لو أن مارتن لوثر عاش حياة مستبيحة ، لو أنه سكر أو فتح خاناً للمعربدين لما حدث له شيء ، ولم تنسب له فضائح وعيوب ، أما أن يقف ضد تجارة فاسدة كتجارة صكوك الغفران ، فالرهبان يجأرون ضده حتى تبح أصواتهم ، والأساقفة يلعنونه ، ورؤساء الأديرة ينعتونه بأشر النعوت ! ! . . وهل يمكن أن يستريح أبفراس ويهدأ لحظة واحدة وهو يرى الهرطقة والفساد ينخران فى الكنيسة ، كما ينخر السوس فى العظام ! ! . . .

أبفراس المصلى :

من العجيب أن أبفراس وهو يكافح الهرطقة والفساد ، كانت معركته الأولى ، وصراعه الأعظم ، مع الله ، وليس مع الناس ، إذ كان هذا الرجل يؤمن إلى أبعد الحدود بقوة الصلاة ، . . وكان يؤمن أن الجهاد الحقيقى ليس بين الإنسان والإنسان ، بل بين الإنسان والله ، وأن يعقوب عندما أراد أن يكسب معركته مع عيسو صارع مع الله وغلب ، وأن نحميا عندما واجه الصعاب القاسية وهو يفكر فى مدينته المحبوبة ، وهو مكمد الوجه أمام الملك ، والملك يسأله : « لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض . ما هذا إلا كآبة قلب . » (نح ٢ : ٢) . . . تحول فى الحال من الملك الأرضى إلى الملك السماوى وهو يجيب ، فصلى إلى إله السماء ، ومع أن أبفراس ترك كولوسى ولاودكيه وذهب إلى روما ليلتقى ببولس هناك ، إلا أنه فى عاصمة الرومان ، لم يكن قلبه أو عينه أو عاطفته متجهة إلى مناظر روما الخلابة ، لأنه كان

منصرفاً كل الانصراف بجهده وكيانه ومشاعره وصلواته إلى ما يحدث فى كولوسى ولاودكيه وهيرابوليس : « مجاهد كل حين لأجلكم بالصلوات لكى تثبتوا كاملين وممتلئين فى كل مشيئة الله » (كو ٤ : ١٢) . . . قال أحدهم : إن أرشميدس لما اكتشف قانون العتلة قال أعطنى عتلة ومكاناً أركزها عليه وأنا أرفع الأرض . وهذه العتلة بالنسبة للمؤمن هى الصلاة التى إذا ما وجهت نحو الله وارتكزت فى السماء تستطيع أن تنقل الأرض إلى السماء ، وتحيل الأفكار الأرضية أوامر سماوية ، وتحول الجسد إلى روح ، والطبيعة الجسدية إلى طبيعة روحية ، والأرض إلى سماء ! ! . . . وكان الربيون يعلمون بوجوب الإقلال من الصلاة لئلا يتعب المولى من كثرتها ، وأما السيد المسيح فيقول : « ينبغى أن يصلى كل حين ولا يمل » ! ! (لو ١٨ : ١) والصلاة المصارعة المثابرة تنتصر أخيراً ، إذ قد يتمهل الله على أولاده ، وفى تمهله بركات ، ولكنه لا يترك أولاده بل سينصفهم سريعاً ، . . وقال الكردينال نيومان : من لا يصلى يسقط حقه المدنى فى السماء ، وقد يكون من ورثة الملكوت ولكنه يعيش كما لو كان طفلا على الأرض ! ! . . فإذا تصور أحد أن الله لا يسمع الصلاة ، لأنه لا يجيب عندما نطلبه لأول مرة ، يكون تفكيره مضاداً للكتاب المقدس والاختبار ، لقد جاهد يعقوب ليلة بكاملها ، وصلى دانيال وصام ثلاثة أسابيع ، وصرف يسوع الليل كله فى الصلاة ، وصلى التلاميذ عشرة أيام قبل حلول يوم الخمسين ، وصلى جورج مولر فنال بالصلاة خمسة ملايين دولار ،وشهد بأنه فى بعض الأشياء لم ينل الإجابة قبل مرور عشرين سنة ! ! . . . وشبه أحدهم الصلاة الحية بالسهم إذ قال : إذا جذبت السهم قليلا فإنه لا يندفع إلا مسافة قليلة ، أما إذا جذبته لآخره فإنه ينطلق إلى مسافة بعيدة ، هكذا الحال مع صلواتنا

إذا ألقيت من شفاه غير مكترثة فإنها لا تلبث أن تسقط تحت أقدامنا . فإن لجاجتنا وعمق صراخنا وشدة أشواقنا هي التي ترسل أصواتنا إلى السماء وتجعلها تخترق طبقات السحب . . إن الله لا يهتم في صلواتنا بحسابها وكم عددها ، ولا ببيانها وما مقدار فصاحتها ، ولا بهندستها وكم طولها ، ولا بموسيقاها وبعلو أصواتنا فيها ، ولا بمنطقها وما مقدار حجمها ، ولا بنظامها وما كيفية ترتيبها ، كل هذه قد توجد مع الصلاة ومع ذلك تكون بلا فائدة ، إذ لا يغني شيء عن قوة حرارتها في صعودها إلى الله ! ! . . .

يقول الرسول عن أبفراس : « مجاهد كل حين لأجلكم بالصلوات » وهو يكشف بذلك عن الرجل الراكع على ركبتيه أو المنبطح على وجهه ، طوال النهار والليل يصارع من أجل الكنيسة التي أحبها والتي يقوم بالخدمة فيها ، . . وهو يصلح بذلك أن يكون نموذجاً للخادم الأمين الناجح في الصلاة ، والذي يعطيها المكان الأول في الخدمة . . . وهناك نماذج ممتازة كثيرة ذكرها أ . م . باوندز في كتابه العظيم عن قوة الصلاة ، والذي ترجم فيما أعلم إلى العربية ، ويحسن بكل مؤمن وخادم أن يقرأه ليرى أثر الصلاة وفاعليتها في حياة المؤمنين والكنيسة ، . . . وقد قال عن أبطال الصلاة الكثير ! ! . . كان تشارلس سيمون يكرس من الرابعة صباحاً إلى الثامنة للصلاة أمام الله ، وكان ويسلي يستيقظ في الرابعة ويقضي ساعتين مع الله ، وقد وصفه أحد عارفيه بالقول : إنه كان يعتقد أن الصلاة هي أعظم شيء عنده ، وأكثرها أهمية ، وقد رأيته يخرج من مخدعه يشع منه الصفاء ! ! . . وكان جون فيلتشر يرطب جدران غرفته بنسمات صلواته ، وكان يقضي في بعض الأحايين الليل كله في الصلاة . بحماس ، وغيرة ، وقوة ، . . لقد كانت حياته كلها صلاة ، وهو لا ينهض من مقعده دون أن يرفع قلبه إلى الله ! ! . . وكان لوثر يقول : إذا فشلت في أن أقضي ساعتين في الصلاة كل صباح ،

فسينتصر الشيطان عليّ طوال اليوم ، إن عندى من الأعمال الكثيرة ، مالا أستطيع إنجازه دون أن أقضى ثلاث ساعات فى الصلاة ! . . والأسقف أسبرى كان ينهض فى الرابعة ليقضى ساعتين فى الصلاة والتأمل . . . وصموئيل رزرفورد كان يعيش فى غنى الشركة ثلاث ساعات فى الصباح ، . وكتب قديس اسكتلندا العظيم روبرت مارى مكشين : « يلزم أن أصرف أفضل ساعاتى مع الله ، . . وهى أنبل عمل أقوم به وأكثر أثماراً ، ولا يمكن أن استغنى عن ذلك ، إن ساعات الصباح من السادسة إلى الثامنة هى أفضل اللحظات الهادئة التى ينبغى أن أقتنصها دون إزعاج ، وبعد الشاى ، أخصص ساعة أصرفها مع الله ، . . وفى المساء لا يجوز أن أطرح عادتى القديمة المفضلة عادة الصلاة قبل النوم ، وعندما استيقظ فى الليل يلزم أن أنهض وأصلى » . . ومما يؤثر عن جون و لش أنه كان يقضى يومياً ثمانى ساعات فى الصلاة ، وقد اشتكت زوجته إذ رأته منطرحاً على الأرض يبكى فأجابها : يا امرأة ! ! إن فى عنقى ثلاثة آلاف نفس — سأسأل عنهم ، ولا أعرف كيف يكون الجواب ! ! . .

ابفراس المعلم :

لم تكن الصلاة هى الشيء الوحيد الذى واجه به أبفراس الهرطقات والتعاليم الكاذبة والمفاسد ، لقد دفعته غيرته إلى أن يذهب إلى بولس يسأله المشورة والرأى والنصيحة ، وعاد من عند الرجل ومعه تيخيكس وأنسيمس ورسالة كولوسى وما تحمل من تعاليم وعقائد لمواجهة الهرطقة والأكاذيب والأضاليل ، وأدرك أبفراس أن التعليم العقائدى من أهم الضرورات وألزمها للكنيسة المسيحية ، وأنه ليس هناك ما يمكن أن يطرد خفافيش الظلام أفضل من أن ترسل الضوء القوى الهادئ ، والرسول بولس يملأ رسالته إلى أهل كولوسى بالعقائد فى حب وحزم ، فهو وإن كان قد هاله تسلل بعض

الهرطقات إلى كنيسة كولوسى ، إلا أنه بدأ الحديث معهم دون أن تتبدد ثقته فيهم إذ قال : « كما تعلمتم أيضاً من أبفراس العبد الحبيب معنا الذى هو خادم أمين للمسيح لأجلكم . الذى أخبرنا أيضاً بمحبتكم فى الروح . من أجل ذلك نحن أيضاً منذ يوم سمعنا لم نزل مصلين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته فى كل كلمة وفهم روحى ، لتسلكوا كما يحق للرب فى كل رضى مثمرين فى كل عمل صالح ونامين فى معرفة الله متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده لكل صبر وطول أناة بفرح » (كو ١ : ٧- ١١) . . والمبدأ الأساسى عند بولس فى أية أحاديث هو أن تتم فى جو الحب والثقة ، دون التحول إلى المجادلات السخيفة الغبية ! ! . . وهو لابد أن يكسب أذن الكولوسيين وثقتهم ، ويبحث عن الجانب المنير فيهم ، قبل أن يحذر أو يوبخ أو يندد بشىء ما ، وهو يقبل التسامح ، لكنه لا يقبل التساهل ، وهو يتسامح فى غير الجوهريات ، ويبدو غاية فى المرونة فيها ، لكنه لا يتحول قيد أنملة عن الحق فيتساهل فى الجوهريات ، فإذا جاء أحد ليضللهم عن مركز المسيح ولاهوته ، فهو هنا يبدو أصلب من الصلب نفسه ، . . وإذا أراد أحد أن يتحول بهم إلى عبادة الملائكة بدعوى التواضع ، فهو لا يتردد بأن يذكرهم بأن فى ذلك ضياع لهدفهم ، وهو يقول لهم : « لا يخسركم أحد الجعالة » . . . ولعل أبفراس عاد من رحلته وهو يحمل معه هذه الروح يكافح بها الهرطقات والشرور الذى يحاول الشيطان أن يدخلها إلى الكنيسة بهذه الصورة أو تلك ، . . . وليت هذا يكون سبيلنا على الدوام فى التعليم العقائدى ، الذى يقع فى العادة بين غلطتين أساسيتين فى الكنيسة المسيحية ، فهناك كنائس لا تهتم بالتعليم العقائدى ، وهى تظن أن هذا التعليم يثير الجدل والمشاحنات والمتاعب ، والتى يحسن فى تصورهم الاستغناء عنها ، . وقد تبين فى كل التاريخ أن الكنيسة التى لا تعرف العقيدة الصحيحة هى

مهددة على الدوام بالخرافة والضعف والضياع ، وأن المنبر الذى يهجر التعليم العقائدى ، هو المنبر الذى لا يمكن أن يطمئن إلى سلامة الكنيسة ونموها وصمودها أمام الزوابع والعواصف والأعاصير . والعقائد الجوهرية ينبغى أن تلقن لمختلف مراحل الحياة لجميع الأعضاء . على أن الخطأ الآخر المقابل هو أن تتحول الكنيسة إلى المغالاة صباحاً ومساء لا للانشغال بالعقائد الرئيسية الجوهرية فحسب بل بالعقائد الثانوية ، وتعطيها من الاهتمام ما يحجب خدمة ورسالة الخلاص والتعبد ومفهوم الحياة المسيحية العملية !! . . . ومن الواجب المسيحى أن نقف فى الدفاع عن الجوهريات فى الإيمان المسيحى دون لين أو هوادة ، وفى الوقت عينه لا تعوزنا المرونة فى الأمور الثانوية أو التى لا تتعارض مع الخلاص والحياة المقدسة ! ! . . .

وعلى أية حال يبقى أبفراس فى كل الأجيال مثالا رائعاً فى خدمة الكنيسة ، وربح النفوس ، وتحمل المتاعب والمشقات والكفاح من أجلها ، كعبد ليسوع المسيح ، وخادم مخلص أمين ، مهما بذل من جهد أو قدم من ثمن أو أعطى من مال ووقت وحياة ! ! . . .

١٤٩
أنيسيفورس

« بل لمـا كان فى رومية طلبنى بأوفر اجتهاد فوجدنى » (٢ تى ١ : ١٧) .

من روائع الأدب القديم قصة الصديقين الحميمين دامون وبيثياس ، والتى قيل فيها إن ديونسيوس حكم على دامون بالموت ، وسمح له فى الوقت نفسه أن يرتب أموره ، ويجهز نفسه للموت ، عندما طلب مهلة بضمان صديقه الكريم الذى حل فى السجن محله لمدة معينة ، . . . وأسرع دامون إلى بيته ، ورتب كافة أوضاعه ، ثم عاد مسرعاً ليوفى بوعده ، ولكن الريح المضادة كانت له بالمرصاد ، فأخرت عودته ، وهو يضرع إلى الآلهة أن تيسر أمره فلا يتأخر لئلا يموت بيثياس ، وكان بيثياس فى الوقت عينه سعيداً بهذا التأخير ، فهو راغب أشد الرغبة فى أن يذهب فداء صديقه ، ... وفى الدقيقة المعينة أبصروا دامون يجرى بكل سرعته ليمثل أمام ديونسيوس ، ولم يصدق الرجل أن حباً ووفاء واخاء رائعاً يمكن أن يكون بين البشر على

هذه الصورة ، فما كان منه إلا أن عفا عن دامون ، وسأل الرجلين أن يقبلاه صديقاً على هذا النحو الرائع من الصداقة الجميلة ! ! . . . قد تكون قصة دامون وبيثياس قصة صحيحة أو غير صحيحة ، لا نعلم . . . ولكن الذى نعلمه بكل يقين أن أنيسيفورس شد رحاله من مدينة أفسس وعبر البحر إلى روما ، . . وفى المدينة الواسعة أخذ يفتش فى كل مكان ، وهو ينتقل من سجن إلى سجن من سجونها الكثيرة ، ويبحث بجد واجتهاد عن صديق يرسف فى أغلاله وقيوده حتى عثر عليه فى لقاء روائى يحمل قصة من أروع قصص الحنان والحب والشجاعة والوفاء بين الناس ، وما أحوجنا إلى أن ندرج أنيسيفورس بين الشخصيات التى تظهر أمامنا على مسرح الحياة كنموذج مثالى عجيب لما تصنعه المسيحية فى حياة الإنسان ، وتقدمه فى وفاء الخدمة للناس ، ومن ثم يحسن أن نراه فيما يلى :

انيسيفورس وبيتــه :

من الواضح أن أنيسيفورس كان أسيوياً ومن مدينة أفسس ، ولا يعلم على وجه التحقيق ماذا كان يعمل ذلك الرجل ! أو من هم أهل بيته ، . . يعتقد بعض الشراح أنه كان تاجراً ، وأنه ربما ذهب إلى رومية من أجل التجارة أو لمصالح أخرى له هناك ، ويعتقد ألكسندر هوايت أنه كان شيخاً فى كنيسة أفسس ، وهو على أية حال كان من أخلص أصدقاء بولس ، ومن أفضل المؤمنين فى أفسس ، بل من المعتقد أن بولس وهو يقول : « مراراً كثيرة أراحنى » كان يتحدث عن رجل وعن بيت من أفضل البيوت فى أفسس،البيت الذى ألف أن يجد فيه هدوءه وأمنه وسلامته وسلامه ، . . بل إنه من الطبيعى أن نتصور كم كان هذا البيت عزيزاً عليه ، وهو القائل : « حاربت وحوشاً فى أفسس » حيث كانت حياته هناك حرباً متصلة ، وحيث تحول الناس وحوشاً ضارية تريد الفتك به ، . . ولكنه فى المعارك

القاسية ، كان يعود فى المساء ليجد صديقاً مرحباً وبيتاً ودوداً ، وشركة حبية عميقة صافية ، تمسح جراحه ، وتعطيه عزاءه ، وترتب له السرير الهادئ الناعم ، والوسادة اللينة المريحة التى يطرح عليها رأسه المتعب ! ! . . وكما كان سيده يأتى إلى بيت مرثا ومريم ولعازر أو بيت أم يوحنا مرقس أو إلى هذا البيت أو ذاك من البيوت المفتوحة أمامه ، كان بولس فى أفسس يجد دائماً بيت أنيسيفورس المفتوح ! ! .

إن بولس يذكر أنيسيفورس مرتبطاً ببيته ، ولا نستطيع أن نفصلهما عن بعضهما ، لقد كان الأب مثالا للبيت وقدوة صالحة وكان أهل بيته على شاكلته ونمطه وأسلوبه فى الحياة ، . . . وهذا يذكرنا بما قيل عن هو يتفيلد عندما سأله أحدهم عن شخص ما إذا كان مسيحياً أم لا فأجاب : لا أعرف لأنى لم أره وهو فى البيت . إن الحياة المستقيمة ليست سهلة فى البيت ، قد تستطيع أن تتكلف الحياة فى الخارج . أما البيت فأنت تعيش فيه كما أنت ... إن قصة سمعان العمودى الذى نال شهرته بلبس قميص من شعر ، واقامته على عمود عال مدة سنين طويلة أثرت فى ذهن الغلام الصغير : « أنا قول فرانس » فأراد أن يقلده ، وإذ لم يستطع أن يحصل على العمود عمل شيئاً يشبه العمود ، بأن وضع كرسياً على طاولة المطبخ ، ولكن من سوء حظه أن الطباخ وباقى أفراد العائلة لم يفهموا سمو غرضه العظيم ، وبدأوا يعاكسونه حتى أصبحت حياته لا تطاق ، فاضطر أن يترك المشروع وفى ذلك يكتب : لقد رأيت أنه من أصعب الأمور أن يعيش الإنسان قديساً وهو يقيم بين أفراد عائلته ، وقد لمست السبب الذى حدا بالقديس انطونيوس والقديس جيروم لأن يتركا بيوتهما ويقيما فى الصحراء ! ! . . .

إن البيت هو أحد المعاهد التى يخرج منها الله قادة العالم ، فمن البيت خرج إسحق ويوسف وموسى وصموئيل ويوحنا المعمدان وتيموثاوس وغيرهم

كثيرون ويتحدث رجال الاجتماع حديثاً طويلا عن العائلة ، وتراهم يسألون ألوف الأسئلة ، عما يجب أن يتصف به الأب أو الابن أو الأخ ، ومن الخطأ الظن بأن المسيحية لا تهتم بهذا الموضوع ، ولكن البيت له مكانة كبيرة فى الإنجيل ، ونحن نقرأ فى كلمة الله الأمثلة الكافية لما يجب أن يكون عليه المسيحى ، أو من له روح المسيح فى وسط العائلة ، والاسم الطيب لبيت ، كأسرة أنيسيفورس ، وليديا بياعة الأرجوان ، وأكيلا وبريسكلا ، والأسماء الكثيرة التى تعرضنا لها فى الشخصيات السابقة ، قد لا يوجد على الأرض ما هو أعظم منه . . وإذا كان رجال العالم يبنون منازل هى صالات وغرف وأبهاء وسقوف وقباب ، فان أبناء الله يبنون حياة وحباً وقداسة ورحمة ونعمة ومجداً فى المسيح يسوع ! ! . . وقد حق لأحدهم أن يقول : مضت ألوف السنين والملوك يولدون فى قصور فخمة وعلى فرش وثيرة تحف بهم صور التيجان ، ويقرأون فى كل المناظر التى تعرض أمامهم أن الناس قسمان : ملوك يحكمون الشعب ، وشعب يخدم الملوك ، ولكن فى ليلة عظيمة جميلة ولد ملك الملوك ، ولم ير فوق رأسه صورة تاج ولم تفتح له قصور يدخلها ، ولم يجد يدا ترحب به ، أو تنيمه على فراش ناعم ، ومع ذلك فقد كان مخلص العالم ، المخلص الذى قضى تسعة أعشار عمره على الأرض فى منزله فى الناصرة ، ليستعد لمهام العشر الآخر الباقى ! ! . . .

لسنا نعلم حظ بيت أنيسيفورس من الثروة أو الجاه أو النفوذ ، ولكننا نعلم بكل يقين أن البيت الذى حياه بولس بكل حرارة كان له أعظم الحظوظ من الشركة مع الله ، ومن سمو الحياة المرتفعة العالية ، . . وأن رب البيت ترك طابعه وحياته ومسيحيته السامية ، على كل فرد فى بيته ، وإذا صح أن روبرت انجرسول الملحد الأمريكى الكبير ، أرسل ذات مرة إلى عمته سارة ، وكانت مشهورة بجمال حياتها المسيحية ليقول لها مع أحد كتبه التى

كان ينشرها ضد الدين : إن هذا الكتاب ما كان له أن يظهر لو أن المسيحيين كانوا مثلها فى حياتهم وحلاوة سيرتهم ! ! . . وإذا صح أن برسى انيسورس الواعظ المشهور ، رؤى ذات يوم يحمل فى يده فرشاة ودهاناً ، وأخذ يدهن بكل نشاط جداراً أبصره فى الطريق وإذ اندهشوا لعمله واستفسروا منه ماذا يفعل ! ! . . أجاب لقد رأيت كتابة قبيحة على الجدار ، وذهبت إلى بيتى ، وعادت إلى ذهنى هذه الكتابة بتشويشها الشرير ، وأدركت أن غيرى سيقرأها ، وأنها ستفسد أذهان الكثيرين ، وعلى الأخص من الشباب ، فآليت على نفسى أن أمحوها ، وأنظف الجدار منها ، . . . وفى بيوتنا كم يجب على الآباء أن يمحوا من تأثيرات العالم على أهل البيت ، وأن يكتبوا بحياتهم كل ما هو طيب ومجيد ونافع وعظيم ومبارك ! ! . . .

أنيسيفورس ووفاؤه :

لست أعلم من وضع المثل العربى القديم ، عن الغول والعنقاء والخل الوفى ، . . . وعد الصديق الصحيح الوفى خرافة من الخرافات فى عالم الناس ، مثل الغول أو العنقاء ، مع أن رحمة الله ونعمته وإحسانه أعطت التاريخ البشرى فى كل جيل وعصر أمثلة نادرة من الوفاء الذى يعلو كثيراً على الفكر والتصور والخيال ، . . . كان أنيسيفورس بالتحقيق تكذيباً خالداً لهذا المثل القديم . . . والرجل ينهض فى كل العصور صورة مثلى للخل الوفى ! ! . . وبولس يستعرض هذا الوفاء فيجده رائعاً وعجيباً من كل جانب ، فهو أولا وفاء الخدمة ، وما أجمل الكلمة « أراحنى » . . ولم تكن الراحة هنا وقتية أو محدودة بل « مراراً كثيرة » أو فى لغة أخرى إن الرسول وهو يستعرض شريط الذكريات ، يتوقف عند محطات كثيرة للراحة ، وجد فيها أنيسيفورس ينتظره هناك ، دون أن يتخلف قط عن تزويده بكل أسباب الراحة المادية والأدبية والنفسية والروحية بسخاء

وكرم ، ... هل عاد جائعاً ذات يوم بعد جهاد طويل فى الخدمة المضنية ، ليرى المائدة الحافلة مجهزة له بكرم كثير ، ليس صنفاً واحداً من الطعام بل أصنافاً متعددة ، فى وليمة المحبة السخية ، التى هتف ازاءها بولس إن لفظاً أو حساً : « أراحنى » . . . هل دخل الرسول البيت منهكاً متعباً لايكاد يقوى على الحركة بعد رحلة طويلة أو سفرة متعبة ، ليجد العلية المجهزة والسرير المريح ، ليضطجع عليه ، وهو يتمتم ، وقد ألقى بجسده فوقه : « أراحنى » . . وهل عاد ذات مساء بعد ضربات قاسية موجعة ، وجراح بالغة، ليأوى إلى المكان الذى يجد فيه من ينحنى على جراحه يغسلها ويضمدها ويفعل كل ما فى وسعه لازالة أوجاعها وآلامها ! ! ؟ ... بل هل عاد أكثر من ذلك بالجراح النفسية العميقة ، وهو يحارب الوحوش فى أفسس ، ويواجه الغدر ، والخيانة ، والمؤمرات ، وما أشبه ، فوجد الابتسامة المريحة والتشجيع الكامل ، والشركة الودودة ، والعطف البالغ الذى يغطى كل متاعبه وضيقاته وآلامه ، وسكن بولس إلى هذه كلها وهو يتمتم : « أراحنى » .... والسؤال هل يمكن أن يوجد « أنيسيفورس » فى كنائسنا فى كل مكان فى هذه الأيام ، وهل يمكن أن نراه فى الشيخ المحب أو الشماس المساعد أو العضو الذى يريد أن يرفع عن كاهل الراعى الكثير من الآلام والمتاعب، .. آمل ذلك كثيراً لأن هذه هى الرسالة المسيحية الصحيحة الموضوعة على كل مؤمن فى خدمة يسوع المسيح ، وأود أن نراه دائماً وكثيراً جداً ، وليس كاحسان الندى المتقطع ، أو كمن يبدأ حسناً ليتحول إلى النقيض ، .. أو كما تقول الأقصوصة التى تخيلها أحدهم وهو يصور الكنيسة على شكل عربة يقودها الراعى والشيوخ من الخلف يدفعونها فتسير بيسر وسهولة والجميع يرنمون ويغنون ، . . على أن الراعى بعد فترة من الزمن لاحظ صعوبة الحركة فى العربة ، وتعجب ، والتفت إلى الوراء ليرى الشيوخ وقد

ركبوا ليصبحوا عبئاً بعد أن كانوا معينين ، . . .أشكر الله لأننى ، طوال خدمتى الرعوية ، لم أعرف هذا الصنف من الناس ، بل على العكس رأيت الكثيرين من الأحباء الأوفياء من شيوخ وغير شيوخ وكل واحد منهم أنيسيفورس فى الخدمة المشتركة ليسوع المسيح ! ! . . .

على أن وفاء أنيسيفورس كان أكثر من ذلك كان وفاء الحركة الباحثة المجدة ، . . إن الوفاء الصحيح يتحول شعلة فى القلب ، ونارا تتلظى بين الجوانح فى الحضور أو الغيبة على حد سواء ، . . لم يتغير إحساس أنيسيفورس تجاه بولس لمجرد أنه رحل من أفسس إلى رومة ، على مبدأ القائلين إن « البعيد عن العين بعيد عن القلب » ، . . ولم يحاول الرجل أن يعتذر بأن العناية سمحت بأن يبعد بولس عنه ما يقرب من ألف ميل ، وهو ليس مسئولا عن القريب البعيد فى حظه أو بؤسه ، مادام بعيداً عنه فيما وراء البحر الكبير الذى يفصل بين أسيا وأوربا ، ... إن بعض الناس وربما من بين المحبين الأتقياء ، من ينفض عن كاهله وضميره كل احساس بالالتزام للذين تغربوا وبعدوا ، ولم يعد الاتصال بهم أو الاقتراب منهم ، سهلا ميسوراً ، .. كلا إن أنيسيفورس كان يحمل حباً لبولس سواء كان فى أفسس أو روما أو فى أى مكان على ظهر الأرض ، ... وهو لابد يتغلب على كافة المتاعب والمشقات بحثاً عن صديقه الحبيب وأخيه العظيم فى المسيح يسوع ! ! . . . وهو يطلب بولس بأوفر اجتهاد . والسؤال هنا كيف حدث هذا الاجتهاد ، لقد اختلف الشراح والمفسرون ، فنهم من اعتقد أن أنيسيفورس ذهب إلى روما لغرض من أغراض التجارة ، وإذ وجد فى المدينة الكبيرة أخذ يفتش عن بولس هناك ، . . غير أن ألكسندر هوايت لا يقبل هذا الرأى أو يؤمن به ، إذ يعتقد أن أنيسيفورس أخذ رحلته من أفسس إلى

روما سعياً وراء بولس وهو يطلبه بأوفر اجتهاد ! ! . . .وأياً كان التفسير الصحيح فان هذا لا يقلل البتة من المشقات المضنية التى لاقاها الرجل حتى وصل إلى بولس ، وقد كان السفر فى ذلك الوقت من أشق الأمور وأصعبها ، .. والسؤال لماذا لم يتعرف أنيسيفرس على بولس بسهولة ؟ لقد كان بولس فى ذلك الوقت فى سجنه الأخير ، وربما كان الرعب قد وقع على الجميع ممن يعرفون بولس ، وكانوا يلتقون فى الخفاء فى أماكن متغيرة حتى لا يقبض عليهم فى عهد الطاغية نيرون ، كما أن السجون كانت كثيرة فى روما ، والتزم أنيسيفورس أن ينتقل من سجن إلى سجن باحثاً عن صديقه المحبوب ، ... ولم يهدأ أو يسترح حتى عثر عليه فى واحد منها ! ! . .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن وفاء أنيسيفورس لم يتأثر بالآخرين ، والوفاء الصحيح لا يتغير بذبذبة الناس أو تقلبهم أو تغير عواطفهم ،.. بدأ أنيسيفورس رحلته ، وهو لا يعبأ بأن جميع الأسيويين ارتدوا عن بولس ، ومهما كانت دوافع ارتدادهم ، فإن قلب الرجل لم يتأثر بالجميع ؛ بل لعله ازداد حباً وعطفاً على صديقه المنكوب فى الآخرين ! ! ... إن الوفاء الصحيح لن يقويه أو يشدده كثرة الأوفياء الآخرين أو شخصياتهم أو حيثياتهم ، . . . لقد وقف أنيسيفورس إلى جانب بولس لأنه كان يؤمن أن بولس يقف بجلال وبهاء إلى جانب قضية المسيح العظيمة ! ! . . .

على أن عظمة هذا الوفاء تظهر فى أنه الوفاء فى المحنة ، وقد تخيل ألكسندر هوايت صورة اللقاء بين بولس وأنيسيفورس ، ولم يكن بولس فى سجنه الأخير عند معذبيه وسجانيه أكثر من سجين ، ربما لا يعرف باسمه بل بمجرد رقم يعطى له كما يعطى لغيره من المساجين ، فإذا كان الرجل عند أنيسيفورس أعظم رجل فى عالم الأحياء ، فإنه عند الرومان ليس أكثر من رقم قد لا يكون معروفاً على الإطلاق ، . . وأنيسيفورس يسأل هنا وهناك ،

ويكد نهاراً وليلا ، حتى يعثر عليه آخر الأمر فى زنزانته الضيقة ، والسلسلة فى يديه ، وذهل الجندى الحارس عندما رأى أنيسيفورس يطوق بولس بالحب والحنان والقبل والدموع ، والجندى يتعجب لهذا المنظر المثير العجيب بين الرجلين على نحو غير مألوف أو معروف بين الناس ! ! . . . وفى الحقيقة لا أعلم هل قبل أنيسيفورس سلسلة بولس أم لا ! ! . . . إن السلسلة التى كان يخجل منها الكثيرون ممن كانوا أصدقاء الأمس ، واليوم هم متباعدون ، هذه السلسلة تحولت ذهباً صافياً فى فكر أنيسيفورس يزين معصم الرسول ، ومجداً خالداً وليس عاراً كما يراها الخونة الهاربون ، . . « لم يخجل بسلسلتى » . . . أى أنيسيفورس ! ! إننا نحنى رؤوسنا خجلا أمام نبلك العظيم أيها الشريف بين الناس وبين المؤمنين على حد سواء ! ! ؟ وكم يتوارى الكثيرون عن الوقوف إلى جانب أبطال الصليب ، الذين يسيرون وراء سيدهم حاملين عاره ! ! . . .

لم يكن الأمر عند أنيسيفورس مجرد الوقوف بدون خجل إلى جانب بولس ، بل كان أكثر من ذلك الوفاء الشجاع فى وقت الخطر الرهيب المفزع الذى سلط فيه نيرون أبشع اضطهاد على المسيحيين فى روما ، . . . ومع ذلك فإن أنيسيفورس لا يبالى بالخطر أو الموت ، وهو يبحث عن صديقه المحبوب ، . . ولعل السر فى ذلك ليس مجرد الحب القوى العميق الذى يربط بين قلب وقلب ، بل بالأحرى الإيمان المسيحى ، الذى يسمو بهذا الحب ، ويطبعه بطابعه السماوى القدسى ، وأنيسيفورس يؤمن بأن الوفاء لا يجوز أن يتراجع البتة مهما كان الخطر أمام الخدمة المسيحية ، بل بالأحرى إن المسيحيين فى حاجة إلى الإقدام الشجاع والتضامن فى قلب الكوارث والمحن ، وهنا يلمع الوفاء على أجمل صورة معروفة بين الناس . كتب ريموند فوسدك مقالا رائعاً عن الإيمان فى وقت الخطر ،وهو يؤكد أن أعظم الأعمال

التى حققها الإنسان تمت فى أوقات كان العالم خلالها يجتاز أقسى المحن
ويقول : « كان القديس جيروم قد انتهى لتوه من ترجمته اللاتينية للكتاب المقدس وهو قابع فى صومعته فى بيت لحم عام ٤١٠ ميلادية ، وقد بدأ فى إعداد تعليقاته عندما سمع أن روما المدينة الخالدة ، ورمز الخلود عنده للمسيحية قد نهبها ألريك القوطى وجيشه من البرابرة، وبدا لجيروم أن عمله أصبح لا جدوى منه فكتب يقول فى يأس » : « ماذا بقى لنا إذا هلكت روما » . . . لقد خيمت على العالم العصور المظلمة لمدة سبعمائة عام مليئة بالمحن ، . . ولكن بقى شىء آخر هو الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس الباقية إلى اليوم ، . فمن صفحاتها برزت أمجاد المسيحية بعد ذلك : « كاتدرائية شارتريه » « الكوميديا الإلهية لدانتى » ولوحات ميخائيل أنجلو ، وموسيقى آلام القديس متى لباخ ، . . وهكذا استمدت العصور التالية ازدهارها من دير عاش فيه منذ قرون رجل حطمته كوارث عصره ، ولكنه مضى فى أداء عمل يؤمن به . . . لقد خلق عمل القديس جيروم على مر القرون أكثر مما دمره ألريك وخلفاؤه بكثير . . تلك هى النقطة التى يجب أن تظل ماثلة فى أذهاننا ، بعد أن بدا أن القوى الهمجية قد اقتحمت حدود عصرنا فى القرن العشرين ، كما فعلت فى القرن الخامس . . . إن الأعمال الفذة التى حققها الإنسان كانت أكثر حدوثاً فى سنوات القلق ، ففى خلال أعمال العنف التى اجتاحت القرنين الثانى عشر والثالث عشر ارتفعت كاتدرائية شارتريه وأبراج كاتدرائية ساليسبورى التى كانت مجد عصرها فى ذلك الحين ! ! . . . وانجز ملتون أعظم أعماله خلال فوضى الحرب الأهلية ، وألف بيتهوفن وجوته أعمالهما الخالدة بينما كانت جيوش نابليون تشق طريقها عبر أوروبا . . . إننا نعلم أن أجدادنا الأولين كانوا محاطين بالخوف دائماً ، غير أن فيضاً من الجرأة

والشجاعة الفائقة كان يتدفق دائماً عبر التاريخ فى وجه الظروف المعاكسة ، كانت هناك مرونة ورفض لقبول الهزيمة ، وإنكار عنيد لفكرة أن الحياة الإنسانية لن تنهض فوق الكارثة ! ! .. الخ .. فى الحقيقة عندما نتأمل لقاء بولس وأنيسيفورس ، والرسول فى زنزانته مقيد بالأغلال والسلاسل ، وعلى مقربة من الموت ، لا نستطيع البتة أن نفصل بين وفاء الرجل الأسيوى القديم وبين الإيمان المسيحى الكامن وراء قصة هذا الحب النادر بين الناس ! ! ..

انيسيفورس وجزاؤه :

وقصة هذا الجزاء ينبغى أن ننظر إليها بكل تأمل وعمق ، وذلك لأنها أثارت نزاعاً دينياً حول تفسير الأقوال : « ليعط الرب رحمة لبيت أنيسيفورس لأنه مراراً كثيرة أراحنى ولم يخجل بسلسلتى بل لما كان فى رومية طلبنى بأوفر اجتهاد فوجدنى . ليعطه الرب أن يجد رحمة فى ذلك اليوم . وكل ما كان يخدم فى أفسس أنت تعرفه جيداً » (٢ تى ١ : ١٦ — ١٨) ويذهب الفكر التقليدى الكاثوليكى إلى أن هذه الآيات تنهض دليلا على الصلاة لأجل الموتى ، ويعتقدون بأن أنيسيفورس كان قد مات بدليل أن بولس يقول فى آخر الرسالة : « سلم على فرسكا وأكيلا وبيت أنيسيفورس مما يشجع على الظن أنه مات بعد زيارته لبولس فى روما ، وأن بولس لهذا السبب يطلب له الرحمة ، . . ويرفض الرأى البروتستانتى هذا التفسير رفضاً كاملا ، ويقولون إنه لا دليل على موت أنيسيفورس البتة ، وعلى الأخص لأن الفترة ما بين زيارته للرسول . وعودته على الأغلب إلى أفسس ، وكتابة الرسالة الثانية لتيموثاوس كانت فترة قصيرة ، إذ أن سجن بولس الأخير لم يطل كالأول ، وهذه الفترة لا تحتمل عودة الرجل إلى أفسس وموته ، وبلوغ خبر الموت إلى بولس ، وليس هناك على الإطلاق دليل يقطع

بموته ، . . . ومع ذلك فلنفرض جدلا أنه كان قد مات وأن الرسول كان قد عرف بموته ، فإن أقوال بولس أو صلاته لا تصلح أن تكون دليلا على الصلاة من أجل الموتى ، لأن بولس طلب أولا الرحمة لبيت أنيسيفورس وهم أحياء ، وهو طلب جائز مشروع من رجل خدمه البيت ورب البيت خدمات عظيمة لا يستطيع أن ينساها طوال حياته إلى النسمة الأخيرة ، وهو كإنسان مغلول اليدين وليس فى قدرته أن يصنع شيئاً يكافىء به البيت العظيم أو رب البيت ، فكل ما يطلبه للبيت هو أن يتمتع برحمة الله الغنية الواسعة التى نحتاج إليها جميعاً كأحياء لا نستطيع أن نحيا يوماً واحداً دون رحمته ، . . فإذا قيل إن هذه الرحمة تلحق أنيسيفورس بالذات : « ليعطه الرب أن يجد رحمة فى ذلك اليوم » . . . والمقصود بذلك اليوم هو اليوم الأبدى العظيم الذى سيقف فيه الجميع أمام كرسى المسيح ليعطى كل واحد حساباً عما فعل بالجسد خيراً كان أم شراً ! ! . . . قلنا إنها رحمة ستتحقق فى اليوم الأخير ، ولا يمكن أن تنصرف بحال ما لأية منفعة قبل ذلك اليوم ، مما ينتفى معه فكرة المطهر بأية صورة من الصور ، أو فائدة تلحق به قبل القيامة فى اليوم الأخير ! ! . . فإذا جاء النص يحمل الرحمة للبيت أو للرجل ، فنحن إذاً أمام صورة عظيمة لرسول يذكر بيتاً ورجلا ، لا يملك أن يكافئها ويجازيهما ، وهو يطلب لهم خير الجزاء فى الحياة الحاضرة والعتيدة ، ولا يزيد الأمر عن صورة الجزاء الذى تحدث عنه السيد الملك سواء فى العهد القديم أو الجديد : « كنت فتى وقد شخت ولم أر صديقاً تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً » (مز ٣٧ : ٢٥) أو القول : « تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . لأنى جعت فأطعمتمونى . عطشت فسقيتمونى . كنت غريباً فآويتمونى. عرياناً فكسوتمونى . مريضاً فزرتمونى . محبوساً فأتيتم إلى » (مت ٢٥ : ٣٤ – ٣٦) . . والجزاء

فى كل الحالات ، فى الحياة الحاضرة والعتيدة ، هو رحمة من الله وليس استحقاقاً البتة ، وهو رحمة نأخذها فى ظروفنا الحالية فى كل جانب من جوانب الحياة . وهى الرحمة الكاملة فى المجد عندما تكمل السعادة الأبدية بخلاص الروح والجسد معاً فى يوم القيامة الأخير ، . . . ومن المستحيل لرجل مؤمن تمتع بالخلاص الأبدى فى المسيح يسوع ، ويمتدحه الرسول على هذه الصورة النادرة العجيبة ، فى المقارنة مع غيره من الناس ، ثم تعلق أبديته حتى اليوم الأخير ، دون أن تنال رحمة الخلاص المجانى فى الصليب ، . . إن فى هذا كل المجافاة لا للتفسير الكتابى الصحيح بل للمنطق السليم الواضح أيضاً ! ! . . .

إن السؤال الحقيقى الذى تطرحه قصة هذا الرجل القديم ، . . فى عصر فترت فيه محبة الكثيرين . . هل يمكن أن نجد نظيره الآن ، وهل يمكن أن نعثر على « أنيسيفورس » متكرراً فى عصرنا ! ! ؟ .

١٥٠
اسكندر النحاس

« اسكندر النحاس اظهر لى شرورا كثيرة ليجازه الرب حسب اعماله » (٢تى ٤: ١٤)

قال أحدهم إن الفارق بين بولس والمسيح ، هو الفارق بين الأسد المزمجر والحمل الوديع ، كلاهما لطم على الخد ، وكلاهما حدث له هذا اللطم أمام رئيس الكهنة ، فتقبل المسيح اللطم بالوداعة المذهلة وهو يقول للخادم : « إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردى وإن حسناً فلماذا تضربنى » (يو ١٨ : ٢٣) . . وقال بولس فى زمجرة الأسد لرئيس الكهنة الآمر بضربه : « سيضربك الله أيها الحائط المبيض . أفأنت جالس تحكم على حسب الناموس ، وأنت تأمر بضربى مخالفاً للناموس » (أع ٢٣ : ٣) . ولم يلبث أن اعتذر عندما علم أنه رئيس الكهنة وهو يقول : « لم أكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة لأنه مكتوب رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً » (أع ٢٣ : ٥) . . وقد كان بولس دائماً قريباً من روح المسيح

ومثاله وقلبه ، وهو القائل : « كونوا متمثلين بى كما أنا أيضاً بالمسيح » (١ كو ١١ : ١) ، فإذا كان السيد قد قال فوق الصليب عن قاتليه : « اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » (لو ٢٣ : ٣٤) فإن بولس قال أيضاً لسجان فيلبى الذى كان مزمعاً أن يقتل نفسه : « لا تفعل بنفسك شيئاً رديأً لأن جميعنا ههنا » (أع ١٦ : ٢٨) . . لكن السؤال مع ذلك يبقى : وما العمل مع الإنسان الذى لم تفلح معه كل طرق المحبة والتسامح ، بل زادته شراً على شر ؟ إن الجواب واحد على الدوام بالنسبة للمسيح ، ولبولس ، ولنا فى كل العصور والأجيال ، وهو أن نسلم الأمر كله بين يدى الله أو كما قال الرسول بطرس عن السيد « بل كان يسلم لمن يقضى بعدل » ، (١ بط ٢ : ٢٣) وكما قال بولس ههنا : « ليجازه الرب حسب أعماله » (٢ تى ٤ : ١٤) . مع الحكمة والحذر فى التعامل مع الأشرار ، . . . إن قصة اسكندر النحاس جديرة بأن تكون موضوع الدرس والتأمل ، ولعلنا نتابعها فيما يلى :

اســكندر النحاس وشروره :

لعلنا نستطيع أن نفهم هذه الشرور متى حددنا من هو اسكندر النحاس هذا ، وقد اختلفت الآراء حوله . فهناك من يعتقد أنه ذلك اليهودى الذى كان يتصدر اليهود المضادين لبولس فى أفسس : « وكان البعض يصرخون بشىء والبعض بشىء آخر لأن المحفل كان مضطرباً وأكثرهم لا يدرون لأى شىء كانوا قد اجتمعوا . فاجتذبوا إسكندر من الجمع . وكان اليهود يدفعونه. فأشار إسكندر بيده يريد أن يحتج للشعب . فلما عرفوا أنه يهودى صار صوت واحد من الجميع صارخين نحو مدة ساعتين عظيمة هى أرطاميس الأفسسيين»

(أع ١٩ : ٣٢ – ٣٤) . . . وهناك من يرجح أنه يهودى آمن بالمسيحية ثم ارتد عن الإيمان وهو الذى تحدث عنه بولس فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس عندما قال : « ولك إيمان وضمير صالح الذى إذ رفضه قوم انكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان أيضاً الذين منهم هيمينايس والإسكندر اللذان أسلمتهما للشيطان لكى يؤدبا حتى لا يجدفا » (١ تى ١ : ١٩ ، ٢٠) .. على أن هناك من يأخذ برأى ثالث فيقول إن اسكندر النحاس ، وقد أضيفت إليه صناعته ولقبه ، كان شخصاً آخر ، وقد لقب بلقبه تمييزاً له عن الشخصين المشار إليهما ، . . . على أنه مهما يكن الاختلاف ، فإن الصورة التى وضعها الرسول ، تكشف عن أهم ثلاثة أسباب يكمن دائماً خلفها الشر الكبير ، ومرات كثيرة ما يكون هذا الشر بلا أمل ، أو علاج . . . فإذا كان اسكندر يهودياً حسب الصورة الأولى ، وقد دفعه القوم ليكون مقداماً لهم فى الهجوم على بولس ، ومع ذلك فلكونه يهودياً ، لم يستطع أن يتكلم من الصراخ الذى استمر لمدة ساعتين دون توقف ، وبكيفية لا يسمع معها أى شىء على الاطلاق ، . . وكل ذلك بسبب التعصب ، وقد تحدثنا فى أكثر من مناسبة عن التعصب الأعمى الذى لا يريد أن يرى أو يسمع أو يصغى على الاطلاق ، وقد وصفه يوحنا بنيان أروع وصف ، فالنفس البشرية كالقلعة المسورة التى يريد عما نوئيل اقتحامها . وللقلعة خمسة أبواب هى الحواس الخمس باب الأذن ، وباب العين وباب الفم ، وباب اللمس ، وباب الشم ، وقد حصنها ابليس ، وعند باب الأذن أوقف ستين جبارا من الصم يصدون الأذن عن كل نداء ، ... وقد يكون التعصب عن طريق العين ، فالأبيض لا يريد أن يرى الزنجى ، والغنى لايريد أن يرى الفقير ، والعالم لا يريد أن يرى الجاهل ، .. وقد قص دكتور ماكراكن قصة عن سيدة اسكتلندية اسمها مسز ماكدوف كانت تكره كل عمل يأتيه راعى كنيستها

فإذا أطال العظة ، قالت : عظة مملة ، وإذا اختصر قالت مخلة ، إذا لم يزر قالت إنه منطو ، وإذا زار قالت إنه يعمل على جذب النفس إليه لا إلى المسيح ، كان كل عمل يعمله يواجه منها بعدم رضا ، وقرر الراعى أن يزور جميع أعضاء كنيسته الصغيرة ، وفعلا قام بالزيارة حتى وصل بالقرب من منزل مسز ماكدوف ، وأبصر ستارة النافذة تتحرك فعلم أنها كانت تراقبه ، ولما وصل إلى بيتها تردد هل يطرق بابها ، ولكنه أخيراً فعل ، طرق مرة ومرتين وثلاث مرات دون إجابة ، . . وأخيراً ركع أمام الباب ووضع عينه فى ثقب المفتاح فأبصر مسز ماكدوف تفعل نظيره من الناحية الأخرى ، فهتف يامسز ماكدوف هذه هى المرة الأولى التى نظر الواحد منا فى عين الآخر . . . وفى كل مكان فى الأرض نجد أثار التعصب ، ألم يكن سسل رودس يعتقد أن أعظم شعب فى العالم هو الشعب البريطانى ؟ ألم يطلق اليابانيون على أنفسهم أبناء الشمس وأبناء السماء ؟ ، ألم يوجد الأمريكى الذى اعتقد أن الله لم يخلق مخلوقاً أفضل من الأمريكى ، وقد بدأ الله فخلق الغوريلا ، فالشمبانزى ، فالمكسيكى ، فالهندى الأحمر ، فاليابانى ، فالألمانى ، فالاسكتلندى ، فالانجليزى ، ثم جاء اليوم المجيد الذى خلق فيه الأمريكى ! ! .

فى الحقيقة إن فى العالم جدرانا كثيرة للتعصب ينبغى أن تزال ، وبدلا من أن نقيم جداراً بيننا وبين جيراننا ، من الأفضل أن نقيم طريقاً ، . . وكل واحد فى الأرض هو أخى الذى احتاج إليه ، ويحتاج إلىَّ ، فمثلا جندى أمريكى جريح فى الشرق الأقصى مدين بحياته لعالم يابانى هو كيستاسانو مكتشف جرثومة التيتانوس ، وجندى روسى نقل له دم جديد والفضل لرجل نمساوى هو لاندستانير ، وجندى ألمانى تحصن ضد التيفود بمعرفة روسى هو- متشنيكوف ، وبارجة هولندية نجت من الملاريا والفضل لجراسى الإيطالى ، وطيار إنجليزى فى شمال أفريقيا نجا من فساد جرح عملية بفضل فرنسى هو

باستير وألمانى هو كوخ ، . . وفى السلم نجا أولادنا من الدفتريا بفضل يابانى وألمانى ، ومن الجدرى بفضل إنجليزى وهكذا . . إن المتعصب الأعمى وحش غير قابل للترويض ،.. وإذا كان أحدهم قد تخيل أن الحيوانات والوحوش اجتمعت معاً لتبحث مشروع الحصول على أمانهم فى المستقبل ، وإذ بالفيل يقول : إن كل شىء يكون حسناً إذا تخلص الجميع من كل أسلحة الدفاع والهجوم ، ولم يبقوا إلا الأسنان ، ، أما النمر فلم يقبل هذا الاقتراح وقال إنه مستعد أن يستغنى عن كل سلاح ماعدا المخالب ، وكان اقتراح الذئب الاستغناء عن كل سلاح ماعدا الأنياب ، . . وكان غضب الدب عظيماً لأنهم لم يوافقوا على إنهاء مشاكلهم بحضنة واحدة كبيرة ! ! ..

على أنه من المحتمل عند البعض أن يكون إسكندر النحاس هو الإسكندر المرتد عن الإيمان ، والذى أسلمه الرسول للشيطان للتأديب ،حتى لا يجدف، والمقصود بتسليمه هنا حسب رأى الشراح هو أن اسكندر انضم إلى الكنيسة ، وربما كان متحمساً فى البداءة ، ويقال أنه كان خطيباً مفوها ، ولا يمكن أن يقاوم بولس وأقواله سوى الخطيب المفوه ، وربما كان له مصالح وأغراض لم يمكنه بولس منها ، فخبا حماسه ، وتحول عدوا لدودا لبولس يحاربه كمرتد ، وإذ رأى بولس ذلك حكم بقطعه من الكنيسة ، فطرد منها ، وازداد غيظه ورغبته فى الانتقام من بولس ، وفعل ما يفعله المرتدون الذين يملأ الشيطان قلوبهم وأفكارهم ، فيعيشون على شىء واحد يصبح رغبة حياتهم الكبرى ، هو هدم الإيمان الذى أمسكوا به مرة سابقة فى حياتهم ، وفى العادة يكون المرتد عن دين ؛ من أكثر الناس حرصاً على تدمير الدين الذى ارتد عنه ، وهى ظاهرة نفسية جديرة بالتأمل والالتفات ، ... والمعتقد أن المرتد ، وان تظاهر بحماسه للدين أو المعتقد الذى تحول إليه ،إلا أنه فى الحقيقة يغطى صراعاً نفسياً رهيباً داخلياً يحاول التخلص منه بالامعان فى الثورة واضطهاد الدين

الذى تخلى عنه ، والمرتد الذى تخلى عن معتقده سعياً وراء أغراض دنيوية ، أو بهيمية أو اجتماعية منحطة، لا يرغب أن يعيش فى صراع مع وجدانه وضميره كان لحظة بسبب هذا الانحطاط ، وهو يتلمس لذلك تغطية هذه جميعاً برفس المناخس ، وإلا دعاء بأنه ذهب إلى الاتجاه الآخر من أجل أمور سامية وشريفة ، وهو لا يقبل أن يرى أمام عينية ما يذكره بالتحول الذى طرأ عليه ، ولذلك فهو يمعن كل الأمعان فى التخلص من الدين أو المعتقد الذى عاش فيه فترة من الزمن ! ! . . ومن الملاحظ أن بولس أسلم هيمينايس والاسكندر للشيطان بالطرد من الكنيسة وحرمانها من الامتيازات الكنسية ، وقد يتعرضان بسبب تجديفهما إلى الضربات الإلهية ، ومثل ذلك قد يكون رادعاً للبعض ، أو قد يزيد المرتد اصراراً على ارتداده ! ! ...

على أن الرأى الثالث هو أن مشكلة إسكندر النحاس العويصة كانت المشكلة المالية ، إذ كانت تتملكه محبة المال ، « ومحبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بادجاع كثيرة » ، (١ تى : ١٠) .كان الرجل يكسب من صناعة التماثيل النحاسية والأصنام التى كان يعملها ، وهو كديمتريوس الصنائع ، استعرض صناعتها كلها للبوار تضيع كل مكاسبه نتيجة تبشير بولس وتعليمه ! ! ... كان فى إحدى المدن أخوان يتاجران فى بيع الفحم بالقطاعى ، وحدث أن مبشراً مشهوراً زار المدينة ، وعلى أثر غطائه تجدد الأخ الأكبر ، وقد حاول جهده أن يقنع أخاه بالانضمام إلى الكنيسة ، وفى أحد الأيام قال له لماذا لا تستطيع أن تكون رجلا صالحاً وتنضم إلى الكنيسة كما فعلت أنا ! ! ؟ . وأجاب الأخ الآخر : حسن أن تكون أنت عضواً فى الكنيسة ، أما إذا انضممت أنا الى الكنيسة فمن الذى يقوم بوزن الفحم ؟ ! ! ... كان من الصعب جداً على رجل كاإسكندر النحاس أن يتحول عن التجارة المحرمة، ويبحث عن أشغال

أخرى فى النحاس يمكن أن تعطيه المكسب الحلال . . . قيل إن شاباً مسيحياً اسمه اسكار جامون كان يدير مخزناً للأطعمة ، وآمن بالمسيح وتجدد فأرسل إلى عملائه يقول : سيدى أرسل لكم هذا الكتاب ، لأذكر لكم أنى منذ تجددت فى اكتوبر الماضى كما تعلمون ، أحسست أنى يجب أن أغير سلوكى ، وقد بدأت بابطال عادة التدخين ، على أنى بعد ذلك أحسست أنه إذا كان لا يجوز لى أن أدخن ، فلا يجوز لى أن أبيع التبغ ، قامت فى داخلى حرب ، الحكمة الأرضية تناديني أن بيع التبغ مصدر كسب لى ، لكن حكمة الله هتفت بى أنى أسلك فى طريق الحماقة ، وحاولت أن أبرر نفسى ، ولكن حكمة الله انتصرت ، وقررت أنه ابتداء من ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٨ سأكف عن تجارة التبغ ، على أنى سأحاول أن أقدم لعملائى أحسن ما يقدم من أصناف البقالة واللحوم . فى حدود طاقتى بالطبع ، مع قبول احترامى ! ! . . . ومن العجيب أن مستر جامون ذكر بأنه لم يخسر عميلا واحداً ، وقد جاء الجميع يطلبون حاجتهم من متجره ، وقد امتدحوه لأمانته وشجاعته ، بل إن مثاله حفز البعض على الامتناع عن التدخين اقتداء به .. . قال أحد الرعاة : إن غريباً حضر إلى كنيسته وكان فى ختام كل ترنيمة وفى أثناء العظة يهتف بكلمة « آمين » بكيفية تجلجل المكان ، وسأل الراعى نفسه : ترى هل هذا الرجل صادق ومخلص فى صوته المرتفع أم هى حركة تمثيلية ، وظل شكه مدة إلى أن جاءه فى احدى الليالى مظهرا اهتماماً كبيراً بالنفوس التى مات المسيح لأجلها ، ووضع فى يد الراعى مائتى دولار لمساعدة الكنيسة فى هذا العمل ! ! . . . إن المال محك كبير وامتحان قاس ما أكثر ما سقط فيه الكثيرون ! ! . . وقد يكون السبب الذى قرر من أجله اسكندر النحاس تدمير عمل بولس ، أنه لا يستطيع ترك الربح الحرام ، وهى معركة حياة أو موت بينه وبين الرسول العتيد ! ! . . .

اسكندر النحاس ومقاومته لبولس :

يقول الرسول بولس : « اسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة » ... ولا يستطيع المرء أن يقرأ هذه الكلمات دون أن يمتلئ حزناً وأسى ، لأن الكلمات الأخيرة لبولس شملت أسماء عديدة ، لم يكن أصحابها يعلمون على الاطلاق أن التاريخ سيكشف حياتهم بما فيها من خير أو شر لكل الأجيال والعصور ، وقد وجد بين هذه الأسماء ألمع الشخصيات التى تميزت بالشجاعة والوفاء والأمانة والنبل ، وسجلت حياتها ناصعة البياض مثل لوقا وتيخيكس وفرسكا وأكيلا وبيت أنيسيفورس ، ووجد على العكس من بدأ حسنا وانتهى سيئاً كديماس ، . . ووجد من سقط وكبا ، ولكنه لم يلبث أن نهض على قدميه مثل مرقس ، . . على أنه لا يوجد بين هذه الأسماء جميعاً من ضارع اسكندر النحاس فى الشر الذى وصل إليه ، . . ومن أوصاف بولس له ، يخيل إلينا أننا أمام شخصية شيطانية من هامة الرأس إلى أخمص القدم ، . . . وقد ينكر البعض الحلول الشيطانية ، وأثر الشيطان فى حياة الناس ، ولكن الكتاب يحدثنا لا عن هذه الحلول فحسب ، بل عن درجاته المتفاوتة فى الشدة والعنف ، فهناك من أمسك به شيطان واحد ، وهناك من أمسكت بها سبعة شياطين ، وهناك من استولى عليه لجئون أو « أورطة » بأكملها ، ولا أعرف كم عدد الشياطين التى دخلت اسكندر النحاس ، ولكننا نتبين من مرارة الرسول وتحذيره لتيموثاوس مدى الشناعة التى يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يخضع لسلطان الشيطان . وقد كان اسكندر النحاس مثلا بارزاً لها ، . . يقول الرسول عنه : « لأنه قاوم أقوالنا جدا » فأية أقوال هذه وعلى وجه الخصوص لأنها أقوال بولس وصحبه ، فهل يعنى هذا أن الرجل جند نفسه لمحاربة خدمة الرسول وصحبه وأنه فعل مالا يفعله إلا الشياطين أنفسهم فى الهزء والسخرية والكذب والتجديف على الحق الإلهى ، وعلى كلمة الله ،

بأسلوب جنونى يصعب فهمه وتفسيره ، وهل كانت هذه المقاومة فى أفسس، أم امتدت إلى أماكن أخرى ، فكما يجند الله أبطاله فى الخدمة ، يفعل الشيطان هكذا من خلال جنوده الأشرار القساة الغلاظ القلوب الذين وصفهم الحكيم سليمان فى أكثر من موضع فى سفر الأمثال : « التاركين سبل الاستقامة للسلوك فى مسالك الظلمة . الفرحين بفعل السوء المبتهجين بأكاذيب الشر ، الذين طرقهم معوجة وهم ملتوون فى سبلهم » (أم ٢ : ١٣ — ١٥) . . « لأنهم لا ينامون إن لم يفعلوا سوءاً وينزع نومهم إن لم يسقطوا أحداً (أم ٤ : ١٦) . . . « قلب ينشئ أفكاراً رديئة أرجل سريعة الجريان إلى السوء » (أم ٦ : ١٨) . . « أما الاشرار فيمتلئون سوءاً (أم ١٢ : ٢١) ومن المعتقد عند بعض الشراح أن اسكندر النحاس كان فصيحاً بليغاً ذرب اللسان مفوه التعبير ، وقد استخدم كل بيانه وفصاحته ضد رسالة الإنجيل،... ومن المتصور عند البعض أنه لم يكتف بهذا ، بل تحول فى خصومته العارمة لبولس إلى درجة أنه سافر من أفسس إلى روما ، . . وأنه ذهب إلى هناك ليشهد ضده فى المحاكم بغية القضاء عليه بأية صورة أو وسيلة ، . . وفى الحقيقة إن الشر عندما يتمكن من أحد ، يحوله وحشاً ضارياً يسلك كل سبيل للقضاء على الآخرين دون أدنى تعفف أو تورع أو خشية وتهيب ، ... جاء فى صحيفة أمريكية وصفاً لأحدهم : « إن خلقه يبدو محترماً طالما ظل غير مكشوف ، مع أنه فى حقيقته مستبد طماع مغرور فى نفسه ، لا يملك أيه مهارة كجندى أو سياسى ، لقد زحف نحو الشهرة بسبب وظيفته ، وسياسته المالية افقرت الشعب كله ليغتنى القليلون ، وسيمزق التاريخ جميع الصفحات التى كتبت مدحاً له ! ! هل يصدق أحد أن هذه الكلمات جاءت وصفا لواشنطون بطل الأمة وقائد استقلالها . . . وهل يصدق أحد أن جونسون دعى خائناً ، ولنكولن قرداً وولسن داعية الإنجليز فى البيت الأبيض ، وفرانكلين

و وزفلت عنده جنون مطبق ! ! . . ومن الثابت أن بولس أحس الأضرار البالغة التى جلبتها مقاومة اسكندر النحاس لعمل الله ، وهل لا تضار الحنطة إذا وضع الزوان فى وسطها ، . . وهل يستطيع الجيش التقدم بالسرعة الكافية للأمام والأرض كلها فى طريقه حقول ألغام ، . . . وهل يمكن أن ينتشر عمل الله فى كل البقاع وجنود الشر تعيقه عن التقدم والحركة من كل جانب ، . . . لذلك لم يجد الرسول بدا من أن يحذر تيموثاوس من الرجل وشره وأضاليله وسمومه ، إذ الواضح كما لاحظ بعض ثقاة المفسرين ، أن الرجل وإن كان يكره بولس كراهية مخيفة مفزعة ، إلا إنه كان أكثر كراهية لأقوال بولس ورسالته ، وهو لا يريد تدمير بولس كشخص، بقدر ما يريد تدمير الرسالة التى يحمل بولس لواءها ، ولذا فإن عداءه سيتجه حتماً إلى تيموثاوس أيضاً ، وأنه كما فعل مع بولس ، سيفعل مع الرجل الذى حل محله فى أفسس ، وهذا هو فى الحقيقة لب الداء وأصله وعمقه ، .. إن الذين يقاوموننا بسبب « أقوالنا » ، لا تنصب خصومتهم بالدرجة الأولى على أشخاصنا ، حتى ولو بدا منظرنا مكروها لا تستطيع عيونهم أن تتقبله وتراه ، . . . إنها تنصب فى الواقع على العقيدة والإيمان المسيحى الذى نتمسك به ، ولعل أكبر دليل على ذلك هو التحول من النقيض إلى النقيض لمن يتحول إلى معسكرهم ويمشى فى ركابهم ، ويساير آراءهم وأفكارهم ومعتقداتهم ، عندئذ يصبح مكروه الأمس محبوب اليوم ، وعدو الماضى صديق الحاضر ، وهى المأساة الرهيبة بين بنى الإنسان ، عندما يتناحر الناس ويتصارعون ويتقاتلون بسبب الخلاف على العقيدة أو التحول فى الأفكار والمذاهب والمعتقدات . لم يكن الصراع بين اسكندر النحاس وبولس مجرد صراع بين شخصين ، أو اختلاف مميت بين فردين ، .. بل هو فى واقع الحال الخلاف الأكبر ، والمقاومة العظمى بين من يمثلهما

هذان الشخصان ، بين المسيح الذى ينادى به بولس ، والشيطان الذى يتخفى وراء اسكندر النحاس ، . . . ومن المناسب أن نلاحظ أن معنى كلمة « ابليس » : « المجرب أو المشتكى أو المخادع أو القاذف »... ومعنى كلمة شيطان : « المضاد أو المخاصم أو المقاوم أو الكامن » .... وعندئذ نستطيع أن نرى أن كل تجربة أو شكوى أو خداع أو قذف ، أو مضادة أو خصومة أو مقاومة ظاهرة أو كامنة من اسكندر النحاس لبولس ، هى فى الحقيقة من الشيطان ضد المسيح ورسالته وأقواله التى كان يحملها بولس ويقوم بها ! ! . ومن ثم كان خليقاً ببولس أن ينبه تيموثاوس ويحذره من أن شرور اسكندر النحاس والتى لا تنتهى ، لابد ستلاحقه هو أيضاً ، وأنه ينبغى أن يلاحظه بعين مفتوحة ، ولا يخدع بقول معسول ، أو يفزع من تهمة كاذبة ، أو يتصور أنه قد يرتدع أو يتعفف عن تكرار أعماله وشروره ! ! . . إن الجندى المسيحى اليقظ عليه أن يعلم أن الشيطان عندما أفلس فى تجاربه مع المسيح ، فارقه إلى حين ! ! . . . فإذا اختفى لحظة ، فانما ليعود أقسى وأنكى وأشد ! ...

اسكندر النحاس وجزاؤه :

يقول الرسول بولس عن الرجل : « ليجازه الرب حسب أعماله » وهى عبارة أثارت الكثير من الجدل والنقاش ! ! . . كيف يجوز للرسول أن يقول مثل هذا القول ، وأية عاطفة كانت تسيطر عليه وقتئذ ، .. وهل يجوز للمسيحى أن يطلب نقمة الله على الأشرار أو الأعداء ! ! . . . فى الكثير من الترجمات ترد ترجمة النص بالصورة الآتية : « سيجازيه الرب » فالفعل عندهم منصرف إلى المستقبل ، وقد أخذ الكثيرون من الآباء بهذه الترجمة ، ويتفق معهم الكثيرون من الشراح ، وهم يقولون إن بولس لم تسيطر عليه عاطفة الغضب بقدر ما سيطرت عليه عاطفة الحزن ، وهو لايحمل فى قلبه شيئاً شخصياً ضد الرجل ، . . وهو الإنسان المقدس الذى تعمق فى

الشركة مع الله ، ويعلو على الحقد والكراهية والضغينة والانتقام ، ولا يمكن أن تسيطر عليه عاطفة التشفى أو الثأر أو الشماتة التى تجتاح الكثيرين ممن عذبهم الآخرون عذاباً جسمانياً أو نفسياً أو روحياً ، . . وإن الرجل الذى كان يقطر دماً ، ويئن من جراحه فى سجن فيلبى ، ومع ذلك يقول للسجان الذى عامله أقسى معاملة ، وهو يهم بقتل نفسه « لا تفعل بنفسك شيئاً ردياً » ، ... مثل هذا الإنسان لا يمكن أن تسيطر عليه العاطفة التى تجعله يكتب آخر كلمات له على الأرض ، وهو يحمل ضغينة شخصية فى قلبه ، لأى مخلوق كيفما كان ومهما فعل ! ! . . . لكن بولس وهو يعلم – على ما يذهب إليه هؤلاء المفكرون – أن اسكندر النحاس مازال فى شره،وسيتوقع منه الكثير – ضد تيموثاوس وعمل الله فى أفسس ، وهو يحذر تلميذه من خطر هذا الأفعوان أراد أن يشجع التلميذ أكثر من أن يصب سخطه على الباغى ، فأكد له بروح النبوة أن جزاءه العتيد لابد أن يتم ، وأنه لا مهرب من هذا الجزاء ، .. فإذا كان الشرير يتمادى فى شره ، وأنه كلما عومل معاملة أرق وأجمل ، كلما ازداد وحشية وشراسة ، فإن الحقيقة المؤكدة هى أن عدالة الله الساهرة ، هى له بالمرصاد ، وستوقع به إن آجلا أو عاجلا ، . . وأن عمل الله لا ينبغى أن يتوقف أو يتراجع ، مهما بغى الباغون ، أو اشتط المضطهدون : « لأن فوق العالى عالياً يلاحظ ، والأعلى فوقهما » (جا ٥ : ٨) . . فالكلمات عند هذا الفريق من المفسرين هى كلمات نبوية ، ... على أن هناك من يقول إنه وإن كان لهذا الرأى قوته وسنده من المفسرين المتعمقين ، إلا أننا لا يجوز أن نجرد الرسول من احساسه بالغضب ، خصوصاً وأن هذا الغضب ليس به أدنى ذرة من مشاعر أنانية شخصيه ، بل هو الغضب المقدس الممتلىء بالحزن والذى وصف به المسيح فى القول : « فنظر حوله إليهم بغضب حزيناً على غلاظة قلوبهم » (مر ٣ : ٥) . . وهو الغضب الذى استولى

عليه عندما طهر الهيكل ، بسوط من حبال ، . . وهو الغضب الذى يستبد بنا عندما نرى بشاعة ما يفعل الأشرار ، وهم يحملون معاول الهدم ضد عمل الله العظيم فى الأرض ! ! . . . كان بولس فى ذلك الوقت تحت تأثير هذا الغضب المتقد الحزين وهو يقول : « ليجازه الرب » . . . وهو نفس الغضب الذى استولى على المرنم فى قوله : « ألا أبغض مبغضيك يارب وأمقت مقاوميك ؟ بغضاً تاماً أبغضتهم . صاروا لى أعداء » (مز ١٣٩ : ٢١ ، ٢٢) فإذا قال بولس بعد ذلك « ليجازه الرب » فهو يؤكد لتيموثاوس أن المؤمن لا يجوز له بتاتاً أن يرد أو يقاوم الشر بالشر ، ولكن عليه أن يسلم لمن يقضى بعدل ! ! . . .

إن مأساة اسكندرالنحاس فى الواقع هى مأساة كل شرير فى الأرض ، لا يعلم أن الشر كالخير كلاهما سيجد جزاءه فى الأرض ، وفى الأبدية أيضاً ، ولم يكن الرجل يعلم قط أن شروره الكثيرة ستتحول عاراً أبدياً يلحقه فى كل العصور ، ويكون جزاؤه الأبدى فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت : « لأن خارجاً الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً ! ! ... (رؤ ٢٢ : ١٥) :

ديماس

« لأن ديماس قد تركني اذ احب العالم الحاضر وذهب الى تسالونيكى » (٢ تى ٤ : ١٠) .

لعل من أطرف ما يروى أن واعظين مقتدرين صديقين وعظا فى مكان واحد ، فى يوم أحد عظتين عجيبتين ، فنى الصباح وعظ وليم روبرتسن عن « قوة الدين الجاذبة » . . وذكر أن فينا عنصراً إلهياً يستجيب لنداء الله ، وأن عندنا استعداداً للحياة النبيلة السامية العالية ، وأن هذا الاستعداد ، قد تأتى عليه ساعة يكون مرهفاً قوياً جباراً ، يتغلب على كل صعوبة ، وكان من الأمثلة التى ذكرها ، الاحساس الذى استولى على شارل الخامس الامبراطور ، يوم هجر عرشه ، وذهب يقبع فى أحد الأديرة ، ينشد الهدوء والراحة والعزلة والتأمل والبحث عن الله ، بعد أن ضاق بضجيج الحياة وشرورها وآثامها التى أحاطت به من كل جانب ! ! . . وبعد الظهر وعظ يوحنا ارسكن ، عظة لا نعلم هل كان متفقاً عليها أم من محض الصدف العجيبة ،

ذكر فيها أن الإنسان فيه طبيعة ضد التدين ، وأنه يمقت الحياة المقدسة والنبيلة وأكبر دليل على ذلك أن الدين ظهر فى المسيح فى كماله وجلاله ومجده ، ومع ذلك فقد رفضه العالم وصلبه على هضبة الجلجثة ! ! . . وفى الواقع إن الرجلين على حق،وكل منهما ينظر إلى الحقيقة من زاوية خاصة، وإنما هما الناموسان المتصارعان فى داخل النفس البشرية على ما صور الرسول بولس ببراعة فى الأصحاح السابع فى رسالة رومية ! ! . . والحقيقة نفسها تعد تجسيداً لقصة ديماس . . ومع أن القصة لا تعطينا أو توضح لنا مصير ديماس الأبدى ، إلا أننا نأمل– ولو أنه حسب رنين القصة وإيحائها هو أمل ضعيف – أن يكون الرجل قد تاب وعاد إلى الإيمان ولو بعد تأديب الرب له ، لكن القصة على أية حال تمثل فاجعة من بدأ حسناً لينتهى على صورة سيئة ، ومن بدأ مجيداً ، ليطمس الصفحة الناصعة ، وقد كتبت انذاراً مخيفاً لكل منا ، حتى لا نجاهد الجهاد الحسن فحسب ، بل نكمل السعى ونحفظ الإيمان ! ! . . . ولأجل ذلك أرجو أن ندرس قصة الرجل فيما يلى :

ديماس والبداءة الطيبــة :

نحن لا نعلم كيف أو متى تأثر ديماس بالمسيحية ، إلى درجة أنه أصبح صديقاً لبولس وعاملا معه ، ويشير إليه بولس كواحد من المتقدمين بين مساعديه فى رسالته إلى أهل كولوسى كما فى رسالته إلى فليمون ، . . إلا أنه من المرجح أنه رأى المسيحية وهى تأخذ فى انتشارها العظيم ، وتترك طابعها العميق فى حياة المؤمنين بها ، وكيف تغير من حياتهم وتهبهم البهجة والسعادة والسلام والخير ، .. قيل إن رجلا وثنياً اسمه مينانى وزوجته داكانا ، كان لهما ولد متعب اسمه روموكا ، وكان كثيراً ما يسرق أشياء صغيرة ، وقد انزعج والداه لذلك كثيراً ، فاستحضرا بعض التعاويذ ذات التأثير الكبير ، ولكنها لم تفلح فى تحسين حال الولد ، وسمع مينانى عن مدرسة الارسالية التى

قال أصدقاؤه إنهم يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب ، وكان الرجل لا يعلم – وهو أمى – معنى هذه المدرسة ، ولكنه قرر أن يرسل ابنه إلى هناك لعل المدرسة تفيده ، . . وكان الأولاد يتعلمون كل صباح قصة من الكتاب المقدس ، كما كانوا يتعلمون الكتابة على السبورة ، وعرف الولد قصة الحب العجيب ، وهو يكتب على السبورة « يسوع يحبنى » . . وقد تحدثت القصص لا إلى عقله فحسب ، بل إلى قلبه أيضاً ، وفى ذات يوم وقد وقع تحت تبكيت الضمير صاح فى المدرسة : ألتمس أن تصلوا من أجلى ، إنى أرغب أن أخلص من خطاياى ! ! ، وجاء المسيح إلى روموكا وتغيرت حياته بالتمام . ولاحظ والداه التغيير الذى حدث له فقررا أن يرسلا ابنهما الثانى ، وحدث مع هذا الابن ما حدث مع أخيه . . . وفى أحد الأيام ذهبت الأم إلى معلم المدرسة وهى تقول : إننى أريد شيئاً من هذا الدواء ، وأجاب المعلم أن الدواء فى فى صيدلية المستشفى ، وقالت « داكانا كلا : إنى لا أريد دواء الصيدلية ، ليس هذا هو مطلبى ، إننى أطلب الدواء الذى غير روموكا وأخاه ، لقد كان ابنى شريراً قاسياً عنيداً ، ولكنه منذ جاء إليكم تغير وكذلك أخوه ، ولذلك فاننى وزوجى نريد هذا الدواء . وحدث مع الزوجين ماحدث مع ولديهما وصارت العائلة كلها للمسيح ! ! . . . بلغت حال الجندى فى المستشفى العسكرى درجة اليأس ، وأرسل الطبيب إلى والده يطلب منه الحضور بعجلة . لخطورة حال ابنه ، . . وجاء الأب ، ورأى ابنه فيما يشبه الغيبوبة ، واقترب الأب من ابنه ، وقال يا ابنى لقد أحضرت لك رغيفاً من صنع والدتك فى البيت ، وتحركت أجفان الشاب ، وقال : هاته ، وأكل ، وصح ، وعاش . . . قد لا يوجد كثيرون يعيشون بعد أن يتناولوا خبز الأم ، ولكن الملايين يحدثونك عن خبز الحياة الذى أخذوه فى شخص المسيح ، وحيوا وعاشوا ؟ ! ! . . . رأى ديماس الحياة تدب فى الأشرار والأئمة

والخطاة والموتى ، . . فجاء إلى المسيح ، وخدم مع بولس ، وكانت كل المظاهر الأولى عجيبة ومشجعة ، . . ولا يمكن بحال ما أن تكون الفترة الأولى من حياته مع بولس بعيدة عن الشجاعة والاخلاص والوفاء الذى نراه بوضوح وهو يرافق بولس فى سجنه الأول فى روما عندما كتب رسالة كولوسى ورسالة فليمون ! ! . . .

ديماس ومحبة العالم الغالبة :

ومن المؤسف أن محبة ديماس للعالم ، كما جاءت الكلمة فى الأصل لم تكن مجرد المحبة العاطفية التى قد تكون نزوة من النزوات فى ساعة الضعف لا تلبث أن تنتهى ، بل هى المحبة القوية التى تصدر عن وعى وتفكير ثابت ، أو فى لغة أخرى ، إن قرار الرجل لم يكن وليد حركة انفعالية فجائية مباغتة ، بل وليد فكرة طال اختمارها فى الذهن ، ولم تلبث أن تحولت إلى قرار يتسم بالاصرار والتصميم الراسخ ! ! . . . فما هى هذه المحبة التى يمكن أن تكون قد تسلطت على ذهنه إلى هذا الحد ! ! ؟ . . ربما نستطيع أن نفهمها إذا تأملنا المدلول الصحيح لكلمة العالم التى يعنيها الرسول هنا . .

إن العالم لا يعنى هنا عالم الطبيعة الجميلة التى أودعها الله فى الكون من جبال شاهقة ووديان خصيبة ، وشلالات وأنهار ، وجداول مياه ، وخضرة ، وأشجار ، وأطيار ، وحيوانات وبهائم ، . . إن صاحب المزمور المائة والرابع وهو يتأمل هذا العالم العظيم ، كان أكثر اقتراباً إلى الله وتعبداً له : « باركى يانفسى الرب . يارب إلهى قد عظمت جداً مجداً وجلالا لبست. اللابس النور كثوب الباسط السموات كشقة المسقف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماشى على أجنحة الريح ، الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة ، المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر . . .المفجر عيوناً فى الأودية . بين الجبال تجرى ، تسقى كل حيوان البر . تكسر الفراء

ظمأها . فوقها طيور السماء تسكن . من بين الأغصان تسمع صوتاً ... حيث تعشش هناك العصافير . أما اللقلق فالسرو بيته الجبال العالية للوعول . الصخور ملجأ للوبار . . . ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك . هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار . . . يكون مجد الرب إلى الدهر . يفرح الرب بأعماله . . . إلخ » . . . وكل واحد منا يمكن أمام عالم الطبيعة أن يصيح : أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض ! ! . . . (مز ٨ : ١) .

وأكثر من ذلك ليس المقصود « بالعالم الحاضر » هو عالم البشر لأنه : « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » . . . قال شاعر غربى :

هــل تعــلم أن العـــلم يحتضر
وهو فى حاجة إلى قليل من حـــب
وفى كل مكان نســـمع نحيبـــه
أنا فى حاجة إلى قليل من حـــب
إلى الحـــب الذى يصحح الخطأ
ويملأ الكل بالرجاء والـــترنم
وقـــد تطلعـــت طـــويلا
إلى قليـــــل من الحـــــب

وبالتأكيد ، ليس مطلوباً منا على الاطلاق أن نمتنع عن حب البشر ، .. جاءت سيدة إلى أحد الرعاة ، وقالت بقلب مكسور ، إن بكرها قد مات طفلا صغيراً ، وهى تخشى أن تكون قد أحبته أكثر من اللازم ولأجل ذلك أخذه الله ، . . وأجابها الراعى : أنت مخطئة يا سيدتى ، فأنت لم تحبيه أكثر

من اللازم ، بل ربما أحببت الله أقل مما يجب ، . . ومأساتنا الحقيقية فى حياتنا أجمعين أننا نحب أقل مما يجب ! ! ...

وليس المقصود بالعالم الحاضر ، عالم العبقرية والفن والاكتشاف والاختراع فكل ما يفيد الإنسان علمياً أو طبياً أو اجتماعياً ، ويعطيه راحة أوفى لصحته وحياته وذهنه ونفسه ، . . لا يمكن أن يكون هو العالم الحاضر الذى أحبه ديماس ، . . حمل الأفريقيون الرجل الأسود الذى كان يمزقه الألم إلى ألبرت شويتزر ، وأنامه الطبيب العظيم ، وخدره ، وأجرى له العملية ، وأفاق الرجل من المخدر ، وهو يتعجب أشد العجب للألم الذى انتهى ، وإذ أخذ يشكر شويتزر قال له : لا تشكرنى . . أشكر من أرسلنى إليك ، إنه يسوع المسيح مخلص العالم . وتعرف الأفريقى على المسيح ، لأن الله لم يستخدم الطبيب فحسب ، بل استخدم الوسائل الطبية التى أضحت نعمة الله للانسان المتألم فى هذه الأرض ! ! . . وخذ على هذا القياس شتى الميادين الأخرى والمكتشفات والمخترعات التى أفادت البشر من مختلف الوجوه ،وأعطته من الخير مالم يكن يحلم به على الاطلاق ! ! . . .

إذاً ما هو هذا العالم الذى يقصده بولس ، والذى أحبه ديماس ، . . . إن هذا العالم هو الذى يصفه بولس بكلمة الحاضر ، والحاضر تعنى على الأقل معنيين أساسيين : الملموس أو المنظور ، فى مواجهة غير المنظور ، . . والوقتى فى مواجهة الأبدى ، . . فالعالم الحاضر هو عالم الحياة الحاضرة المنظورة التى يصرف الناس فيها قواهم ، ويعيشون للجسد بكل ما فى الكلمة من معنى ، دون أن تنفتح عيونهم على العالم الروحى غير المنظور ، . . وهو العالم الذى يعرف مفاتن روما أو تجارة تسالونيكى ، ولا يستطيع أن يمتد إلى ما هو أكثر ، أو يخترق المنظور إلى غير المنظور ، . . وهو العالم الذى يبنى حياته وقصوره فى الأرض ، مجداً فى بحثه عن التمتع الوقتى بالخطية دون نظر إلى الأبدية وعالم

المستقبل العتيد ! ! . . . وحتى تتضح الصورة أمامنا ، خليق بنا أن نتمشى مع خيال أحد الخدام ، وهو يصور لنا ديماس وبولس يسيران معاً فى شوارع روما متجهين إلى مكان العبادة ، . . وبولس يدب بقدميه الثابتتين ، ووجهه المنطلق إلى الأمام دون تردد أو تلفت يمنة أو يسرة ، إذ هو مشغول تماماً بفكرة العبادة التى هو ذاهب إليها ليلتقى هناك مع إخوته المتعبدين المؤمنين ،... ولكن ديماس كان على العكس زائغ البصر ، على طول الطريق يتلفت هنا وهناك ، على ما تقع عليه عيناه من روائع روما ومتاجرها ومبانيها العظيمة وقصورها الشاهقة ، . . وإذ يخرج الاثنان من المدينة يدلفان إلى المقابر التى تنزل بهم إلى ما تحت الأرض ، حيث كانوا يتعبدون فى أيام الضيق والاضطهاد حيث لم تسمح لهم روما بالعبادة الحرة الآمنة الهادئة ، . . . وقد انعكس هذا كله على نفس ديماس ، الذى لم يكن له حظ التمتع بالمنظور الذى أغرق الرومان فيه أنفسهم ، بل هو يعيش فى ظل الرعب والفزع من الاضطهاد الذى كان يلقى فيه بالمسيحيين إلى الموت حرقاً ، حيث كانت تشعل فيهم روما النار وتعلقهم ليضيئوا ظلماتها القاسية الرهيبة ، أو تتركهم للصراع مع الوحوش ، وتصفق بأيديها وهم يلقون حتفهم هناك فى أبشع ما عرف العالم من عنف وقسوة واضطهاد ! ! . . . أجل لقد أخذ فى مطلع الأمر بجمال الحياة المسيحية ، وعظمة النفوس النبيلة التى ارتفعت فوق مستوى الحياة العالمية ، وشعت بنور لايمكن أن يصدر عن العالم نظيره أو بديله ! ! . . . ولكنه الآن يرى الصورة الأخرى ، . . صورة التعب والمعاناة والألم والاضطهاد والموت ! . . . وهو أعجز من أن يفهم معنى هذا ،ولايستطيع وقد خمدت جذوة حماسته الداخلية ، أن يبقى على هذا الوضع أو يستقر فيه ، . . ومن ثم قر قراره على الذهاب إلى تسالونيكى ، ربما لأنها بلدته ، أو لأنها المكان الذى قرر أن يتاجر فيه ، أو لأنها المكان الذى يبعد فيه عن

روما حتى لا يكون فى متناول يد الأمبراطور الذى قد يسجنه كما سجن بولس، وأصبحت حياته لذلك فى خطر داهم ! ! . . .

قال أحدهم : إن لكل واحد منا بعيداً عن الله ، « تسالونيكى » التى يتجه إليها ويسعى ويكد ويلقى فيها عصائر حاله ، . . فهناك « تسالونيكى المال » حيث يقال إن ديماس تحول عن الخدمة إلى التجارة فيها ، . . وكم ضاع خدام لله بدأوا بداية حسنة ولكن محبة المال ضيعتهم ، وأغلتهم بأطواق من ذهب ، ولم يستطيعوا أن يخدموا السيدين : الله والمال . . . التقى أحدهم فى إحدى عربات الأتوبيس فى مدينة لندن بشاب كان يحمل شعار الامتناع عن المسكرات فسأله بنغمة ساخرة : كم كلفك هذا ! ! ؟ .. وأجاب الآخر : لا أعلم بالضبط لكنى أقول لك بالتقريب إنه يكلفنى كل سنة ما لا يقل عن عشرين ألفاً من الجنيهات ، . . كان المتكلم هو فردريك شارنجتون ابن واحد من أكبر تجار البيرة والمشروبات الروحية ، وقد انتهى به الأمر إلى رفض الثروة التى تأتى من هذا الجانب المفسد والمضيع للكثيرين ممن يتعاطون الخمور ويدمنون عليها ، . . ولكن الكثيرين على العكس على استعداد أن يجعلوا تسالونيكى أمل حياتهم بكل ما فيها من ربح حرام ، ومال دنس ! ! ... وهناك تسالونيكى « الشهرة » كمن باعوا أنفسهم للشيطان ليصبحوا نجوماً وكواكب لامعة فى السينما أو غيرها من ميادين الشهرة ، وهم لا يتورعون عن ارتكاب أحط أنواع المباذل والمفاسد ، طالما تصفق لهم الجماهير أو يهتف لهم البشر ، أو تظهر أسماؤهم أو صورهم فى الصحف والمجلات والكتب ! ! . . . وهم فى سبيل ذلك قد يهجرون الاسم الحسن الذى دعى عليهم فى بيوتهم وهم صغار وأطفال ! ! . . . وهناك « تسالونيكى الشهوة » حيث يذهب ملايين الناس ليتساقطوا كما يتساقط الفراش المحترق ، وهو يسعى إلى النار ، وأغنيتهم : « اليوم خمر وغداً أمر » ، وهم مندفعون بجنون كامل إلى المباذل والمفاسد

والشرور دون ورع أو تعقل أو اهتمام بالمصير الذى إليه ينتهون . . وهناك ، « تسالونيكى العلم » وهى عند الكثيرين المعبد الذى يتعبدون فيه دون الله، . . فهم يصرفون حياتهم بأكملها ، فى دروب ومتاهات الفلسفة والاختراع والاكتشاف ، دون أن يرفعوا رؤوسهم إلى « المعلم » الحقيقى والسيد الذى يعطى الحكمة الحقيقية والمعرفة الصحيحة على هذه الأرض ! ! . . ومهما تكن المظاهر المختلفة « لتسالونيكى »عند البشر ،إلا أنها القصة القديمة : « تركنى لأنه أحب العالم الحاضر » . . .

ديماس ومصـــيره :

ليس من السهل أن نتحدث عن مصير ديماس الأبدى ، كما أسلفنا سابقاً ، إذ أن المصير بين يدى الله ، ولكنه من الممكن مع ذلك أن نتحدث عن أى إنسان يمكن أن يقال عنه : « تركنى إذ أحب العالم الحاضر » . . . وهل يمكن أن تعطيه تسالونيكى ما كان يحـــلم به أو يتخيله أو يتصوره ، لندع أحد رجال الله يتخيل هذه الصورة ، . . لقد تعقب هذا الرجل ديماس فى مدينة تسالونيكى ، وقد مارس التجارة وأثرى منها ، ثراء فاحشاً ، فبنى لنفسه قصراً عظيماً ، وأصبح من وجهاء المدينة ، وقد دعا ذات مساء أكابر القوم ،وصنع لهم وليمة فاخرة حافلة بالأطايب والمشروبات،وظلوا فى سهرتهم بين النغم والطرب ثم تفرقوا فى آخر الليل ، ولم يبق أحد مع ديماس سوى صديق تعرف عليه وكان بين المدعوين ، وقد لاحظ هذا الصديق علامات الحزن واليأس على وجه ديماس ، والضحك المصطنع الذى كان يلتزم به وهو يحيى ضيوفه ومدعويه ، فسأله : ماذا بك من ألم أو تعب ، وأنت لا يعوزك شىء البتة ، وضحك ديماس بمرارة وهو يقول : فى الحقيقة يا أخى إنى لا أعرف قط طعم السعادة أو مذاقها رغم كل ما تراه من أسباب الترف والنعيم ! ! . . . وقال الآخر : أنا استطيع أن أدلك على رجل ،

موجود الآن فى مدينة روما ، هو وحده الذى يستطيع أن يعطيك نبعاً لاينقطع من السعادة ، ويكفى أن تعلم أنه وهو سجين ، هو أسعد الناس على ظهر هذه الأرض ، واسمه بولس ! ! . . بولس الرسول ! ! . . بوغت ديماس وصاح : هل تعرف الرجل ! ! ؟ . . فأجابه نعم ! ! . . فقال له :وأنا أيضاً أعرفه ، . . وأؤكد لك : أن الفترة التى قضيتها مع الرجل هى الواحة الوحيدة التى عرفتها فى صحراء حياتى ! ! . . . كان ديماس يظن أنه سيجد فى تسالونيكى كل سعادة وبهجة وعزاء وراحة ، ولكنه على العكس وجد السراب فى كل شىء ! ! . . . وإلى اليوم سيجد كل « ديماس » نفس المصير وهو يولى ظهره لبولس ولمسيح بولس ، لأنه ماذا ينتفع الإنسان لوربح العالم كله (وليس تسالونيكى فقط) وخسر نفسه . أو « ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه » ! ! (مت ١٦ : ٢٦) .

على أن مصير ديماس يمكن أن نراه من وجهة أخرى ، كان الفرق بينه وبين بولس ، هو الفرق بين الأخذ والعطاء . كان ديماس يريد أن يأخذ ثروة ومالا وجاهاً وقصراً ومتعاً ، وجرد بولس نفسه اختياراً من كل هذه ، وهو يعيش فى زنزانته ، وأوشك الشتاء أن يجئ ، وهو لا يجد ثوباً يغطى به جسده المقرور ، بعد أن ترك رداءه فى ترواس وهو يدعو تيموثاوس أن يسرع إليه ، ويحمل معه الرداء والكتب ولا سيما الرقوق ؛ . . فى قصة عن فتاة رائعة الجمال اسمها بورتيا وضع أبوها امتحاناً لمن يتقدم ليخطبها ويتزوجها ، إذ وضع ثلاث قبعات ، وفى واحدة منها صورتها ، . . القبعة الأولى مصنوعة من الذهب ، وداخلها شعار يقول : « من يختارنى سيصل إلى ما يطلبه الكثيرون من الناس » . . والقبعة الثانية من فضة ، وقد كتب داخلها : « ومن يختارنى سيحصل على ما يستحق » .. وكانت الثالثة من قصدير وفيها صورتها وإلى جانبها : « من يختارنى يلزم أن يعطى ويجازف بكل شىء » ...

كان ديماس يبحث عن الأخذ ، وبولس يجازف بالعطاء ، .. ونحن نعلم من الذى كسب ، ومن الذى ضاع ، والحياة « لا يمكن » أن تقدم لمن يعيشون لنفوسهم ، ولا يفكرون إلا فى الحصول على مشتهياتهم أو متعهم ، ولكنها تعطى عطايا عظيمة جليلة كريمة لمن يبذل ويقدم للآخرين لمجد الله ! !..

فإذا عدنا إلى الأمر من زاوية ثالثة ، حيث نرى السجين العظيم القديم يتلفت حوله يمنة ويسرة ليرى المخلص والمحب والأمين والغادر والشرير ! ! ... ويرى واحداً يدير ظهره له فى أدق اللحظات وأقساها ضيقاً ومشقة ومرارة ، ولعله كتب والدموع فى عينيه : « ديماس تركنى » . . . ألست تحس معى أنها طعنة خنجر أقسى من ذلك الخنجر الذى أبصره يوليوس قيصر فى يد بروتس فصاح صارخاً : « حتى أنت يا بروتس ! ! . . » . . وذهبت العبارة فى كل الأجيال تعبيراً محزناً عن الغدر والخيانة . . .وهل يمكن للإنسان الذى يتخلى عن صديقه أو حبيبه فى أدق الظروف وأشد الأوقات أن يجد سلاماً أو راحة أو خيراً ، . . كلا ! ! وإلى الأبد كلا ! ! ... ومهما تحرر ديماس من هذا الالتزام أو ذاك ، فإنه لا يمكن أن يتحرر قط من عذاب الضمير الذى سيلاحقه إلى آخر العمر ، وهو يترك بولس يواجه الجلاد ، وهو يهرب بعيـــداً عنه عبر المسافات الشاسعة بين تسالونيكى وروما ! ! . . . مسكين ديماس ، مسكين الرجل الذى فقد فى هروبه شهامة الرجال ،وعظمة الأبطال ، وضاعت منه الفرصة الخالدة التى لو أحسن انتهازها لما لحقه العار الخالد إلى الأبد ! ! . . .

على أنه مهما يكن هذا كله يتحدث عن البشاعة والرهبة إلى أبعد حدودها ، فإن أبشع مافى القصة ارتداد ديماس عن الخدمة المقدسة ، التى سار خطاها الأولى ، وقطع فيها شوطاً بعيداً ، لم يستطع أن يسلك فيه للنهاية ! !. ماذا حدث له بعد ذلك ! ! ؟ وكيف عاش بقية حياته ! ! . . وهل جاءه

التأديب من الرب ، فعاد إلى الخدمة مرة أخرى ؟ أم استمر فى غيه وضلاله وضياعه فضاع إلى الأبد ! ! ؟ . نحن نعلم باليقين أن بولس الذى غضب على يوحنا مرقس ، عاد فحياه لعودته مرة إلى طريق الخدمة التى تنكب عنها ! ! . هل فعل ديماس شيئاً من هذا القبيل ، حتى ولو لم يأت ذكره فى سفر من أسفار الوحى المقدس ! ! . . لا نعلم ! ! . . . وكم نتمنى لوأنه كان قد عاد ! ! . . . وإن كان الإيماء الذى تتركه لنا القصة لا يشجع على ذلك ، . . . ومن المظنون أنه وقد تخلى فى الوقت الدقيق عن الخدمة مغلوبا من العالم الحاضر الشرير ، فإنه ذهب لينال مصيره التعس بعد أن تعلق بتراب تسالونيكى أو بالحرى بسرابها . وجاء فى بعض التقاليد التى لانجد لها سنداً لتقول إنه أصبح كاهنا وثنيا يعبد الأصنام ، . . أما نحن فأضعف و أعجز من أن نحكم الحكم النهائى ولا نملك أكثر من قول بولس : « لأن ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر » . . ! ! . .

١٥٢
أنسيمس

« لا كعبد فى ما بعد بل افضل من عبد اخـا محبوبا » (فل ١٦) .

لست أدرى هل استطاع أحد أن يتأمل الشبه العجيب بين قصة أنسيمس، وقصة اندروكليس والأسد ، القصة القديمة المشهورة ، كان أندروكليس عبداً هرب من بيت سيده ، وقد ضاق ذرعاً بطغيانه وقسوته واستبداده ، وظل يضرب فى القيافى والقفار ، حتى وجد مغارة آوى إليها من التعب والمشقة والاجهاد ، وبينما هو فى الداخل روع إذ سمع زئير أسد يدوى فيها ، إذ كانت مغارة أسد، وأيقن أن موته قد جاء،ولكنهلاحظأن الأسد يرفع قدمه ويئن ، وتبين أن شوكة دخلت فيها ، واستطاع أندروكليس أن ينتزعها، فيستريح الأسد ، وتنشأ صداقة عجيبة بينهما ، والأسد يأتيه كل يوم بغزال يشاركه الطعام فيها ، . . وبعد فترة استطاع صاحب أندروكليس أن يجده ، وقدم العبد للحكم عليه بالموت فريسة للوحوش فى حلبات المصارعة المعروفة

عند الرومان ، . . وأطلق الوحش الجائع على أندروكليس ومن حظه العجيب كان هو الأسد الذى اصطاده الصيادون وجاءوا به إلى روما ليستخدم فى مثل هذه الألعاب الوحشية ، ورأى الناس وحشاً جائعاً لا يقفز على فريسة أمامه ، بل يحك فيه رأسه وعرفه كأنما يقبله أمام ذهول المشاهدين ، وتحول الموت إلى أعظم مشهد مثير ، وعفى عن أندروكليس لأن الوحش الضارى أضحى أرق من الإنسان وأوفى ! ! . . ومهما يكن حظ هذه القصة من الواقعية أو الخيال ، فانها تشبه إلى حد بعيد قصة أنسيمس العبد الهارب من سيده فليمون ، . . ولكن صداقة عجيبة صحيحة حدثت بين أنسيمس وبين « الأسد الخارج من سبط يهوذا » غيرت كل شيء ، بل صححت مسار التاريخ بين العبد والحر وربطت أحدهما بالآخر : « لا كعبد فيما بعد بل أفضل من عبد أخاً محبوباً » . . . هل يمكن أن نتابع هذه القصة فيما يلى :

انسيمس العبد المذنب :

ليس من السهل علينا نحن أبناء القرن العشرين أن نفهم معنى كلمة عبد فى القرن الأول الميلادى ، مهما وصف لنا أو كتب المؤرخون ، ولكن يكفى أن نعلم أن الإمبراطورية الرومانية ، والتى كانت تعد فى ذلك الوقت ستين مليوناً من الناس كان نصفهم من العبيد ، . . على أن هذه النسبة كانت تختلف من مدينة إلى مدينة ، ففى بعض المدن الكبيرة كان الأغنياء يستطيعون اقتناء العبيد ، وقد قيل عن عائلة واحدة إنها كانت تملك عشرين ألف عبد ، ومن ثم كانت الغالبية فى مثل هذه المدن من العبيد ، حتى أنهم فى مدينة روما صدر قرار بأن يلبس العبيد ثياباً معينة تميزهم عن غيرهم ، ثم ألغى هذا القرار بعد فترة قصيرة ، لأن روما اكتشفت أن أربعة أخماس سكانها من العبيد ، وخافوا لئلا يدرك العبيد عددهم الهائل فيتفقون على التآمر والثورة على سادتهم ،

وقيل إن أثينا مدينة الحكمة كان بها مائة ألف من الأحرار ، وعشرة آلاف من الأجانب الأحرار ، وأربعمائة ألف من العبيد ، . . . وقد حرم القانون الرومانى العبيد من كافة الحقوق ، فهو عند صاحبه لايفترق عن الجماد أو الحيوان ، . . . يفعل به كما يحلو له ويشاء ، وقد أراد مواطن رومانى اسمه بولايو أن يلقى بعبد له أغضبه فى بركة بها السمك المتوحش لكى يموت نهشاً بأسنانها القاسية ، ولم يمنعه سوى ، رجاء من الامبراطور أو غسطس قيصر ولكن هذا الامبراطور نفسه قتل عبداً ، لأن العبد قتل طائراً من طيور السمان ! . . وقد قيل إن سيدة قتلت عبداً لمجرد أن ترى كيف يموت ، وعندما قيل لها إنه لم يصنع شيئاً وليس هناك من سبب يدعو إلى قتله ، . . قالت : ولكن مهما يكن من أمر ، أليست رؤيتى له ، وهو يموت تصلح أن تكون سبباً ! ! . . وقد وصلت أثمان العبيد فى بعض الأوقات إلى مالا يكاد يصدق لتفاهتها ، . . . وعلى أية حال كان الإنسان يباع عبداً وفاء لدين أو سداً لحاجة أو يؤخذ أسيراً فى معركة ، أو يولد عبداً موروثاً عن أبائه وأجداده العبيد ، . . وكان هناك كثيرون من العبيد من الكتاب والشعراء والفلاسفة والأطباء ، وقد قيل إن ابكتيتوس الفيلسوف الرواقى وكان عبداً ، طلب من أحد الأغنياء أن يقتنيه ، لأنه لاحظ غباء الرجل وأراد أن تكون له فرصة لتعليمه وتثقيفه ، . . ولكن الغالبية العظمى من العبيد ، نشأت — برد الفعل للمعاملة القاسية التى كانوا يعاملون بها ، شريرة وحشية قاسية تلجأ إلى كل ضروب الفساد والشر ، وكان بعضهم إذا سرق مثلا ، يجوز أن يرسم على وجهه بحرفين معناهما « احترس من اللص » .... فى هذا الجو والبيئة نشأ أنسيمس العبد القديم ، ويبدو أنه خرج من بيت سيده ، ولعله أتلف شيئاً هناك أو لعله سرق سيده وهرب ، إلى حياة بلا حقوق ، تحمل ذنبها وتعطى الصورة الدقيقة للعبد القديم ! ! . . .

انسيمس العبد الهارب :

سار أنسيمس من كولوسى إلى روما فى رحلة ألف ميل ، وسنتابع مشاعره وأحاسيسه ، وهو ينطلق إلى المدينة الكبيرة روما ، ... ولعله فى حياته القديمة يبدو أمامنا أولا : العبد الحاقد ، وقد خلا من كل مشاعر المودة والحب تجاه سيده فليمون ، بل تجاه الدنيا بأكملها التى صنعت منه عبداً يعانى الضيق والتعب والمشقة والاستعباد شأنه شأن كل العبيد ، ومع أننا نثق أن معاملة فليمون المسيحى له كانت معاملة طيبة متميزة ، . . إلا أن العداوات الضارية بين الأحرار والعبيد ، والتفرقة القائمة بينهما تجعل من الطبيعى أن تنمو عاطفة الكراهية والحقد والبغضاء وتترعرع فى القلوب ، ... ومع أن العالم ألغى الرق ،إلاأن التفرقة العنصرية بأسبابها المختلفة ماتزال إلى اليوم واحدة من أهم أسباب الكراهية بين الناس ، . . . جلست سيدة مسيحية ارستقراطية مع عدة سيدات ثريات ، وكن يتحدثن عن الخدم ومشاكلهم ومتاعبهم ، وأنهم لايمكن أن يستقروا بهدوء وسلام فى البيوت فترة طويلة ، . . وقالت السيدة : ولكن الخادم التى عندى لها فى بيتى أربعة عشر عاماً ، وصاحت الأخريات : هل هى بيضاء أم زنجية ، وأجابت السيدة الكريمة بأنها صاحبة قلب أبيض ! ! . . . ولقد تحدثنا فى مواطن كثيرة سابقة عن المعاناة والمتاعب والأحقاد المتسببة عن مثل هذه الأوضاع فى الأرض . . . منذ سنوات قليلة نجحت جراحة القلب ، وحدثت المعجزة فى نقل قلب إنسان إلى آخر ، وبدأت هذه الجراحة فى جنوب أفريقيا حيث التفرقة العنصرية ، وحيث يبدو الرجل الأبيض يحمل قلباً قاسياً عنيفاً أشد فحمة من سواد الليل ،ولكنها الخطية التى فعلت كل هذا فى الأرض ، وقد سئل أحد الأطباء المشهورين فى جراحة القلب عن أنسب قلب حيوانى للانسان ، وكانت إجابته : قلب الخنزير ، وقد صدق الرجل وهو لايدرى ،

فإن قلب الإنسان المتمرغ فى الخطية ، هو قلب الخنزيرة المغتسلة عندما تعود إلى مراغة الحمأة . . .

وذهب أنسيمس – ثانياً – فى رحلة الانحراف ، . . فهو شخص منحرف خرج من بيت سيده سارقاً أو ظالماً ، وهو يمثل الإنسان الخاطئ الذى تنحرف به الخطية عن خط الحياة المستقيم ، والخطية دائماً تفعل هكذا ، لأن الكلمة خطية فى أصلها اللغوى تعنى القصور أو الانحراف ، فإذا رمى الإنسان سهماً نحو هدف لا يبلغه فهو مقصر ، ومن ثم قال الوحى : « من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له » ! ! . . (يع ٤ : ١٧) خطية التقصير أو القصور أو عدم الوصول إلى الهدف من الحياة ! ! . . أما إذا انحرف السهم فى هذا الجانب أو ذاك فقد انحرف وأخطأ الهدف ،وقد انحرف أنسيمس بما سرق أو فعل من شر ، وهو صورة للمنحرفين فى الأرض ! ! . . بل صورة البشر لأن « الجميع زاغوا وفسدوا معاً . ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » ! ! . . . (رو ٣ : ١٢) .

وذهب – ثالثاً – فى رحلة الانحدار ، لقد قطع ما يقرب من ألف ميل بين كولوسى وروما ، ولنا أن نتأكد أنه فى كل ميل من الرحلة كان يزداد سوءاً وانحداراً ، . . والخطية تدفع أبناءها دائماً إلى الكورة البعيدة ، .. كانت الكاتبة المشهورة جورج اليوت فى بدء طريقها مع الحياة ، رقيقة العواطف ، مترعة المشاعر ، حساسة القلب ، وعندما كانت تكتب عن الإيمان أو عن غيره من الصور الكريمة فى الحياة ، كانت تبلل كتاباتها بالدموع ، . . لكنها وقد سارت إلى الكورة البعيدة ، لم تظل على الصورة القديمة الجليلة ، لأنها استقرت هناك فى الكورة البعيدة ، . والشاعر ما ثيور أرنولدز وهو ينحنى على إيمانه الضائع يبكيه ، كان صورة للانسان الذى يسير فى طريق الانحدار فى الرحلة القاسية مع الخطية فى الأرض ! ! . . .

وذهب — رابعاً — فى رحلة الضياع . إن الاسم « أنسيمس » يعنى « نافع » وهذا هو الأمل الذى راود من أسماه بهذا الاسم ، سواء أكان أبوه أم سيده ، ولكن الحقد والانحراف والانحدار جعلته كما قال بولس غير نافع ، وربما سخط عليه فليمون مرات ، وقال له : أنت غير نافع بالمرة ، والحيوان أفضل منك لأنه نافع ، وهكذا تفعل الخطية فى حياة الإنسان ، إذ تهوى به لتجعله أحط من الحيوان وأقل فائدة ، . . لقد خلق الله كل واحد منا ليكون نافعاً صالحاً معيناً ، ولكن الخطية تدفعه فى الخط العكسى تماماً ، فتجعله يعيش لنفسه ، يؤذى بدلا من أن ينفع ، يحطم بدلا من أن يعاون ، وما أكثر الناس الذين لا يرتفعون حتى إلى مستوى الحيوان الذى ينفع ويقدم مقابل ما يأخذ دون أن يفسد ويؤذى ويضر ! ! . . .

وذهب — خامساً — فى رحلة الاختفاء . . لقد قصد روما بالذات ، وقطع هذه الرحلة الطويلة ، لأن روما كانت مدينة الاختفاء ، والذاهب إليها — كما يقولون — مفقود ، . . . والخاطئ فى العادة يود أن يعيش فى الظلام كقول السيد : « وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة » (يو ٣ : ١٩) . . . وما الكبت — كما يقول علماء النفس — إلا محاولة طرد الإنسان الكثير من عقله الواعى إلى عقله الباطن ، حتى لا يتأمله أو يذكره ، ولكننا نعلم أن هذه المحاولة تنتهى عند حد ما ، عندما يثور العقل الباطن وينفجر ، لكثرة ما يختزن من إثم وفساد ، وكثيراً ما أصيب الناس بالجنون لأنهم أرادوا أن يخبئوا كل شيء فعجزوا عن ذلك ! ! . . .

وكانت الرحلة أخيراً رحلة الفزع والخوف والعذاب ، ولا شبهة فى أنه عاش فى روما خائفاً معذباً ، وهو يتصور عند أقل حركة من إنسان ، أنه اكتشف ، وأنهم جاءوا ليقبضوا عليه ، إنه مجرم هارب ينتظره حكم

الموت والإعدام ، والخطية دائماً تترك صاحبها معذباً ، لو علم الذين يرتكبون الخطية أنها لا يمكن أن تتركهم فى راحة ،لترددوا آلاف المرات قبل الإسراع إليها ، والانكباب على شهوتها الفاسدة المحرمة ! ! ولا فرق فى ذلك غنى أوفقير ، بين متعلم أو جاهل ، بين قوى أو ضعيف . . عندما ذهب مودى فى رحلته التبشيرية إلى بلاد الإنجليز . . قال له أحدهم : يا مستر مودى أرجو أن تفعل شيئاً من أجل الفقراء المعذبين . . فأنصت مودى قليلا وقال : وأرجو أيضاً من أجل الأغنياء المعذبين . . إن الخطية دائمة مفزعة بالنسبة للفقير والغنى على حد سواء ! ! . .

أنسيمس العبـد المجدد :

إذا كانت رحلة أنسيمس مثيرة وعجيبة ، فإن تجديده فى روما أغرب وأعجب ، لقد سار الرجل — على غير ما يتصور أو يتخيل — فى خط العناية المرسوم ، . . لقد هرب من سيده الأرضى ، دون أن يستطيع الهروب من سيده السماوى ، لقد ظن عندما وجد سفينة تأخذه من أسيا إلى إيطاليا ، أنها صدفة عابرة ، أو ضربة حظ كما يقولون ، وعندما قبلته السفينة ويممت شراعها فى اتجاه الغرب ، لم يكن يعلم أنه يندفع فى الاتجاه الذى يريده له الله بالتمام . قديماً صاح المرنم : « من خلف ومن قدام حاصرتنى وجعلت علىّ يدك . عجيبة هذه المعرفة فوقى ارتفعت لا أستطيعها . أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك » (مز ١٣٩ : ٥ — ١٠)... لقد أمسك به الله وهو لا يدرى ، ودفعه دفعاً إلى المدينـــة الكبيرة ، وهو لا يعلم ! ! . . لقد كان لابد لتجديده أن يقطع رحلة ألف ميل حتى يلتقى بالرجل المعين من الله لينال الخلاص على يديه ! ! . . على أنه من المناسب أن نرى

يد الله أيضاً فى الضيق الذى كان يعانيه ، وسواء أكان هذا الضيق فى الفزع أو الخوف أو كما يتصور أحدهم أنها الحاجة أو الفاقة ، إذ يبدو أنه أضاع ما بيده من نقود ، واحتاج وجاع ، ولم يجد مكاناً فى المدينة يسكن إليه أو يستريح فيه ، فذهب تحمله قدماه المتعبتان ليجلس جائعاً مضطرباً مهموماً عند أعتاب هيكل من هياكل روما ، وتمر به فى تلك اللحظة : إمرأة مسيحية ، لتتحدث إليه عن نفسه ،وإذا به يقول لها – كما تخيل الكاتب– أنا لا يهمنى شيء اسمه النفس ، ولكنها تحدثه عن المسيح يسوع . . فيقول لها : لقد سمعت هذا الاسم فى كولوسى ، فتأخذه إلى بولس ، حيث يقدم له رسالة المسيح ، رسالة الخلاص ، . . والكاتب يتخيل أن المرأة أطعمته وكسته ، ولكنى أعتقد أنه حدث ما هو أكثر من ذلك ، فبولس لم يقدم له الرسالة فحسب ، بل قدم له الحب والعطف والحنان والأمان ! ! . . لقد دعاه بولس ابنا . . . وسمع أنسيمس بولس يناديه يا ابنى . . ويصيح الرجل بدموع : لا ياسيدى هذا كثير على ، إن الناس تعتبرنى عبداً حقيراً مهاناً مشكوكاً فيه يعاملونه أقسى المعاملة ، ويرون الحيوان أهم منه وأفضل ، . . ولكن بولس يقول له كلا ياولدى ، أنت ابنى ، وابنى المحبوب العزيز ! ! . . وفتحت المحبة قلب الرجل لا إلى بولس فحسب ، بل إلى رب بولس ، إلى يسوع المسيح نفسه ! ! . . . ما أكثر ما تفعل المحبة فى جذب الناس إلى الفادى ! ! . . . قالت افنجلين بوث عن أبيها القديس العظيم الجنرال بوث إنه كان يملك نوعاً عجيباً من العيون تختلف عما تراه فى عيون غيره من الناس ،إذ كان يملك أن يرى الحلاوة الكامنة فى أشر الناس واللصوص والزناة ، ومن ثم استطاع أن يرفع آلاف الناس من مهاوى الخطية التى سقطوا فيها ! ! . . . لقد رأى بولس أنسيمس القديس خلف العبد الآبق الشرير الضائع ! ! . . .

انسيمس العبـد النافع :

وما أجملها وأعظمها من عودة ، لقد عاد شيئاً بل بتعبير أصح شخصاً آخر ، خليقة جديدة فى المسيح ، لقد عاد العبد حرا ، كانت مشكلته الحقيقية أكثر من عبودية فليمون له ، إذ كانت عبودية الفساد والشر والخطية ، ولا بد أن فليمون حاول تقويمه عشرات المرات دون جدوى ، ربما قيده أو أوقع به ضربات قاسية موجعة مزقت جلده ، ولكنها لم تستطع أن تمس قلبه . . عند ما رأى تشارلس لام سلطان الخمر عليه وأنه لا يستطيع أن يملك ارادته عليها كتب ما يأتى : هل يستطيع الشبان الذين تستهويهم رائحة الكأس الأولى الجميلة أن يلقوا نظرة علىَّ ليفهموا كم هو أمر مرعب أن يرى الإنسان نفسه يتدحرج إلى هاوية سحيقة بعيون مفتوحة وإرادة معدومة ، ينظر هلاك نفسه ولا يملك قوة الإرادة التى توقفه ، ويحس أن كل صلاح قد تركه ، ومع ذلك لا يستطيع أن ينسى الوقت الذى لم يكن فيه كذلك ، آه لو نظروا لاحترسوا بشدة من الكأس الأولى ! ! . . . وقفت المرأة أمام القاضى باكية . . قالت : ياسيدى أرجو أن ترسلنى إلى السجن . لقد جربت كل طريقة أخرى وفشلت . إنى مستعبدة لسلطان المسكر . أرسلنى إلى السجن فهناك سأمنع عن الشرب ، . . ما أكثر العبيد الذين قيدتهم الخطية بقيود أقسى من الأغلال ، ولم يجدوا نجاتهم إلا فى المسيح محرر العالم ومحطم الأغلال التى تستعبدنا بعنف ! ! . . . تعبت الحكومة فى معالجة زوجين سكيرين . حاولت معهما بكل وسيلة وفشلت . سلمتهما إلى جيش الخلاص الذى ، بواسطة انجيل النعمة ، استطاع أن ينقذهما من شيطان المسكر : وقامت الحكومة بدفع مصاريف علاجهما إلى جيش الخلاص . دفعت الحكومة أجرة المكان . ولكن هل نستطيع أن ندفع أجرة « الخلاص » نفسه ؟ لقد دفع السيد الثمن ! ! ... ومن المؤكد أن أنسيمس فى ذهابه إلى

روما كان كمن يرزح تحت جبل ثقيل موضوع على كتفيه ولكنه وقد نال الخلاص عاد متحرراً يقفز ويطفر ويسبح الله بعد أن سقط جبل الخطية عن كاهله ! ! . . . .

لم يعط التجديد أنسيمس الحرية فحسب ، بل أعطاه المساواة أيضاً ، فلم يعد عبداً ، . . . وهنا لابد أن نتوقف لنرى أسلوب المسيحية فى مواجهة مشكلة الرق العاتية ، وهذا الأسلوب لا يمكن أن يكون ثورياً ، فالمسيحية لا تؤمن بالعنف أو ترضاه ، سبيلا للاصلاح والعلاج ، . . .وربما نفهم هذا لو قرأنا ما كتبه جيمس م . ستيفلر عن السيد المسيح عندما قال : عندما سار المسيح بين الناس . . . رأوه ينظر بعينيه إلى النساء والأطفال بنفس النظرة التى كان ينظر بها إلى الرجال ، . . وهو لم يقل هذا ، ولكنه أظهره بالصورة الواضحة التى يفهمها الجميع ، . . والأمر نفسه بالنسبة للرق والعبيد ، وهو لم يخطب ضد مظالم العبودية الواضحة فى العصر الذى عاش فيه ، أو يتكلم عن الطبقات المختلفة ، ولكنه تصرف كما لو لم تكن موجودة ،لقد تناول طعامه مع الأغنياء ومع الفقراء دون أدنى تفرقة ، وزار رجال الدين المحافظين كما زار العشارين والخطاة على السواء ، ودون إثارة ، ولم يتكلم كثيراً عن العادات الشخصية ، ولكنه عاش حياة الإنسان الودود ، . . وإنك تستطيع أن تثق فى التصرف السليم لأى إنسان يضع قلبه على الأمور السامية ،.. ولعل هذا هو السبب فى أن الناس لم تقدر أن تفهمه ، لأنهم يقسمون الناس إلى طبقات متعددة ، أما هو فلم يفعل هكذا ، ونحن ما نزال إلى اليوم نقسم الأشياء ، إلى وطنى وأجنبى ، ومادى وروحى ، ودنيوى ومقدس ، . . أما بالنسبة للمسيح فلم يكن هناك إلا صنفان من البشر ، أولئك الذين يعيشون مع الله ويضعونه أولا ، وغيرهم ممن يحيون ويعيشون للجسد ، وحتى مع هـــذا التقسيم ، فإنه لا يمكن تجاهل الحقيقة أن الجميع إخوة ، وأبناء

للإله الواحد ! ! . . . . .فإذا تحولنا مع المسيح إلى رسوله بولس نجد ذات الشيء ،.. أو كما وصفه كوستن ج . هاريل فى كتابه : « أصدقاء الله » إذ قال : « إن الناس لا تفكر فيه عادة على هذه الصورة ، . . ولكن بولس كان رجلا ناجحاً على وجه عجيب ، ومقتدرا . كان أبوه يتمتع بالجنسية الرومانية ، وكل الدلائل تدل على أنه كان من طبقة عالية ميسورة الحال ، ولكنه لم يبال بهذا كله ، بل رمى به عندما دعى لمركزه الرسولى ، وترك ميراثه ليعيش من صناعة الخيام ، وتخلى عن أسرته من أجل المسيح ، وأصبح رحالة يجوب الأرض ، وهو يفعل ذلك فى منتهى السعادة ، وكان متعلماً ، ولكن الرجل الذى تعلم عند رجلى غمالائيل كان آية فى التواضع ، وقد وجد أنسيمس العبد الهارب مكانه ومكانته عنده ، وهو فى وداعته يشبه ذلك العالم الذى قال لقد شعرت أنى ألتقط بعض الأصداف القليلة من على شاطئ بحر الحقيقة الواسع العظيم ، ولم تدر رأسه المعرفة التى وصل إليها أو تفقده عطفه على الآخرين من بنى الإنسان ، ولم يقدم على أية محاولة دون أن ينجزها ، فى سجله الحافل فى العمل الرسولى ، وقد أمكنه بنعمة الله أن يزرع كنيسة المسيح فى أنحاء العالم الرومانى بنجاح وقوة ، ومع ذلك فإن نجاحه العظيم لم يجعله يرفع عقيرته على غيره من بنى البشر ، كان عطوفاً كأرق العطوفين ، ولم يجرفه التعالى أو الكبرياء ، وهو دائماً عند الفكر المسيطر عليه أنه أول الخطاة الذين افتقدتهم نعمة الله العظيمة المتفاضلة ، وبالحقيقة كانت وداعته الأخاذة أكثر بروزاً فى نجاحه مما فى استسلامه القانع الهادىء فى سجنه » ... لقد كسب بولس السيد والعبد معاً ليسوع المسيح ،وهولايرفع أحدهما ،ويهبط بالآخر ، بل يرفعهما كليهما إلى المستوى المسيحى ،والمساواة التى جاء المسيح بها ،لم تفرق بين عبد وحر ،ذكر وأنثى ، .. ومع ذلك فهو يرتفع فوق كل قانون ،ويرى المسيحية أعلى من القانون الذى يمكن فليمون من كل

تصرف تجاه عبده وخادمه ، فهو إن شاء أبقى عليه ، وإن شاء قتله ، دون تدخل أو عقاب من القوانين الرومانية الوضعية ، ولكن من قال إن المسيحية يمكن أن تنزل أو تتساوى مع أية قوانين بشرية ، أو من قال إن القوانين الأرضية يمكن أن تحكم المبادئ المسيحية أو تحتويها ، إن العكس هو الصحيح... يقول يوحنا فم الذهب : إن فليمون لا يكون مسيحياً أو إنساناً بل وحشا إذا رفض نداء بولس بمسامحة أنسيمس ورفعه إلى مستوى الأخوة المسيحية !..

ومن المناسب أن نذكر أيضاً ، ولهذا السبب ، أن بولس لم يناد بالحرية والمساواة بل بالإخاء أيضاً : « لا كعبد فى ما بعد بل أفضل من عبد أخا محبوباً ولا سيما إلىّ فكم بالحرى إليك فى الجسد والرب معاً » (فل ١٦) ... ولم يحتج الأمر إلى العنف أو الثورة لتحقيق كل هذا كما اطلقت الثورة الفرنسية شعارها المعروف « الحرية والمساواة والإخاء » وسفكت الدماء وأسالتها أنهاراً ، إذ قام الحب فى المسيحية مقام العنف والطغيان والثورة . وعلا الحنان والجود والرفق والسلام على كل حواجز الحقد والشر والتحزب والانقسام ، . . . ومع أنه من المؤسف أن البشر يتحركون ببطء نحو المبادئ المسيحية السامية العليا ، ولكن المسيح لا يقبل أن يتحول الناس إليها قسرا أو عن اكراه أو بقوة السيف أو القانون ، ولكن بسلطان روحه الذى يتملك الجميع ، فيقف بولس وفليمون و أنسيمس على خط واحد من الحرية والمساواة والإخاء والحب الحقيقى فى المسيح يسوع : « بل أخا محبوبا ولا سيما إلىّ فكم بالحرى إليك فى الجسد والرب معاً » . . .

لم تعط المسيحية أنسيمس الحرية والمساواة والإخاء والحب ، بل أعطته إلى جانبها جميعاً الصلاح والنفع ، إذ عاد أنسيمس إلى معنى اسمه الذى أفقده إياه الشر والاثم ، إذ أصبح نافعاً ، ومن الواضح أنه كان نافعاً لبولس فى روما ، ولم يرغب بولس أن يكون هذا النفع قسرا بدون إرادة فليمون ،

ولم يشأ أن يحرم فليمون أيضاً من هذا النفع ، فأعاده إليه . والحياة المسيحية الجديدة ، لابد أن تكون نافعة ، وصادقة فى نفعها ، مهما بدت الطريق أمامها قاسية وخشنة ، . . لقد حمل أنسيمس كتاب بولس إلى فليمون ، وكان على الجميع أن يشتركوا فى المنفعة ، فبولس كان على استعداد للبذل والعطاء موفياً ما يمكن أن يكون لفليمون من دين على أنسيمس ، وكان أنسيمس يسير بخطى ثابتة إلى بيت فليمون مهما تكن النتائج التى قد تواجهه ، إذا لم يقبل فليمون توبته ورجوعه ، وهو كإنسان نافع على استعداد أن يقدم هذا النفع فى الحياة أو الموت على حد سواء ، كما تفعل كل حياة تصمم على الحق والشرف والأمانة والصدق مهما تتكلف من متاعب أو مشقات أو آلام ، . . وكان على فليمون ألا يكون أقل فى الشهامة والكرامة والنفع ، فيقبل عرض بولس ، وتوبة أنسيمس ، وانتصار الشركة المسيحية التى ترفعهم جميعاً إلى أعلى مستوى ! ! . . وإذا صح التقليد القائل أن أنسيمس عاش مع فليمون ومات مع ابنه شهيدين من أجل المسيح ، فنحن هنا ازاء أسمى ما يمكن أن تكون عليه الرابطة المسيحية التى تربط المسيحيين معاً فى الحياة أو الموت بالأخوة المسيحية ! ! . . .

مات أحد القضاة الأمريكيين فى فرانسسكو عن عمر ناهز الواحدة والتسعين ، وقد أرسل أصدقاؤه وأصدقاء الأسرة فى الجنازة مئات من باقات الورود ، ولكن أجمل باقة وأكبرها كانت من شخص مجهول للأسرة ، وإذ استفسروا عن الصديق المجهول وجدوه رجلا فقيراً جداً يلبس بدلة العمال الزرقاء ! ! . . ولما سئل لماذا قدم أعظم باقة وأجملها ، أجاب : إنى كناس الشارع ، وقد كنت كل يوم أنتظر القاضى فى خروجه من البيت ، وكان يسير إلى جوارى وأنا أكنس الشارع ! ! . . . وقد ظللنا

على هذه الحال عشرين عاماً ! ! . . القاضى العظيم لا يأنف أن يسير إلى جوارى ويتكلم معى ، أنا الذى لا أساوى شيئاً ، ويقول لى : يا مستر مورفى ! ! ؟ . . . لقد وضع بولس يده فى يد أنسيمس ويد فليمون ، وعاش الثلاثة على مر القرون والأجيال رمزاً صحيحاً للمسيحية التى تعطى العبد الحرية والمساواة والإخاء والحب والصلاح والخدمة ! ! . . .

١٥٣
غايس

« أيها الحبيب انت تفعل بالأمانة كل ماتصنعه الى الاخوة والى الغرباء » (٣ يوه) .

كانت أسرة الصبي وليم كولجيت فقيرة جداً ، وكان على وليم أن يترك بيته فى سن مبكرة ، ليشق طريقه فى الحياة بنفسه ، ذلك لأن والديه لم يكن فى استطاعتهما ، ارساله إلى المدرسة ، ولا حتى أن يعولاه ، وقد أعطته أمه كهدية الوداع الكتاب المقدس ، وطلبت منه أن يقرأه يومياً ويصلى ، وقرر وليم أن يعمل فى صناعة الصابون والشمع مساعداً لبحار عجوز لم يكن يعرف غير هذه الصناعة ، ولما قبض مرتبه لأول مرة وكان عبارة عن دولار واحد ، كان يعرف أن جزءاً منه ملك لله ، . . وعلم من الكتاب الذى أعطته له أمه ضرورة تقديس العشور ، وقال إن كان الله يقبل أن يأخذ العشر فسأعطيه إياه ، وبمرور الوقت صار وليم شريكاً فى المصنع ، فصاحباً له ، وفتح حساباً فى البنك رصد فيه عشر كل إيراداته لأجل عمل الله ،

وأنجحه الرب ، وابتدأ نصيب الرب يزيد إلى العشرين فالنصف ، وأخذ يرتفع ارتفاعاً متوالياً حتى كان فى السنوات الأخيرة من حياته ، يوزع كل الربح للرب ، ولما مات كولجيت أعتبر من أعظم رجال الخير والإحسان فى الأرض ! ! . . . كان غايس عضواً متقدماً فى الكنيسة ، ومن الواضح أنه كان غنياً ، ومع ذلك فقد كان الشخص الوديع الذى يقف فى الصفوف الخلفية يمد يده بالمعونة والمساعدة للجميع ، وقد كتب إليه الرسول يوحنا يمتدح عمله ، وينتظر له النجاح الشامل فى كل شىء ، . . كم يحتاج الناس ولا سيما الأعضاء فى الكنيسة إلى التأمل فى قصة الرجل لعلهم يدركون الواجب الأمثل الذى يواجههم فى عمل الله وخدمة القديسين ، ولذا يحسن أن نتأمل القصة فيما يلى :

غايس الرجل الناجح :

كان الاسم غايس من الأسماء الشائعة فى العصر المسيحى الأول . وقد جاء ذكره فى أكثر من موضع من الإنجيل ، فهناك غايس المكدونى رفيق بولس فى السفر والذى اختطفته الجماهير الهائجة فى أفسس : « فامتلأت المدينة كلها اضطراباً واندفعوا بنفس واحدة إلى المشهد خاطفين معهم غايوس وأرسترخس المكدونيين رفيقى بولس فى السفر » (أع ١٩ : ٢٩) . وهناك غايوس الدربى الذى صاحب بولس إلى مكدونية : « ومن أهل تسالونيكى أرسترخس وسكوندس وغايوس الدربى وتيموثاوس » . (أع ٢٠ : ٤) . . ويظن البعض أنه من دربة ، وآخرون أنه من دوبارس المدينة المكدونية ، ولذا فهم يعتقدون أنه غايوس المكدونى المشار إليه آنفاً ! ! . . . وهناك غايس الكورنثى الذى عمده بولس فى كورنثوس : « أشكر الله أنى لم أعمد أحداً منكم إلا كريسبس وغايس » (١ كو ١ : ١٤) . . ويعتقد أنه هو نفس الشخص الذى أشار إليه بولس فى آخر رسالة رومية : « يسلم عليكم

غايس مضيفى ومضيف الكنيسة كلها » (رو ١٦ : ٢٣) . . أغلب الظن أن الأخير هو غايس الذى كتب إليه الرسول يوحنا رسالته الثالثة ومع أننا لا نستطيع أن نقطع بالرأى هل غايس الذى يتحدث عنه يوحنا ، هو غايس الذى يذكره بولس والذى عمده فى كورنثوس أم هما شخصان برزا فى دائرة الكرم وإضافة المؤمنين ، . . إن الذى يرجح الرأى الأخير هو أن غايس الكورنثى على الأغلب عرف المسيح عن طريق بولس الذى عمده أيضاً بينما غايس الذى أرسل إليه يوحنا بقوله : « ليس لى فرح أعظم من هذا أن أسمع عن أولادى أنهم يسلكون بالحق » (٣ يو ٤) . . مما قد يشجع على الظن بأنه قد آمن بالمسيح عن طريق يوحنا ! ! . . على أية حال نحن مع يوحنا أمام رجل ناجح ، على أجمل صورة يمكن أن يكون عليها النجاح فى الحياة ، والنجاح فى حد ذاته من أشهى الأمور التى يتوق إليها الإنسان فى الأرض ، فهو الأمنية التى يسعى إليها كل البشر فى الحياة ، والكلمة الحلوة للتاجر فى تجارته ، وللصانع فى مصنعه ، وللطالب فى مدرسته ، وللمخترع فى اختراعه ، وللمكتشف فى اكتشافاته ، وللجندى فى معركته ، لكن الخطأ الأساسى فى الحياة ينبع من عدم التقييم الصحيح للنجاح أو التنظيم الواجب له ! ! . . والرسول يوحنا يدعو لغايس ويتمنى له كل أنواع النجاح ، غير أنه يضع الأهم قبل المهم ، . . . وهو هنا يؤسس النجاح الصحيح ، أو يضع القاعدة التى يرتكز عليها كل نجاح حقيقى ، على نجاح النفس « كما أن نفسك ناجحة ». وفى الحقيقة لا مانع من أن يأتى كل نجاح للانسان من الزوايا والميادين المختلفة ، طالما كان الإنسان متأكداً من نجاح نفسه أمام الله والناس ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا ارتبطت الحياة بجملتها بالحق معرفة وسلوكاً : « بالحق الذى فيك كما أنك تسلك بالحق . ليس لى فرح أعظم من هذا أن أسمع عن أولادى أنهم يسلكون بالحق » ... والحق ، فى المفهوم المسيحى ،

ليس مجرد شيء بل شخص جاء وتجسد الحق فيه ، وعرفنا كيف يكون الحق ! ! . . ولا سبيل إلى النجاح على هذا الأساس ، قبل معرفة المسيح ، وتسليم الحياة له ، . . . وعندما نراجع قصة أبطال الكتاب والتاريخ الذين نجحوا تماماً بالمعنى المسيحى ، نجد أنهم هم الذين بدأوا خطواتهم بمعرفة الله والشركة معه، أو بعبارة أخرى أصبح الحق فيهم : « بالحق الذى فيك »... عندما صمم يوسف على النجاح ، وعلى أن يرتفع بنجاحه إلى أعلى عليين حتى تصبح الشمس والقمر والكواكب ساجدة له ، أمسك من اللحظة الأولى بطرف الخيط ، إذ عرف الله وسار مع الله : « وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا » (تك ٣٩ : ٢) .. وعندما وقف موسى على الخطوات الأولى من درب النجاح أدرك أنه لا يمكن أن يكون هذا النجاح بعيداً عن معرفةالله والتمسك به حتى أنه « لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنةفرعون مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله عن أن يكون له تمتع وقتى بالخطية حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر لأنه كان ينظر إلى المجازاة ! ! .» (عب ١١ : ٢٤ – ٢٦) . وهذا ما عرفه الصبى الصغير الهاجع فى بيت الله ، عندما تكلم الله إليه فأجاب : « تكلم لأن عبدك سامع »... (١ صم ٣ : ١٠) . . . وعاش صموئيل فى هذا اليقين الدائم بأن النجاح لابد أن يكون بسمع صوت الله فى كل ظروف الحياة ، . . وعرف داود النجاح وهو يغنى بمزماره فوق الربى والجبال وهو يهتف لله : « أحبك يارب ياقوتى» . . . (مز ١٨ : ١) وعرف دانيال فى السبى النجاح والتفوق وهو يمد بصره كل صباح وظهر ومساء من خلال الكوة المفتوحة إلى مدينته المقدسة ، وإلهه العظيم الذى أعطاه اضعافاً مضاعفة من النجاح لأمانته فى التمسك به ، . .وأدرك تيموثاوس النجاح بالتمسك بتعليم أمه وجدته فى مواجهة الحياة ووثنية أبيه وقسوة الأجواء والظروف المحيطة به ، . . وبنى غايس نجاحه على الحق الذى

فيه ! ! . . ومن اللازم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء جميعاً ، لم يكن الحق عندهم مجرد معرفة نظرية أو فهم عقلى ، بل هو أولا وأخيراً السلوك الدينى الصحيح : « كما أنك تسلك بالحق » (٣ يو ٣) قص الدكتور وليم كلى قصة فتاة فى الخامسة من عمرها ، وكانت متدينة ونشطة ، وفى أحد الأيام ، وجدتها أمها وقد رتبت الكراسى فى صفين فى وسط الغرفة ، ووضعت أختها الصغرى التى كان عمرها سنتين فى الكرسى الأوسط ، وبقية عرائسها على الكراسى الأخرى ، وقد سألتها أمها عن ذلك فقالت الصبية : لقد كان عندنا كنيسة ، وسألت الأم ضاحكة : وهل كان عندكم عظة . . فأجابت الفتاة : نعم . وقالت الأم : حسناً وماذا قال الراعى ! ! ؟ فأجابت الفتاة بكل تأن كما لو كانت تحاول أن تتذكر : لقد قال يجب أن تكونوا صالحين لأن الله فى كل مكان ! ! . . . إن الحياة المسيحية ينبغى أن تكون غنية بالشركة مع الله واختباره فى تحمل كل الظروف والمتاعب من أجل اسمه ! ! . . . كان مرسل يعمل بين اليهود ، وحدث أنه لم يكن لديه يوماً طعام خلاف قطعة لحم صغيرة وثلاث بطاطسات ، وكانوا ثلاثة أشخاص ولم تكن هناك طريقة للحصول على طعام فى وقت قريب ، . . ووضعوا آخر ما عندهم على المائدة وصلوا ذاكرين وعده للمتكلين عليه وإذ ذاك سمعوا طرقا على الباب ، وإذا بهندى يحمل ربع غزال ولما سمع قصتهم قال الآن عرفت السر فإنى لما ذبحت الغزال على بعد سبعة أميال ، نادانى صوت : أسرع وقدم منه للمرسل. ولذا أتيت مسرعاً.... نفى جماعة من المسيحيين المساكين إلى إقليم بعيد ، ورآهم أحدهم فأثر المنظر فى نفسه وقال يالهم من مساكين ، فانهم طردوا إلى أماكن مقطوعه حيث لا يرون معهم أحداً قط ، وليس من أنيس لهم غير الحيوانات ، فقال آخر لقد كانوا جديرين بالرثاء والأسى

لو أنهم نقلوا إلى مكان لا يجلون فيه إلههم ، أما الآن فليسروا لأن الله يذهب معهم وسيقدم لهم تعزيات حضوره أينما ذهبوا ! ! . . .

والرسول يوحنا لا يمانع بعد النجاح النفسى من الوصول إلى النجاح المادى والاجتماعى والصحى ... ! .. أروم أن تكون ناجحاً فى كل شىء ! ! .. ومن المؤسف جداً أن الكثيرين لا يعرفون هذا الترتيب أو يهضمونه على الاطلاق ، .. أليس هناك الكثيرون من الناس الذين يبذلون كل جهدهم من أجل عقول وأجساد أولادهم دون أن يهتموا بأمر نفوسهم ، وهم يفخرون بما ناله هؤلاء الأولاد من شهادات علمية ومراكز إجتماعية دون أن يهتموا البتة بحياتهم الروحية ! ! ... ومن المتصور أن غايس كان على درجة كبيرة من النجاح المادى ، والمال يمكن أن يكون بركة من أعظم البركات مع النفس الناجحة . . . متى نجحنا فى استخدامه لخدمة الرب ومجد اسمه بين الناس ! ! . . ويعتقد البعض أن غايس كان عليل الصحة ضعيف البنية ، والقول : « أروم أن تكون ناجحاً وصحيحاً » قد تشير الكلمة : « صحيحاً » إلى ضعف الجسد أو مرضه ، . . والرسول يطلب له الصحة السليمة والعافية المتكاملة . . . ومن الحق أن بعض القديسين كانوا فى أضعف الحالات جسدياً ، وكانوا كلعازر يئنون تحت ثقل علتهم ، ولكنهم كانوا ناجحين روحياً ، وقد غنت مس هقرجال بأروع الترانيم والأغانى وهى محطمة جسدياً ، . . لكن الأصل عند الله ، أن سلامة الصحة تعين على الخدمة الناجحة ، ومن ثم كانت المطلب الذى تمناه يوحنا الرسول لغايس المحبوب ! ! .

غايس العضو المختفي :

ومع أننا لا نعلم بالضبط مركز غايس فى الكنيسة ، وماذا كانت رسالته فيها ، إلا أنه من الواضح أنه كان رجلا غنياً ، وفى الوقت عينه وديعاً ، يقدم ثروته وخدمته ، دون أن يفكر فى التسلط والظهور ، وقد امتدح يوحنا

هذا ، على العكس من ديوتريفس ، الذى ظنه البعض أسقفاً ، واعتقد آخرون ، ولعله الأرجح أنه كان شيخاً من شيوخ الكنيسة ، ولكنه كان مستبداً جباراً ، وهو لا يريد أن يمر أى عمل كنسى دون موافقته ، مهما كان هذا العمل صالحاً ، ولا نعلم كيف شق هذا الرجل طريقه إلى المركز القيادى فى الكنيسة ، لكننا نراه هناك على أبشع درجة من العنف والاستبداد ، . . وقد كشف يوحنا عن سره ، السر الذى ما يزال إلى اليوم أس البلاء فى الكنيسة ، إنه يريد أن يكون « الأول » « إنه أشبه بذلك الجواد الذى عجز كل واحد عن ترويضه ، وأدرك الإسكندر الأكبر سره ، عندما رآه يفزع كلما أبصر ظله على الأرض ، . . . فما كان من الإسكندر إلا أنه أدار الحصان بكيفية لا يمكن أن يرى ظله فيها ، . . واستطاع أن يمتطى صهوته ، بعد أن أسقط كل راكب من على ظهره ، وهو جامح أمام الظل، . . وعندما يقع ظل الذات على حياتنا وخدمتنا ، فكلنا جواد الإسكندر الجامح ، وكلنا ديوتريفس الذى يريد أن يكون الأول بينهم ، وويل للفرد أو الكنيسة أو الحياة عندما تستيقظ الذات وتشق طريقها بين الناس ! ! أغلب الظن أن ديوتريفس وجد حججه تجاه الغرباء الآتين الذين يطردهم والذى يكون يوحنا قد أرسلهم ، وهو يرفض سلطان يوحنا أو رجاءه بدعوى عدم جواز خضوع الكنيسة للرئاسات أو ما أشبه إذ هى كنيسة المسيح الديموقراطى ، ويتباكى الرجل على الديموقراطية التى خنقها بيديه حيث لا ينبغى أن يسمع صوته فى الكنيسة غير صوته ، . . وربما تحدث عن استقلال الكنيسة المحلى الذى لا يجوز اخضاعه بأية صورة من الصور . . ، أو عن الرجال الذين فى الكنيسة وفيهم النضوج الكافى ، وليسوا فى حاجة إلى

من يعلمهم كيف يسلكون السبيل ، وما إلى ذلك مما يتكرر فى كل العصور والأجيال ، عندما يستيقظ شبحه فى الكنائس والمجامع والسنودسات والمحافل العامة ، وعندما ترتفع أصوات الكبرياء بالاستقلال وعدم التبعية وعدم الخضوع لأى بشر مهما كان مركزهم ولونهم وشأنهم ! ! . . . ومثل هؤلاء يحتاجون فى هذه كلها إلى مرآة ليروا أنفسهم على حقيقتها فى كل ما قالوه ، وهم يزعمون أنهم يتصرفون لمجد الله وخير الكنيسة ، والحق وحده ، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى ! ! . . هذا الطراز الخبيث من الناس تزداد ضراوته بالخبث الذى يغلف به حججه وأسانيده المزعومة ، والالتواءات الخفية والظاهرة التى يستخدمونها فى خداع البسطاء ، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى من يصدهم ، ويكشف الخبث ، والذات ، والشراسة التى يخفونها فى نفوسهم . . وعلى العكس منهم ، تظهر روح غايس الوديعة التى تعمل فى صمت ، وتبذل فى خفاء ، وتجاهد فى وداعة ، وتقدم فى حب ، وهذه كلها لم تكن عند ديوتريفس . وعلى حد قول أحد القديسين : « إنه لا يوجد اختبار دينى ، أيا كان هذا الاختبار لا يقدر أن يعبر عن ذاته بالمحبة » . . . والسؤال الذى يلزم أن يكون محكاً وامتحاناً حقيقياً لأى عمل مسيحى هو ما مقدار ظهور الذات أو انعدامها منه ؟ ! ! . . .

غايس المضيف الكريم :

قد تكون لغايس مواهب متعددة ووزنات كثيرة ، لكن أعظم ميزاته هى إضافة المحتاجين والغرباء على نحو كان واضحاً وملحوظاً من الجميع ، . . لم تكن هناك فنادق فى تلك الأيام تستطيع استيعاب الوافدين والغرباء وعابرى السبيل ، وكان اليونانيون يأنفون من أخذ مقابل نظير استضافتهم للغرباء الذين كانوا يأوونهم ، كما كانوا يحتقرون كل من يدير فندقاً ، كما

إن الفنادق فى ذلك الزمن كانت أبعد من أن تكون مريحة للمسافرين لعدم الاهتمام بتنظيفها وتخليصها من الحشرات ، . . وكان فى العالم القديم أماكن خاصة عند العائلات لايواء الضيوف والغرباء ، . . وكانت إضافة الغرباء عند المسيحيين أوضح وألزم ، وقد نادى بها الإنجيـــل كما قال الرسول بولس : « عاكفين على إضافة الغرباء » (رو ١٢ : ١٣) . . وفى الرسالة إلى العبرانيين : « لا تنسوا إضافة الغرباء » (عب ١٣ : ٢) . . . وقال الرسول بطرس : « كونوا مضيفين بعضكم بعضاً بلا دمدمة » (١ بط ٤ : ٩) .. وكان من الشروط الأساسية فى اختيار الأسقف إضافة الغرباء (١تى٣ : ٢ ، تى ١ : ٨) . . . . وقد ذكر يوستنيان الشهيد فى دفاعه الأول عام ١٧٠ م كيف كان هذا العمل من أهم أعمال الكنيسة إذ كان العابدون يوزعون على الفقراء حسب استطاعتهم ، وكان قائد الاجتماع يزور الأيتام والأرامل ، وكل من له احتياج ، والمقيدين ، والغرباء الموجودين بين الجماعة ! ! . . . وقد كان فى مطلع التاريخ المسيحى مبشرون متجولون تركوا بيوتهم وعائلاتهم وضحوا براحتهم ، فى سبيل نشر كلمة الله وحملها إلى حيث يذهبون ويصفهم الرسول يوحنا : « من أجل اسمه خرجوا وهم لا يأخذون شيئاً من الأمم » (٣ يو ٧) ، ومن المرجح أن ديمتريوس كان واحداً من هؤلاء المبشرين المتجولين ، وكان مشهودا له من الجميع ، وربما وجد بين هؤلاء ، من انتحل هذه الصفة مندساً ، كما يفعل إلى اليوم الأدعياء والمحتالون ، ومن ثم جاء فى التعاليم الدينية القديمة « الديداكى » المنسوبة إلى الرسل : « كل من جاءكم باسم الرب ، فهذا اقبلوه ، ثم بعد ذلك سوف تعرفونه ، وسيعطى لكم أن تعرفوا كيف تميزون اليمين من اليسار ، وإن كان القادم إليكم عابر سبيل ساعدوه بقدر الإمكان ، لكن لا تدعوه يمكث عندكم أكثر من يومين أو ثلاثة ، ما لم تكن هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، لكن إن كان هو يرغب

فى البقاء معكم إن كان صاحب حرفة فليعمل لكى يكسب عيشه . أما إن أدركتم أنه لا حرفة له ولا عمل . فإن كان مسيحياً فقدموا له ما يحتاجه ، ورتبوا له حتى لا يظل عاطلا بينكم ، فإن لم يفعل ذلك تحذروا منه ومن أمثاله ، لأنه قد يكون من المتاجرين بالدين .. » .. لكن ديمتريوس على العكس ، وفى ظن البعض أنه ديمتريوس الصائغ وصانع هياكل الفضة لأرطاميس ، والذى كان يكسب من ورائها المكاسب الطائلة ، وأهاج الجماهير على بولس ، ولكنه على حد هذا التصور لم يلبث أن آمن بالمسيح وأصبح من أخلص جنودها ، وأنه خرج ليكرز بالإنجيل ، وينادى برسالة الخلاص وقد افتقر دون أن يبالى بفقره من أجل السيد ، . . . وقد استقبله غايس أحر استقبال ، وقدم له ولغيره من الغرباء كل ضيافة كريمة ، الأمر الذى أثار ثائرة ديوتريفس ، وعمل على طرد الغرباء والوافدين ،وسمع الرسول يوحنا فأرسل الرسالة منضماً إلى غايس وديمتريوس ومنددا بشر ديوتريفس ، ومعطياً الشهادة الواجبة للرجل المضياف ! ! . .

أليس من الغريب أن الكنيسة ماتزال إلى اليوم تجمع — بهذه الصورة أو تلك فى وقت واحد — بين « غايس » و « ديمتريوس » و « ديوتريفس » . وقد ذكر بيتر مارشال الواعظ المشهور قصة رائعة لست أدرى نصيبها من الواقع أو الخيال ، ولكنها تمثل الحقيقة التى تتابعنا جميعاً ، إذ تحدث عن ذلك الأمريكى الثرى الذى جلس فى بيته ذات مساء فى ليلة قارصة البرد ، يقرأ على مقربة من المدفأة فى غرفته فصولا من الكتاب المقدس ، ولم يكن معه بالدار أحد إذ ذهبت زوجته وأولاده إلى إحدى دور الملاهى وانتهت به القراءة إلى قول المسيح فى انجيل لوقا الأصحاح الرابع عشر : « إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمى فيكون لك الطوبى » (لو ١٤ : ١٣) .. وما أن قرأ هذه العبارة حتى تحولت أمامه نوراً وناراً وأخذ يتأمل تحدى

المسيح لأمثاله الأغنياء ، فهو وأمثاله لا يفكرون إلا فيمن على شاكلتهم ، أما أولئك المساكين والمحرومون فلا يذكرهم أحد ، فشأن العالم أن يقتصر التكريم فيه على أصحاب النفوذ والوجاهات ، ومن تتناقل الصحف أسماءهم ، ومن لهم مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية أو يشار إليهم بالبنان ! ! . . ومد خياله ليرى جيوشاً لا حصر لها من المساكين والعرج والعمى الذين يتسكعون فى الشوارع ،ويستعطون المارة ، ويستدرون عطفهم ، وتصورهم يمرون بداره ، فصلى من أجلهم طالباً أن يمنحهم الله القوة والشجاعة والصبر والإيمان ! ! . لكنه فكر أن عليه واجباً تجاههم وخطرت له فكرة قرر أن يتممها إذ أرسل بطاقة كتب عليها : يتشرف يسوع الناصرى أن يدعوكم إلى وليمة تقام مساء الجمعة القادم وسوف تنتظركم سيارات لتنقلكم فى الوقت المحدد من مركز اتحاد المرسليات إلى مكان الوليمة .وهذه الوليمة قاصرة على أبناء الفاقة والمساكين والمحرومين ! ! . . وقد أثارت الدعوة دهشة المسئول عن المطبعة ، ولكنه مع ذلك نفذها . . . وأخذ الرجل الأنيق الداعى يمر بالشوارع ويوزع على كل من يمر به من العمى والعرج والمقعدين ، رقاعها . . . ومع أن الناس تعجبت من الدعوة إلا أنها صادفت استحساناً كبيراً ، وتجمع فى المكان عدد غفير من المدعوين من البؤساء وأصحاب العاهات ، ولا تسل عن مشاعر المدعوين أمام المائدة الحافلة عندما كان المضيف يمر بهم ووجهه يشع بالضياء وقلبه يخفق من شدة الفرح . وأخذ يحدثهم عن حياة ذلك الشخص الذى ألهمه أن يقيم لهم هذه الوليمة ، فهو شخصية إلهية لكنها صرفت حياتها على الأرض تصنع خيراً . . كان يقول إن هذه الحفلة هى حفلة ذلك السيد الإلهى ، وقد أعرته بيتى فقط ليقيم لكم هذه الوليمة . فهو مضيفكم وصديقكم وهو يحزن لحزنكم ويفرح لفرحكم ، وهو يريد أن يساعدكم ، ويعيد إليكم رجاءكم الضائع فى هذه الأرض ! ! . . .

ومهما يكن حظ هذه القصة من الخيال أو الواقع ، فإنها الصورة الصحيحة لما فعل غايس المضيف الكريم لإخوة المسيح الأصاغر ، وضيوفه ، وخدامه الذين تفرقوا فى كل مكان للمناداة بإنجيله والكرازة بالخلاص بين الناس ! ! وهل كان يعلم الرجل الذى قدم خدمته الوديعة الطيبة ، والمتشحة — فى أغلبها — بالتخفى والتستر ، أن هذه الخدمة ستعبر القرون وتذاع فى كل زمان ومكان ، لتبقى علماً فى جبين الأجيال يمتدحها الناس ، وتنفذ إلى ما وراء الأبد لتلتقى بالصوت المحب الكريم : « تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . لأنى جعت فأطعمتمونى . عطشت فسقيتمونى . كنت غريباً فآويتمونى . عرياناً فكسوتمونى . مريضاً فزرتمونى . محبوساً فأتيتم إلىّ . فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين . يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك . أو عطشاناً فسقيناك . ومتى رأيناك غريباً فآويناك . أو عرياناً فكسوناك . ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك . فيجيب الملك ويقول لهم الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم » (مت ٢٥ : ٣٤ — ٤٠) . . . ! ! .

١٥٤
ملاك كنيسة أفسس

«لكن عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى»
(رؤ ٢ : ٤) .

عندما كتب دانتى كتابه العظيم « الكوميديا الإلهية » ، قيل إنه كان يندمج بانفعالاته العميقة فى الكتابة مع الصور التى يتخيلها ، إلى درجة أن هذه الصورة كانت ترتسم على وجهه وهو لا يدرى ! ! . . فعندما كتب عن الجحيم ، وتخيل نفسه يسلك فى دركاته التسع التى تخيلها ، وهو ينتقل من هوة إلى هوة ، ومن عذاب إلى عذاب ، قيل إن وجهه طبع بطابع الجحيم نفسه ، وبدا كما لو أنه وجه شيطان ، . . . لكنه عندما تحول للكتابة عن السماء ، أخذ وجهه يلمع كما لو كان ملاك نور ، وبدا مرتفعاً عن كل التعاسات والآلام والشر والحقد الذى تبدى فى كتاباته عن الجحيم ، .
وما قيل عن دانتى يمكن أن يقال عن كل ملاك من ملائكة الكنائس السبع ،.
والملاك هنا هو راعى الكنيسة أو شيخها أو ناظرها أو أسقفها ، أو القائد

المنظور فيها ، . . ولا شبهة فى أن كل قائد من ملائكة الكنائس السبع كان يعكس صورة الكنيسة التى عاش بين جنباتها ، إذ تأثر منها ، وأثر فيها ، واختلط نسيج حياته بنسيج حياتها ، حتى يصح أن نراه مرآة تعكس الكنيسة ، كما تعكس الكنيسة صورته الحقيقية ، ومن ثم أصبح الحديث عنه وعنها شيئاً واحداً ، فالكنيسة الحية لا شك فى أن يكون راعيها حياً ، والكنيسة الميتة لابد أن يكون راعيها ميتاً مثلها ، ولأجل هذا سنتعرض لشخصيات الملائكة المذكورين فى الأصحاحين الثانى والثالث من سفر الرؤيا ، وقد اتسم كل منهم بسمته الخاصة التى ألقت أضوائها أو ظلالها على الكنيسة التى كان يقوم برعايتها ، وسنتأمل الآن ملاك كنيسة أفسس ، أول الأسماء التى جاءت فى سفر الرؤيا عن الملائكة السبعة فيما يلى :

ملاك كنيسة افسس ومديح المسيح له :

كانت مدينة أفسس واحدة من ثلاث مدن تعد أجمل وأعظم المدن فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى العصر القديم وهى الإسكندرية وأنطاكية وأفسس . وفى أيام بولس كانت المدينة تعد أكبر مدينة فى أسيا الصغرى والعاصمة الرومانية للولاية المعروفة حينئذ بولاية آسيا ، وقد بنيت عند مصب نهر كيستر ، فى بحر إيجه ، وكان لها ميناء متسع كبير ، كانت ترسو فيه السفن الكبيرة ، ولذا فقد كانت أفسس مركزاً تجارياً عظيماً ، كما كانت ملتقى الغادين والرائحين بين الشرق والغرب فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية . على أن المدينة ، كما هو معلوم ، أخذت شهرتها – قبل المسيحية – من هيكل أرطاميس الذى كان يعد من عجائب الدنيا السبع القديمة ، وقد سبق لنا أن تكلمنا عنه ، لقد كانوا يقولون فى معرض الحديث عن روعته وفخامته وجماله إن الشمس لم تر ما هو أفخم وأعظم منه ، وقد بنى بأكمله من الرخام الأبيض ، وكانت أعمدته مئة وسبعة وعشرين عموداً من اليشب ، أهدى

كل عمود منها ملك من الملوك ، وقد سقف بالأرز ، وزين بروائع الصور والتحف والتماثيل والستائر مما خلفه أمهر الرسامين والصناع وأرباب الفنون، وقد كانت أرطاميس أو ديانا – وهي تختلف عن ديانا عند اليونانيين التي كانت تعد آلهة الصيد ، أما ديانا الأسيوية فقد كانت عند عابديها أم الحياة – وقد كان تمثالها موضوعاً داخل مذبح كبير فى نهاية الهيكل ، وكان الناس يعتقدون أن تمثالها هذا هبط من عند زفس كبير الآلهة ، وعلى مقربة من هذا الهيكل ، كان يوجد مسرح هائل يتسع لخمسين ألفاً من المتفرجين » . وقد استقر بولس فى أفسس ثلاث سنوات ، وأسس فيها كنيسة كبيرة ، بل كانت مركز التأثير المسيحى فى أسيا الصغرى ، ومن المعتقد أن الكنائس السبع قامت حوالى ذلك التاريخ أي من عام ٥٤ – ٥٧ م » . . ومن المرجح أن بولس كتب رسالته إلى أفسس عام ٦٣ م أو حوالى ذلك . وعندما ذهب بولس إلى مكدونية ترك تيموثاوس فى المدينة : « كما طلبت إليك أن تمكث فى أفسس إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية لكى توصى قوماً أن لا يعلموا تعليماً آخر ، ولا يصغوا إلى خرافات وأنساب لا حد لها تسبب مباحثات دون بنيان الله الذى فى الإيمان » (١ تى ١ : ٣ ، ٤) . . . ثم ذهب بعد ذلك إلى روما عندما دعاه بولس للمجئ وهو فى سجنه الأخير (٢ تى ٤ : ٩ و ٢١) . . ! ! . . على أنه عاد إلى المدينة بعد موت الرسول ، واستمر يخدم فيها حتى استشهد فى أحد أعياد أرطاميس كما يقول تقليد قديم ، وقد قيل إن غايس خلفه فى رعاية الكنيسة ، وقد جاء فى رسالة لأغناطيوس أن أنسيمس ، ولعله أنسيمس آخر خلاف المعروف لنا ، كان أسقفا للكنيسة ، ويقول أغناطيوس إن الكنيسة انتفعت إلى حد كبير برسالة المسيح إليها على لسان يوحنا الرائى ! ! . . .

ومع أننا لا نعلم بالضبط من هو الراعى الذى كان يرعى الكنيسة عندما

جاءته هذه الرؤيا السماوية ، لكنى أعتقد أنه كان سعيداً جداً بمديح المسيح له ، . . . ولعل أول ما أسعده فى الحديث : « هذا يقوله الممسك السبعة الكواكب فى يمينه الماشى فى وسط السبع المناير الذهبية » . . . إذاً فهو فى أفسس فى يد المسيح القوية ، والكنيسة الناشئة فى أفسس ليست متروكة على الإطلاق ، وهى تقف فى مواجهة أرطاميس الوثنية الرهيبة . ولعلنا نستطيع أن نفهم مدى غبطته ،إذا تحولنا إلى منظر مثير حدث فى حياة مارتن لوثر فى مدينة أوجسبرج ، عندما أرسلت روما الكاردينال العظيم كاجيتان ليخرس لسان الراهب الصغير الذى جرؤ على أن يقف ضد البابوية ، . . . وقد قيل إن الكونت ألرخ فون هاتون والذى كان فى البداية مناصراً للكنيسة ، لكنه تحول عنها ليؤيد لوثر ، حضر هذه المقابلة وقال عنها : عندما جاء لوثر إلى أوجسبرج ليواجه الكاردينال كاجيتان الذى أرسلته روما ليسحق الدودة الحقيرة ، كما قال هو لى ، قررت أن أحضر هذه المواجهة المثيرة ، لأرى كيف يقف ابن عامل المنجم أمام العالم الإيطالى والقائد الكبير فى الكنيسة ! ! . . ومع هذا كله كنت أؤمن أن الكنيسة فى حاجة إلى تطهير ، وكنت أعلم أن الكهنة غارقون فى الفساد والدنس ، وأن الأديرة مليئة برهبان يعيشون فى الأوحال والشر . . كنت أعلم هذا كله ، ومع ذلك كنت أحتقر لوثر ، الذى وقف وحده بشجاعة ليتكلم لأجل الله والحق ، ولذلك قررت أن أكون حاضراً عندما يواجه لوثر كاجيتان . . وفى صباح ذلك اليوم قلت للكاردينال : « ماذا ستعمل معه ! ! ؟ . . » فضحك الكاردينال وأجاب : سأجعله يركع على ركبتيه فى خمس دقائق . . وفى خمس دقائق أخرى سأجعله يجرى من أمامى كالكلب المضروب يلتمس الصفح والغفران ، وسأرى هؤلاء الألمان أى نوع من الرجال لوثر هذا ، وماذا يحدث لأى إنسان يجرؤ على الوقوف فى وجه الكنيسة ، وسأريهم أن الكنيسة فى حد ذاتها قانون

تعمل ما تشاء وما تريد ، سأريهم أن البابا إذا أجاز أن يقتل الإنسانأمه ، فإن هذا يصبح واجباً مطاعاً ، . . وسأريهم أن الكاهن إذا كسر القانون الإلهى أو الأرضى فمن واجبهم أن يسكتوا ! ! . . ويستطرد فون هاتون وهو يقول : كان منظراً مثيراً من أعظم المناظر وأكثرها إثارة ، فالراهب الصغير وقف أمام كاجيتان . . ولم يخضع له أو يسقط أمامه ! ! . . صرخ كاجيتان قائلا : اخضع اخضع ! ! . . فقال الراهب : إنى أخضع لكلمة الله . . فقال كاجيتان : من أنت . . ما أنت إلا راهباً صغيراً جاهلا أحمق ! ! . . فصرخ لوثر : برهن لى جهالتى . . فقال كاجيتان : لقد قلت هذا ، وهذا يكفى . . . واعلم أيها الراهب أن أصبع البابا أقوى من ألمانيا كلها . أنه يستطيع أن يسحق الدودة التى هى أنت . . . هل تظن أن النبلاء الألمان يستطيعون أن يحموك ، إنى أقول لك كلا . . وأين تكون أنت حين يتقد غضب البابا ضدك ! ! ؟ . فأجاب لوثر « أكون حيث أنا الآن فى قبضة يمين القادر على كل شىء ! ! . . » . . . ومع الفارق البعيد بين أرطاميس والبابوية إلا أنه واضح أن كلتيهما كانتا القوة الهائلة المفزعة ، وأن ملاك أفسس كان سعيداً كل السعادة أن يتأكد من أنه فى قبضة يمين السيد ، كما اعتقد لوثر سواء بسواء ! ! . . . واعتقد أننا جميعاً ينبغى أن نبتهج ونسر بذلك الذى يمسك بنا فى قبضة يمينه فى مواجهة كافة المتاعب والآثام والشرور والأخطار المحدقة بنا ، وأنه لا يرقب الكنائس من بعيد بل يتمشى فى وسطها . ويهتم بها أكبر الاهتمام وأوفاه وأعظمه ! ! . .

وقد امتدح السيد ملاك أفسس بالقول : « أنا عارف أعمالك » . . . ومن هو هذا الذى يعرف هذه الأعمال ؟ إنه الذى : « عيناه كلهيب نار » . . ومعرفته لا تقتصر على الظاهر فقط ، بل تتغور إلى الأعماق ، . . . عندما تعلم الإنسان التصوير كان يصور الظاهر فقط ، . . . ولكن وجدت بعد

ذلك المدارس التى لم تقف عند حد التصوير الظاهرى ، بل امتدت أكثر إلى الأعماق ، فوجد الفن الذى يجتهد فى تصوير الداخل ، كما أن البيت مثلا من زجاج وتستطيع أن ترى جميع أجزائه الداخلية بكل ما فيها من أوضاع وتفاصيل ، . . وجاءت صور الأشعة التى تكشف ما وراء الظاهر من الثياب أو الجسد العارى ، . . وقدرة المسيح الكاشفة لا تقف عند حدود الأعمال الملموسة التى قد تقع تحت عيون الجميع ، . . لكنها تمتد إلى السرائر والعواطف والمشاعر والنوايا المتغلغلة فى أعماق النفوس والقلوب ! ! . .

وواضح تماماً أن معرفة المسيح لا تقف عند حد الأعمال فحسب ، بل التعب أيضاً ، والمسيح هنا يراقب بإعجاب وحنان هذا التعب ، الذى لم يكن باطلا ، أو بدون تقدير لأنه يقول للملاك : « تعبت من أجل اسمى » (رؤ ٢ : ٣) . . وهو فى الحقيقة التعب الوحيد الذى لا يذهب عبثاً أو هباء فى الأرض ، وقد قيل فى أساطير الأقدمين إن الآلهة لعنت رجلا فحولته إلى حصان لا يعرف الراحة أو الهدوء وهو يدور فى دائرة محددة دون توقف ، والدموع تهطل من عينيه ، وقد يقول الناس إن هذه خرافة ، ولكننا لو تأملنا ملايين البشر الذين يدورون العمر كله فى حلقة مفرغة من التعب والعناء والشقاء دون راحة أو توقف ، حتى يوقفهم الموت عن الحركة ، فينتقلون إلى العناء الأبدى فى الجحيم ، . . . وعلى العكس فإن التعب الوحيد الذى ينتهى إلى الراحة والجزاء الطيب ، هو التعب من أجل السيد : «يستريحون من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ : ١٣) .

وهناك الفضيلة الأخرى التى لها التقدير العظيم عند المسيح وهى فضيلة

الصبر : « وصبرك » . . . وهذا الصبر قد تولد أساساً عن طول التعب أو المعاناة ، والسيد ، من البداية ، يطالب بالصبر : « بصبركم اقتنوا أنفسكم » (لو ٢١ : ١٩) . . ويقول الرسول بولس : « عالمين أن الضيق ينشئ صبراً والصبر تزكية والتزكية رجاء » (رو ٥ : ٣) . . والرسول يعقوب : « عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً وأما الصبر فليكن له عمل تام » (يع ١ : ٣،٤) والرسول بطرس : « وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا فى إيمانكم فضيلة ، وفى الفضيلة معرفة ، وفى المعرفة تعففاً ، وفى التعفف صبراً وفى الصبر تقوى » (٢ بط ١ : ٥ ، ٦) . . إذاً ليس هو مجرد التعب بل التعب الطويل الذى يمتحن الإيمان ، والذى يتزكى بالضيق ، والذى يكشف عن التقوى المتمكنة من الحياة ، وهذه كلها جديرة بإعجاب السيد وتقديره ! ! . . .

على أن هذه كلها لا تعنى برود المشاعر أو جمود الأحاسيس ، بل إن عكسها يظهر فى عدم احتمال الأشرار وبغض أعمالهم واحتقار تصرفهم ، وتتفق مشاعر الملاك هنا مع مشاعر سيده : « ولكن عندك هذا أنك تبغض أعمال النقولاويين التى أبغضها أنا أيضاً » (رؤ ٢ : ٦) . ومع أننا لا نعرف تماماً من هم هؤلاء النقولاويون ، إلا أنه يبدو أنهم جماعة حاولت أن تفسد الإيمان المسيحى ، بالزعم بأنه مادام المسيح قد حررنا من سلطان الناموس ، وأعطانا الحرية ، فإنه لا يجوز لأحد أن يقيدها بقيد ، . . والآداب نفسها لا يجوز أن تكون قيداً على الحرية ، . . ومادام المسيح قد أعطانا هذه الحرية ، فلا عبرة بأى تصرف مادى جسدى ، مادام الإنسان فى روحه يؤمن بالحرية المسيحية التى أعطاه إياه المسيح ، . . وقد حول النقولاويون الحرية فرصة للجسد على الوجه المفسد والمعيب ، . . هذه هى الفلسفة التى أبغضها وحاربها ملاك كنيسة أفسس ، ونالت حربه ضدها استحسان السيد وتأييده وموافقته الكلية ! ! . . .

ولعله من المناسب هنا أن نفرق بين الخاطئ والخطية ، فنحن نحب الخاطئ ونكره الخطية ، ونحن نصبر على الخاطئ ولكن لا يجوز أن نصبر على الخطية ، إن الله نفسه يفعل ذلك ، وقد صورها أحدهم بهذه الصورة إذ قال : ازرع فى حديقة حياتى ، حيث الأشجار الغنية بالثمر ، الأعشاب والأشواك فيرسل الله ريحه العاتية لتقتلع هذه الأعشاب والأشواك ، والريح ليست كراهية من الله لى ، بل كراهية للأعشاب والأشواك فى حياتى ، . . وسيبقى الله على الدوام يحب حياتى المثمرة ، ويريد أن يحررها من الحسك النابت فى أرضها ! ! . . وهنا يلزم أن نعرف الفرق بين الصبر وعدم الاحتمال ، ومجال هذا أو ذاك ، وكيف يمكن التحلى بالاثنين دون أن نعيش حياة التناقض أو الاختلاف ! ! . .

ملاك كنيسة أفسس وعيبه القاتل :

لعله من أصعب الأمور وأقساها أن يقال لرجل له هذه الصفات المتعددة المحبوبة إن به عيباً قاتلا مدمراً ، إذا لم يلتفت إليه ، سيقضى عليه ، وعلى مزاياه جميعاً ، ولعله من الصعب على البشر ، أو على الملاك نفسه أن يفهم هذا العيب ويقدر وزنه على هذه الصورة المروعة المهولة ، وعلى وجه الخصوص لأن هذه المزايا قد تكون غطاء مخادعاً كثيفاً لا يسهل معه تبين القبيح أو العثور عليه ، ولكنها هى الحقيقة الرهيبة التى يكشف عنها ميزان المسيح ، والميزان هنا أشبه بصور الأشعة أو التحاليل المتعددة الدقيقة التى يطلبها الطبيب حتى يتمكن من تحديد العلة على وجه دقيق ، ولم يعد هناك طبيب يعتمد على خياله أو تصوره فى الحكم على الأشياء قبل الرجوع إلى هذه الصور أو التحاليل ، ومن ثم يصبح من أوجب الواجبات ألا نأتمن أنفسنا أو الناس فى الحكم على حقيقة حالنا ، بل تكون صرختنا الدائمة إلى أشعة الله وتحليله الدقيق ، ينبغى أن تقول : « اختبرنى يا الله واعرف قلبى

امتحنى واعرف أفكارى وانظر إن كان فىَّ طريق باطل واهدنى طريقاً أبدياً » (مز ١٣٩ : ٢٣ ، ٢٤) . . . لقد قامت فلسفة اليونانى القديم حول القول : « اعرف نفسك » . . . ولقد قيل ان سقراط قال لأحدهم : أنا أعلم منك ، فأجابه الآخر : وكيف تقول هذا ! ! ؟ . . أجاب : لأنى جاهل وأدركت جهلى ، أما أنت فجاهل ولا تعرف أنك جاهل ! ! . . . . . وقيل إن أحد الضباط مر ذات يوم بالفيلسوف شوبنهور فى حدائق برلين الملكية ، ولم يكن يعرفه فسأله : من أنت ! ! ؟ . . فأجاب شوبنهور : لا أعرف وأكون سعيداً لو أخبرتنى من أنا ! ! ؟ . . وقد تصور الضابط لأول وهلة أنه أمام رجل مجنون حتّى تتبين أنه يتكلم إلى فيلسوف يتفحص أغوار نفسه وأعماقها ! ! . . ومن الملاحظ أن ميزان السيد دقيق وأمين ، وهو لا يعرف البتة المثل القائل : « وعين الرضى عن كل عيب كليلة » ، بمعنى تجاهل العيب أو غض الطرف عنه ، بل إنه يعمل بالأحرى على كشفه وتعـــريته حتّى يسهل القضاء عليه أو التخلص منه ، . . . والعيب القاتل عند ملاك كنيسة أفسس هو الرّاجع عن المحبة : « لـكن عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى » . . . والمحبة بادئ ذى بدء هى أهم الصفات التى يلزم أن يتميز بها المؤمن فى كل تصرفاته ، وهى صفة الصفات إن صح أن ندعوها كذلك ، إذا كنا أبناء الله الذى هو محبة : « الله محبة » . . والله يهتم بها قبل وبعد كل شىء لطبيعة التماثل الذى ينبغى أن يكون بيننا وبينه ، وعودة الشبه والصورة اللذين ضيعتها الخطية منا على الأرض، .. ولأن المحبة فى حد ذاتها هى أساس كل صفة فى الحياة . وقديماً قالت العروس فى النشيد : « اجعلنى كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك . لأن المحبة قوية كالموت . الغيرة قاسية كالهاوية . لهيبها لهيب نار لظى الرب . مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة والسيول لا تغمرها . إن أعطى الإنسان

كل ثروته وبيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً (نش ٨ : ٦ ، ٧) . . . وأية مهانة حقاً أن يعطى رجل أو امرأة ، فى الحياة الزوجية ، للآخر كل شيء دون أن يعطيه المحبة ! ! . . وأية تعاسة يعانيها البشر متى كان تعاملهم بعضهم مع البعض من غير المحبة ! ! . . فإذا قدمنا لله عملا مهما تكن ضخامته أو عظمته ، ولكنه خال من عنصر المحبة ، أو بمحبة متراجعة ، فإنه يحتقر احتقاراً ، . . . ولم يقدم الله أى عمل لنا من غير المحبة ، بل إن عمله الأعظم على الصليب كان : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) . . ولذلك فالله ليس شديد الغيرة على المحبة فحسب ، بل على تزايدها باستمرار أيضاً ، وهو يحض المؤمنين على سباق المحبة بين بعضهم والبعض،وقد قال لبطرس : « يا سمعان بن يونا أتحبنى أكثر من هؤلاء » (يو ٢١ : ١٥) . : والمحبة لازمة وضرورية لكل عمل لأنها زيت المشعل أو المصباح الكامن فى داخلنا ، فإذا تسرب الزيت أو قل ، كان فى ذلك النذير الواضح بالخطر المقترب لانطفاء الجذوة المشتعلة ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا بولس إلى أن ينبه تيموثاوس فى أفسس إلى هذا الخطر من البداءة وهو يقول له : « فلهذا السبب أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التى فيك بوضع يدىَّ » (٢ تى ١ : ٦) . . . ترى هل لاحظ الرسول بدء الذبذبة الروحية لملاك كنيسة أفسس فى ذلك التاريخ المبكر ! ! .. لا نعلم ولكن من المحقق أن الخطر الداهم لأى خادم أو خدمة على الاطلاق هو تراجع المحبـــة ، . . ومع أن هذا التراجع ليس من السهل الكشف عنه بالنظرة الظاهرية ، لكنه معلوم دائماً أمام الله ، والله لا يهمل أن ينبهنا بكافة الصور إلى هذه الحقيقة بين الحين والآخر ، ومن الواجب أن نضع نفوسنا على الدوام تحت عين الله الفاحصة وأمام ميزانه الدقيق ونحن نقول : « أحبك يارب ياقوتى » . . .

ولعله من أهم الواجبات أن نسأل لماذا تتراجع المحبة ، ولماذا تخبو شعلتها ويذوى لهيبها ، . . ان هناك أسباباً متعددة بلا حصر تعمل على إضعاف المحبة أو قتلها فى حياة المؤمنين ، وقد تأتى هذه الأسباب من الانكباب على العمل ، والانشغال الكلى به ،دون قضاء الوقت الكافى فى الشركة مع الله ، والتعبد له ، وقد كانت هذه تجربة مرثا القديمة وهى لا تدرى ، الأمر الذى ميز بينها وبين أختها مريم التى اختارت النصيب الصالح عند قدمى السيد ، . . وقد يرجع الأمر إلى قسوة النضال واشتداده وصعوبة المعركة وضراوتها ، مما لا يتيح للمناضل فرصة السكينة والهدوء والتأمل،ويمكنه من مراجعة المكسب أو الخسارة فى حياته الروحية !! .. وقد يتأتى عن تسرب الروح العالمية إلى حياة المؤمن عند اختلاطه بالأشرار ، واغرائه بشهوات الحياة الحاضرة أو آمالها أو انتظاراتها ، . . . أو قد يكون بسبب قراءات كتب أو كتابات تشجع على الشكوك أو الاستباحة أو الاستهتار أو ما إلى ذلك مما يؤذى سمو الحياة الروحية فى الإنسان ! ! . . .

ومهما يكن الباعث على ضعف المحبة أو تراجعها ، فإن السيد لا يقبل البتة أن تقوم العلاقة بينه وبين أية كنيسة أو مؤمن على غير المحبة ، وقد يرضى الناس عن العمل فى مظاهره أو شكله أو ضخامته أو حركته مادام يعطى الشكل أو الصورة الخارجية دون بحث عن الدافع الداخلى الذى يكمن وراءه ، ولكن الله لا يرضى البتة بذلك، ويكفى أن الرسول يقول فى دفاعه عن أهمية المحبة، وكأنما هى الروح فى الجسد ، فإذا ضاعت فإنما نحن أمام جثمان ميت ليس إلا : « إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا يرن وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً وإن أطعمت كل أموالى وإن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة

فلا أنتفع شيئاً (١ كو ١٣ : ١ — ٣) . . . وفى الحقيقة إن الكنيسة مهما تبدو عليه من منظر فخم عظيم أو حركة دءوب أو عمل متسع دون محبة ، فهى والموت سواء فى نظر الله ، . . . فإذا حدث هذا فهى فى خطر داهم وبلاء عظيم قد يودى بها إلى الضياع والتلاشى ، وهذا هو التفسير الوحيد لقول الله لملاك أفسس : « وإلا فانى آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتب » ، وهذا هو التفسير لكثير من الكنائس التى كانت شامخة فى يوم من الأيام ، ثم تحولت مع الزمن أطلالا لا دارسة ، لأنها فقدت معنى وجودها أمام الله بضياع المحبة ، فسمح الله نفسه بتحطيمها ، لأنها حطمت بالفعل العلاقة الوحيد الأساسية بينه وبين كل كنيسة . فإذا ناح الناس على الكنائس التى كانت يوماً من الأيام فخر تاريخها ، وملء سمع الدنيا بأكملها ،فستكون دهشتهم بالغة يوم يعلمون بأن الله هو الذى فعل ذلك وليس غيره ، لأنه جرح بعمق فى قلبه ، كما يجرح الزوج بخيانة زوجته .

« ومن ثم فان الله وقد رأى هذا التراجع فى خادمه وفى الكنيسة ، كان لابد رغم المدح ، الذى ذكره له فى الابتداء أن ينبهه إلى الخطية التى يلزم أن يدرك بشاعتها ، حتى ولوظنها شيئا يسيراً ، وهو لا يمكن أن ينتصر عليها إلا بالتوبة إلى الله والاعتراف بشفاعتها : « إن لم تتب » . . . ترى هل يستطيع المؤمنون إدراك بشاعة الحياة بلا محبة فى نظر الله ! ! . . .

ملاك كنيسة افسس وجزاء الغالب المنتصر :

ولعله من اللازم الاشارة إلى أن السيد سجل جزاء محدداً لكل منتصر من ملائكة الكنائس السبعة ، وهو يبدأ هنا بطعام الحياة الأبدية فى فردوس الله ، أو فى لغة أخرى أنه يرد له ما فقده فى جنة عدن ، عندما طرد من الجنة ووضع لهيب سيف متقلب لحراسة الطريق إلى شجرة الحياة ، وكان لابد أن يوضع الملاك بسيفه النارى حتى لايأكل الإنسان من الشجرة ، وهو

خاطئ ، ويحيا ، فتتحول الحياة له عذاباً لايوصف ، وهو ما سيصل إليه الخطاة فى الجحيم الأبدى، كلا فالحياة فى الخطية على الدوام، كحياة المعذب المتألم فى فراش مرضه ، وهو يطلب الموت ، لعله يستريح ، أو الممزق النفس والمشاعر والقلق الذى لا يهدأ قلقه أبداً فيعمد إلى الانتحار لأنه لايستطيع الحياة على الصورة التى يحياها ، والموت فى تصوره أهون وأيسر ، ... والفردوس فى الصورة البشرية ، هو الحدائق الغناء التى أبدعها الفرس ، وأطلقوا عليها هذا الاسم ، وتحولت رمزاً للجنة الموعود بها للمؤمنين ، والصورة التى يمكن أن يتخيلوها عن الحياة الأبدية مع الله ، .. وإذا كانت الخطية قد أفقدت الإنسان الفردوس القديم ، فإن المسيح « المخلص » هو وحده الذى يعيد إليه هذا الفردوس المجيد مرة أخرى ، ومن ثم رأيناه يحققه للص التائب بالقول : « اليوم تكون معى فى الفردوس » (لو ٢٢ : ٤٣) ... ولا يختم الرائى رؤياه ، حتى نرى الموكب البشرى من المفديين ، وقد تحقق له هذا الأمل الموعود، .. والجزاء لا يمكن أن يعطى إلا للجندى المحارب، فهو لا يبذل لعاطل أو نائم أو متقاعس عن الخدمة أو منصرف عنها ... فإذا ما سألنا وما هى شجرة الحياة ، وما ثمرها الذى سيأكله المؤمنون ، فى وسط فردوس الله ، .. كان علينا أن ندرك أن هذا الثمر ليس مادياً بحال من الأحوال لأن « لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ، ولا يرث الفساد عدم الفساد » ، (١كو ١٥ : ٥٠) . . . إن شجرة الحياة هى المسيح نفسه ، والحياة الأبدية فى بهائها العظيم الذى لا ينطق به ولا يسوغ للسان البشرى أن يتحدث عنه ، ليست إلا الحياة التى يمنحها المسيح للمفديين إلى أبد الآبدين، وفى الحقيقة لا حياة إلا بالمسيح وفيه وبروحه وبالشركة الدائمة الأبدية معه ،

والمسيح غذاء المؤمنين وطعامهم الأبدى ، وكما لا تقوم الحياة فى الأرض بدون طعام ، كذلك لا يعيش المؤمنون فى الأبدية بدون المسيح ، ومن ثم يلوح المسيح لملاك كنيسة أفسس بهذه الحياة فى حال الانتصار : « من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التى فى وسط فردوس الله » ..... (رؤ ٢ : ٧) ! ! . . .

١٥٥
ملاك كنيسة سميرنا

«كن امينا الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة»
(رؤ ٢ : ١٠)

لا يستطيع المرء أن يذكر كنيسة سميرنا ، دون أن يذكر أسقفها العظيم بوليكاربوس تلميذ الرسول يوحنا ، والرواية الغالبة عن استشهاده ، أنه استشهد بعد الظهر فى يوم سبت ، فى عام ١٥٦ م . . ومع أن اليهود يحرمون العمل أوحمل شيء يوم السبت ، إلا أنهم فى ذلك اليوم خرجوا على القاعدة ، وجدوا فى البحث عن الحطب والأخشاب التى جمعوها كومة كبيرة لحرق الرجل فى أستاد سميرنا ، وقد قيل إنه تم حرقه مع أحد عشر آخرين من فيلادلفيا ، ولكنه كان الشهيد الأعظم فى نظر الجماهير من أصدقاء أو أعداء على حد سواء ! ! . . . وبعد أن وضع مربوطاً إلى عمود ، وقبل أن تشعل النيران ، عرض عليه العفو بشرط أن ينكر المسيح أو يجدف عليه ، ولكن الرجل صاح فى زئير كزئير الأسد : لقد خدمته ستة وثمانين عاماً دون أن

يصنع بى شراً ، فكيف يمكن أن أجدف على ملكى ومخلصى ! ! واشتعلت النيران ، وطوته اللهب ، هو وغيره من الشهداء ، ليصبحوا شعلات خالدة على مدى القرون والأجيال ، لانارة الدرب الإنسانى المظلم ، أو كما قال لايتمر لزميله ردلى،وهما يحرقان لشهادتهما للحق : كن بخير ياردلى فإننا سنضئ فى إنجلترا كمشعل، بنعمة الله لن ينطفىء أبداً ! ! ومن العجيب أن الكنيستين اللتين لم يوجه إليهما المسيح لوما بين الكنائس السبع وهما كنيسة سميرنا ، وكنيسة فيلادلفيا كانتا أكثر الكنائس تعرضاً للضيق والتجارب ! ! ... ، وإذا كان لنا أن نتأمل ملاك كنيسة سميرنا الآن ، فإننا سنلاحظ أن قصته مليئة بالمفارقات العجيبة، والتى يصح فيها القول إنه « بضدها تعرف الأشياء » ، وهى من هذه الناحية ، متميزة الطابع عن غيرها من الكنائس الأخرى على النحو التالى :

ملاك كنيسة سميرنا الفقير الغنى :

وأول المفارقات الواضحة فى قصة هذا الرجل أنه فقير معدم ، وغنى بالغ الثراء ، . . وقد اجتمعت فيه الخلتان على نحو عجيب، ولا نستطيع أن نفهم ذلك قبل أن ندرك أن سميرنا كانت واحدة من أجمل مدن أسيا الصغرى ، وتقع إلى الشمال من أفسس على بعد أربعين ميلا ، وهى مايطلق عليها « أزمير » فى الوقت الحاضر ،وقد تعرضت المدينة لغزوات كثير من الملوك كما للزلازل المدمرة ، وما أكثر ما هدمت وأعيد بناؤها ، وهى واحدة من سبع مدن تتنازع على مولد الشاعر الإغريقى هوميروس ، ويقول عنها استرابو إنها كانت أجمل المدن، . . ويصفها آخرون بأنها زينة أسيا الصغرى، وكانت تتعبد « لباخوس» اله الخمر والمسكر ، إذ كانت تحيط بها السهول الخصبة المليئة بالكروم ، والتى تمد المدينة بأجمل وأعتق المشروبات المسكرة ، وقد عاش فيها الغنى الفاحش والفقر المدقع جنباً إلى جنب ، ويعتقد أن الذين

آمنوا بالمسيحية فيها كانوا من الطبقات الفقيرة أو المعدمة أو التي لم يكن لها حظ كبير من الغنى المادى فى العالم ، ولكن هذا الفقر رغم شدته وقسوته لم يجردهم من الغنى الحقيقى الذى ملأ نفوسهم ، ومن ثم يقول السيد لملاك سميرنا : « أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك . مع أنك غنى » (رؤ ٢ : ٩) وهذا يطرح السؤال الهام الذى يواجه الإنسان أو ينبغى أن يواجهه فى كل جيل وعصر : ما هو الفقر أو الغنى وما حقيقتهما فى الحياة ! ! ؟ . . قد نستطيع الجواب على ذلك إذا ذكرنا أن سميرنا خضعت للعديد من الغزاة فى العصور المختلفة من التاريخ ، ومن بينهم الليديون ، وكان كريسوس ملك ليديا من أغنى الملوك فى العصور قاطبة ، وكانت ثروته تتجاوز خيال الإنسان ، وكان يباهى الجميع بما لديه من كنوز تخلب اللب ، وكان يظن نفسه أسعد الناس على وجه الأرض ، . . . وإذ سمع عن حكيم يونانى اسمه صولون ، له القدرة العظيمة على تقييم الأشياء والأوضاع أرسل إليه يدعوه إلى بلده ، وطلب من خدمه أن يفتحوا أمامه القصور والأبهاء والذخائر والكنوز ويروه كل شىء ، ثم أحضره بعد ذلك إلى مجلسه ، وسأله : من تظن يا صولون أسعد الناس على الأرض ، متوهماً أن صولون سيردد فى الحال : أنت ولا غيرك ! ! . . . ولكن صولون — على العكس — حدثه عن رجل عادى جداً فى أثينا ، لم يكن يملك الكثير من متاع الدنيا ولكنه على ما قال الحكيم اليونانى عاش حياة هادئة ناعمة مليئة بالراحة والاستقرار والإثمار ، وكان له أبناء رباهم تربية صالحة فخرجوا مواطنين نافعين يبذلون الجهد لأجل بلادهم وللآخرين ! ! . . إلى أن انتهت حياته فى هدوء وسلام دون أن يزعج أحداً أو يتعب أحداً أو تتحول حياته إلى مأساة للآخرين ! ! . . فقال الملك : ومن تعتقد أنه الثانى فى السعادة ؟ فأجاب : أخوان أحب كلاهما الآخر حباً شديداً ، وأحبا أمهما حباً مفرطاً ، وعملا على راحتها من كل

جانب ، وإذ رغبت الأم أن تذهب لتتعبد للآلهة ، أجلساها فى عربة ، وإذا لم يكن هناك جواد يجر العربة ، جراها أميالا طويلة حتى بلغا بها المعبد ، ومن فرط الإجهاد ماتا ، فحملتهما الآلهة إلى السماء ! ! . . . وكانت الأم شديدة الغبطة وفخورة بولديها العظيمين ! ! . . . وإذ انساق صولون فى وصف هذه الصورة ، صاح به كريسوس : إلى هذا الحد تستخف بعظمتى ومجدى وجلالى وثروتى ! ! ؟ . . فنظر إليه الحكيم مشفقاً متأنياً وهو يقول : ومن قال إن الثروة تجلب السعادة . ومن قال أيضاً إنها مضمونة البقاء وتظل مع صاحبها إلى نهاية الحياة ؟ ! ! . . ولم تعجب الإجابة الملك فصرف الحكيم فى غضب شديد ، . . . وكان للملك كريسوس ابن وحيد عزيز عليه ، وذات يوم خرج مع اتباعه للصيد فى احدى الغابات ، وعادوا به محمولا على الأعناق لأن أحد هؤلاء الأتباع وهو يصوب سهمه إلى خنزير برى أخطأه وأصاب ولى العهد واستقر فى قلبه وقتله ، . . وبعد سنوات قليلة هاجم كورش الفارسى المملكة واستولى على جميع الذخائر والكنوز وأمر بحرق الملك ، وعند وضعه على كومة من الأخشاب ، وقبل أن توقد النيران صرخ : صولون ، صولون ! ! . . وإذ سمع كورش هذه الصرخة ، طلب أن يفك وثاقه ، واستفسر منه عما يقول ، وقص على الملك قصة صولون معه ! ! .. وقيل إن كورش عفا عنه لئلا يحدث معه ذات الشيء ! ! ... وقفت سيارة فخمة فارهة أمام بيت أمريكى ، ونزلت منها سيدة غنية صديقة للأسرة ، وبعد أن أتمت زيارتها ، خرج رب البيت وزوجته ليودعاها عند الباب ، وما أن غابت السيارة عن الأنظار حتى قالت صاحبة المنزل لزوجها : سنكون يوماً أغنياء ولنا مثل هذه السيارة ! ! . .فقال الزوج : ماذا تقولين يا عزيزتى ! ! . . نحن الآن أغنياء ! ! . . يمكن أن تقولى : عندما يكون لنا مال سنشترى مثل هذه السيارة ، لكن الغنى لا يتوقف على المال ، إذ

نحن أغنياء بحبنا وسعادتنا وشركتنا وهدوء بالنا ! ! . . . مثل هذا الرجل يدرك الفارق بين المال والغنى ، فليسا كلاهما بالضرورة متلازمين ، فما أكثر الأغنياء الفقراء ، والفقراء الأغنياء ، . . فقد يكون للرجل أكداس من الذهب ، ولكنه أشبه بذلك الغنى الإنجليزى البخيل صاحب المزارع الواسعة ، وقد جاءه ذات يوم أحد الفلاحين وكان مستأجراً لقطعة أرض ، ليدفع ما عليه من إيجار ، وبعد أن دفعه ، قدم شلنا آخر للمؤجر على أن يسمح له مقابل ذلك بالتفرج على القصر ومابه من تحف وكنوز ، وأخذ الغنى الشلن وسمح له ، وعند باب الخروج قال الفلاح لصاحب القصر : لقد تساوينا تماماً إذ أنك لا تزيد عنى كمتفرج على هذه الثروة ، . . وما أكثر الذين لا ينتفعون أو ينفعون أكثر من أن تتكدس ثرواتهم ويزيدون منها ، ويقفون منها موقف المتفرج إلى أن يواريهم التراب ، وثوب الكفن لا جيوب له كما يقولون . وليت الأمر وقف عند هذا الحد الحيادى بين الفائدة والضرر ، لكنه أكثر وأشنع « لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة » (١ تى ٦ : ١٠) والروايات فى ذلك بدون عدد أو حصر ، فهذا الغنى الذى كان يرفض إيداع أمواله فى البنوك ، ويضعها فى خزائن حديدية يحرسها كلب ضخم ، ومات الكلب على ما تقول الرواية ، واستخسر شراء كلب آخر يحل محله ، فكان ينام مكان الكلب ليتولى حراستها بنفسه ، ... والآخر الذى كان حاكماً للمدينة ، ومع ثروته الطائلة ، كان لا يود أن يدفع ثمن الافطار ، فأمر بأن يمر به باعة اللبن فى صف طويل ليتأكد بتذوقها من خلوها من الغش ، وقد وضع فى درجة رغيفاً من الخبز ليأخذ لقمة مع كل تذوق للبن ! ! . . أو الثالث الذى قيل إن نبضه كان يرتفع وينخفض مع ارتفاع الأسعار فى البورصة أو انخفاضها ! ! . . وما إلى هذه الأمثلة الصحيحة أو الموضوعة ،

من صور لمايفعل المال فى حياة حائزيه ومحبيه ، . . تاهيك بعد ذلك عما يسببه فى العالم كله من صراع وقتال وحروب ودمار على مستوى الأفراد أو البيوت أو الجماعات أو الأمم ، . . لقد تحول عند الناس سيداً يزاحم الله فى كل شئ ، أو كما قال السيد : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ! ! . . . » (مت ٦ : ٢٤) لقد قصد الناس من ورائه الراحة والغنى ، فتحول لهم فقراً وعذاباً من كل جانب ! ! . . وعلى العكس من هذا كله ، فإن هناك الفقراء الذين ساروا فى الأرض وراء ذاك الذى لم يكن له أين يسند رأسه ،ومع ذلك كانوا يملكون الغنى الحقيقى ،وسواء كانوا يملكون الملاليم أو الملايين ،فإنهم أغنياء بغنى النفس التى عثرت على الكنز الصحيح للحياة الحاضرة والعتيدة معاً ، . . لست أعلم متى غنى داود المزمور الثالث والعشرين ، وهل غناه وهو فقير فوق بطاح بيت لحم ، أو عندما أصبح ملكاً يمتلك الكثير من الذخائر والكنوز ، لكنى أعلم أن الصبى الفقير أو الملك العظيم ، هو.هو بعينه الذى قال : « الرب راعىَّ فلا يعوزنى شئ . فى مراع خضر يربضنى إلى مياه الراحة يوردنى » وهو فى الحالين غنى بالله ، سعيد بالشركة التى تربطه به ، يعيش فى أرضه الخضراء ومياهها المروية ،لأنه يعيش فى رعاية الله الذى يعطيه كل شئ بغنى للتمتع ، . . كان ملاك سميرنا غنياً بهذا المعنى ، غنى الإيمان والحب والرجاء والقناعة ، والقدرة على التوزيع من بركات الله الروحية التى لاتحصى والتى يحتاجها غيره من الفقراء أو الأغنياء على حد سواء ! ! . . .

ملاك كنيسة سميرنا المتضايق السعيد :

إن ملاك سميرنا يذكرنى بتلك الفتاة التى جاءتها سيدة تزورها فى منزلها وكانت السيدة آية من آيات الهدوء والسلام وصفاء النفس والراحة ، وقالت الفتاة لضيفتها : إنى مستعدة أن أعطى العالم كله نظير الحصول على هذا السلام الذى يملك حياتك ويسيطر على نفسك ، وأجابت الأخرى : وهذا

بالضبط الثمن الذى دفعته يابنيتى ! ! . . . لقد تحول ملاك سميرنا من معسكر الشيطان فى المدينة إلى معسكر المسيح ، وكان لابد أن يدفع الثمن ، ولكنه وقد دفعه كاملا ، جاءه الضيق البالغ والسعادة الكاملة ، وهى المفارقة الثانية العجيبة فى القصة ! ! . . كان أهل سميرنا يتعبدون لباخوس إله الخمر ، وكانوا يجرعون كؤوس الخمر على أمل أن يمنحهم المسكر البهجة والسعادة ، . . ولكنهم مع ذلك كانوا يعيشون الحياة المريرة التى يعيشها إنسان العالم ، وهم يشربون ويسكرون على أساس ماقالته أم لموئيل فى حكمتها القديمة : « أعطوا مسكراً لهالك وخمراً لمرِّى النفس.يشرب وينسى فقره ولا يذكره تعبه بعد » (أم ٣١ : ٦ ، ٧) . . . وما الادمان فى كل صوره فى حياة الناس إلا هذه المحاولة المستمرة للقضاء على الهم والغم والمعاناة دون جدوى ! ! . . . وعلى العكس من هذا هناك الجماعات التى عرفت الينبوع الخفى للسعادة الدائمة ، رغم قسوة الظروف المـــادية التى تحيط بهم ، . . والسيد لا يريدنا أن نقف عند مجرد الظاهرة فى حد ذاتها ، بل يكشف لنا عن السر الخفى الذى يكمن خلفها ! ! . . . وهو يفتح عيوننا على ما يجرى فى العالم الخفى غير المنظور ، فيرى الشيطان وهو يتحرك ويعمل ، وما الناس والأحداث إلا أقنعة يعمل خلفها ويتستر وراءها ، فإذا رأيت إنساناً يجند نفسه وقواه للبطش بالآخرين ، ولا يهدأ أو يستريح قبل التنكيل بهم من دون جريرة ارتكبوها أو شر فعلوه ، . . فلا تنظر فقط إلى هؤلاء الأشرار ، بل تغور إلى الداخل تجد الشيطان يعيش فيهم ، ويطل من عيونهم ، ولا فرق فى ذلك بين أن يظهر مكتسياً ثوباً اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً ، فهو فى حقيقته الشيطان كيفما يظهر ويبين .

كان بالمدينة عدد كبير من اليهود الأشرار المتعصبين ضد المسيحية وكانوا يجندون كل قواهم للقضاء على المسيحيين هناك ، وكانوا يجدفون على

الاسم الحسن ، بالقول بأن هؤلاء هم أتباع ذاك الذى علقوه على الصليب عندما حكموا عليه بالموت فى أورشليم ، . . . ولم يكن المجمع الذى يجمعهم على ما تعودوا فى فلسطين « مجمع اليهود » بل كان فى حقيقته ، وقد استولى عليه الشيطان استيلاء كلياً : « مجمع الشيطان » . . . وما أكثر المجامع الدينية التى تملأ الأرض فى كل العصور ، والتى ليست فى الواقع إلا مجامع الشيطان ، فهو الذى يرأسها ، ويقرر أمورها ، ويدبر مؤامراتها ، ويقود كل ما تصنع من إفك وإثم وشر بين الناس ، . . . . والمسيح هنا يرينا قدرة الشيطان ، ولكنها القدرة المحدودة ، وهو يدخلنا إلى العالم الروحى غير المنظور ، فنرى الشيطان لا يعمل عملا بعيداً عن دائرة سماح الله وحكمته العجيبة ، وهو يظهر هنا فى قدرته : « هوذا ابليس مزمع أن يلقى بعضاً منكم فى السجن لكى تجربوا » . . . . (رؤ ٢ : ١٠) ونحن لا نستطيع أن نبصر هذه القدرة بعيداً عن الصورة التى ظهرت فى قصة أيوب : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم . فقال الرب للشيطان من أين جئت . فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان فى الأرض والتمشى فيها فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب لأنه ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر . فأجاب الشيطان الرب وقال هل مجاناً يتقى أيوب الله . أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية . باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض . ولكن أبسط يدك الآن ومس كل ماله فإنه فى وجهك يجدف عليك . فقال الرب للشيطان هوذا كل ماله فى يدك . وإنما إليه لا تمد يدك. ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب » (أى ١ : ٦ — ١٢)... ونفس الأمر حدث يوم الصليب : « وقال الرب سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى

رجعت ثبت إخوتك » (لو ٢٢ : ٣١ ، ٣٢) . . . فإذا لم يكن من الميسور معرفة الحكمة الإلهية العالية من التجارب فى وقتها ، أو حتى فيما بعد ، إلا أننا نؤمن أن سماح الله للشيطان بها يصدر عن حكمة عجيبة تفوق العقول ، . . وفى الوقت عينه يضع الله حدوداً لها لا يستطيع الشيطان أن يتجاوزها أو يتخطاها ، وهو هنا فى سميرنا سمح له أن يلقى فى السجن ببعض المؤمنين ، ولكن لمدة عشرة أيام ، . . . وليس المقصود بالعشرة الأيام أنها عشرة أيام حرفية أو عشرة أسابيع أو أشهر أو سنين ، لكن المقصود بها فترة محددة قصيرة معينة من الله ، ولا يقدر الشيطان أن يتجاوزها بدقيقة واحدة من الزمن ، . . والأهم من هذا هو مصاحبة السيد لعبيده المتألمين خلال فترة التجربة : « لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به » (رؤ ٢ : ١٠) . . قيل عن أحد الأساقفة الإيطاليين إنه عانى من الظلم والاضطهاد والضيق دون أن يشكو أو يتذمر وإذ سأله صديق كيف أمكنه أن يحتفظ بالهدوء والصفاء رغم هذه الظروف التى تجمعت ضده قال : إننى أستعمل نظرى جيداً فأنتصر على الصعاب إذ عندما يواجهنى الضيق أرفع نظرى إلى فوق وأعلم أن واجبى الأول هو أن أسعى ليكون مكانى هنالك ، ثم أنظر إلى أسفل إلى الأرض وأعلم بأنى لن آخذ منها ورائى سوى قطعة صغيرة أثوى فيها ، وأنظر حولى فأجد الكثيرين الذين لهم ظروف أقسى ، فأعلم بأن حالى يفضل حال الكثيرين ممن لايحصيهم العد ، وهنا أجد تعزيتى وصفائى ! ! . . .

ومما لا شبهة فيه على أية حال هو أن الآلام كثيراً ما تتمخض عن فوائد لاتعد ولا تحصى فى حياة الناس ، فهى مصنع الأبطال والعظماء ، وكثيرون من أعاظم رجال التاريخ كانوا يئنون تحت آلام قاسية ، ولكن هذه الآلام لم تضعف من عزيمتهم أو توهن من إرادتهم فالتاريخ يذكر أن يوليوس قيصر والاسكندر الأكبر وسقراط وموليير وريشيليو وديستوفسكى ونابليون

كانوا مصابين بالصرع ، كما أن الامبراطورة كاترين قد أصيبت بتشويه استمر معها ستة وعشرين عاماً ، ولا ننسى أن هوميروس وملتون كانا أعميين ، ولكن هؤلاء جميعاً سجل التاريخ أسماءهم بحروف بارزة رغم آلامهم الجسدية ، وقد لا يعلم الكثيرون أن جراهام بل مخترع التليفون كان مدرساً فى مدرسة الصم،وهناك وجد فتاة ثقيلة السمع ، وأحبها ، وأراد أن يتغلب على صعوبة سمعها فاخترع التليفون ! ! . .

على أن السعادة البالغة لملاك كنيسة سميرنا المتضايق تأتى أساساً من القضية التى يتألم من أجلها ، وهو لا يمكن إلا أن يكون سعيداً ، متى كانت القضية قضية السيد الذى يستعذب من أجله الألم فى الأرض ! ! . . ألم يحدث هذا مع الرسل يوم قيل عنهم : « وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه » (أع ٥ : ٤١) . . . لقد خرجت المسيحية من قلب الضيق وفى أعماقه بالترنم والأغنية التى أذهلت العالم فى فى كل العصور ! ! . . .

ملاك كنيسة سميرنا الميت الحى :

وملاك كنيسة سميرنا يقف على العكس تماماً من ملاك كنيسة ساردس الذى قال له السيد : « إن لك اسماً أنك حى وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) . . . وهنا نرى العكس تماماً ، هنا الميت الحى ، وإذا كان المنتصر فى كنيسة أفسس له طعام الحياة ، فإن المنتصر فى سميرنا له اكليل الحياة ، أو التاج الذى يضعه السيد على مفرقه ، ولا ينزع منه إلى الأبد ! ! . . . كانت مدينة سميرنا تعيش على أسطورة كاذبة إذ كانت تعبد صنماً اسمه ديونسيس ، وقد قيل إنه مات ، ولكنه قام للحياة مرة أخرى ، كما أن المدينة نفسها وهى تتعرض للدمار أكثر من مرة سواء بفعل الغزاة ، أو بفعل الزلازل ، كان يقال عنها

بأنها المدينة التى ماتت وقامت مرة أخرى ، وكانوا يضعون فى المبانى وعلى أعلى الأجزاء فيها رسم تاج يقال إنه تاج سميرنا ، . . وقد تحرر المؤمنون من هذه الخرافات ، ليتجهوا صوب الحق الذى تحدث إلى ملاك هذه الكنيسة وهو يصف نفسه : « الأول والآخر الذى كان ميتاً فعاش » . . . وهو لا يقصد بذلك أن يبدد الخرافات التى سادت عندسكان المدينة فحسب،بل بالأحرى لكى يؤكد أن الاضطهاد الذى ينتهى إلى الموت ، لايضع ختاماً للحياة ، بل يتحول فى اشراق أعظم إلى مجد الخلود ! ! . . . وهنا نأتى إلى إلى المفارقة الثالثة العظيمة عند هذا الملاك ، وهى مفارقة الميت الحى وهذا يظهر فى وضوحه الكامل فى قصة بوليكاربوس الذى استشهد من أجل سيده ، . . وقد قيل إنه إلى جانب الصرخة التى سجلناها فى مطلع الحديث عن ملاك كنيسة سميرنا ، رفع صلاته إلى السيد قائلا : « يا أبا ابنك المحبوب يسوع المسيح أباركك لأنك حسبتنى أهلا لهذا اليوم وهذه الساعة وأشكرك لأجل الرجاء اليقينى والحياة الأبدية فى السماء . أحمدك أيها الآب لأجل الفوائد الكامنة فى خلاص النفوس الذى أعطيتنا إياه ، وأمجد اسمك فى شفاعة رئيس للكهنة الأبدى يسوع المسيح الذى به وفى الروح القدس لك المجد من الآن وإلى الأبد آمين ! ! . . .

إن هذا الملاك القديم فى استشهاده وصلاته ، أعطانا تجسيداً حيا للقول : « كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة ، من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس . من يغلب فلا يؤذيه الموت الثانى »(رؤ ٢ : ١٠ و ١١) ... لقد وقف على طريق الحياة ، وسار أميناً ، فأخذ إكليل الحياة وتجنبه الموت الثانى ! ! . . . ولعله من اللازم أن نقف هنا قليلا أمام تعبير الأمانة ومدلولها ، وتكاليفها ، وممارستها ، ومجدها ، . . والأمانة تعنى الدقة البالغة فى التصرف ، وهى تنبع أساساً عن خلال وصفات يلزم أن تتمكن من الأمين حتى يتممها

على الوجه الأكمل ، ولعل أولها الحب ، والحب الكبير ، فالأمين هو الذى يرى نفسه تجاه واجب مقدس يفرض الحرص عليه بكل مقوماته الجسدية والنفسية والروحية، وإذا كانت رصفة سرية شاول وقد ولدت له ولدين مع خمسة من أبناء ميرب ابنة شاول وقد التزم داود أن يقدمهم تكفيراً عن العهد المكسور تجاه الجبعونيين وصلب السبعة ، وجاءت رصفة أمام جثة ولديها تسهر ليلا ونهاراً دون تخاذل أو نوم حتى لا تترك ولديها فريسة للوحوش أو الطيور ! ! . . .

ومن الواضح أن الأمانة ليست شيئاً هيناً ، بل تتطلب الشجاعة الفائقة ، .. عندما وقف لوثر أمام أعدائه فى مجمع ورمس ، لم يكن أحد إلى جواره ، وعندما طلب إليه أن يجيب جلجل صوته بالقول : ليس من السلامة أو الحرص أن تفعل شيئاً ضد الضمير . . ها أنذ أقف فساعدنى يا إلهى فإننى لا أستطيع أن أفعل غير ذلك ، كان احتمال الحياة أمامه ضعيفاً جداً ، ومع ذلك وقف الرجل العظيم كأسد يزأر فى الغابة مستنداً إلى رحمة الله . إن الأمانة تمنح صاحبها قدرة على المغامرة ، وقبول التحدى ، ونبذ الشئ غير المرضى ، والتضحية فى سبيل الهدف مهما كلف ذلك . . قال تشرشل لا نستسلم أبداً أبداً فى أى شئ صغر أم كبر ، عظيماً كان أم تافها ، لا نستسلم أبداً إلا لما هو شريف ونبيل . . . وفى سنة ١٨٥٨ كان إبراهام لنكولن يقدم نفسه للانتخابات فى مجلس الشيوخ الأمريكى وقد حذره أصدقاؤه من إلقاء خطاب معين ورد إبراهام بالقول : « إذا كان مقدراً لى بسبب هذا الخطاب أن أهزم ، فدعونى أواجه الهزيمة مرتبطاً بالشرف والصدق ، وهزم فعلا ، .. ولكنه أصبح بعد ذلك رئيساً للجمهورية ! ! . . .

فى الحقيقة إن أرهب موت هو الموت الثانى الذى تنفصل فيه النفس إلى الأبد عن حضرة الله ، أما موت الجسد الذى ماته بوليكاربوس ، فانه انتقال إلى

ما هو أفضل ،..وعظ الواعظ المشهور بيتر مارشال عظة أفضل أن نختم بها حديثنا وكانت بعنوان : « انزل أيها الموت » فروى قصة الولد الصغير الذى كان مريضاً مرضاً غير قابل للشفاء ، وقد خدمته أمه خدمة مستمرة يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، على أن الولد أدرك أخيراً أنه لن يعيش ، ففى أحد الأيام سأل أمه بكل هدوء : أماه ما معنى أن نموت ، وماذا يشبه الموت ، وهل فيه ألم ، وملأت الدموع عينى الأم وركضت نحو المطبخ وهناك اتكأت على الجدار ، ورفعت صلاة حارة : « يارب أعطنى الجواب على السؤال » . . . وعادت الى غرفة الابن وقالت : هل تذكر يابنى عندما كنت ولداً صغيراً ، كنت أحياناً تجهد من كثرة اللعب وتعود إلى البيت فى غاية التعب ، فلا تستطيع أن تخلع ثيابك ، بل تنطرح فى فراش أمك وتستغرق فى النوم ، لم تكن الفراش فراشك ولكنك كنت فى الصباح تستيقظ فتجد نفسك فى غرفتك وفى فراشك إذ جاء أبوك وبيديه القويتين نقلك ! ! . . هكذا يشبه الموت . إننا نستيقظ فى الصباح فنجد أنفسنا فى غرفتنا الخاصة إذ نقلنا يسوع لأنه يحبنا ، . . وبعد أسابيع نام الولد كما قالت أمه ، . . ويقول مارشال : إننا يمكن أن نضيف شيئاً آخر : عندما استيقظ الغلام فى الصباح كان الألم والضعف الذى تسبب من المرض قد فارقاه إلى الأبد . وأشياء أخرى ستفارقنا فى ذلك الصباح ، موكب المخاوف الذى لا ينتهى ، المخاوف التى عذبتنا ليلا ونهاراً ، مرارة الفشل والهزائم ودموع الأحزان . . . حتى يشرق علينا الضياء الأبدى ، من شمس البر العظيم ونحيا الحياة المجيدة التى تتوج باكليل الحياة الخالد أمام الله ! ! . . .

١٥٦
ملاك كنيسة برغامس

« أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسى الشيطان وأنت متمسك باسمى » (رؤ ٢: ١٣)

من المؤكد أن أقوى سيف فى يد المسيحى فى كل العصور والأجيال ، هو سيف الروح أى « كلمة الله » ، وهو السيف الذى غزت به المسيحية العالم ، وسيطرت على الأفكار والقلوب فى كل التاريخ ، ومن المؤسف أنها يوم طرحت هذا السيف ، واستبدلت به سيفاً آخر ، سقطت قروناً عديدة فى الظلام فى القرون الوسطى ، لقد حملت سيف العالم لمدة قرنين من الزمان ، وباءت بالفشل فى الخارج ، يوم ظنت أنها تخضع الممالك تحت ظلال الصليب بالمعارك والحروب ، وكان درساً تعساً لا ينسى ، . . . ومن المؤسف أيضاً أنها عجزت عن أن تعى الدرس فى الداخل يوم ظنت أنها تستطيع مقاومة الاصلاح باستخدام القوة ضد المؤمنين بالكلمة الإلهية ، وسحقه بالبطش والطغيان ، . . وكان قميناً بها أن تعرف أن المسيح نهاها منذ

يومها الأول عن الالتجاء إلى السلاح البشرى يوم قال لبطرس عندما جرد سيفه للدفاع عنه يوم الصليب : رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (مت ٢٦ : ٥٢). إن سلاحها الوحيد الدائم الذى يجب أن تحارب به ، هو الكتاب المقدس ، كلمة الله الحية الفعالة والأمضى من كل سيف ذو حدين،وهو ما يقوله هنا المسيح لملاك كنيسة برغامس إذ رام أن ينتصر فى الداخل وفى الخارج على حد سواء : « وأحاربهم بسيف فمى » (رؤ ٢ : ١٦).وكم يكون من المفيد جداً أن نتأمل قصة ملاك كنيسة برغامس التى تذكرنا بهذه الحقيقة الحيوية المؤكدة ، ومن ثم نرجو أن نتأمل القصة من النواحى التالية :

ملاك كنيسة برغامس وكرسى الشيطان :

كان من حظ ملاك كنيسة برغامس وحظ الكنيسة هناك أن الشيطان لم يؤسس مجمعاً له كما فى سميرنا : « مجمع الشيطان » بل وطد أركانه أكثر من ذلك إذ جعل له قلعة أو عرشاً فيما أطلق عليه « كرسى الشيطان » والشيطان فى كل مكان وزمان ، وسواء فى حيـــاة الأفراد أو البيوت أو المجتمعات أو الممالك ، لا يقف فى الغزو عند حدود ، بل هو دائم التغلغل يبنى قلاعه ويثبت كرسيه ، ويدعم عرشه ، دون أن يترك شبراً فى الأرض لا يسيطر عليه . إنه عندما يسكن نفساً لا يكتفى بأن يسكن بمفرده ، بل يأتى فى العادة بسبعة أرواح ، أخر أشر ، لتدخل آنفس الإنسان ، لتكون أخرته أشر بما لا يقاس من أوائله . ولعلنا نستطيع أن نفهم ذلك إذا ذكرنا أن برغامس كانت تقع على بعد خمسين ميلا إلى الشمال من ساردس ، وقد كانت يوماً عاصمة آسيا الصغرى ، وقد بنيت المدينة الأصلية على رأس تل عال يرتفع عن البحر بأكثر من ألف قدم ، بينما المدينة الحالية مبنية تحت سفح التل ، وقد اشتهرت المدينـــة بمكتبتها التى كانت تلى مكتبة

الإسكندرية فى الأهمية وإن كان مارك أنطونيو قد نقل أغلب كتبها ومجلداتها إلى الإسكندرية إرضاء لكليوباتره ، والمدينة لم تكن تزاحم أفسس أو ساردس فى التجارة ولكنها زاحمت وتفوقت ، بسبب مكتبتها ، فى المعرفة والعلم ، وكان بها جامعة للدراسة، . . . والكلمة « رقوق » مأخوذة فى الأصل من اسمها ، . . وإن كان البعض يقول إن هذا الاسم يعنى قلعة ، واسم المدينة الحالية « برغامة » ، . . وقد امتلأت المدينة بكافة أنواع المعابد الوثنية ، ويزعمون أنجوبيتر ولد هناك،ومن بين معابدها المشهورة معبد اسكولابيوس إله الشفاء ، وكانت بداخله حية تعبد ويقدم لها الطعام ، وقد بنى بها معبد عظيم فخم تكريماً للامبراطور أغسطس قيصر عام ٣٠ ق . م ، وكانت عبادة الامبراطور تمارس هناك أمام تمثال ضخم له ، فإذا رفض مسيحى هذه العبادة كان مصيره الموت حرقاً ، أو إرساله إلى روما ليلقى فريسة للوحوش ، ولعل هذا كله يعيننا على فهم معنى القول : « حيث كرسى الشيطان » . . . وإذا كانت برغامس القديمة قد ذهبت وولت ، ولم يبق فى مكانها القديم سوى الأطلال للدراسة ، وبنيت مدينة أخرى أصغر على سفح الجبل . . إلا أن برغامس تظهر وتتكرر فى كل العصور حيث لا يرضى الشيطان أن يبقى فى مكان ما زائراً أو جائلا أو ضيفاًلفترة قصيرة ، بل يريد أن يستقر وأن يوطد كرسيه هناك ، . . وكم للشيطان من كراسى فى العديد من أوسع المدن وأكبرها فى عالم اليوم ! ! . . . فهناك مثلا « كرسى السلطة » حيث يمتلك الزمام فى المدينة ، ويتولى السلطة فيها أناس امتلأت نفوسهم بكراهية السيد المسيح ، ومقاومة المسيحية،وحيث تعتبر العبادة جريمة يعاقب عليها القانون ، وحيث تهدم الكنائس ، أو يمنع بناؤها أو تتعرض لألوان من الاضطهادات المرة القاسية ، وحيثيقف الدين عقبة

فى سبيل الوظيفة ، أو ما إلى ذلك من الألوان المختلفة من الاضطهادات كما يجرى الآن فى البلدان الشيوعية .

وهناك أيضاً « كرسى الخرافة » إذ كان أهل برغامس يتعبدون لإله الشفاء اسكولابيوس ،ويقدمون الطعام للحية الرابضة فى معبده ، وكانوا يتلون الأدعية لكى تشفيهم الحية ، ... وهل هذه إلا صورة الحية القديمة وقد عادت مرة أخرى بالخرافة والحماقة والجهل ، ليأخذ الشيطان كرسيه ويثبت عرشه ويحصن قلعته فى برغامس ، . . وما أكثر ما يفعل الشيطان هكذا فى كل مكان وزمان ، . . عندما ذهب بوتيفاس رجل الله المسيحى ليعمل بين قبائل السكون فى القرن السابع الميلادى ، وجد هذه القبائل ، وقد سيطرت عليها الخرافات من كل جانب ، وفى أحد الأماكن رأى الناس يعبدون شجرة ضخمة من أشجار البلوط كانوا يطلقون عليها : « بلوطة الرعد » وقد قدسوها لأحد آلهتهم ، واستدعى بونيفاس الناس ، وهو يقول لهم إنه سيحطم هذه البلوطة أمام عيونهم ، فبدت على القوم علائم الغضب والقلق والخوف ، ولكن بونيفاس الطويل القامة القوى البنية تقدم بفأس فى يده وطفق يكيل لها الضربات ، وكانت جوفاء من الداخل ، فلم تثبت طويلا حتى انكفأت وسقطت . ولما رآها القوم طريحة دون أن يمسهم أو يمسه ضرر أدركوا أنهم عاشوا أسرى الخرافة والجهل حيناً طويلا من الزمان ! ! . . وفى الحقيقة يوم تجد الخرافة تحكم شعباً أو أمة أو جماعة من الناس فاعلم أن الشيطان قد دعم كرسيه بينهم وثبت قلعته وسلطانه . . ولا يجدى مع هذا القول إن المدينة كانت بها جامعة ، وكانت بها أعظم مكتبة بعد مكتبة الإسكندرية ، فقد كانت بلاد اليونان كلها بلاد الفلسفة والمعرفة والعلم ، ومع ذلك كانت الخرافات تملؤها من كل جانب ، ويكفى أن تقرأ قصص الإغريق وآلهتهم وعلاقة هذه الآلهة بالناس ، وعلاقة الناس بها ، وأنت تجد نفسك إزاء سيل

لا ينتهى من الحماقة والخرافة والجهل ، ومن ثم لم يكن غريباً أن تمتلىء أثينا نفسها بلد الحكمة ، بالأصنام التى جعلت بولس تحتد روحه وتمتلىء حزناً على الظلمة التى يضرب فيها الإنسان بعيداً عن الله ، . . فإذا أضفنا إلى هذا « كرسى المجون » والشهوات العارمة والدنس والفجور الذى وجد بالمدينة ، حيث كانت عبادة أفروديت آلهة الجمال جنباً إلى جنب مع عبادة اسكولابيوس إله الشفاء ، وقد استطاع الشيطان أن يقدس « الرذيلة » إذ كان من ضرورات هذه العبادة أن تخصص أعداد كبيرة من النساء ، ذواتهن للفجور باسم الجمال وارضاء للآلهة ، ومن القديم صاح إشعياء : « ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً الجاعلين المر حلوا والحلو مراً (إش ٥ : ٢٠) . . . لقد ذبحت الفضيلة هناك وانتشرت الرذيلة ، وهى إلى اليوم تذبح فى أرقى دول العالم تحضراً ومدنية ، باسم الحرية والجمال والرقى الإنسانى ، . . وقد وصف الرسول بولس هذه الحقيقة فى مطلع رسالة رومية على أدق صورة أمام الفكر الإنسانى : « لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبى ، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات . لذلك أسلمهم الله أيضاً فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم . الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذى هو مبارك إلى الأبد آمين . لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان ، وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق مملوئين من كل اثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلا وخصاماً ومكراً وسوءاً نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شروراً غير طائعين للوالدين ، بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة الذين إذ عرفوا

حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت ، لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسرون بالذين يعملون » (رو ١ : ٢١ — ٣٢) . . وفى مثل هذه الصور من الحياة يبنى الشيطان قلعته ويدعم كرسيه ويثبته ! ! . . .

ملاك كنيسة برغامس والتسلل الداخلى :

من الواضح أن ملاك كنيسة برغامس ثبت على نحو رائع ضد التجارب الخارجية الآتية إليه من المدينة التى يسكن فيها حيث كرسى الشيطان، وقد ظهر هذا اثبات واضحاً فى موقف أنتيباس الشهيد الذى رضى الموت على الخضوع للتجربة ،.. ونحن لا نعلم من هو أنتيباس هذا ، وهل هو أسقف أو شيخ أو مجرد عضو فى الكنيسة ، . لكننا نعلم أنه شهيد من أجل يسوع المسيح ، . . والمسيح يرقب الأخيار والأشرار ،بكل تدقيق،فى الأرض، وتمتلىء عواطفه بالحب أو بالبغض حسبما يكون التصرف قريباً من قلبه أو مكروهاً أمام عينيه ، ليس هناك عمل صغر أو كبر يختفى عن عينيه ، وما أجمل أن يقول المسيح عن أنتيباس : « شهيدى الأمين » . . . وشتان بين وصف قاتلى أنتيباس ، والتهم التى أدانوه بها،ووصف المسيح له ، وشتان بين أقوال الأرض الكاذبة الآثمة الضالة المضللة،وبين أقوال السيد الحلوة الرقيقة الصادقة المادحة ،.. على أية حال لم ينجح الشيطان فى هجومه العنيف فى الاضطهاد الخارجى ،فإذا به يتحول إلى الداخل عن طريق التسلل بالإغراء، كعادته إن لم يفلح التهديد ، . . ويأتى الهجوم بالتعليم المغرى الكاذب ، عن طريق تعليم« بلعام » أو تعليم«النقولاويين »...ولقد سبق لنا فى دراسة شخصية بلعام أن تحدثنا كثيراً عن خبثه الذى استطاع به أن يسقط إسرائيل ، ويفوز فى الوقت نفسه بعطايا بالاق ، . . ويبدو أن اتباع بلعام يدخلون الكنيسة ، بحثاً عن المغنم المادى أو النفوذ الشخصى ، ولو كان فى ذلك تدمير الحق ،

وقتل الصدق والأمانة والبراءة ، وهم دائماً يمزجون السم بالدسم ، وليس من السهل أن تكتشف خداعهم إذ هم مثل الثعلب الذى طارده الصيادون فأسرع إلى كوخ فلاح ، وطلب منه أن يأويه ، فأدخله الفلاح إلى ما وراء الباب ، وجاء الصيادون وسألوا الفلاح : هل مر به ثعلب ، فأجاب : كلا ، وهو يشير بأصبعه إلى ما وراء الباب ، ولم ينتبهوا إلى إشارته ، وساروا بعيداً ، وخرج الثعلب دون أن يظهر عليه ما ينم عن حالة الرضى ، فقال الفلاح : ألا تشكرنى على ما فعلت معك ، . . وأجاب الثعلب : كان يمكن أن أشكر لولا إيماءة أصبعك التى كادت أن تكون سبب هلاكى ، . . هكذا فعل بلعام ، إذ أنه بين لبالاق بن صفور أن هذا الشعب لا يمكن أن يهزم ، لأنه شعب قد باركه الرب ، وهو لا يهزم إلا إذا أخطأ ، وهكذا فتح بأسلوبه الجهنمى الطريق أمام بالاق ، فلا مانع من أن يختلط الشعب ببنات موآب فى ولائم حلوة صاخبة ، يقدمن لآلهتهن الذبائح ، ولا مانع من أن تكون هناك الولائم الحافلة والرقص واللعب أمام شعب متعب يعيش على المن فى الصحراء ... ووجد داخل كنيسة برغامس من ينادى بأن الاختلاط بالوثنيين لا شر فيه أو جزء منه ولا مانع من الأكل فى ولائمهم ، فالطعام فى حد ذاته لا يضير ، ولا مانع من حضور هذه الولائم والاستمتاع بشهى الطعام فيها ، وقد وجد أيضا النقولاويون الذين تحدثنا عنهم عند الحديث عن كنيسة أفسس ، والذين ينادون بأن الحرية المسيحية لا يجوز تعطيلها أو تقييدها بأى قيد اجتماعى أو أدبى ، وهى أعلى ما حصل عليه الإنسان فى المسيح ، . . . وهنا الخطر الداهم الكامن ، أو الثقب الذى حدث فى السفينة ، فأخذ الماء يتدفق إلى داخلها ، ليغرقها تماماً ، أو هنا الشيطان يتحول من المدينة إلى الكنيسة نفسها ، ويستقر بكرسيه داخلها ، وتستطيع أن تدرك هذا من قول المسيح لملاك الكنيسة : « فتب وإلا فإنى آتيك سريعاً

وأحاربهم بسيف فمى » (رؤ ٢ : ١٦) لعله من الطريف أن نشير إلى أقوال يوحنا نيوتن وجيمس دورهام ومس روستى وهم يتحدثون عن كرسى الشيطان فى قلب ملاك كنيسة برغامس ، وقلوبهم هم ، وكل قلب لا يتنبه أو يتحفظ من تسلل الخطية إلى أعماقه ومشاعره ، ويقول دورهام إن الشيطان روح ، وهو لا يسكن فى هياكل مصنوعة بأيدى الناس سواء فى برغامس أو أدنبره ، ولكنه يسكن فى أرواح الناس ، وعلى وجه الخصوص فى أرواح خدام الدين ، . . . وهو يهتم أكثر بخدام الدين للدور الذى يمكن أن يلعبوه فى الحياة الدينية ، وهو هنا أشبه بملك أرام وهو يقول لرؤساء المركبات التى له الاثنين والثلاثين « لا تحاربوا صغيراً ولا كبيراً إلا ملك باسرائيل وحده » (امل ٢٢ : ٣١) أجل ! ! هذا هو الواقع لأنه إذا نجح الشيطان فى اسقاط القائد فمن السهل أن يسقط الجيش بأكمله ، . . . وإذا نجح فى اقتناص الراعى فمن السهل أن يصل به ومعه إلى الكثيرين فى الكنيسة نفسها ، .. وقد عد يوحنا نيوتن نفسه سعيداً لبعده عن لندن التى كانت فى تصوره أشبه بمدينة برغامس وفى ذلك يقول : إن لندن مدينة الشراك الخطرة ، وأحسب نفسى سعيداً أن يقع نصيبى بعيداً عنها . إن لندن تظهر لى مثل البحر الملئ بالزوابع التى تحطم سفناً كثيرة ، فالمنازعات السياسية ، والزوابع العقائدية ، وفضائح المعلمين الكذبة ، والتحزبات مع أو ضد الكثيرين من الخدام ، والملاهى وما أشبه تكاد تقنعنى بأن الإنسان فى لندن فى حاجة إلى نعمة تختلف عن النعمة التى يحتاجها الساكنون فى الريف ، . . وأقصد أن النعمة فى لندن ينبغى أن تكون على درجة متقدمة جداً ، فالقلة المختارة المحفوظة من الله ببساطة قلبها وروحانية حياتها ، يبدو أنها من أفضل الطبقات المسيحية فى هذه البلاد ، وليس معنى ذلك أننا خارجها بدون تجارب ، فشر قلوبنا وأحابيل الشيطان تلزمنا بأقصى الجهد من الحذر ،

ونفسي محفوظة في الحقيقة بمعجزة الهبة ، إذ أن الشيطان يبذل كل شيء لإسقاطي ، . . غير أني في لندن في زحام التجارب المحيطة بي ، ولكني في الريف هناك زحام التجارب في داخلي ، . . وأين أستطيع أن أجد استجمامي وراحتي ، وفي كل مكان هناك فرق شيطانية رابضة ؟ ! . . . ومن ثم فإننا في حاجة مع الكسندر هوايت إلى أن نذكر كل عضو في الكنيسة ، بضرورة الصلاة من أجل خدام الله ، لئلا يستقر الشيطان في أفكارهم وقلوبهم ، وينقل كرسيه أيضاً إلى داخل الكنيسة ، ويستقر هناك ! ! . . . وعندما يقول السيد لملاك كنيسة برغامس : « تب » . . فإننا ندرك أن هناك خطية ، وخطية محزنة قاسية ، ومن الواجب مكافحتها ، . . والمكافحة هنا بشيء واحد : « أحاربهم بسيف فمي » . . وهو كلام يبدو غريباً ، أو تهديداً للملاك نفسه ، الذي قصر في محاربتهم بالوعظ والإرشاد والتعليم ، وإذ لا يقوم المنبر بما يجب عليه ، فإن الله سيرسل غيره ليتولى المهمة بدلا منه ، ويأتي المسيح في آخرين ليحاربهم بسيف فمه ! ! . . . وهنا يؤكد المسيح أن الحرب الحقيقية والصحيحة لا يمكن أن تكون على الإطلاق بسلاح بشري بل بسلاح الكلمة الإلهي ، . . . والتاريخ على الدوام يشهد بأن كلمة الله لا يمكن أن ترجع فارغة ! ! . . . بعد أن عاد مارتن لوثر من مؤتمر ورمس ، قبع في قصر ورتبرج ، وكان هناك شبه سجين ، إذ اختفى من وجه الإمبراطور الغاضب عليه ، . . . وقد ظن الكثيرون بسبب هذا الاختفاء ، أنه مات ، ولكنه أجاب على هذا التصور بالقول : إنهم يفكرون في موتي ويقولون إن مارتن لوثر قد صمت صوته إلى الأبد ، ويسرون إذ يتصورون أن كل ما فعلت قد انتهى إلى لا شيء ، ولكنهم سيستيقظون ذات صباح جميل ليروا أن الشيطان قد هزم . . . أنا لست هنا في خمول أو كسل بل هنا يبدأ عملي

الحقيق ! ! . . ما هو السلاح الذى نحارب به ؟ إنه سيف الرب الذى بطش بأعدائى ، . . . وخلال مدة بقائى هنا سأتعامل معه بقوة أعظم إذ سأترجم إلى لغة الشعب ما كتبه البشيرون ، ليقرأ الشعب الإنجيل ! ! . . . آه هل يعلم خدام الله أنه حيث يثبت الشيطان كرسيه فى الأرض ، فإنه ليس هناك من قوة تدمر هذا الكرسى سوى كلمة الله الحية الفعالة التى هى أمضى من كل سيف ذى حدين ! ! . . .

ملاك كنيسة برغامس وسر الحيـاة :

وهنا نأتى إلى وعد المسيح المرسل إلى هذا الملاك فى حالة فوزه وانتصاره ، وإذا كان الوعد لملاك كنيسة أفسس بطعام الحياة ، ولملاك كنيسة سميرنا بإكليل الحياة ، فإن الوعد لملاك كنيسة برغامس يمكن أن يكشف عن سر الحياة : « من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن المخفى وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذى يأخذ » (رؤ ٢ : ١٧) وهنا نحن أمام الحياة المستترة مع المسيح ، وما تصل إليه لا من مجرد طعام الحياة ، أو تاج الحياة ، بل أكثر من ذلك سر الحياة نفسها ، « وسر الرب لخائفيه وعهده لتعليمهم » (مز ٢٥ : ١٤) ، وهذ السر يكمن فى طعام السماء ، فإذا كانت العبادة فى برغامس تمتلئ بالموائد الحافلة المقدمة للآلهة ويأكل منها الوثنيون العابدون ، ومع ذلك لا يشبعون ، وإذا كان المؤمنون فى المدينة ، وهم محاطون بالتجارب والمتاعب والحياة الشبيهة بحياة الصحراء القاسية ، فإن الله يرسل لهم على وجه عجيب ومجيد طعام السماء الخفى السرى ، فيشبعون على نحو معجزى رائع . . كان بين طلبة إحدى الكليات طالب شاب ممتاز يسير على عكازين ، وكان محبوباً من الجميع ، وابتسامة السماء دائماً على وجهه ، وقد نال مراتب شرف

دراسية كثيرة كما نال تقدير واحترام رفاقه فى الدراسة . وقد سأله فى أحد الأيام ، زميل عن سبب عجز ساقيه فأجاب : إنه شلل الأطفال . وقال الصديق ، وكيف استطعت إذاً أن تسير فى الحياة قدماً مع هذا الداء الوبيل ، فأجابه باسماً : إن المرض لم يستطع أن يلمس القلب ! ! . . . فإذا كان المؤمن يستطيع فى أقسى الأجواء أن يعيش منتصراً سعيداً لأن قلبه مع الله ، فكم بالأحرى عندما تفيض عليه بركات الحياة الناجحة ! ! . . . إن العالم يدهش لما يراه فى حياة المؤمنين من قوة ، وهو أعجز من أن يدرك السر ، لأنه يحكم دائماً على أساس المنظور ، ولا يستطيع أن يرى المسيح خبز الحياة وسر الحياة لكل واحد منا ! ! . . . والمسيح لا يعطى المن الخفى فحسب ، بل يعطى الحصاة البيضاء أيضاً ،أو بعبارة أخرى ، يعطى حظ الحياة ونصيب الحياة لكل واحد منا ، والحظ لا يخضع فى فهم الناس لقواعد حسابية معروفة ، بل هو سر خفى ، وكان عند الرومان يأخذ الحصاة البيضاء واحد من اثنين : إما البرئ فى المحكمة أو الفائز فى الألعاب ، إذ كان القضاة يقترعون بالحصاة البيضاء ويلقونها عند الحكم بالبراءة ، . . كما كانوا يعطون الحصاة البيضاء للفائزين فى الألعاب الأولمبية ، وفى الحالين كان اسم الفائز يكتب عليها ، . . . وأراد المسيح أن يؤكد سر الحياة ، وهو يعطى الفائزين أمامه ، حتى ولو حكم عليهم الطغاة وأسلموهم للاستشهاد ، هذه الحصاة البيضاء التى حرموا منها ظلماً وعدواناً ! ! . . . والسيد يؤكد هنا أنه إن فاتهم عدالة الأرض ، فإن عدالة السماء لا يمكن أن تضيع جزاءهم ! ! وقد أضاف المسيح أيضاً بأنه سيعطى المؤمن الفائز اسماً جديداً لا يعرفه إلا من يأخذه ، . . . والاسم فى العادة يشير إلى شخصية الإنسان وطبيعته ، . . والمسيح يطوى شخصياتنا القديمة ، وتاريخها القديم ، ويعطينا الخليقة الجديدة ، والحياة الجديدة ويعمل فيها بسره العجيب المغير ، ومهما يعرف الناس

عنا أو مهما يكتشفوا فينا ، فإنهم لا يستطيعون البتة أن يدركوا الطريقة التى أعاد المسيح فيها بناء الوعاء من جديد ، أو مدى ما يمكن أن يضع فيه ، فى العالم الحاضر أو الأبدى ، من بركات وخيرات وأمجاد وعظائم ، . . . سيبقى هذا سر النعمة الأبدى المغلق الذى لا يفهمه على الوجه الكامل والمجيد والعظيم سوى صاحبه ! ! . . . أيها المؤمن هل تعلم أن الأبدية كلها ستتمخض عن سر الحياة الهائل الذى يربطنا بالمسيح ، ولن تعلمه بالتمام هنا ، لكنك ستراه وتعيشه على الوجه العجيب هناك ؟ ! ! . . .

١٥٧
ملاك كنيسة ثياتيرا

« وأن أعمالك الأخيرة أكثر من الأولى لكن عندى عليك .. » (رؤ ٢ : ١٩ ، ٢٠)

لعله من المناسب أن نشير إلى أن الواعظ الكتابى المشهور ألكسندر مكلارن وهو يتحدث عن الكنائس السبع ، ووعد المسيح للمنتصرين فيها ، أطلق على المنتصر الأول فى أفسس بأنه الحائز على « طعام الحياة » وهو الوعد المبارك من السيد بالأكل من شجرة الحياة ، . . والثانى الحائز على « اكليل الحياة ».. « كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة » ! ! . . وهو الوعد لملاك كنيسة سميرنا ، . . والثالث الحائز على « سر الحياة » وهو المقدم لملاك كنيسة برغامس ، والرابع الحائز على « قوة الحياة » وهو الوعد الموضوع أمام ملاك كنيسة ثياتيرا ،والخامس الحائز على ثوب الحياة ، وهو الموعود به لكنيسة ساردس ،والسادس المقدم لملاك كنيسة فيلادلفيا ،وهو المبارك الذى مع ملاك كنيسة سميرنا لم يوجه المسيح لهما لوما ،... وقد منحه السيد « أسماء

الحياة » بعمق مفهومها ومضمونها ومعناها ، .. والأخير السابع للملاك الفاتر ملاك كنيسة لاودكية ، بسيادة المنتصر فى الحياة ، فيما لو تاب وتحرر من فتوره وضعفه وهزال حياته الروحية ، . . . وفى كل هذه الصور جميعاً نرى المسيح مصدر الحياة ونبعها وقوتها وجلالها ومجدها من كل الوجوه ، وسنراه هنا يشجع ملاك كنيسة ثياتيرا بالقوة التى يحتاج إليها فى الحياة ، . . . ومن ثم يحسن أن نتابع قصة هذا الملاك فيما يلى :

ملاك كنيسة ثياتيرا والنمو الروحى :

تقع مدينة ثياتيرا بين برغامس وساردس ، واسم المدينة فى الوقت الحالى « أخيسار » ، وكان معبودها الأعظم هو أبولو إله الشمس ، وقد اشتهرت المدينة بتجارة المنسوجات والنحاس ، ولا ننسى أن ليديا بياعة الأرجوان التى التقى بها بولس فى فيلبى كانت أصلا من هذه المدينة ، وربما كانت هى أو غيرها السبب فى دخول المسيحية إلى ثياتيرا ، . . . والذى يهمنا ملاحظته ، أن السيد وهو يتحدث إلى ملاك الكنيسة فيها ، وهو الرقيب الذى عيناه كلهيب نار ، سجل له شيئاً جميلا جداً ، من المؤكد أنه سر به كل السرور وهو أن أعماله الأخيرة أكثر من الأولى ، ولعل هذه توقفنا أمام عدة حقائق مجيدة وأساسية . أولا : إن الله إله عليم وتوزن به الأعمال كما قالت حنة قديماً : « لأن الرب إله عليم وبه توزن الأعمال » (١صم٢ : ٣) ... وهو يراقب قصة حياتنا ، ولا يمكن أن تخفى عن عينيه خافية ، ولكل منا رصيده فى بنك السماء ، . . . كتبت إحدى المرسلات فى نيجيريا مقالا روت فيه القصة الآتية : حدث فى إحدى الليالى أننا كنا نعظ فى قرية ، وقال زوجى فى خطابه إن الله لا ينعس ، وبدا زعيم القبيلة الذى كان حاضراً يتململ فى مكانه ، وقد ظهر عليه الارتباك ، ولاحظنا أن شفتيه تتحركان ، وكنا فى وقت عصيب ، لم يكن هناك أمن على حياتنا ، ولذلك لم يكن من

المطمئن كثيراً أن نرى زعيم القبيلة يبدو غير مستريح ، والرجل الأبيض يتكلم ، فلما انتهى زوجى من خطابه سأل الزعيم إن كان عنده ما يريد أن يقوله ، فسأل هل حقيقة أن الله لا ينعس ولا ينام وأكد له زوجى ذلك ، فأخذ يكرر بخشوع ووقار : الله لا ينعس ولا ينام . . . وقد أثر فيه هذا أعمق تأثير لأن إلهه القديم الذى كان يؤمن به كان يتصوره كائناً لا يهتم به ! ! . .

كان الصينيون يؤمنون بأن الكائن الأعلى لا يهتم بالناس ، غير أن الإيمان المسيحى يؤكد العكس ، وقد قال بنيامين فرانكلين فى المؤتمر الذى عقد فى عام ١٧٨٧ لوضع الدستور الأمريكى : كلما تقدمت فى الأيام ، كلما رأيت بأكثر البراهين اقناعاً لى ، أن لله سلطاناً فى مملكة الناس . وإذا كان العصفور لا يسقط إلا بإذنه ، فهل يمكن أن تقوم مملكة أو تسقط بغير أمره ، لقد حقق لنا الكتاب المقدس أنه إن لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون ، وأنا أؤمن بذلك تماماً ، أنه بدون مساعدة الله لا يمكن أن نتقدم فى هذا البناء السياسى بأحسن مما تقدم بناة برج بابل ! ! . . . أراد والد أن يعلم ابنه عن حقيقة وجود الله فى الحياة فرسم اسم ابنه فى حديقة ووضعه فى شكل قلب ، وملأ الفراغ ببذار زهر زرعه فلما أفرخت البذار قرأ الولد اسمه فى الزهر واندهش ، وأظهر أبوه فى أول الأمر أن الاسم ظهر تلقائياً وبمجرد الصدفة ، وأنكر الولد ذلك بشدة قائلا لابد أن يداً رسمته ، وعندئذ قاد الأب الغلام ، إلى الإيمان بالله الذى رسم كل شيء بجلال ومجد فى الطبيعة ! !

كانت ابنة صغيرة وأخوها يحملان سلة مملوءة بالكعك ليذهبا به إلى جدتهما ، ودفعهما الفضول ليعرفا ماذا يوجد داخل السلة فرفعا الغطاء ونظرا ، . . . وعندما لمحت عيونهما الشرهة الكعك المغرى تحلب منها الريق . وبعد أن عدا الكعك جملة مرات كادا يتفقان على أن يأكلا كعكة واحدة فقط ، ولا أحد يدرى . وسيكون طعمها شهياً ولا شك ، وفيما هما يتطلعان إلى الكعك ،

وقد أوشكا أن يتناولا واحدة ، نظرت الصغيرة إلى وجه أخيها وسألته : ألا يستطيع الله أن يعد ! ! ؟ وكان السؤال كافياً لأن ينهى التجربة ، وأرجعا الغطاء ، وحملا الكعك كله إلى الجدة ! ! . . .

على أن الحقيقة الثانية هى أن الله لا يرى مجرد الأعمال ، بل يرى الأعمال تعبيراً عن الحب — فهو لا يستطيع أن يفصل الخدمة عن الحب ، ولا يستطيع أن يفصل الحب عن الخدمة ، وهكذا كانت خدمة كنيسة ثياتيرا مرتبطة بالمحبة .

على أن الحب والخدمة لم يكونا مجرد مشاعر إنسانية ، بل كانا ينبعان عن الإيمان العميق الصابر على التجربة والمحنة ، مهما قست الظروف واشتدت الأحوال ! . . مات أبوان فى يوم واحد وتركا ولدين صغيرين لا قريب لهما ولا صديق يعتنى بهما فى تلك البلدة ، فذهبا إلى خالهما فى لفربول لعله يضمهما إليه ، فباتا أول ليلة فى فندق لقيا من صاحبه كل لطف وعطف ومؤانسة ولما نظر الرجل حرص أكبرهما على كتابه المقدس واهتمامه به أراد أن يعرف مدى تمسكه به ، فسأله أن يبيعه له قائلا : إنى أراك فى حاجة إل دراهم ، وأنا مستعد أن أعطيك بضع شلنات فيه ، . . فقال الولد : لن أبيعه ولو هلكت جوعاً لأنى وجدت فيه مخلصى الحبيب ، وهو سراج لرجلى وتعزية فى ضيقاتى ، فقال الرجل : أعطيك جنيهاً ثمناً له ، فأجاب : إن كتابى مرشدى إلى إلهى وقوت نفسى الجائعة ، فكيف أحرم نفسى من طعامها الأبدى ، وآخذ بدلا منه طعاماً لجسدى الفانى ، فقال الرجل : وماذا تفعل لأخيك إن لم يقبلكما خالكما فى البيت . أجاب : إن الكتاب يعلمنى كيف أتصرف إذ يقول : « إن أبى وأمى قد تركانى والرب يضمنى » . . فتعجب الرجل من إيمان الصغير فى مواجهة الحياة ! ! . . .

كان ملاك كنيسة ثياتيرا مغبوطاً لأن أعماله الأخيرة كانت أكثر من

الأولى ، والرجل سعيد جداً لأن العكس لم يحدث ، وما أكثر الذين يبدأون حسناً ، لينتهوا أسوأ نهاية ، ويبدأون فى غيرة وحماس ونشاط لينتهوا فى ضعف وجمود وضياع عندما يفقدون محبتهم الأولى ، . . ولكن ملاك ثياتيرا يعلم أن الخدمة الناجحة لا تأخذ الربح البسيط فحسب ، بل الربح المركب ، أى إن الأرباح تضاف إلى الأصل لينمو المكسب مضاعفاً ، ولا شك فى أن أعماله الأولى وقد انتصبت الواحدة إلى جوار الأخرى ، كانت أشبه بالبنيان الذى عندما نضع فيه حجراً على حجر ، فإن الحجر الأول يحمل الثانى ، ويتضخم البناء ويقوى ويرتفع ، وحبة الحنطة وهى تقع فى الأرض ستثمر حبات عديدة ، تتحول بدورها سبباً للاثمار الأعظم والأجمل ! ! . . . كان ملاك كنيسة ثياتيرا سعيداً بالنجاح الظاهر المتزايد فى خدمته يوماً بعد آخر ! ! .

ملاك كنيسة ثياتيرا والزانية المسيبة :

ورغم هذا النمو العظيم والتقدم الظاهر ، فإن الرجل كان يواجه خطراً داهماً رهيباً ، إذا لم يحزم الأمر تجاهه ، فإنه سيتحول إعصاراً يبدد كل جهده وعمله ، أو بحراً طامياً يجرفه فى طريقه مع الجميع ، . . وقد جاء هذا الخطر من امرأة فى الكنيسة ، يصفها السيد « المرأة إيزابل » . . ومن الغريب أن بعض الترجمات تترجمها « زوجتك ايزابل » وقد أخذ بعض الشراح والمفسرين بهذا التفسير حتى إن ألكسندر هوايت شبه ملاك كنيسة ثياتيرا فى العهد الجديد ، بهوشع النبى فى العهد القديم ، فكما كانت جومربنت ديلايم تجربة هوشع ومأساته ، فإن ايزابل الجديدة كانت تجربة ملاك كنيسة ثياترا ، واستمر هوايت يتحدث عن نكبة الرجل القاسية ، والمرارة التى كانت تملأ حياته ، والتى ربما جعلته دائماً راكعاً على قدميه ، مكسور القلب أمام الله والناس ،ونحن لا نستطيع أن نذهب مذهب هوايت فى الأمر ، أو نتمشى معه فيه رغم براعة قلمه وتصويره ، .. ولا نعتقد أن المرأة كانت اسمها إيزابل

حقيقة ، بل هى واحدة من اللواتى تسللن إلى الكنيسة ، وأصبح لها نفوذها وسيطرتها على نحو رهيب ، ويبدو أنها كانت من القوة بحيث أن الراعى عجز عن اتخاذ موقف حاسم تجاهها ، وتركها مسيبة تعيث فى الكنيسة فساداً دون أن تجد من يردعها أو يقف فى سبيلها ، . . وهنا لابد من وقفة متأنية بعض الشىء للسؤال كيف وصلت المرأة إلى مثل هذا النفوذ الرهيب ! ! ؟ . . لقد كانت ايزابل القديمة ابنة ملك وزوجة ملك ، وحتى إذا نبذنا فكرة أن إيزابل الحديثة لم تكن زوجة الراعى ، فهل كانت تمثل عائلة كبيرة فى الكنيسة ، وأنها ربما كانت من أعلى الشخصيات الظاهرة فى المجتمع ، وأن الناس كانت ترى مركزها الاجتماعى فتفسح لها الطريق ، ومن ثم أخذت خطاها فى التقدم والتغلغل بكيفية لم يسهل معها مقاومتها أو الحد من نفوذها ! ! . . قد يكون ! ! والحقيقة هى أن مأساة الكنيسة فى مرات كثيرة ، ترجع إلى أنها تعطى هذا أو ذاك المركز المتقدم ليس على الأساس الروحى بل على اعتبارات بشرية محضة ، الأمر الذى يستغله الشيطان أبرع استغلال ، . . . على أن ايزابل فى ثياتيرا كانت تعلم بكل تأكيد أنه مهما يكن المركز الاجتماعى داخل الكنيسة ، فإنه لا يصلح قط ، أن يكون وسيلة للوثوب إلى المراكز القيادية أو الاستقرار فيها ، ولابد من تغطية الأمور وتثبيتها بلون دينى ، وهذا ما فعلته ايزابل القديمة عندما جندت المئات من أنبياء البعل والسوارى ، وهدمت مذابح الله لتقيم على أثرها مذابح للبعل، . . ومن ثم فعلى إيزابل فى ثياتيرا أن تتشح بثوب دينى ، ولا مانع من أن تأخذ مركز النبوة ، وما أكثر الأنبياء الكذبة الذين ينادون باسم الله ، وهم دائماً مضللون ، . . وقد وجدت إيزابل الحديثة طريقها بحجة التحرر من كل قيود فى أكل ماذبح للأوثان ، وهى تغوى المخدوعين والمفتونين بنبوتها الكاذبة بالحرية التى نادى بها المسيح وأن الأكل فى حد ذاته لا يقدم ولا يؤخر ،بل

إن المرونة واجبة للتعامل مع الناس ، دون تزمت أو انفصال ، فإذا كانت النظم السائدة هى أن الطوائف والجماعات من أبناء المهنة الواحدة ، يعيشون مترابطين يشتركون معاً فى الأعياد والحفلات والولائم ، ولا يجوز لواحد أن يشذ عن ذلك إلا إذا فصل أو طرد من المهنة أو الطائفة التى ينتمى إليها ؛ فلا مانع فى عرف النبية الكاذبة أن يكون حراً فى سريرته ، مع الابقاء على الظاهر تمشياً مع الكياسة والمرونة التى ينبغى الأخذ بها حرصاً على المهنة أو لقمة العيش أو ما أشبه ، . . هذه هى الغواية التى إذا استسلم الإنسان لها واستمرأ العيش فى ظلها ، لابد أن تجره جراً وئيداً أو سريعاً إلى « أعماق الشيطان » . . والشيطان فى العادة يضع فخاخه مغطاة ، ويبدأ بما يبدو أنه معقول « أو « منطقى » أو « لا ضير فيه » .. والأنبياء الكذبة فى كل العصور بدأوا هكذا ، . . غير أن السيد الذى كال المديح لملاك الكنيسة لمواجهته الهجوم من الخارج بكل قوة ونشاط متزايد ، لامه على ما كان يجرى داخل الكنيسة ،ومع أنه من الواضح أن قلة فى الكنيسة هى التى تبعت الغواية أوسارت وراءها ، إلا أن خطأ الراعى الفادح كان فى عدم حزمه تجاه المرأة الفاسدة المفسدة ، . ومن اللازم أن يكون الراعى وديعاً متسامحاً صبوراً ، وقصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء ، لكنه يكون أحمق كل الحماقة ، ومستوجباً كل لوم ، إذا سمح لتعاليم كاذبة مضللة أن تشق طريقها إلى الكنيسة باسم الحرية الفكرية ،والتعرف على أفكار الآخرين أو معتقداتهم ،.. فى الواقع أنها ليست حرية بل هى « تسيب » بلا ضابط أو نظام ، . وهو نفس التعبير الغريب المترجم : « تسيب المرأة إيزابل » . . . والبرهان الواضح دائماً للتسيب ، هو الانحدار الخلقى ، وايزابل التى فى نكبتها كحلت بالاثمد عينيها لغواية ياهو بن نمشى ، لا تمتنع فى أى عصر من أن تستخدم كل وسيلة لتحقيق هدفها الخبيث ، والمهرطقون العارفون بأعماق الشيطان ، لا يمكن أن ننتظر منهم حياة التعفف والشرف ! ! . .

ومع هذا كله فإن رحمة الله واسعة ، وهو يعطى أشر الخطاة فرصة للرجوع والتوبة : « وأعطيتها زماناً لكى تتوب عن زناها » (رؤ ٢ : ٢١) .. ولا يجوز لأحد أن يصور التسامح الإلهى جموداً أو عدم مبالاة أو إهمالا للعقاب الرادع القاسى ، . . . إن لطف الله إنما ليقود الإنسان إلى التوبة ، وإلا فالصرامة آتية لمن لم يتب ، وسيتحول فراش التنعم إلى ضيقة عظيمة ، قد يراها الشرير فى المرض القاسى أو التعب الشديد أو ألم المعاناة أو ما أشبه مما لا يعرف معه طعم الهدوء أو الراحة أو الأمن أو السلام ، . . وليس هذا كله إلا خطوة تتلوها الخطوة التالية وهى الموت على أبشع صورة ، وكما قتل أولاد إيزابل القدامى على الصورة البشعة ، فهكذا يحدث مع الأخرى : « وأولادها أقتلهم بالموت » (رؤ ٢ : ٢٣) لأن أجرة الخطية هى موت ! ! ... والله يفعل هذا لا لكى يثبت دينونة الأشرار فحسب ، بل لكى يتعلم المؤمنون أيضاً ويفزعون من هول الخطية : « فستعرف جميع الكنائس أنى أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطى كل واحد منكم بحسب أعماله » (رؤ ٢ : ٢٣) فى إحدى المزارع فى طرف إحدى الغابات فى السويد ، كان هناك بيت يسكنه رجل عجوز ، ولما انتهت حياته ، وضعوه فى قبر حفر على طرف المزرعة ، والشىء الغريب أن الرجل أوصى قبل وفاته أن يوضع تحت رأسه كتاب ضخم غريب المنظر ، وإذ دفع البعض حب الاستطلاع ، ازدادت غرابتهم إذ رأوا أوراق الكتاب خشنة ، وبين كل صفحة وأخرى زهرة أو ورقة تحمل معها قصة مكتوبة ، أو حادثاً حدث للرجل فى حياته ، ومن هذه الزهيرات أو الأوراق الذابلة عرفت قصة الرجل ، وتبين أنه كان من مشاهير العلماء ، ومن الرجال المتضلعين فى اللغات ، ومن الموهوبين فى الموسيقى ، لكنه أضاع كل شىء بالإدمان على الخمر حتى ساءت صحته وضعف جسمه ونبذه الجميع ، فانعزل ليقضى أيامه الباقية فى الوحدة

القاسية ، . . كان الرجل فى ساعات صحوه أشبه بالحمل الوديع ، لكنه عندما يستسلم لسلطان الخمر يتحول وحشا كاسرا ، . . وكان يعود مرات كثيرة إلى قصص حياته ، ويمتلىء بالأسى والدموع ، فالزنبقة البيضاء تذكره بعروس أحلامه ، وورقة البلوط بصديق الدراسة ، . . وهكذا وهكذا من الصور المختلفة ،.. ووضع الكتاب تحت رأسه « ووضع هو فى الحفرة ، وأهيل عليه التراب ، ورفرفت الطيور فوق القبر ، وعصفت الرياح العاتية فوق قبره ،وتوارى العالم الذى أضاع حياته فيه بعيداً عن الحق الإلهى الذى كان يمكن أن ينقذه ويرفعه ! ! . . وهكذا يكون دائماً مصير الخطاة والأئمة والأشرار والذين ساروا فى درب إيزابل القديمة وعلى نهجها ! !..

ملاك كنيسة ثياتيرا والقوة النافعة :

قال المسيح لملاك كنيسة ثياتيرا : « ولكننى أقول لكم وللباقين فى ثياتيرا كل الذين ليس لهم هذا التعليم والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان كما يقولون إنى لا ألقى عليكم ثقلا آخر وإنما الذى عندكم تمسكوا به إلى أن أجئ . ومن يغلب ويحفظ أعمالى إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أنا أيضاً من عند أبى . وأعطيه كوكب الصبح » (رؤ٢ : ٢٤ — ٢٨) . . ولعله من اللازم قبل كل شىء أن ندرك أن سيدنا محب مترفق لا يقسو أبداً على أتباعه ومحبيه ، لأن نيره هين وحمله خفيف ، . . جاء فى أساطير الإغريق أن هرقل كان عبداً ليورسثيوس الملك ، وكان يكلفه بأعمال تفوق القدرة البشرية ، وكلما نجح هرقل فى عمل كان الملك يكلفه بعمل أقسى وأشد لعله يهلك ، وهو يقصد أن يقتله ، وحارب هرقل الوحوش ، وخاض بحاراً من المهالك والمتاعب ،

دون أن تلحقه رحمة سيده ومليكه ، . . لكننا نحن لا نعرف شيئاً من هذا القبيل لأن سيدنا محب ، والهنا رحيم فيقول : « إنى لا ألقى عليكم ثقلا آخر » . . بل على العكس يعطينا القوة على مجابهة أقسى الصعاب والمشقات ، ونحن نسير به ومعه وفيه من نصر إلى نصر ، . . وما من أحد وصل إلى قوة فى مواجهة الشر والأشرار والعالم إلا وهو يقول : « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ١٣) يظن الآخذون بالملك الألفى الحرفى أن الوعد بالقضيب من الحديد سيكون للمؤمنين فى سحق الأشرار فى ذلك التاريخ ، ولو صح هذا لما طرح الوعد أمام ملاك كنيسة ثياتيرا ، مادام الأمر سيكون لأجيال أخرى بعيدة ، حسب تصورهم لا زالت فى طى المستقبل ، لكن الحقيقة هى أن المؤمن مزود بسلطان دائم فى مواجهة العالم والخطية والشر والجسد ، وهذا السلطان يبدأ بقبول المسيح وحياته فيه : « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه » (يو ١ : ١٢) وكما وقف إيليا فى وجه إيزابل ، وكان يحمل معه سلطان السماء ، فقضى على أنبياء البعل والسوارى ، فهكذا المؤمنون لهم سلطانهم العظيم الذى يحطم الشر والأشرار ليحل مجد الله محل كل فساد وإثم ! ! . . . فإذا طال ليل الخطية ، وإذا بدا كما لو أن الظلمة تسود كل شىء ، فالسيد يحقق للمؤمن اشراقة الصباح : « وأعطيه كوكب الصبح » (رؤ ٢ : ٢٨) وكوكب الصبح هو شخصه المبارك عندما يأتى فى أحلك الليالى ليبدد قسوة الظلام ، وتبزغ تباشير الصباح الدائم ! ! . . كانت ثياتيرا تعبد أبولو إله الشمس ، وأين أبولو الآن من يسوع المسيح ، وأين الظلمة الحالكة والتى ملأت العالم وهى توجه ذهنه المظلم إلى قرص الشمس ، من نور العالم كوكب الصبح المنير ، بل شمس البر التى تشرق والشفاء فى أجنحتها ! ! . . كان وعد المسيح بالقوة والنور ، وهو المانح الوحيد العظيم لهما فى الحياة الحاضرة ، والدهر الأبدى ! ! . . .

١٥٨
ملاك كنيسة ساردس

« أن لك اسما انك حى وانت ميت» (رؤ ٣ : ١)

أعتقد أن الكثيرين منا يعلمون أن هناك رأيين مشهورين فيما يتصل بالكنائس السبع فى سفر الرؤيا ، هما الرأى التتابعى ، والرأى المعاصرى ، .. أما الرأى التتابعى فهو الذى يصور الكنائس السبع رموزاً وإشارات لتاريخ الكنيسة كله على الأرض ، والمراحل المتعاقبة التى تمر بها ، والعصور المختلفة التى ستتحول إليها ، فأفسس عند هذا الرأى تمثل العصر الرسولى ، وسميرنا تمثل عصر الاستشهاد ، وبرغامس تمثل الكنيسة عندما أصبح قسطنطين امبراطوراً ، وأضحت الديانة الرسمية ، وثياتيرا تشير إلى الضلالات التى دخلت إلى الكنيسة لتأخذ مركز القيادة الكاملة فيها ، وساردس تتحدث عن الظلمة الرهيبة التى ضربت على الكنيسة حتى ظهور الاصلاح ، وفيلادلفيا تكشف عن النهضة العظيمة التى قامت فى الكنيسة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحركة الإرساليات العظيمة ، وكنيسة لاودكية ، هى

كنيسة الفتور الشامل فى الوقت الحاضر ! ! . . . أما الرأى المعاصرى ، فهو يشير إلى أن الكنائس السبع موجودة دائماً فى كل العصور ، وكانت موجودة فى وقت الرائى ، وستبقى ظاهرة فى كل عصر فى الكنائس المختلفة على وجه الأرض ! ! . . .ومع أننا لسنا بصدد تفضيل رأى على رأى ، إلا أنك لا تستطيع فعلا أن ترى ساردس على صورتها الحقيقية إلا إذا قارنتها بالكنيسة فى العصور الوسطى التى سادها الظلام ، والتى أصبح فيها البابوات أعلى من الأباطرة والملوك إلى درجة أن أحد الملوك وقد حرمه البابا ، وقف ثلاثة أيام أمام بابه حافى القدم عارى الرأس حتى يأذن له بالدخول ، ويرفع عنه قرار الحرمان ، والكنيسة مع هذا المجد العالمى غارقة فى الضلال والضياع ، كان ملاك كنيسة ساردس القديم صورة غريبة وعجيبة ، لهذا النوع من الحياة ، والتى هى أمام السيد الموت بعينه ، ولذا يحسن أن نتابع هذا الملاك فيما يلى :

ملاك كنيسة ساردس الحى الميت :

كان هذا الملاك محسوداً ومضبوطاً من الجميع ، لقد بدت الحياة فى ظاهرها كما لو أنه يتمتع بها إلى أبعد الحدود ، ولم يدر أنه فى نظر الحق لا يزيد عن جثة مكفنة فى تابوت ، قد يكون الكفن من أفخر أنواع الأقمشة ، والتابوت مرصعاً بالجواهر ، . . ومن المتصور أن ملاك كنيسة ساردس سمع المديح من الناس إلى درجة أنه لم يعد يحتمل نفسه ، ولا أود أن أذهب فى هذا الصدد إلى حد المغالاة التى ذهب إليها الكسندر هوايت ، وهو يرى هذا الملاك محسوداً من ملائكة الكنائس الست الأخرى ، لكنه مهما يكن التصور ومهما يكن وصف الدنيا بأكملها له ، فإن المسيح لا يتأثر بأى وصف أو يغير فكره بناء على ما يجمع عليه أغلب الناس أو

أعظمهم أو أحكمهم على الإطلاق ، وهو يجرد هنا الرجل من كل مديح ، ولا يرى فيه البتة ، ما يراه الآخرون فيه ، بل هو الإنسان الذى سمح للعالم أن يدخل إليه وإلى كنيسته حتى النخاع ، ولم يعد هناك أدنى فارق بينه وبين العالم على الإطلاق ، . . قال السيد المسيح فى صلاته الشفاعية وهو يفرق بين الكنيسة والعالم : « أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم كما أنى أنا لست من العالم . لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير . ليسوا من العالم كما أنى أنا لست من العالم . قدسهم فى حقك . كلامك هو حق . كما أرسلتنى إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم » (يو ١٧ : ١٤ — ١٨) . . . كانت جريس ونج فتاة مسيحية صينية تطلب العلم فى الولايات المتحدة ، وقد تحدثت ذات مرة إلى زميلة أمريكية فقالت : هل تسمحين لى أن أسأل ما هو الذى يدل على أنك عضو فى كنيسة المسيح . . فقالت لها الزميلة : إن عائلتنا على الدوام من أعضاء الكنيسة . فقالت الصينية : ولكنى أريد أن أفهم الفرق بينكم وبين الآخرين . نحن فى الصين توجد فروق تميزنا عن غيرنا من الوثنيين . فنحن لا نتعاطى الأفيون ولا نقامر أما أنتم فلا شىء يفرقكم البتة عن العالم ، إذ أنكم تشربون وتدخنون وتلعبون الورق مثل أهل العالم تماماً ولا أعلم لكم وقتاً تقرأون فيه الكتاب المقدس . لقد اشترى أبى عربة من باريس . ويأخذ معه عند ذهابه إلى الكنيسة الكثيرين من الشارع الذى نسكن فيه . أما أنتم وعندكم سيارة فقد أخذتمونى أنا ضيفتكم بعيداً عن الكنيسة ! ! . . وهل لنا بعد هذا أن نتخيل الملاك المحسود الممدوح المغبوط من الناس فى ساردس ! ! . . . إنه أول كل شىء الراعى الذى يرعى كنيسة يمكن أن تكون تحفة فنية رائعة فى مبانيها ، وقد درج العالم المسيحى على الاهتمام المذهل بفخامة الكنيسة وروعة مظهرها وجمال موقعها وما تتسع له من صالات وقاعات ملحقة بها . . . وإذا كان الاهتمام بالمبانى

يلزم الأخذ به إلى حد كبير ، إلا أن المغالاة فى ذلك تتحول إلى النقيض ، وذلك لأن المبانى فى حد ذاتها ، لا يجوز أن تتحول إلى ما يبهر النظر أو كما ردد التلاميذ أمام المسيح وهم يتحدثون عن عظمة الهيكل : « فتقدم تلاميذه لكى يروه أبنية الهيكل . فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم إنه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض » (مت ٢٤ : ١ و ٢) . . وأين كنيسة أجا صوفيا فخر المبانى والتى بذل فيها الإمبراطور جستنيان ما جعله يعتقد أنه تفوق على سليمان فى بناء الهيكل ، وأين كنيسة بطرسبرج التى استباحها الشيوعيون وجعلوها وغيرها متاحف تتحدث عن عز دارس ومجد قديم ، . . . وقد أتيح لى فى زيارتى لروما ، وأنا أتطلع إلى المبانى المذهلة لكنائسها الشامخة العظيمة أن أستمع إلى أحد المعجبين الذى كان يقول : هنا عظمة المسيحية ، فأجبته فى الحال : لا يا صاحبى ! إن العظمة الحقيقية ليست فى المبانى الشامخة بل تراها أكثر وأعظم فى المدينة عندما تنزل إلى أسفل الأرض فى الكهوف العميقة حيث مقابر الشهداء ، وحيث كان أبطال المسيحية يقيمون العبادة هناك ! . . . ربما كان ملاك كنيسة ساردس محسوداً من زملائه لعظمة مبانى كنيسته . . . وفى الحقيقة قد ينخدع إلى اليوم الكثيرون الذين يذهبون إلى الكنائس الأمريكية الكبيرة والتى تبنى على مساحات شاسعة من الأرض ، وبها كل ما يخطر على البال من جمال النوادى الملحقة بها والقاعات الفخمة ، والغرف التى لا تكاد تحصى وتعد بما فيها من أسباب التسلية وضروب اللهو وما أشبه ، . . ولكن المبانى وحدها لا يمكن أن تكون تعبيراً عن الحياة ، ودليلا عليها ، . . . وما أكثر المقابر الأمريكية التى تتفوق على القصور ، ولكن الموت يربض فيها ويستقر ، وتكتب أسماء الموتى على الرخام الفاخر الأنيق فى المكان الظاهر منها ! ! . . . وقد تقاس الحياة عند هذا الملاك بالثروة الباذخة وبحبوحة العيش التى يعيشها ،

فالذهب يتدفق بين يديه ، والأموال تدخل الكنيسة بلا حساب ، فإذا كان الرعاة فى الكنائس الست الأخرى يحصلون على الكفاف أو أقل أو أزيد ، فإن مرتبه هو أعلى المرتبات جميعاً ، ودخله هو ربما يتفوق على دخلهم جميعاً ، . . . وقد يفاخر بذلك بينه وبين نفسه أو يعد نفسه محظوظاً ، . . وينسى أنه يتبع ذاك الذى قال عن نفسه : « وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه » (مت ٨ : ٢٠) . . أليست هذه هى النغمة التى سادت الكنيسة ، وهى تركض وراء الذهب ، وتجد فى البحث عنه إلى حد أن باعت فى سبيله ما أطلق عليه فى التاريخ اسم « صكوك الغفران » . . وألم يقل أحد البابوات للراهب توما الكمبيسى وهو يتجول معه فى أبهاء الفاتيكان : لا نستطيع أن نقول الآن ما قاله القديس بطرس : « ليس لى فضة ولا ذهب » ، وأجاب الراهب الشجاع قائلا : ولا تستطيع أن تقول أيضاً : « باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش » ! ! (أ ع ٣ : ٦) . . فى الحقيقة ما أكثر ما اجتذب المرتب المغرى أو الثروة الطائلة الكثيرين من الخدام لتقتلهم حياة الدعة والترف والخمول ، فيدفنوا تحت الثروة التى بهرتهم ! ! . . . ويظن الناس أنهم أحياء على أروع صور الحياة العصرية ، وما هم عند السيد إلا أمواتاً مدثرين بأكفان زاهية إذ لهم اسم الأحياء دون رمق من حياة أو نبض أو حركة ، أو قد يكون الأمر متعلقاً بالعبادة ذاتها ، ولعل هذا ما رآه دكتور تود عندما حلم أنه يدخل الكنيسة ليرى العبادة فيها فرأى من أولها إلى آخرها أحجاراً تسقط من فم الواعظ أو فم الموعوظين أيضاً ، . . فالواعظ من المنبر يعظ ، وقد تكون عظته منمقة قد بذل الجهد فى إعدادها واحتاج إلى المراجع والكتب المتعددة ، وهو يكتبها ويصقل كتابتها ، ولا يجوز لأحد أن يعكر صفوه فى المكتب وهو مشغول بها ، ثم يلقيها ، ولا تزيد عن أحجار تتساقط من فمه ، والعابدون فى ترانيمهم أو

صلواتهم لا يلقون إلا أحجاراً ميتة تتساقط من أفواههم وقد تكون فرق الترنيم وهى تصاحب الأورج الفخم العظيم والأصوات الرائعة ، ليست إلا أغانى موتى لا تصل إلى السماء ، ... ألم يحدث على ما تقول الرواية أن جماعة من الرهبان وهى تتعبد كل مساء وفد عليها رجل كان رخيم الصوت إلى أبعد الحدود ، واشترك معها فى الترنم بصوته الساحر الجميل ، وما أن سمع الرهبان هذا الصوت ، حتى أخذوا يسكتون الواحد بعد الآخر ، لأنهم آثروا أن يسمعوا صوت الضيف الجميل عن أن يسمعوا أصواتهم الخشنة التى لا يجوز أن ترتفع إلى جانبه ، وسعدوا فى تلك الليلة كما لم يسعدوا فى حياتهم بالترنم ، وعندما ناموا جاء الله إلى رئيس الدير فى المنام يسأله لماذا لم يرنموا فى المساء ، وذهل الرئيس لأنه كان يعتقد أنهم لم يعرفوا الترنيم كما عرفوه فى تلك الليلة ، واكتشف أنه ليس الصوت أو النغم بل الحياة التى يطلبها الله ويرضى عنها فى روح المترنمين !!... وما أعظم ما يبدو العابدون فى أجمل مظهر ، ولكنهم خواء وموتى أمام الله فى السماء ! ! . . . وقد يكون الموت كاملا مع المظهر الإدارى الفخم لملاك كنيسة ساردس ، وقد يغطى الشيطان الموت والعفن ، بالحركة الإدارية الواسعة ، وقد يضحك وهو ممتلئ بالسعادة عندما يرى المؤتمرات العظيمة ، والقرارات التى تتمخض عنها ، ومئات أو آلاف الموظفين الذين يذهبون ويجيئون على وجه السرعة فى مختلف القارات ، وعشرات الألوف من الجنيهات تصرف على ركوب الطائرات والسفر وما أشبه ، . . . ومن الطبيعى أن ملاك كنيسة ساردس لم يكن قد عرف الطائرات بعد أو نظام السكرتيرين والسكرتيرات والدخول بمواعيد محددة إلى حضرة الراعى المبجل ، ولكن روحه كانت من هذا النوع الذى تقتله الإداريات ، وتجرده من كافة ألوان التعبد والإحساس بالرسالة الثمينة ، رسالة السعى وراء النفوس الضائعة التى مات المسيح من أجلها على خشبة الصليب ! ! . .

ومن الملاحظ أن السيد المسيح لا يتحدث لملاك كنيسة ساردس عن هرطقة معينة أو تعاليم فاسدة ، كمثل ما كشف عنه فى الكنائس السابقة عن النقولاويين أو بلعام أو ايزابل ، .. فهل يرجع الأمر إلى أن العالمية وحدها هى التى قوضت الكنيسة ، وإلى أن فسادها قد امتد إلى الدرجة التى طوت معها كل المعتقدات بما فيها من صحيح وكاذب ، . . . إذ لا نستطيع أن نتصور كنيسة بلغت هذا الحد من الموت أو الضياع دون أن يكون السوس قد نخر فى تعاليمها ومعتقداتها ، . . أم أن الأمر أمر الأعمال وحدها التى أضحت قبيحة بصرف النظر عن صحة المعتقدات فى حد ذاتها ! ! على أية حال هناك بقايا من الحياة يخشى أن تنتهى وتموت كما ماتت غالبية الكنيسة ، والمسيح مع هذا الضياع كله ، يرسل لها نصيحة أخيرة ، للعودة إلى المعتقدات الأولى والحياة الأولى : « كن ساهراً وشدد ما بقى الذى هو عتيد أن يموت لأنى لم أجد اعمالك كاملة أمام الله . فاذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب فإنى إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك » (رؤ ٣ : ٣).وهنا نتبين إلى أى حد يكره الله أن يموت الخاطئ ، فهو ينذر ويحذر ويتأنى ، طالما فى الإنسان أقل بادرة من رجاء أو أمل ، ولكن عندما يتمادى الإنسان فى قساوة قلبه فإنه يجرى قضاءه الصارم الذى تحتمه عدالته الكاملة ، ومن ثم فهو يباغت المهمل والعنيد بالقضاء الكامل ! ! . . كانت ساردس مشهورة بثروتها الباذخة ، وكانت عاصمة ليديا وأهم مدنها فى وقت من الأوقات ، . . وكان ملك ليديا الأخير واسمه كريسوس من أغنى ملوك العالم ، ولقد تحدثنا فيما سبق عن ثروته التى كان يفاخر بها وكان يظن أنه أسعد إنسان على ظهر الأرض ،. . . ولكن النهاية القاسية قد أطلت على كريسوس وهو فى أوج مجده بغتة باستيلاء كورش الفارسى على مملكته . . فإن أسوأ نهاية للأشرار عندما يفاجئهم الديان العادل وهم يسكرون

ويشربون ويعربدون ! ! . . . كان ملاك كنيسة ساردس على علم بتاريخ بلده ومليكه ، وكان عليه أن يتحذر لئلا يبغته القضاء الإلهى فجأة حيث لا مناص ولا أمل أو رجاء فى نجاة ! ! . . .

ملاك كنيسة ساردس والبقية المضمونة :

على أنه مهما كثر الضلال أو المضلون ، فإن ذلك لا يضيع عند السيد حق الأقلية الأمينة ، وهو لا يمكن أن يأتى بالكارثة شاملة للجميع دون تفرقة بين شرير وبار وبين آثم وصالح ، . . وهو لذلك سيحفظ القلة الصالحة ويعتنى بها ويصونها كحدقة العين ، ولو جاء الطوفان فإنه سيذكر نوحاً وبيته ، من بين كافة الناس على وجه الأرض ، وعندما يلحق الدمار بسدوم وعمورة ومدن الدائرة ، فإنه سيلتقط لوطاً من وسطها ، وعندما يأتى الضياع لكل من فى ساردس ، فإنه سيذكر قلة صغيرة قد لا يذكرها الناس لقلة عددها أو ضآلة شأنها فى نظر المجتمع ، ولكن الله القدير السرمدى يراها على الدوام عزيزة فى عينيه ، وهو يعلم معركة هؤلاء مع الحياة والشر والإثم والخطية والعالم ، ولا بد لهم من مكافأة وجزاء ، . . وأول مكافأة هى أن يعطيهم الثوب الأبيض الذى يظهرون به أمامه فى الأرض وفى الأبدية : « من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاء » (رؤ ٣ : ٥) . . والثياب البيضاء رمز النقاوة ، والنصر ، . . والغريب أنه يقول هنا : « فسيمشون معى فى ثياب بيض لأنهم مستحقون » . . . واستحقاقنا نابع أصلا لا من جهد فينا أو عمل عملناه بل لأنه كسانا بالصليب رداء البر ، وألبسنا ثياب الخلاص ، وكل ما يمكن أن ينسب إلينا هو القبول للدم ووضعه على العتبة العليا والقائمتين فى حياتنا على هذه الأرض ، فيرى الدم ويعبر عنا غضبه وهلاكه . . . فى أعقاب الحرب العالمية دخل الجيش الأحمر فنلندا ، واستبسل الفنلنديون فى الدفاع عن وطنهم ، وفى معركة أسروا بعض الروس ، وحكم على سبعة

منهم بالإعدام ، . . وكانوا من الشباب الروسى الذى تعلق بالشيوعية ، ولفظ دين أبائه وأجداده ، وقد حدث أن سجن هؤلاء الأسرى ، وأوكل إلى أحد الضباط حراستهم حتى ينفذ فيهم حكم الإعدام ، وكان اسم الضابط نوردمبرج ، . . . وفكر واحد من رجال جيش الخلاص زيارة هؤلاء الجنود ، ووعظهم عن المسيح ، وبدا كما لو أن خطابه كان بدون أدنى تأثير ، على أنه ختم الاجتماع بالترنيم والصلاة . وكانت الترنيمة معروفة وتقول :

آمنـــــا آمنـــــا فى سلام بلا رعب

آمنـــــا آمنـــــا آمنـــا فى أذرع الرب

وفى الليلة التى كان فيها الجنود سيقدمون فى الصباح للموت حدث أمر عجيب إذ بدأ أحد الأسرى يغنى وكان اسمه كوسكنن ، ولم يكن يلعن أو يهذى كعادته بل كان يغنى نفس الأغنية التى استمع إليها من رجل جيش الخلاص ، وقد أثرت هذه الأغنية فى الجميع ، وسأله أحدهم أين تعلم الترنيمة ، وهل أصبح متديناً ، وتبين أن الترنيمة التى استمع إليها لم تملك عليه شغاف قلبه فحسب ، بل إنها أكثر من ذلك ذكرته بأيام الطفولة ، عندما كانت أمه تحدثه عن المسيح المخلص ، . . تكلم كوسكنن وقد انعكس على وجهه المجد الذى كان يملأ قلبه ، . . وهنا قال أحد رفاقه وهو يستمع إلى شهادة الشاب : لقد أصبت يا كوسكنن ، وآه ليت لى هذه النعمة ، ولكن يدى مخضبتان بالدم ، ولم يبق لى سوى الجحيم فهو المكان المناسب لأمثالى . وانطرح ينتفض وهو يصرخ بدموع قائلا : صل يا كوسكنن ، وانحنى كوسكنن يصلى لأجل زميله ، لم تكن الصلاة طويلة لكنها كانت قوية ، فقد فتحت السماء لكليهما ، . . . وكان منظرهما مؤثراً ، حتى أن

البقية تأثروا ، . . . وهب روح الله على المكان ، . . وعندما جاء الصباح قال أحدهم : غن يا كوسكنن ، واشترك الجميع فى الترنيم والأغنية ، . . وتمنى الضابط المكلف بإعدامهم لو أمكنه استصدار العفو لهم ، . . ولكن كان هذا مستحيلا . . وبعد الانتهاء من الترنيم ، أطلق الرصاص عليهم ، وأحنى الضابط الفنلندى رأسه فى الصلاة ، وجاء به المنظر إلى المسيح ، إذ لم يكن قد سبق أن سلم حياته لله ، . . . وسار الكل فى ظل الصليب وقد ارتدوا الثياب البيضاء التى يرتديها المؤمنون المخلصون بدم المسيح ! ! . . والثياب البيضاء تتحدث إلى جانب التطهير ، عن المجد ، فهى إعلان عن المجد السماوى الذى يناله المؤمنون وقد تخلصوا من كل دنس الأرض وشرورها وتجاربها فهى « رداء الحياة الأبدى » الممنوح من يسوع المسيح ! ! . . . ومن المناسب أن نلاحظ ارتباط هذا الوعد بالقول : « ولن أمحو اسمه من سفر الحياة » (رؤ ٣ : ٥) . . وهو تعبير مجيد يرتبط حتما بانتصار المؤمن وغلبته ، ولا يجوز أن نأخذه بمعنى أن المؤمن يمكن أن يرتد ويهلك ، أو أن الله يكتب اسمه أولا عند التجديد فى سفر الحياة ، ثم يمكن أن يعود فيمحو ذلك الاسم ، إذ أن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة ، ومعلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله ، لكن التعبير أخذ أساساً من أن الموتى ترفع أسماؤهم من سجلات الأحياء فى المدينة ، ولا يجوز أن يحسبوا أحياء وهم موتى ، . . وقد يحسب الكثيرون أعضاء فى جسد المسيح لمجرد أن أسماءهم مكتوبة فى سجلات العضوية فى الكنيسة أو أنهم عمدوا أو مارسوا أعمالا أو وظائف كنسية ، فقد تكتب هذه الأسماء وتمحى ، لكن أسماء الغالبين لا يمكن أن تمحى من سفر الحياة ، . . . والتعبير مهما قيل فيه ، فهو من الألفاظ المستخدمة للتذكرة والتنبيه والتحذير على مستوى فهم الإنسان ، كالقول : « ندم الله »

والله أساساً لا يندم أو يتحول عن فكره ، ولكنها للتعبير عما يبدو أنه تغيير فى الاتجاه فى مفهوم الإنسان ، . . . والله هنا يريد أن يذكر حقيقتين متلازمتين ، وهما الجهاد المنتصر واستحالة المحو من سفر الحياة ، . . . وهو من قبيل القول : « إذا يا أحبائى كما أطعتم كل حين ليس كما فى حضورى فقط بل الآن بالأولى جداً فى غيابى تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة » (فى ٢ : ١٢ ، ١٣) فإذا كان الجزء الأول من العبارة يتحدث عن مجهود الإنسان فى الخلاص ، فإن هذا لا يتناقض البتة مع احتواء هذا الجهد فى نطاق الإرادة والقدرة الإلهيتين، والمسيح هنا مع أنه هو الذى يعطينا رداء البر ، وهو الذى يكتب أسماءنا فى سفر الحياة ، إلا أنه حريص فى الوقت نفسه على أن يشجعنا على الإحساس بالمسئولية الموضوعة علينا ، التى لا يجوز تجاهلها البتة ، إن الحياة الروحية معركة ، تتطلب الصراع المستميت المنتصر ! ! . . . وهو يضيف إلى ذلك ، ولهذا السبب : « وسأعترف باسمه أمام أبى وأمام ملائكته » . . . وهو اعتراف لا يمكن أن يتم إلا للذين اعترفوا به رباً وسيداً وملكاً على حياتهم ، وكانوا على استعداد للشهادة والاستشهاد من أجل اسمه ! ! . . .

على أية حال إن الكنيسة الواحدة يختلط فيها الموتى والأحياء ، وقد يكون الموتى أكثر عدداً وأبهى منظراً من وجهة النظر العالمية ومع ذلك فهم موتى ، . . ولكن مهما كثر عددهم فإن من رحمة الله هناك قلة باقية أمينة لربها متسربلة بثياب النور البيضاء ! ! . . وهى لا يمكن أن تضيع متى ثبتت على الثقة فى السيد والانتصار به ، . . . عندما كان كرومويل فى ضجعة الموت سأل واحداً من رجال الله قائلا : هل يسقط الإنسان من

نعمة الله – وهو يقصد المتمسك بنعمته –وقد حصل عليها يوماً من الأيام ! ! .
وكان الجواب : كلا ! ! ومات الجندى الإنجليزى العظيم الشجاع وعلى شفتيه هذه العبارة : أشكر الله لأنى نلت هذه النعمة فى يوم من الأيام ! ! . .
أيها القارئ ليت لك هذه النعمَة ، وليتها تكون فيك النعمة الفعالة التى تمسك بيدك من مدينة الموتى مدينة ساردس إلى فردوس الله ! ! . . .

١٥٩

ملاك كنيسة فيلادلفيا

« هاأنذا قد جعلت أمامك بابا مفتوحا ولا يستطيع أحد أن يغلقه » (رؤ ٣ : ٨)

كان على الولد الصغير أن يسير مسافات طويلة كل صباح بين بيته والمدرسة البعيدة ، وقد تعود أن يسير معه أبوه ثم يعود به فى وقت العودة ، وكان يقطع فى الطريق غابة كبيرة تفصل بين البيت والمدرسة ، . . . وذات يوم قال له أبوه إن عليه أن يعبر الغابة وحده ، فهو الآن أكبر من أن يسير معتمداً على غيره ، ويلزم أن يواجه الحياة بشجاعة أوفى وأكمل ، وكان الاختبار مريراً ، وسار الولد بين الأشجار العالية التى تحجب الشمس والنور ، وهو يرتعد خوفاً ، على أنه فى قلب الغابة كاد شعر رأسه يقف ، لأن دباً ظهر فى الطريق ، وكيف له وحده أن يواجه الدب المفترس ، وما هى إلا ثوان حتى رأى الرصاص ينهمر على الدب ويقتله ، وتعجب ، ولكن لم يطل عجبه إذ رأى أباه إلى جواره فى الحال ، ... لقد كان أبوه يسير معه فى الطريق متخفياً ،

والولد لا يعلم ، وكان يريد له أن يتعلم ، وقد وقف على أعتاب الشباب ، كيف يواجه الحياة بالرجولة المبكرة ، . . قد تكون هذه القصة واقعية أو موضوعة ، لكنها على أية حال تمثل قصة حياة المؤمن فى علاقته بالله ، فالمؤمن لا يسير وحيداً فى أدغال الحياة وفى مواجهة وحوشها الضارية ، . . وما الواحد منا إلا طفلا تائهاً فى الظلام ، لولا نعمة الله ورحمته التى تصون حياتنا وتجتاز بنا العالم الحاضر الشرير ! ! . . . ومن العجيب أنه لم يكن بين ملائكة الكنائس السبع من هو أضعف من ملاك كنيسة فيلادلفيا فى امكانياته أمام الظروف المحيطة ، لكنه مع ذلك كان أعظم الملائكة وأقواهم جميعاً وأكثرهم نجاحاً فى التغلب عليها ، وفى الحقيقة إن هذا الملاك النموذجى ، تصلح سيرته أن تكون عظة وعبرة لكل المؤمنين فى موكب الحياة المتعب المضنى الطويل فى قصتنا الأرضية ولذا يحسن أن نراه فيما يلى :

ملاك كنيسة فيلادلفيا والقوة اليسيرة :

كان ملاك فيلادلفيا على النقيض تماماً من ملاك كنيسة ساردس فى كل شىء بحيث أنك تستطيع ، وأنت فى مأمن من الزلل ، أن تصفه بالنقيض فى كل الأمور ، وقد أجمل السيد وصف الرجل : « لأن لك قوة يسيرة » وأغلب الظن أن الرجل كان فقيراً إلى حد بعيد ، ليس له فضة أو ذهب كبطرس الصياد سواء بسواء ، وكل ما يملك من هذا القبيل ، هو خبزات الشعير التى كان يملكها الصبى الذى سلم خبزاته للسيد ، وهو صورة دائمة للكنيسة فى وضعها تجاه ثروات العالم كله ، . . . ولعله يذكرنا بمدينة فيلادلفيا الأمريكية العظيمة ، والتى أخذت اسمها من اسم فيلادلفيا القديمة ،.. وقد حدث أن طفلة صغيرة ذهبت إلى مدرسة أحد صغيرة ، وطلبت أن يقبلوها تلميذة فى فصل من الفصول ، وكانت الكنيسة صغيرة جداً ،

والفصول مكتظة ، بحيث ظهرت صعوبة أفى قبولها وترددوا ولا فى اعطائها المكان المناسب ، . . وتألمت الصبية لأنها لا تجد مقعداً تجلس عليه ، . . ومع أنها كانت فقيرة جداً إلا أنها ابتدأت تقتصد بنساتها لتقدمها لبناء كنيسة أكبر لكى يتمكن الأطفال الفقراء من الحصول على أمكنة لهم فى مدرسة الأحد . بدأت الطفلة تقتصد دون أن تخبر أحداً ، ولم يدر أحد بما كانت تعمله حتى دعى راعى الكنيسة لزيارتها وهى على فراش الموت ، كانت مريضة جداً جداً ، وبعد قليل أخذها الله إليه فلما ماتت وجدوا تحت وسادتها كيساً صغيراً أحمر للنقود وبه سبعة وخمسون بنساً ، وورقة مكتوب فيها أنها اقتصدت هذا المبلغ لتساعد فى بناء كنيسة أكبر وأن أمنية قلبها أن تساعد فى بناء الكنيسة التى يمكن لكل الفقراء أن يجدوا لهم مكاناً فيها . وقام القسيس بخدمة الجنازة وفى أثناء كلامه رفع كيس نقود الطفلة ، وذكر القصة ، وذكرت الصحف الأمر ، وتناقل الناس الرواية ، وانسكبت دموع كثيرة ، وانهالت التبرعات حتى وصلت إلى مائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات ، والذين يذهبون اليوم إلى فيلادلفيا يرون صورة طفلة صغيرة معلقة فى صالة كلية تمبل حيث يوجد آلاف الطلبة ، فى الكلية الملحقة ببناء كنيسة تمبل المعمدانية التى تتسع لثمانية آلاف شخص ، كما ألحق بالكنيسة مستشفى للأطفال يسمى مستشفى السامرى الصالح ، وغرف مدارس الأحد تستوعب جميع الراغبين فى الحضور . . . والبنت اسمها هاى ماى ويات ! ! . . كان ملاك كنيسة فيلادلفيا لا يملك أكثر من هذه البنسات القليلة فى عالم المال ، إذ كانت قوته المادية يسيرة ، ومع ذلك كان الإنسان الذى باركه الله رغم فقره العميق ! ! . . . وكان ملاك كنيسة فيلادلفيا محدود الحظ من ناحية المركز الاجتماعى والنفوذ بين الناس ، وربما كان اسمه مجهولا عند الكثيرين من سكان المدينة ، ومع ذلك فلربما لم يوجد إنسان فى فيلادلفيا أثر فيها وفى

تاريخها كما فعل هو . . . من بين رؤساء الولايات المتحدة ، كان هناك رئيس اسمه جيمس جارفيلد ، . . كان يقيم قريباً من كليفلاند ، وعندما انتخب رئيساً للولايات المتحدة ، كتب إلى أمه العجوز يدعوها للذهاب معه إلى واشنطن ، ومع أن الأم كانت ولا شك فخورة بابنها إلا أنها كانت حائرة إذ أحست أنها ستكون غريبة فى وسط رجال الدولة العظام ، وحاولت أن تعتذر ولكنه أصر على ذهابها ، . . وعندما ذهبت إلى الكابيتول حيث جاء عشرات الألوف من الناس ، فلم يجدوه جالساً على كرسيه ، بل ترك الكرسى لها وجلس إلى جوارها ، وبعد أن ألقى خطاب الرياسة عاد ليجلس ، وقبل أن يجلس طوق أمه بذراعه ، وقبل وجهها ، فقوبل بعاصفة من الهتاف للعمل العظيم والتقدير النبيل الذى خلعه على أمه ، . . . ولم يكن جهد الملاك ملحوظاً من الناس ، وهو لا يمكن أن يقارن فى أذهانهم وأنظارهم بالجهود التى تبذل فى الأعمال البشرية ، . . . وكانت قوته يسيرة من هذه الناحية ، إذ لا تحف بها الدعاية المنظمة أو الإعلان المنظور أو ما أشبه مما يفخم الجهود البشرية ، رغم أنها قد لا تساوى شيئا إلى جانب الخدمة الصحيحة المثمرة ، وماذا يمكن لواعظ فى الطريق أو فى قاعة صغيرة أن يفعل من تأثير فى حياة القوم ، وهم لا يعلمون ، أن تاريخ المدينة وتغيير مسارها وتطور أسلوب الحياة فيها ، مرهونة جميعها بما يفعل هذا الواعظ الشعبى المجهول من الغالبية فيهم ! ! . . . إنه يذكرنا بالحقيقة العجيبة من أن الذى غير التاريخ البشرى ، لم يكن المال أو القوة العسكرية أو ما أشبه بل بالكرازة بيسوع المسيح ، ولعل الشاعر الغربى قد أحسن التصوير وهو يقول :

عندما كان يسوع طفلا أنشأ حديقة

غرس فيها العديد من الورود الجميلة

وكان يسقيها ثلاث مرات فى اليوم

ليصنع منها كما انتوى إكليلا من الزهور

فلما أزهـــرت الورود

دعا الطفل القدوس أصدقاءه الصغار

ليقاسموه الزهور ولـكنهم مزقوهـــا شر ممزق

ولم يتركوا إلا الجذور فأصبحت الحديقة عريانة وخالية.

وعندما قالوا له من أين تصنع إكليلك

وقد ماتت كل الورود

أجاب بابتسام

لقد نسيتم الأشواك فهى من نصيبى

فصنعوا له إكليلا من الشوك

غرسوه فى رأسه

فصـــار إكليلا لجبينه

وبدل الورود الحمراء تساقطت نقط من دم

كان ملاك كنيسة فيلادلفيا ، وهو يحمل صليبه وراء سيده يبذل عصارة جهده اليسير مع عرقه ودمه خدمة للجميع ! ! . . .فإذا تصورناه أخيراً

محدود المعرفة لا يحمل الشهادات العلمية ، أو كان حظه منها محدوداً فلنا أن نعلم أن اسبرجن أمير الوعاظ لم يكن حظه من الشهادات العلمية كحظ الكثيرين الذين تفرقوا فى الجامعات وأحرزوا الشهادات العلمية العالية ، ولكنهم كانوا دونه فى التأثير ، وكان مودى أقل حظاً ، وقد قيل إن أحدهم جاءه عقب عظة من عظاته مسجلا له إحدى عشرة غلطة لغوية وقعت منه فى أثناء العظة، ولكن مودى قال له : إنه يعترف بأن حظه العلمى كان محدوداً، ولكنه مع ذلك يسلم وزناته المحدودة لسيده بكل أمانة ويطلب منه أن يتمجد فى فى ضعفه ، . . . لأنه إن كان الله قد سر أن يستخدم الأوانى البشرية فإنه لم يعتمد قط على حكمة الحكماء ، أو قدرة الفلاسفة : « لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء . أين الحكيم . أين الكاتب . أين مباحث هذا الدهر . ألم يجهل الله حكمة هذا العالم . لأنه إذ كان العالم فى حكمة الله ، لم يعرف الله بالحكمة ، استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة (١ كو ١ : ١٩ — ٢١) . . كانت فى اليابان بقعة مشهورة بكثرة الانتحارات ، فعلقت سيده يابانية مسيحية عند المكان هذه العبارة البسيطة : « انتظر لحظة . الله محبة . إن كان يجب أن تموت فأرجو أن تأتى وترانى غداً ».. وقيل إن مئات من النفوس نجت من الموت انتحاراً بسبب تلك العبارة ، لأنهم عندما كانوا يذهبون إلى السيدة كانت تتحدث إليهم بكل بساطة عن القصة القديمة الحديدة ، قصة الفادى . وهناك عرفوا كيف يواجهون أقسى ظروف الحياة ! ! ..

ملاك كنيسة فيلادلفيا والباب المفتوح :

لعل ملاك كنيسة فيلادلفيا ، وهو يحس بقوته اليسيرة المحدودة فى الظروف والأوضاع المحيطة به ، استولى عليه ما يشبه الضيق أو اليأس ،

إذ كيف يشق سبيله ، والطريق مسدود أمامه من شتى الجوانب ، على أن السيد أكد له أن أمامه باباً مفتوحاً قد جعله له ،ولا يستطيع أحد أن يغلقه ،... وكان الباب المفتوح أمامه هو :

باب التبشير :

كانت هناك على الأغلب ثلاث عقبات رئيسية تنهض فى مواجهة الرسالة المسيحية ، وكانت العقبة الأولى أن فيلادلفيا تعبد باخوس إله الخمر ، وكانت مدينة مليئة بالعربدة والفجور ، وليس من السهل تصور أن يقبل الناس فيها على رسالة الخلاص ، . . ولكن الله أكد لخادمه أن نعمته العجيبة تفعل كل شيء مع السكير والزانى والأحمق والفاجر . جاء فى مذكرات أحد الوعاظ ، قوله : « حدث هذا الحادث فى رحلة من رحلاتى ، فقد دعانى صديقى بلى برايس الذى كان يحب الوعظ عن الروح القدس وعمله إلى أن أقوم بالخدمة فى الاجتماع الذى يرعاه ، وكانت الآية التى أعطيت لى لأتكلم عنها : « لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » (لو ١ : ٤) . . . وقبل الخدمة رفعت صلوات حارة لأجل انسكاب الروح القدس الذى ظهر فى ذلك الاجتماع بكيفية عجيبة ، ولقد قدمت الرسالة بقوة ليست منى ، ومبارك الله لأجل الذين عزموا أن يسلموا حياتهم للرب فى تلك الليلة ، ومن بينهم رجل سكير دخل إلى الاجتماع وهو يتفوه بألفاظ سمجة شريرة ، وكان تحت تأثير الخمر ، ولكن الروح القدس بكت الرجل على خطيته ، فانتظر فى نهاية الاجتماع ، فى حلقة الصلاة ، وكان يبكى كطفل صغير عندما كلمته عن خلاص نفسه ، وقال لى : اننى مريض ببرص السكر ولو عرفت حقيقة أمرى لما تكلمت معى ، فأجبته : لا يوجد حالة صعبة على الرب ، إنه يستطيع أن يخلص أشر الخطاة ، وبعد ذلك بدقائق قليلة مسح الرجل دموعه من على

خديه وقال بفرح : لقد نلت الخلاص . وقد رأيته فى الاجتماعات التالية ، ولم أستطع معرفته فى البداءة فقد تغير مظهره بشكل عجيب ! مبارك الرب إلى الأبد الذى يفعل هكذا ! ! . . سمع أحد الشبان الواعظ يعظ عن نعمة المسيح المخلصة ، ويقول إن هذه النعمة تتحدى جميع الخطايا وتنتصر عليها ، فتهلل وجهه ، وعندما انتهى الاجتماع ذهب إلى الواعظ وهو يقول متهللا : لقد دخلت الليلة ، . . . وقال له الواعظ ولم لم تدخل من قبل . . أجاب : كنت يائساً من خطاياى ، ولكنى أدركت الآن أنه لا يأس مع المسيح . . .

وكانت العقبة الثانية أمام ملاك كنيسة فيلادلفيا ظلام الوثنية الذى كان يملأ المكان ، وكيف يمكن أن تشق المسيحية طريقها فى هذا الظلام ، وهو لا يملك إلا القوة اليسيرة التى يتصور أنها لا تستطيع أن تحطم الأوثان ، وتهدم معابدها ، وتقلب كل شىء رأساً على عقب ، . . ولكن المسيح يؤكد له أن الباب مفتوح ، وأن أحداً لا يستطيع أن يغلقه ، . . نحن نرى اليوم المسيحية ، وقد دان لها الملوك والعظماء والسادة بين الشعوب ، ولكن الأمر لم يكن هكذا فى مطلعها ، وكان ملاك كنيسة فيلادلفيا فى حاجة إلى شجاعة هذا التصور ، ومع ذلك أعطاه السيد اليقين العجيب بها ، . . كان الباب موصداً أمام بولس ليدخل إلى بيت قيصر ، وكان يعتبر هذا من الوجهة البشرية ضرباً من المستحيل ، . . ولكن السيد كشف أنه لامستحيل أمام إحسانه ونعمته ، واستغل سجن بولس نفسه ، فإذا لم يستطع أن ينتقل هو إلى بيت قيصر ، فلينتقل بيت قيصر نفسه إليه ، عن طريق الجنود والحراس الذين كانوا يتناوبون حراسته ، وبشرهم بولس ، وعن طريقهم دخل الإنجيل إلى بيت قيصر ، فكتب : «يسلم عليكم جميع القديسين ولا سيما الذين فى بيت قيصر » (فى ٤ : ٢٢) وقال لتلميذه تيموثاوس : « اذكر يسوع المسيح

المقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلى الذى فيه أحتمل المشقات حتى القيود كمذنب ولكن كلمة الله لا تقيد » (٢ تى ٢ : ٨-٩) .. رأى وليم كارى الباب المفتوح إلى الهند رغم أنها كانت غارقة فى الظلام ، ورآه هدسن تايلور مفتوحاً إلى الصين رغم الوثنية المخيفة هناك ، وأبصر وليم تندال إنجلترا تحرق الانجيل الذى ترجمه ففزع ولا شك ، ولكن المسيح همس فى أذنه ألا يفزع إذ جعل أمامه الباب المفتوح ، وبالمال الذى بيعت به نسخ الإنجيل أمكنه أن يترجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لنشره وتقديمه للناس ! ! . . .

أما العقبة الثالثة فقد كانت التعصب الذميم الذى أظهرته الجماعات اليهودية بالمدينة ومجمعهم الذى صمم على مهاجمة المسيحية والقضاء عليها ، وكان عداوءه لها مخيفاً ، وقد انتشر اليهود بعد خراب أورشليم فى أسيا الصغرى ، وكونوا مجامع رهيبة استخدمها الشيطان أيما استخدام ، ولكن نعمة الله عملت فى الكثيرين منهم فتحولوا إلى الإيمان وانتصرت المسيحية فى حياتهم : « هانذا أجعل الذين من مجمع الشيطان ، من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون ، ها أنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أنى أنا أحببتك » (رؤ ٣ : ٩) ! ! . . .

باب الشركة :

ومهما كان حرمان ملاك كنيسة فيلادلفيا من أشياء كثيرة ، ومهما تضغط عليه الظروف ، فإنه لا يمكن أن يحرم من الشركة التى تربطه بسيده ، ومهما أغلق العالم أبوابه فى وجهه ، فإن هناك باباً مفتوحاً لا يستطيع أحد أن يغلقه . . . خسر تاجر ثروته فحزن حزناً شديداً وكان الرجل مؤمناً وعائلته

كذلك ،فاجتمع أفرادها من حوله يواسونه ويشددونه .. وقالت الزوجة : كيف تقول إنك خسرت كل شيء أنسيتنا ، والدتك وأنا ! ! ؟ وقاطعتها طفلتها الصغيرة الجميلة وهى تقول : وأنا ! ! واستطردت الزوجة : وصحتك إنها ثروة كبيرة . . وهنا قالت والدته : ويسوع يا ابنى ! ! . . عندئذ رفع الرجل رأسه منتصراً وقال : نعم يسوع ! ! ! قد بقى لنا يسوع ، ولنا فيه ، ومعه كل شيء ! ! . . .أجل ! ! لقد كانت الشركة بين المسيح وملاك كنيسة فيلادلفيا تغطى كل المتاعب والآلام والأوجاع والأوصاب،... وإذا سألت عن سر الشجاعة والصبر وقوة الاحتمال لذلك الملاك لعلمت أنها لم تكن أساساً فيه ، فهو إنسان مجرب تحت الآلام مثلنا ، ولكنها القوة التى نالها من السيد ، . . لقد وثق به ، وآمن بكلمته ، وعاشت معه هذه الكلمة تغذيه بالصبر العجيب على الأحداث والملمات ، وهو يسمع هنا : « لأنك حفظت كلمة صبرى » (رؤ ٣ : ١٠) .. والمفهوم من التعبير أنه المقصود به ، إنجيل المسيح المملوء بالحيوية والقوة والنشاط والصبر ، . .وهو المليء بالوعود التى تعطى للصابرين : « بصبركم اقتنوا أنفسكم » (لو ٢١ : ١٩) وهو الراية المرفوعة فوق هامات الجنود فى المعركة : « فاشترك أنت فى احتمال المشقات كجندى صالح ليسوع المسيح » (٢ تى ٢ : ٣).. كان ملاك كنيسة فيلادلفيا يعلم ، من اليوم الأول ، أن رحلته مع المسيح ليست نزهة فى بستان ، بل معركة فى حرب ضروس . . . وأن السهام ستتطاير من حوله فى كل لحظة وتنهمر عليه من الأعداء أنهار المطر ، ولكنه محفوظ بقوة سيده ، . . ومهما يجرى فى العالم من تجارب أو متاعب أو آلام : « أنا أيضاً سأحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتى على العالم كله لتجرب الساكنين

على الأرض »(رؤ ٣ : ١٠) . والتعبير عظيم وشامل يغطى الحياة بكاملها فى الحاضر والمستقبل ، للفرد أوالكنيسة ، وهو صورة دائمة لما يفعله المسيح: عندما يغطى نفوسنا ورؤوسنا تحت جناحيه فى معارك الحياة المحتدمة القاسية ! !.

باب النصر :

على أن الأمر ليس مجرد الشركة التى يتجه إليها المؤمن فى الملمات والضيق ، بل النصر الذى يحول الأعداء القساة إلى الساجدين عند الرجلين ! ! . . وهو نصر حاسم وقوى وعجيب ، هو النصر الذى وجده يوسف السجين بدون أمل أو رجاء أو قوة ، ليتحول إلى سيادة وجلال ومجد ونصر ، فى الباب المفتوح إلى المركز الثانى فى مصر ، وهو الباب الذى رآه موسى عند شق البحر الأحمر فهتف بأغنيته العظيمة : « الفرس وراكبه طرحهما فى البحر..» (خر ١٥ : ١) . . وهو الباب الذى وجده داود وآسا ويهوشافاط وحزقيا فى شتى المعارك التى خاضوها وانتصروا فيها رغم القوى العاتية التى كانت تقف فى وجوههم ، وهو الباب الحديدى المفتوح أمام بطرس عندما أراد هيرودس قتله ! ! . . وهو باب المؤمن فى أدق الأوقات وأقساها وأبشعها : « لولا الرب الذى كان لنا ليقل إسرائيل ، لولا الرب الذى كان لنا عندما قام الناس علينا إذاً لابتلعونا أحياء عند احتماء غضبهم علينا . إذاً لجرفتنا المياه ، لعبر السيل على أنفسنا . إذا لعبرت على أنفسنا المياه الطامية . مبارك الرب الذى لم يسلمنا فريسة لأسنانهم . انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين ، الفخ انكسر ونحن انفلتنا . عوننا باسم الرب الصانع السموات والأرض » (مز ١٢٤ : ١ — ٧) ! ! . . .

وقد يغلق الناس جميع أبواب الأرض ، ولكنهم لا يستطيعون أن يغلقوا باب المجد الذى يمسك المسيح بمفتاحه ! ! . . وأى مجد هذا ، لقد تعودنا

مرات كثيرة أن نصفه بالتحرر من السلبيات المفزعة التى يعيشها الإنسان فى الأرض ، دون أن ندرك جلال الإيجابيات التى تتجاوز كل خيال وفكر بشرى ! ! . . . كان بطرس ماكنيزى واعظاً شعبياً ، يمتلىء بالمرح ، والتقوى معاً ، وقد أراد أن يعظ يوماً ما عن السماء متخذاً موضوعاً لعظته : « وهم يترنمون ترنيمة جديدة » (رؤ ٥ : ٩) . . . فقال : عندما أصعد إلى السماء سألتمس من داود بقيثارته ، وبولس وبطرس وبعض القديسين أن يرنموا الترنيمة التى تبدأ بالقول : يا إلهى أبى ، عندما أضل . . وسيقول أحدهم : إنها لا تصلح هنا يا بطرس لأنك الآن فى السماء ولا يوجد ضلال .. فأقول حسناً لنرنم التى تبدأ بالقول : إذا الموج العاصف غطيا رأسى ، إذا تركنى الصديق وضاع الأمل ! ! . . وأسمع احتجاجاً : يا بطرس لا توجد هنا عواصف . إنك فى السماء !! . . فأتحول إلى الترنيمة التى تقول : إلى عالم الأثمة أنا مرسل . . . وإذا بى أسمع من يصرخ : يا بطرس سنخرجك من السماء إذا لم تطلب الترنيمة المناسبة . فأجيب : إذاً لنرنم ترنيمة موسى والحمل ! ! .... كان ملاك كنيسة فيلادلفيا يؤمن إيماناً راسخاً بأنه لا يوجد قوة على الأرض يمكن أن تغلق أمامه الباب المفتوح للمجد السماوى .

ملاك كنيسة فيلادلفيا وأسماء الحياة التى له فى المسيح :

كان ملاك كنيسة فيلادلفيا مجهولا أو شبه مجهول بين الناس ، إذ كان لا يملك من أسباب الدنيا إلا النذر اليسير على حسب مقاييس الناس ، فهو لا يملك ثروة أو جاهاً أو علماً يمكن أن تجعله علماً بين الأعلام المرفرفة فى الأرض ، . . ومع ذلك فإن هذا الرجل كان يملك الحياة بمعناها البعيد العميق الحقيقى ، . . وكان الناس الذين أغدق عليهم العالم ، كما أغدق على ملاك كنيسة ساردس ، لا يعيشون الحياة ، بل يعيشون الموت ، إن صح أن الموت يعاش ، .. أو هم فى واقع الحال على هامش الحياة ، لأن الحياة

الحقيقية لا يمتلكها إلا المؤمنون ، ولو تأملنا ملاك كنيسة فيلادلفيا ، وكلمة المسيح له أو وعوده العظيمة المقدمة له ، لعلمنا كيف تكون الحياة فى جمالها الأبدى العظيم ، . . . قال المسيح للرجل : « تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك » (رؤ ٣ : ١١) وهو هنا يذكره بالسباق على الأكاليل فى الألعاب الأولمبية ، وكيف تعطى لواحد ويحرم منها الآخرون ، وهو لا يريد للملاك أن يتوانى فى المعركة أو يتقاعس عن الركض ، أو لا يستمر فى الجهاد حتى اللحظة الأخيرة ، لئلا يفوز بالأكليل غيره ، دون أن يحصل هو على الأكليل السماوى الذى لا يفنى ، . . وهو لا يكتفى بهذا الوعد ، بل يدخل به إلى الأمجاد ليرى المركز العتيد الذى سيصل إليه ، وهو ليس مركزاً مغموراً أو مجهولا كمركزه الأرضى ، بل سيكون عموداً فى هيكل الله الأبدى ، . . أو عموداً خالداً فى المجد السماوى ، وقد كتبت عليه ثلاثة أسماء تكشف عن حقيقة الوجود الأبدى ومعنى الحياة أمام الله فى السماء ، فهو أولا مملوك الله إلى الأبد جملة وتفصيلا : « وأكتب عليه اسم إلهى » وهذه الملكية تعيد الإنسان إلى وضعه الصحيح حيث قصد الله أن يكون على صورة الله وشبهه قبل أن تلوثه الخطية ويحطمه الأثم ، ويحرمه من سعادة الحياة الصافية الكاملة المملوكة لله ! ! ... ولك أن تتصور بعد ذلك سعادة الإنسان الذى أندمجت حياته ومشيئته بالتمام فى حيـاة الله ومشيئته ، ولم نعـد هناك مشيئتان متعارضتان ! ! . . . وعندما تكون المشيئة بالتمام لله ، كم يكون الإنسان سعيداً غاية السعادة ممجداً غاية المجد ! ! . . والاسم الثانى هو المواطن الخالد الساكن فى أورشليم السماوية : « واسم مدينة الهى أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهى » . . . وإذا كان الإنسان لا يعرف باسمه فقط بل تضاف إليه الجنسية أو الرعوية ، فهو هنا من المسجلين فى سجل المدينة الخالدة ، مدينة الأحلام التى عاش الإنسان طوال عصور التاريخ كلها وهو

يحن إليها . وإذا كان الناس يفخرون بانتسابهم إلى الأوطان التى كانت عظيمة ومجيدة ، ولكنها هوت إلى الحضيض والرماد ، . . فإنه لن تبقى بعد سوى مدينة الله ، وقد سجل فيها أسماء الخالدين . وأما خارج المدينة فهناك « الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً » (رؤ ٢٢ : ١٥). وقد أضيف إلى المؤمن اسم ثالث : « واسمى الجديد » . . ومع أن المسيح لا يمكن أن يتغير ، وهو الإله القديم ، لكن الجدة هنا تشير إلى العمق الذى وصل إليه المؤمن فى حياته مع المسيح . العمق الذى لا يعرفه إلا بعد تمام الفداء للنفس والروح والجسد ، . . وهنا تبدو علاقتنا بالمسيح ، وقد دخلت إلى عمقها الأبدى ، وسعادتها العظيمة المجيدة الجديدة فيما وصلت إليه ، ولم تكن تدرى أن مثل هذا الينبوع الأبدى الطامى من الحياة يمكن الوصول إليه أو البلوغ إلى أبعاده العجيبة غير المنتهية ! ! . . .

كان ملاك كنيسة فيلادلفيا يعيش فى دنياه فى القاع فى كل شىء ، وإذا به يرتقى فى المسيح فوق الجميع ،ويرى نفسه فوق قمة الخلود حيث الحياة الحقيقية بأسمائها اللامعة ، داخل مدينة الله فى قصة الأبد ! ! . . وشكراً للفادى لأنى أنا وأنت هو ذلك الإنسان الذى له الوعد المبارك : « من يغلب فسأجعله عموداً فى هيكل إلهى ولا يعود يخرج إلى خارج وأكتب عليه اسم إلهى واسم مدينة إلهى أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهى واسمى الجديد . من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس » (رؤ ٣ : ١٢ و١٣) .

١٦٠
ملاك كنيسة لاودكية

« أنا عارف أعمالك أنك لست باردا ولا حارا.
ليتك كنت باردا أو حارا » (رؤ ٣ : ١٥)

إن قصة ملاك كنيسة لاودكية تذكرنا على الفور بالصورة الرائعة التى رسمها المصور المشهور. هولمن هانت،وهى صورة المسيح القارع على الباب، وهذه الصورة هى آية من آيات الفن العظيم ، إذ نرى السيد يقف على باب نمت الحشائش أمامه ، مما يدل على أنه لم يفتح من مدة طويلة ، والمسيح بصبره العجيب لا يرتد عن الباب ، وقد تنطق بمنطقته وأمسك باحدى يديه بمصباح ، إذكان الوقت ليلا ، وكان يقرع باليد الأخرى بلطف وصبر وحنان وحب ، . . ومن الواضح ، لأول وهلة ، فى الصورة ، أنه لا يوجد قفل ظاهر للباب لأنه يفتح ويغلق من الداخل فقط ، . . لسنا نعلم من هو ملاك هذه الكنيسة ، وإن كان ألكسندر هوايت يعتقد أنه أرخبس الذى وجه إليه بولس فى رسالة كولوسى القول : « ومتى قرئت عندكم هذه الرسالة

فاجعلوها تقرأ أيضاً فى كنيسة اللاودكيين أوالتى من لاودكية تقرأونها نتم أيضاً . وقولوا لأرخبس انظر إلى الخدمة التى قبلتها فى الرب لكى تتممها » (كو ٤ : ١٦ و ١٧) ومع أننا لا نملك الجزم بهذا الذى يتحدث عنه هوايت ، إلا أنه إذا صح كلامه ، فعنى ذلك أن المسيح وقف على باب هذا الملاك أكثر من ثلاثين عاماً ، وهو يطرق الباب لعله يسمح له بالدخول . وقد نفزع ونستهول هذا التصور ، ولكنها الحقيقة العجيبة التى يفعلها السيد معنا سواء كنا أفراداً أو كنائس على حد سواء ! ! .. . ومن الغريب مع هذا كله أن المسيح يستهض هذا الملاك الفاتر ملوحاً له بأعظم وعد يمكن أن أن يقدم للانسان ، وهو الوعد بالعرش إذا نهض وغلب . أليست قصته جديرة بأن نختم بها دراساتنا لشخصيات الكتاب المقدس ، ومن ثم يحسن أن نراه فيما يلى :

ملاك كنيسة لاودكية والحياة المخدوعة :

كان ملاك كنيسة لاودكية واحداً من أكبر المخدوعين على هذه الأرض ، وهو ضحية نفسه أكثر من أن يكون ضحية لخداع الآخرين له : « لأنك تقول إنى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شيء ، ولست تعلم أنك أنت الشقى والبئس وفقير وأعمى وعريان » (رؤ ٣ : ١٧) . . ولسنا نعلم لمن كان يقول هكذا ، . . أغلب الظن أنه كان يقوله لنفسه ولغيره من الناس ، فهو مقتنع فى قرارة نفسه بأنه على خيرحال ، وليس شيء أبدع مما هو عليه ، وهو لا يخفى هذه الصورة عن الذين يلتقى بهم أويتعامل معهم ، وأنت تحس نغمة الخيلاء والكبرياء والاكتفاء الذاتى التى تملؤه من هامة الرأس إلى أخمص القدم ، . والخداع مصيبة من أكبر المصائب التى لايكاد يفلت منها أحد من الغالبية العظمى من بنى الإنسان ، وهو يدرى أو لايدرى ، فهو أشبه بذلك الأمريكى الذى تعرف على شاب أجنبى ، وكانا يعملان فى

مصنع فى إحدى الشركات الأمريكية فى مدينة ديترويت ، وتباسطا معا فى الحديث ، وقال الأجنبي لزميله الأمريكى : هل يشعر بالفخر لأنه ولد فى مثل هذه البلاد الواسعة الغنية ، ولكنه دهش كثيراً حين أخذ الأمريكى يشكو له مر الشكوى من الأجور ، والنقابات ، والضرائب ، ورجال السياسة ، والحكومة على وجه عام . . ورد عليه الآخر قائلا : لماذا لاتفعلون كما نفعل نحن عندنا ، . . إننا نقوم بثورة تقذف بمن لا نريد ، ونبدأ حياتنا من جديد . . فرد الأمريكى عليه بغضب شديد ؛ إصغ إلىّ . . إذا لم تكن راضياً عن الطريقة التى ندير بها أمورنا فلماذا لا تعود من حيث أتيت ! !؟..

ومن الطرائف أيضاً ما قصه أحد الضباط ، وهو يعبر عن حبه لرئيسه الأميرال فى البحرية إذ قال : فى يوم من الأيام شاء سوء الحظ أنيلعب دوره البالغ مع أحد الضباط إذا ارتكب خطأ فادحاً ، فما كان من الأميرال إلا أن صرخ فى وجهه : أغرب عن وجهى . أنت مطرود من الخدمة ، . . ومن المؤسف أنى أنا أيضاً ارتكبت ذات الخطأ ، فما كان من الأميرال إلا أنه فعل ذات الشيء معى وقال أخرج أنت أيضاً . . أنت مطرود ! ! . . ولم تكد تمضى لحظة حتى دخل الأميرال علينا غرفتنا ، وهو يقول فى استياء ظاهر . . لقد طردت نفسى من الخدمة كذلك ! ! . . ومثل هذا الرئيس من النادرأن تجده بين الناس ، ليحكم على نفسه ذات الحكم الذى يحكم به على الآخرين وهو يذكرنا برئيس آخر دخل إليه أحد الموظفين بادى الألم ، مجروح القلب ، لأن ابنه رسب فى الامتحان ، وإذ أبلغ النبأ لرئيسه إنهال عليه بالتقريع . وهو يؤكد له أن هذا الرسوب ليس إلا نتيجة لسوء التربية وإهمال البيت وعدم أخذ الأولاد بالشدة ، . . وفى اللحظة نفسها وصلت برقية ، تقول إن ابنه هو أيضاً رسب فى الامتحان ! ! . . فما كان منه إلا أن قال : إن الولد صغير — أى ابنه — ويمكن أن ينجح فى السنة التالية ، . . أليس

هذا ما ينطبق عليه قول السيد : « ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها » (مت ٧ : ٣) ... أجل ! ! وهل عرفت المثل القائل الناس أربعة : رجل يجهل ، ويجهل أنه يجهل ، ذلك دعىٌّ اتركه ، . . ورجل يجهل ويعلم أنه يجهل ، ذلك بسيط علمه ! !... ورجل يعلم ويجهل أنه يعلم ذلك نائم أيقظه ، . . ورجل يعلم ويعلم أنه يعلم ، ذلك معلم اتبعه ، . . . والبادى من المثل أن هناك أشياء فى الغالبية المطلقة من الناس تجعلها تتنكر للحقيقة ، ولا ترغب فى الاعتراف بها ، . . وقيل إن سقراط وهو يجادل أحدهم ، قال له أنا أعلم منك ، وقال له الآخر : وكيف تقول هكذا ! ! ؟ . . فأجاب : لأنى جاهل وأدركت جهلى ، لكنك أنت لم تدرك جهلك بعد ! ! . . كان هذا الأخير من النوع الذى وصف به ملاك كنيسة لاودكية ، الذى كان مفتوناً بنفسه ، وهو أشبه الكل بالسكير الذى يترنح بسكره ، وهو يقول : « أنا جدع » أو ما أشبه من عبارات الهزيان والحماقة ، ويكفى أنه كان على أسوأ حال ، ومع ذلك يهنىء نفسه : « إنى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شىء » . .

كانت مدينة لاودكية تقع على مقربة من كولوسى ، بين كولوسى وفيلادلفيا ، وقد دمرها زلزال عام ٦٢ م . لكنها كانت مدينة غنية ، بها مدارس طب ، واشتهرت بالتجارة فى الصوف الجيد ، وقد أبت عليها كبرياؤها أن تطلب معونة من أحد أثر الزلزال المذكور ، وأعادت بناء نفسها ، . . ويبدو أن ملاك الكنيسة كانت ثروته المادية كبيرة ، وعلى نفس المستوى من الكبرياء التى كانت لمدينته ، وهو مكتف بالذات ، ويرفض أن يعترف بحاجته إلى شىء ، . . . وهو فى نظر السيد على أسوأ صورة يمكن أن يكون عليها الإنسان ! ! . . . فهو ليس ثقيل الظل سمج التصرف فحسب ، بل هو أكثر من ذلك كثيراً ، إذ أنه ثقيل على قلب المسيح : « أنا مزمع أن

أتقيأك من فمى » (رؤ ٣ : ١٦).. أيها الفاتر فى كنيسة اليوم ، هذا هو شعور المسيح بالتمام من نحوك ! ! . . . . وما أكثر الملايين ممن ينتسبون إلى المسيح ، ويعدون أعضاء فى الكنائس ، ولا يسمعون سوى هذه العبارة من السيد ، . . ومن المؤلم أن بلادة الحس تتملكهم جميعاً ، وهذا هو معنى الفتور ، . . ومن الغريب أن السيد المسيح يقول : « ليتك كنت بارداً أو حاراً » . . . وإذا كان الحار الملتهب فى حياته الروحية ، أمره معروف ومنتظر ومقبول ، إذ أنه غيور فى كل شئ ، على مجد سيده ، إلا أن المعنى يبدو غريباً فى تفضيل البارد على الفاتر ! ! . . . ولكن الأمر مع ذلك ليس بغريب ، إذ أن الأمل فى البارد أفضل بما لا يقاس من الأمل فى الفاتر ، . . فالبارد هو ذلك الإنسان الواضح فى بعده عن الإيمان المسيحى ، كالزانى والفاسق والقاتل والعشار ، .. ومثل هذا الإنسان إذا تاب ونهض ، يمكنه أن يصعد إلى قمة الحياة الروحية ، على عكس الفاتر ، الذى تبلد حسه ، وتشكل على الوضع الذى نراه فى الغالبية ممن ينتسبون إلى المسيحية ، والذين هم العقبة الكؤود أمامها فى طريق الوصول إلى القوة والانتصار ، . . وقد يعد الفاتر نفسه مسيحياً ، وقد يأخذ طريقه إلى أول الصفوف فى الكنيسة ، ولكن المسيح . مع ذلك ، بالنسبة له خارج الباب ، ولم يدخل بعد ، . . . هل أتاك حديث ذلك الزنجى الأمريكى الذى طرق كنيسة للبيض ، فى الولايات المتحدة ، وطلب الانضمام إلى عضويتها ، . . ووقف الراعى محرجاً ، لأنه إذا قبله ، فإن الكنيسة كلها ستثور ضده ، وإذا رفضه ، فإنه لايوجد سبب صحيح يدعو إلى ذلك إذ كان الزنجى مسيحياً مؤمناً ، وطلب الراعى من الزنجى أن يصلى ، وبعد ذلك يتقابلان ! ! . . . وأدرك الزنجى معنى الجواب ، فخرج . وبعد شهور التقى بالراعى صدفة فى الطريق ، . . وقال له الراعى : إنك لم تعد ! ! . . فأجاب : لقد صليت وأعطانى المسيح الجواب . فقال له : ماذا قال لك ! !؟..

فأجاب : قال لى لا تأسف فأنا ما أزال على باب هذه الكنيسة واقفاً منذ عشرة أعوام ، ولم يسمح لى أحد بالدخول ! ! . . . إن الرجل الفاتر هو الذى يأتى إلى الكنيسة مرة كل أسبوع أو كل بضعة أسابيع ، والعبادة عنده لا تزيد عن كلمات أو صلوات أو ترانيم تلوكها الشفاه ، وهو يستمع نائماً أو شبه نائم أو لمجرد التأثر الوقتى الذى ينتهى فى الحال ، . . هو رجل ما يزال المسيح واقفاً على باب كنيسته أو باب قلبه ! ! . . . وهو مسيحى اسماً لا حقيقة ، . والمسيحى الفاتر هو الذى لا ينتظر أن تكلفه المسيحية شيئاً أو تضحية مهما كان نوعها ، وهو يتصور أنه أعطى لمجرد أنه ألقى ببعض المال فى صندوق العطاء ، وهو الذى يقف متفرجاً على جهد الآخرين دون أن يحس بأنه ملزم بجهد مماثل ، وأن هذه هى رسالته فى الحياة ، . . . وهو لايكاد يرى مسئوليته فى نشر كلمة الله وهداية النفوس الضالة وربحها للمسيح ! ! ... وقد انعكس هذا كله فى ما وصفه المسيح به من أوصاف : « ولست تعلم أنك أنت الشقى والبئس وفقير وأعمى وعريان » . . وأى تعاسة أقسى وأشد من هذه الأوصاف المرعبة ، وهل هناك شقاء أرهب من شقاء الحياة التى تحاول عن طريق متاع الدنيا ، أن تصل إلى سعادتها الحاضرة أو العتيدة ، دون جدوى ، وهل هناك بؤس أكثر من بؤس الإنسان الذى يترك المسيح خارج حياته دون أن يجعله سيداً ورئيساً على هذه الحياة ! ! . . هل قرأت البؤساء أعظم ما كتب فيكتور هوجو ، وهو يصور المعذبين فى فى الأرض ؟ ! ! . . . . إن هذا الكتاب على عظمته فى تصوير البؤس والبؤساء لا يساوى شيئاً بجانب تصوير دانتى ، فى كتاب الكوميديا الإلهية ، للجحيم حيث يتلظى البؤساء المعذبون فيه بالهلاك الأبدى الذى لا ينتهى . اقرأ هناك عن الذين عاشوا على الأرض ملوكاً أو رؤساء أو رجال دين أو أنبياء كذبة ، وعن بؤسهم العميق وصرخاتهم الرهيبة التى لا تنتهى ، وذلك لأنهم

عاشوا على الأرض وهم يزعمون أنهم سادة البشر والمتمتعون فيها بكل شيء ، حتى وصلوا إلى ماقاله نابليون في سانت هيلانه عن الفرق بينه وبين المسيح : « لقد شاد قيصر والإسكندر وشرلمان وأنا امبراطوريات عظيمة ولكن علام كانت عبقرياتنا جميعاً تعتمد ! !؟ على القوة ..أما يسوع فقد شاد امبراطوريته العظيمة على المحبة وإلى هذا اليوم يموت الملايين من أجله ! ! وأية هوة واسعة بين بؤسى العميق وحكمه الخالد ، الحكم الذى يكرز به ويجد الحب والتمجيد والانتشار فى الأرض كلها » . . . فإذا أضفنا إلى هذا أنه عندما يكون المسيح خارج حياة الإنسان ، فالإنسان ليس فقيراً فحسب ، بل هو الفقر بعينه « لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » ؟ . . (مت ١٦ : ٢٦) ..لم يكن ملاك كنيسة لاودكية غنياً بما يملك من متاع الدنيا ، وهو يغبط نفسه ، بل كان المسكين الحقيقى والفقير فقراً مدقعاً ! ! . . . وهو إلى جانب هذا كله أعمى إذ طمست الخطية والضلال كل شيء أمام عينيه ، . . وما أكثر ما غرقت كنائس فى الظلمة العميقة والليل البهيم لأن قادتها كانوا هم أيضاً غارقين فى العمى والظلام ! ! . . . والكل يقود الى خزى ما بعده خزى وعار ما بعده عار : « وعريان » . . .

ملاك كنيسة لاودكية والمسيح الطارق :

يقول السيد المسيح لهذا الملاك : « ها أنذا واقف على الباب وأقرع إن سمع أحد صوتى وفتح » (رؤ ٣ : ٢٠) وأى شيء يدعو إلى العجب مثل هذا الموقف . . من هو هذا الملاك ، ومن هو الواقف ، . . من أنا ومن أنت حتى يقف المسيح على باب كل واحد منا ، ذاك الذى وهو سيد الكل ، يقف بصبر عجيب ، وقد تطول وقفته سنوات طويلة حتى نفتح ونسمح له بالدخول . . وإنه ليربكنى ويحيرنى تماماً التعبير « واقف » وعند الباب ، دون كلل أو ملل ، . . هل فكرت النفس البشرية فى هذه الصورة

المذهلة العجيبة ؟ ! . . فما أرقه وما أعظمه ، وهو لا يقبل أن يقتحم البيت اقتحاماً ، وهذا فى قدرته الكاملة ، ولكنه يستأذن فى الدخول إلى كل واحد منا ، . . وهل تأملته وهو يطرق الباب : « وأقرع » . . وهل سألت كيف يطرق ويقرع ، والقرع أشكال مختلفة ، فهناك القرع الهادئ ، وهناك القرع المرتفع العنيف ، وهناك القرع المتلاحق السريع ، وهناك الوادع البسيط ، وهو يقرع عن طريق إثارة الأشواق الحلوة إليه ، . . . هل جاءك نبأ فيلكس ماندلسون عندما ذهب ذات يوم إلى كاتدرائية فريبورج ودخل الكاتدرائية وقابل الرجل العجوز المنوط به الاشراف على المكان واستأذنه فى اللعب على الأورج ، ولكن الرجل رفض ، وقال لايمكن أن يصرح لغريب أن يلعب على الأرغن العظيم ، وتوسل ما ندلسون ورجا الشيخ بحرارة أن يجلس لحظة قصيرة إلى الأورج ، وسمح الرجل ، ولعب ماندلسون ، وامتلأت أجواء الكاتدرائية بأحلى موسيقى ، فطرب الشيخ للأنغام الحلوة التى لم يسمع نظيرها فى حياته ، وصرخ بدموع : من أنت ! ! . . وما أن سمع أنه ما ندلسون حتى ذهل وقال : يا إلهى ! ! . . أنت ماندلسون وقد كدت أمنعك من الجلوس إلى الأورج ! ! . . . . ومن هو ماندلسون بالنسبة ليسوع المسيح ، وما هى أنغامه بالنسبة للأنغام الأبدية الحلوة التى يصدح بها المسيح وقد جعل نفوسنا هيكلا ، وكاتدرائية عظيمة لله ! ! . . . إنه يأتى إلينا بالقرعات الحلوة المشوقة المحببة إلى نفوسنا ، وكثيراً ما تستجيب النفس المتبرمة من ضيق العالم لموسيقاه الحلوة الطروب ! ! . . . وقد يأتى إلى القلب بالرقة البالغة . . كانت ماى هافيلاند سيدة غنية من « الكويكرز » (الأصدقاء) الذين لا يؤمنون باستخدام العنف بأية صورة من الصور ، وقد عادت إلى بيتها فى ليلة من الليالى لتجد لصا يعبث بصندوق مجوهراتها ، وعندما أحس بها اللص ، صوب بندقيته نحوها ، فلم يبد عليها

أى انزعاج بل قالت : ضع بندقيتك جانباً ، إنها شيء لا أحبه ، وأعدك بأن لا أدعو الشرطة بعد ذهابك ، أنا غنية وعندى مجوهرات أكثر مما أستعمل ، خذ ما تشاء واذهب ، . . ووقف اللص مبهوتاً ، وقد فغرفاه وتدلى فكه الأسفل ، إذ لم يسبق أن رحب به أحد هكذا ، . . وقف قليلا ثم ركض إلى الخارج دون أن يأخذ شيئاً ، وبعد أيام وجدت السيدة فى صندوق بريدها مكتوباً يقول : « سيدتى لم أعرف طوال حياتى إلا الكراهية والخوف ، وأنا أستطيع أن أتعامل معهما ، ولكنى كنت عاجزاً أمام شفقتك » . . . . وما أكثر ما أوقفنا المسيح برقته البالغة نحن أبناء الشر والحقد والخوف والخطية ، وهو يطرق على باب قلوبنا بهذه الصورة العجيبة ، . . وقد ينادينا بطريق أخرى طريق الذكريات الحلوة ، وهو يقرع على باب قلوبنا . . وقف سترلنج مورسون مع أولاده على قبر أمهم حيث كتبت هذه الكلمات : «كلوديا زوجة سترلنج مورسون وأم جويا وبول ومارك ». . وقال إنه سيشطب اسم من يعمل عملا يخجل أمهم ، وشكراً لله لقد بقيت الأسماء دون أن يشطب واحد منها . . . على أن السيد قد يطرق بصورة أخرى تختلف تماماً عن الصور السابقة ، وهو غالباً لا يفعل ذلك ، إلا إذا اضطر ، ولم ينفع الصوت المنخفض الخفيف ، . . . عند ئذ يصل إلى الطرق العنيف : « إنى كل من أحبه أوبخه وأؤدبه » . . . ألم يكن هذا هو أسلوبه مع منسى الملك القديم : « وكلم الرب منسى وشعبه فلم يصغوا . فجلب الرب عليهم رؤساء الجند الذين لملك أشور فأخذوا منسى بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل . ولما تضايق طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً أمام إله آبائه وصلى إليه فاستجاب له وسمع تضرعه ورده إلى أورشليم إلى مملكته فعلم منسى أن الرب هو الله » (٢ أ ى ٣٣ : ١٠ — ١٣) . . . وأليس هذا ما حدث مع اللص التائب ، الذى كان الصوت الأخير ، صوت الألم ، هو الصوت الذى

فتح به الله قلبه له للسماء ! ! . . . على أية حال لابد من أن يأتى صوت إلى كل إنسان ، بل قرعات متعددة على كل قلب ، . .. ولا يستطيع أحد أن يدعى بأن الله لم يتكلم إليه فى هذه الأرض لأن الصوت لابد أن يواجه كل فرد صغر أم كبر ، ضؤل شأنه أم كان عظيماً، يستوى فى ذلك الملك والصعلوك ، ومن ثم نسمع القول : « إن سمع أحد » .. والمسيح هنا كما أشرنا آنفاً لايقتحم القلب اقتحاماً أو يستولى عليه عنوة، إنه على الدوام يحترم الإرادة البشرية ، ويعطيها أن تلعب دورها كاملا فى كل شيء ، ...وهو لهذا يصبر امرت كثيرة سنوات عديدة ، حتى يفتح الباب بالحرية الصحيحة المطلوبة من الإنسان ! !... لكن السؤال مع ذلك يبقى قائماً ، ولماذا لا يسمع الإنسان حتى يأتى التعبير « إن سمع أحد صوتى » ؟ ، . . قد يكون السبب أن أصواتاً أخرى تملأ سمع الإنسان ، وهو أعجز لذلك من أن يستمع إلى صوت السيد ،. وهناك ظاهرة يمكن اختبارها إذ لو أن عدداً من الناس تجمعوا معاً وقالوا بصوت واحد مرتفع جملة واحدة ، وطلبوا إلى مستمع مهما كان قريباً أن يعرف ما هى هذه الجملة ، فانه غالباً ما يعجز عن فهمها ، لأن تشويش الأصوات يمنع الأذن من أن تتعرف على الحقيقة ، وعندما يصب العالم والجسد والخطية أصواتها فى أذاننا ، فإنه لا يسهل بتاتاً أن نستمع إلى طرق المسيح وقرعه على الباب ، . . . وقد يرجع الأمر إلى الايغال فى البعد ، فأنت لا تسمع رنين التليفون إذا كنت بعيداً عنه أكثر من اللازم ، أو لايسهل عليك فى مخاطبة الجماهير دون مكبر للصوت حتى تصل إلى البعيد منهم، ونحن مرات كثيره يأخذنا تيار الحياة بعيداً عن صوته ، وهو كلما يقترب ليبلغ قلبنا ، نسرع بالركض بعيداً بعيداً حتى لا يصل إلينا ، . . . وقد تثقل أذاننا تحت هموم وخمور هذه الحياة ، فنكون كالسكير أو النائم الذى لا تهزه الزوبعة أو العاصفة ، وقد تثقل يونان بالنوم العميق وهو فى قلب السفينة رغم

الكارثة المحيطة به ، عندما شق طريقه بعيداً عن الله ، واستولى عليه اليأس ، واستبدت به نزعة الهروب من إلهه ! ! . . .

ومهما كانت الأسباب ، أو تعددت أو تنوعت ، فاننا أمام سيد يقف بصبر عجيب أمام باب الكنيسة . أو البيت ، أو القلب ، ويقرع لعلنا نسمع ونفتح له ! ! . . .

ملاك كنيسة لاودكية والنصيحة الصادقة :

ما أرق المسيح وهو يقول لهذا الملاك « أشير عليك » وهى المشورة الإلهية الذهبية التى لا تعادلها كنوز الأرض كلها ، ولعله من اللازم أولاأن ندرك أن هذه المشورة هى ممن يملك إصدارها إذ هو : « الآمين الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله »... والكلمة « الآمين» وقد جاءت فى إشعياء بمعنى الحق فى القول : « إله الحق » (إش٦٥ : ١٦) وهى فى الأصل«إله الآمين »... أى أن نصيحة المسيح وحدها هى النصيحة الحق التى يلزم الأخذ بها ، وعبارة « بداءة خليقة » الله تعنى أصل خليقة الله ؛ أو فى عبارة أخرى : إن المسيح وحده يعطى النصيحة الحقة باعتباره أصل كل الخلائق وملاحظها والشاهد لكل ما يحدث معها ، والصادق الكامل فى صدقه وهو يحضنا النصيحة ! ! وكم يمتلئ القلب بالعرفان والشكر لأنه لا يريد أن يكرهنا على المشورة والنصيحة . بل يؤكد أنها نصيحة محبته العظيمة والعجيبة ، وهو يشير بنصيحة مزدوجة الأولى بالاقتناء ، والثانية بالاستعمال ، أما ما يقتنى فهو الذهب المصفى بالنار والثياب البيضاء ، . . وهو يقصد أن ينبه ملاك الكنيسة ، إلى أنه يشغل نفسه بذهب العالم ومتاع الدنيا مما استحوذ على كيانه وشخصه ، وهذا الذهب مخلوط بالشوائب التى تجعله بغير قيمة حقيقية ، وهو لا ينفع فى كثير من الحالات ، أو بتعبير أدق لا يستطيع الإنسان أن يقتنى به الخير والسلام والشبع والسعادة ، لكن السيد يطلب منه أن يستبدل هذه الثروة الكاذبة بثروة

أخرى حقيقية ، وهذا الكنز الفانى بكنز آخر خالد ، والمسيح لا يمكن أن يفقر أحداً ، بل يعطى الثروة الصحيحة الحقيقية لمن يرغب فى الوصول إليها واقتنائها ، ولا يمكن أن تشترى بمال أرضى ، ولو بكل الكنوز التى على ظهر الأرض أو فى بطنها ،. . وهو يشفق على ملاك كنيسة لاودكية لأنه مع ذهبه هو أفقر الفقراء ، . ومع الصوف الذى كانت تشتهر به لاودكية ، ولعله كان يقتنى أفخر الثياب منها ، إلا أنه فى الحقيقة كان عارياً من كل ثوب ، يحمل خزى عورته ، . . وهو فى حاجة إلى اقتناء ثوب البر ، والعملة الوحيدة التى نشترى بها الذهب المصفى والثياب البيضاء هى الإيمان ، وهى عملة سماوية يقبلها الله ويرضى بها ، وهى تؤخذ مجاناً بالقلب المفتوح للسيد ، وبقبول المسيح فيه ! ! . . . . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، سيدرك الإنسان الحقيقة الناصعة ، وستكون له العين الكحيلة إذا جاز هذا التعبير ، . .والكحل لا يشترى كالأمرين السابقين ، بل يستخدم : « وكحل عينيك بكحل لكى تبصر » . . . وكان اللاودكيون مشهورين باستعمال الكحل فى العيون ، والمسيح مستعد أن يعطى لتابعه وتلميذه وخادمه الاستنارة الحقيقية الداخلية التى تبصر كل شىء ، وترى الأمور بكامل الوضوح أمامها ، . . قيل عن شاب اسمه رسل كيردل ، إنه قد فقد بصره ، لفترة غير قصيرة ثم أجريت له عملية ، أبصر بعدها ، وقد كتب يصف عودته إلى البيت بعد أن أبصر فقال : كان كل شئ يبدو جميلا ، لم يكن شئ أمامى قبيحاً ، وفوق الكل جمال الناس ، كان بعض الأولاد يلعبون فى الطريق . مرت بنا سيدة عجوز . لم أشعر بانفعال كبير لأنى لم أعد أعمى ، لأنى كنت مشغولا بالجمال الذى يحيط بى . أسرعت إلى بيتى ، وإلى غرفتى ، ودفنت رأسى فى وسادتى ، لا لأنى لم أكن بعد أعمى ، ولا لأنى الآن أبصر لكن لأنى لم أستطع أن

«أهضم» الكمية الهائلة من الجمال . . وبكيت ! ! . . . ترى ماذا يبصر الإنسان عندما يفتح الله عينيه بعد أن كان أعمى ، . . إنه يبصر الكثير . . إنه يبصر أن الخطية عمى ، ويبصر كل شيء وهو يشع بالنور الذى يعلن مجد الله ، فى الطبيعة ، والشمس ، والزهور ، والطيور ، ويبصر لا مجرد الخليقة بل يد الله الذى خلقها ، ويبصر لا مجرد النور ، بل رب النور يسوع المسيح ، ويبصر أن الله بالإيمان قد أعطاه أعظم من البصر الجسدى، ويبصر صلاح الله الذى لا ينتهى فى كل شيء ! ! . . . إن أجمل بركة يعطيها الله للانسان هى أن يعطى البصيرة الروحية التى تشق أمامه الطريق فى كل شيء ! ! . . قال كولردج : « لم أكن أدرك لمدة طويلة أنى بئس وفقير وأعمى وعريان ، وبعد أن عرفت ذلك لم أحسه الاحساس الكامل، ولكن شكراً لله لأنى قد بدأت أحس به كما ينبغى الآن ! ! . . يا كبريائى ، أبعدى عنى ، ودعينى أرى هذا الشكل البشع الذى هو نفسى ، . . أجل ! ! لقد خدعتنى أقوال الفلاسفة والشعراء وكبرياء قلبى إذ قالوا إنك قوى ، لكن الكتاب وفشلى يعلنان العكس ، إن ديانة يسوع المسيح تغير فكر الناس عن أنفسهم كما تغير حياتهم وطبائعهم ! . . . » .

ملاك كنيسة لاودكية والعرش الموعود :

ولعل من العجب العجاب أن يتحدث السيد إلى أضعف ملاك بين الملائكة السبع ، عن العرش الموعود به للغالبين ، ولكنها القصة البشرية الصحيحة التى بدأت بالفردوس الضائع لتعود إلى الفردوس المردود ، وهى قصة التاريخ الحقيقى لبنى الإنسان عندما أخذهم الله من مستنقع الخطية إلى قمة المجد ! ! . . . وهى لغة الرجاء للخطاة ، الذين أوغلت بهم الخطية فى دروبها وكورتها البعيدة جداً عن بيت الآب ، وفتح المسيح أمامهم باب الانتصار للدخول إلى العرش فى السماء ، . . وهى العودة الصحيحة للانسان

الذى خلق على صورة الله وشبهه ، وكان فى ترتيبه الأزلى أن يعطيه مركز البنوة ، ولكن الشيطان خدعه ، وجربه بأن يأخذ الأمر اقتحاماً ، فهوى وسقط ، حتى أعاده الله إلى مركزه الصحيح فى المسيح وصليبه وكفارته وحبه واحسانه وجوده ، . . وهذا العرش لا يعطى إلا لمن يفوز فى الجهاد الصحيح القانونى أمام الله ! ! . . . « إذ لا يكلل (أحد) إن لم يجاهد قانونياً » (٢ تى ٢ : ٥) ! ! . . .

وفى الحقيقة ما أجمل أن يصل الإنسان الغالب إلى هذا العرش السماوى بعد أن تنتهى قصة المعاناة الأرضية من كل جانب ، جاء فى كتاب « إنسان يدعى بطرس » للسيدة كاترين مارشال زوجة الواعظ العظيم بطرس مارشال « لا يزال المنظر منقوشاً على ذهنى . كان بطرس ممدداً على النقالة . حين وضعه اثنان من رجال الإسعاف استعداداً لنقله إلى العربة ، رفع بطرس عينيه نحوى وابتسم فى آلامه ابتسامة حلوة ، وقد فاضت عيناه برقة ، وانحنيت نحوه وقلت ياعزيزى سأراك فى الصباح . . ووقفت ألقى النظرة إلى الأفق البعيد الممتد ، وأخذت أتأمل ، وقد أدركت أن هذه الكلمات ستظل تتردد فى قلبى طوال السنين الآتية : سأراك فى الصباح ياعزيزى . . سأراك فى الصباح ! ! . . أجل مجداً لله لأجل الصباح الأبدى فى عرشه العظيم فى السماء ! ! . . آمين فآمين ! ! . . . .



دراسة فريدة ومتعمقة لمائة وستين رجلاً من رجال الكتاب المقدس . تقدمها للقارىء العربي بقلم كاتب عرف بدقة البحث وبأسلوبه المشوق الجذاب

وهذا الجزء الأخير يشمل دراسة أربعين رجلاً من رجال العهد الجديد